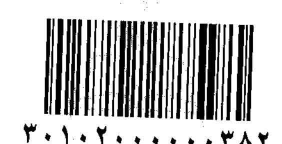
بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية

بلاد الشام قبل الغزو الصليبي

٤٦٣ - ٤٩١ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٩٨ م

رسالة مقدمة
لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد المعيد علي محمد علي الغامدي

بإشراف الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

١٤٠١ / ١٤٠٢ هـ
١٩٨١ / ١٩٨٢ م


بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ

سورة الحاقة، آية ١٢

محتويات الرسالة

الموضوع	رقم الصفحة

المقدمة : دراسة نقدية لاهم مصادر البحث ١ - ٢٨

الفصل الاول

بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي ٢٩ - ٩٣

- ضعف النفوذ الفاطمي وتفرق القبائل العربية وتمزقها في بلاد الشام .
- اعتداءات جيوش الدولة البيزنطية على مدن شمال الشام .
- غارات الاتراك الغز (التركمان) على بلاد الشام .

الفصل الثاني ٩٤ - ١٩٣

الغزو السلجوقي لبلاد الشام منذ سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م

- دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام .
- خضوع المرداسيين في حلب للسلطان ألب أرسلان ٤٦٢ - ٤٦٣ هـ .
- اغارة اتسز على جنوب الشام ٤٦٣ - ٤٧١ هـ .
- فتوحات تتش في بلاد الشام .
- بلاد الشام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام .
- السلطان ملكشاه في بلاد الشام ٤٧٩ هـ .
- النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه ٤٨٠ - ٤٨٥ هـ .
- موت ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ونتائجه على الغزو السلجوقي لبلاد الشام .

الفصل الثالث ١٩٤ - ٢٦٨

الامارات العربية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي

- امارة بني مرداس في حلب ٤١٥-٤٧٢هـ/ ١٠٢٤-١٠٧٩م
- امارة مسلم بن قريش العقيلي في الجزيرة وشمال الشام ٤٥٣ - ٤٧٨ هـ / ١٠٦١ - ١٠٨٥ م .

رقم الصفحة

- امارة بنى منقذ فى شيزر ٤٧٤ - ٤٩١ هـ/ ١٠٨١ - ١٠٩٧ م •
- امارة بنى عمار فى طرابلس ٤٦٢-٤٩١هـ/ ١٠٧٠ - ١٠٩٧ م •
- امارة ابن ابى عقيل فى صور ٤٥٥ - ٤٨٢ هـ /١٠٦٣- ١٠٨٩ م •
- امارة خلف بن ملاعب فى حمص وافامية ٤٦٦ - ٤٩١هـ/ ١٠٧٣ - ١٠٩٧م •

الفصل الرابع

تنازع القوى فى بلاد الشام حتى وصول الصليبيين الى انطاكية ٤٨٨-٤٩١هـ/ ١٠٩٥ - ١٠٩٧ م • ٢٦٩ - ٣٢٦

- أثر سياسة الاخوين رضوان ودقاق ابنى تتش فى انهيار النفوذ السلجوقى •
- تنازع القادة العسكريين السلاجقة فى بلاد الشام ونتائجه ٤٨٨ - ٤٩١ هـ •
- انهيار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام •
- دور الاقليات الدينية والعرقية فى انقسام وتمزق بلاد الشام •
- وصول الصليبيين الى أسوار انطاكية ٤٩٠ - ٤٩١ هـ •

* الخاتمة ٣٢٧ - ٣٣٤
* الملاحق : ٣٣٥ - ٣٥٦

- الملحق الاول : ترجمة انوشتكين الدزبرى (٤١٤ -٤٣٣هـ)
- الملحق الثانى : الحروب بين قبائل كلاب وكلب وطى على لسان ثمال المرداسى •
- الملحق الثالث: حوادث بلاد الشام سنة ٤٥١ هـ •

رقم الصفحـــة

- الملحق الرابع : دوافع الغزو السلجوقى لبلاد الشام .
- الملحق الخامس: مسير تتش الى الشام سنة ٤٧١ هـ.
- الملحق السادس: حملة ملكشاه الى ديار بكر سنة ٤٧٧ هـ.
- الملحق السابع : ترجمة تتش بن ألب أرســـــلان .
- الملحق الثامن : وصول الصليبيين الى أنطاكيـــة .

* المصــادر والمراجـــــــــع ٣٥٧ - ٣٧٥

—•—

المقدمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحــث

يعتبر كتاب (مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان)(١) من أهم المصادر التى اعتمد عليها البحث . ومؤلفه أبوالمظفر يوسف بن قزاوغلى الملقب بسبط ابن الجوزى ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م . ولد سبط ابن الجوزى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م فى بغداد ، ونشأ فى كنف جده لأمه المؤرخ ابى الفرج بن الجوزى مؤلف كتاب (المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم) . وبعد وفاة ابن الجوزى فى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ هـ رحل حفيده أبوالمظفر الى الموصل فى طلب العلم ، ثم غادرها الى دمشق وهو ابن نيف وعشرين سنة . وظل يجد فى طلب العلم حتى أصبح "اماما عالما ،فقيها واعظا ، وحيدا فى الوعظ ،علامة فى التاريخ والسير "(٢) .

وكتاب مرآة الزمان من أشهر مؤلفات سبط ابن الجوزى ، قال عنه أبوالمحاسن ابن تغرى بردى ، انه " فى غاية التحرير والنقل عن الثقات، ومن أرخ بعده فقد تطفل عليه واغترف من بحره واحتاج ، ولاسيما الذهبى والصفدى فان معولهما فى تاريخيهما على تاريخه "(٣) .

وأشار ابن تغرى بردى الى أن مرآة الزمان كان مصدره الاساسي لكتابه (النجوم الزاهرة) فقال " ونقلت عنه فى هذا الكتاب معظم حوادثه "(٤) .

---

(١) توجد نسخة كاملة مخطوطة من مرآة الزمان فى مكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٢٩٠٧ ، وهى التى اعتمد عليها البحث .

(٢) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ،جـ ٨ ورقة ٤٤٢ أ.

(٣) نفس المصدر والجزء والورقة .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ،جـ ٧ ص ٣٩.

واتبع سبط ابن الجوزى فى كتابه طريقة الحوليات . وتتفاوت قيمته التاريخية من عصر الى عصر ، ففى أقسامه الاولى حتى القرن الرابع الهجرى ، تقل أهمية كتاب مرآة الزمان نظرا لان سبط ابن الجوزى نقل عن مصادر معروفة ، ثم يعود الكتاب ويكتسى أهمية بالغة ، فريدة فى نوعها ، فى بعض أخبار القرن الرابع ومعظم القرن الخامس ، لكونه ينقل عن مصادر مفقودة ومعاصرة لهذين القرنين ، وفى حوادث القرن السادس ، تبدأ قيمة الكتاب فى التضاؤل لتوفر المصادر التى نقل عنها (١) .

وقد اعتمد البحث على الجزئين الثانى عشر والثالث عشر من كتاب مرآة الزمان . وتعود أهمية هذين الجزئين لدراسة تاريخ بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجرى الى أن سبط ابن الجوزى نقل عن مصادر معاصرة مفقودة ، أهمها كتاب (عيون التاريخ) لمؤرخ معاصر هو غرس النعمة محمد بن هلال الصابى المتوفى سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م . وقد كتب غرس النعمة كتابه عيون التواريخ ، بدأه بحوادث سنة ٤٤٨ هـ الى سنة ٤٧٩ هـ ، ليكون ذيلا لتاريخ والده هلال الصابى ، الذى يحتوى على حوادث سنوات ٣٦٧ - ٤٤٨ هـ . ومن المعروف ان هلال الصابى كتب كتابه ليكون ذيلا على تاريخ ثابت بن سنان ، الذى ذيل به على تاريخ الطبرى (٢) . وكتاب هلال الصابى مفقود ، ولم يعثر الا على جزء واحد منه هو الثامن من أربعين جزءا فيه أخبار خمس سنوات (٣٨٩ - ٣٩٣ هـ) (٣) . ويعتبر هذا الكتاب ذا أهمية بالغة لتاريخ بلاد الشام فى القرن الرابع الهجرى ، ويتضح ذلك مما نقله سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان عن هلال الصابى ، أثناء حديثه عن النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ،

---

(١) انظر شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، جـ ٢ ص ٢٦١ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٨ أ - ب ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢٦ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٣) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ١٠٠ .

ودور القبائل العربية في تاريخ بلاد الشام في العهد الفاطمي (١). وما نقله سبط ابن الجوزي عن تاريخ غرس النعمة أفاد البحث كثيرا ، خصوصا فيما يتعلق بغارات التركمان على بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي . ذلك أن غرس النعمة هو المؤرخ الوحيد الذي أشار الى غارات التركمان الناوكية على جنوب الشام (٢) . ونقل سبط ابن الجوزي عن غرس النعمة معلومات هامة عن علاقة الامارة المرداسية بالخلافة الفاطمية ، فضلا عن روح العصبية القبلية بين قبيلتي كلب وكلاب (٣) . كما نقل سبط ابن الجوزي عن غرس النعمة معلومات في غاية الاهمية عن حملة ألب أرسلان على بلاد الشام سنة ٤٦٢ - ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٧١ م ومعركة ملازكرد التي جرت بين السلاجقة والبيزنطيين سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م . واحتوى كتاب مرآة الزمان أيضا على معلومات تاريخية هامة لموضوع الرسالة ، نقلها سبط ابن الجوزي عن تاريخ غرس النعمة ، ألقت الضوء على سنوات حكم اتسز بن اوق الخوارزمي في جنوب الشام فيما بين سنتي ٤٦٣ - ٤٧١ هـ ، والغزو السلجوقي لبلاد الشام ، ورحلة السلطان ملكشاه الى بلاد الشام (٤) . كما أفاد البحث مما نقله سبط ابن الجوزي عن غرس النعمة عند دراسة امارة مسلم بن قريش وعلاقته بالسلاجقة والفاطميين وامارة فيلاريتوس في أنطاكية ، وقيام امارة بني منقذ في شيزر (٥) .

---

(١) انظر مايلي ص ٦٩ - ٧٠ .
(٢) انظر مايلي ص ٩١ - ٩٢
(٣) انظر مايلي ص ٦٥ - ٦٧
(٤) انظر مايلي صفحات ١٠٨ - ١١٢ ، ١٢٨ - ١٤٣ ، ١٧٠ - ١٧٥
(٥) انظر مايلي صفحات ٢١٩ - ٢٤٢ ، ٢٤٦ - ٢٤٨ .

وتجدر الاشارة الى أن معلومات غرس النعمة ، التى أوردها سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان اتصفت بالموضوعية ، فرغم انه كان يعيش فى بغداد عاصمة الدولة العباسية ، فان كتابته عن الفاطميين تكاد تخلو من التعصب ، اذ لم يهاجم الفاطميين أو يتحامل على مذهبهم .

ومما يدل على أن تاريخ غرس النعمة كان المصدر الرئيسى الذى اعتمد عليه سبط ابن الجوزى عند سرده لحوادث بلاد الشام خلال الفترة من سنة ٤٤٨ الى سنة ٤٧٩ هـ ، انه بعد وفاة غرس النعمة سنة ٤٨٠ هـ بدأت تفاصيل حوادث بلاد الشام تقل فى مرآة الزمان ولا تضيف جديدا على ماتذكره المصادر الاخرى . وابتداء من سنة ٤٨٠ هـ اتخذ سبط ابن الجوزى كتاب ابن القلانسى مصدرا اساسيا لتاريخ بلاد الشام[1] ، واستعان سبط ابن الجوزى بمصادر اخرى مثل مؤلفات محمد بن طاهر المقدسى ، ومحمد ابن مؤيد الملك وغيرهما . على أن الروايات التى استقاها سبط ابن الجوزى من هذه المصادر الثانوية لا ترقى تفاصيلها الى ماروا‌ه سبط ابن الجوزى عن هلال الصابى وابنه غرس النعمة ، وهى المعلومات التى افادت البحث كثيرا .

ومن المصادر المعاصرة التى أفاد منها البحث ، سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة الفاطمى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م ، ومؤلفها المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى بن داود الشيرازى ولا يعرف عنه الا القليل ، نظرا لانه لم يترجم لاسرته . وكان من كبار الدعاة الذين قادوا حركة الدعوة الفاطمية فى بلاد الخلافة العباسية خلال النصف

---

(١) انظر مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٨٨ ب ومابعدها .

الاول من القرن الخامس الهجرى (١) . وبدأت سيرته من سنة ٤٢٩ الى سنة ٤٥٠ هـ . وسيرة المؤيد هى مذكرات قل أن نجد لها نظيرا فى التاريخ الاسلامى لما حوته من وثائق ومراسلات ، وما ألقته من أضواء على مذهب الفاطميين . وتتضح أهمية المعلومات التى أوردها المؤيد فى الدين فى أن المؤيد نفسه قد أشارك فى صنع حوادث الفترة المعاصرة لدخول السلاجقة الى العراق ، ونشاط الدعاة الفاطميين وأنصارهم فى أراضى الدولة العباسية . ويجدر التحذير هنا من ان سيرة المؤيد قد تضلل الدارس ، نظرا لان المؤيد حاول ادعاء المعجزات فى سيرته ، واظهار الحوادث وكأنها تسيروفق ارادته وبركات امامه .

ومع ذلك فقد أفاد البحث من سيرة المؤيد فى الدين عند دراسة دوافع الغزو السلجوقى لبلاد الشام ، وموقف الخلافة الفاطمية من وصول السلاجقة الى العراق . وأسهب المؤيد فى الدين فى ذكر الجهود التى بذلها الفاطميون للتصدى للسلاجقة ، وتمثلت تلك الجهود فى دعم حركة البساسيرى ، ومحاولة القضاء على الخلافة العباسية ، ووقف توسع السلاجقة . كما ألقت سيرة المؤيد أضواء جديدة على مدى قوة جماعة الاحداث داخل مدينة حلب ، وموقفهم تجاه الفاطميين . ويضاف الى هذا أن سيرة المؤيد أفادت البحث عند دراسة روح العصبية القبلية بين قبيلتى كلب وكلاب فى بلاد الشام (٢) .

ومن دواوين الشعر التى أفاد منها البحث ديوان أبى الفتح الحسن ابن عبد الله المغرى المشهور بابن ابى حصينة شاعر المرداسيين المتوفى

---

(١) انظر سيرة المؤيد فى الدين ، مقدمة المحقق ص ١١ - ١٧ .

(٢) انظر مايلى صفحات ٦٣ - ٦٤ ، ١٠٠ - ١٠٣ ، ٢١٣ .

سنة ٤٥٧ هـ . فقد أمدنا ابن أبى حصينة بقصيدة هامة أشار فيها الى اغارة التركمان على اقليم الجزيرة سنة ٤٣٣ هـ ، وبين فيها الاثر الذى تركته تلك الغارة التركمانية على بلاد الشام (١) . كما ألقى شعر ابن ابى حصينة اضواء على علاقة الامارة المرداسية الكلابية بقبيلة كلب القحطانية ، ونمير العدنانية ، وأثر ذلك على تمزق القبائل العربية فى بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقى (٢) .

كما أفاد البحث من ديوان الشاعر ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، فقد أستطاع هذا الشاعر أن يصف بأبيات من الشعر التدهور والانهيار الذى أصاب دمشق أواخر عهد الفاطميين ، فضلا عن تصوير مشاعر عرب الشام ازاء دخول الغز الترك الى بلاد الشام (٣) .

ومن المصادر المهمة لموضوع البحث كتاب ذيل تاريخ دمشق لمؤلفه أبى يعلى بن أسد بن على بن محمد التميمى ، المعروف بابن القلانسى ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م . وينتمى ابن القلانسى الى احدى الاسر العريقة فى دمشق . تلقى تعليما جيدا فى الادب والفقه وعلوم الشريعة ، واشتغل بالكتابة فى ديوان الرسائل بدمشق ، مما أتاح له فرصة الاطلاع على الكثير من الوثائق المحفوظة فى الديوان ، وبذلك عرف الكثير من أسرار السياسة خلال تلك الحقبة من تاريخ بلاد الشام . (٤)

---

(١) انظر ديوان ابن حيوس ، جـ ١ ص ٣٦ .
(٢) انظر مايلى ص ٦١ ، ١٩٩
(٣) انظر ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ١١ - ١٢ ، جـ ٢ ص ٥٦٩ - ٥٧٥ .
(٤) العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٢ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
Gibb, Damascus Chronicle of The Crusades.P.7-8. ،

وترجع أهمية كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، الى أن مؤلفه كان معاصرا للحملة الصليبية الاولى . وقد سار ابن القلانسى فى تاريخه على طريقة الحوليات . وجعله ذيلا لكتاب المؤرخ المشهور هلال بن المحسن الصابى ، الذى ينتهى بوفاة صاحبه سنة ٤٤٨ هـ . ونظرا لان تاريخ هلال الصابى لم يعط حوادث دمشق حقها من الشرح والتفصيل ، فقد بدأ ابن القلانسى تاريخه من سنة ٣٦٣ هـ[١] .

وقد أفاد البحث كثيرا من كتاب ابن القلانسى خصوصا عند دراسة ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، وأسباب كراهية سكان دمشق للفاطميين ، فضلا عن النزاع الذى وقع بين القرامطة والفاطميين لتحقيق السيادة على بلاد الشام[٢] . كما أن ابن القلانسى هو المؤرخ الوحيد الذى أمدنا بقائمة كاملة للولاة الفاطميين الذين حكموا دمشق . وقد اسهب أحيانا فى تاريخ بعض الولاة وأعمالهم ، واكتفى احيانا اخرى بذكر أسماء الولاة ومدة حكمهم[٣] . ولم يكن تاريخ ابن القلانسى قاصرا على دمشق وحدها ، بل عنى أيضا ببلدان الشام الاخرى مثل حلب وأنطاكية وحمص وغيرها ، مما أفاد البحث كثيرا . واعتمد البحث ايضا على المعلومات التى أوردها ابن القلانسى عن احوال المرداسية وامارة مسلم بن قريش وسياسته فى بلاد الشام والنزاع بين تتش وسليمان بن قطلمش على شمال الشام.[٤]

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٨٦ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٣٨ ،
Gibb, op.cit., P.9 .

(٢) انظر: ابن القلانسى ص ٣ - ١١ ، ص ١٦ ومابعدها .

(٣) انظر على سبيل المثال ابن القلانسى ص ٦٩ - ٨٣ .

(٤) انظر ابن القلانسى ص ١١٤ - ١٢٠ .

غير أن معلومات ابن القلانسى تقل بصورة عامة خلال الفترة التاريخية الممتدة فيما بين سنتى ٤٤٨ و ٤٨٥ هـ بحيث لا نجد شرحا وافيا عن أحوال بلاد الشام أثناء هذه الحقبة ، وخاصة فيما يتصل بالغزو السلجوقى ونتائجه على بلاد الشام . وابتداء من حوادث سنة ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ م تتصف أخبار ابن القلانسى بالاسهاب المفيد ، مما أفاد البحث كثيرا عند دراسة دور تتش فى النزاع على عرش السلطنة السلجوقية ، ونتائج ذلك النزاع على بلاد الشام والجزيرة (١) . كما أن ابن القلانسى أمد البحث بمعلومات طيبة عن فترة حكم ابنى تتش رضوان ودقاق فى حلب ودمشق ، وما نشب بينهما من نزاع ، وأثر ذلك على أوضاع بلاد الشام قبيل سقوط أنطاكية بيد الصليبيين (٢).

ومن المصادر التى أفاد منها البحث ماكتبه العظيمى ، وهو محمد بن على بن محمد العظيمى الحلبى ، ولد سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، وتوفى بعد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م أى انه كان معاصرا لابن القلانسى . وينتمى العظيمى الى بيت شارك فى الحوادث السياسية بحلب أثناء الغزو السلجوقى لبلاد الشام . وكان العظيمى مولعا بالتاريخ ، وكتب فيه كتبا عديدة ، لم يصل الينا من كتبه سوى تاريخ عام موجز على طريقة الحوليات ، نشر المستشرق كلود كاهن C. Cahen القسم الاخير منه ، ويبدأ هذا الجزء من سنة ٤٥٥ هـ حتى آخر الكتاب (٣) . وللعظيمى كتاب آخر مفقود ، وهو أكبر

---

(١) انظر ابن القلانسى ص ١٢١ - ١٣٠.

(٢) انظر ابن القلانسى ص ١٣٠ - ١٣٦.

(٣) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى ، جـ ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٤ - ١٩٥ ،

C. Cahen, Journal Asiatique, tom. cc XXX, (1938) , PP. 353 - 448.

حجما وأغزر مادة من كتابه الموجز . نقل عنه ابن العديم الكثير من الروايات في كتابه (بغية الطلب) . وتتضح أهمية كتاب العظمى المفقود ، فى كونه يعتمد على روايات والده الذى عاش فى حلب ، وعاصر فترة الغزو السلجوقى ، وكان مرافقا لقسيم الدولة اقسنقر في بعض حروبه [(١)] . وقد أفاد البحث مما كتبه العظيمى عند دراسة سياسة تتش فى موانىء الشام وأهم أعمال اقسنقر فى حلب ، وسياسة قلج أرسلان فى مقاومة زحف الصليبيين عبر آسيا الصغرى حتى وصولهم الى انطاكية وغير ذلك . [(٢)]

ويعتبر كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر من المصادر الهامة لموضوع البحث . وكان ابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧٢ هـ) معاصرا لابن القلانسى والعظيمى . وقد ترجم ابن عساكر فى كتابه لبعض الولاة الفاطميين وأمراء السلاجقة الذين حكموا دمشق . على أن تلك التراجم لا تفى بالغرض لاختصارها ، ومع هذا فقد أفاد تاريخ ابن عساكر البحث عند دراسة سياسة بعض ولاة الفاطميين فى دمشق قبيل سقوطها بيد اتسزبن أوق وحصار اتسز لها [(٣)] .

ويعتبر (كتاب الاعتبار) لاسامة بن منقذ من مصادر البحث الهامة . وأسامة بن مرشد بن على بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ) مؤرخ وشاعر وأديب كتب فى التاريخ والادب والشعر . وكتاب الاعتبار يعتبر مصدرا هاما من مصادر تاريخ الحروب الصليبية ، وهو مذكرات فريدة فى الادب التاريخى ،

---

(١) انظر على سبيل المثال : ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة (٢٧١ ب ، ٢٩٠ أ ، جـ ٦ ورقة ٩١ ب ، جـ ٧ ورقة ١٩٨ ب .

(٢) انظر مايلى صفحات ١٥٧ ، ١٨٠ - ١٨١ ، ٢٩٥

(٣) انظر مايلى ص ١٣٧ = يقع تاريخ ابن عساكر فى ١٨ مجلد موزعة على مكتبات مختلفة ، ولم يطبع منه الا بعض الاجزاء . انظر شاكر مصطفى جـ ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

وهو من السير الذاتية النادرة (١) . وأمدنا كتاب الاعتبار ببعض المعلومات عن امارة شيزر وعلاقتها بسلاجقة الشام ، ودورها في بعض حوادث بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الاولى (٢) . ومن مؤلفات أسامة التي افادت البحث ماكتبه عن تاريخ أسرة بني منقذ في شيزر . غير ان هذا الكتاب مفقود ولم نعثر منه الا على رواية مفصلة نقلها ابوالفدا في تاريخه عن تأسيس علي بن منقذ لامارته في شيزر. (٣)

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث كتاب تاريخ الفارقي أو تاريخ الدولة المروانية ، ومؤلفه هو احمد بن علي بن الازرق الفارقي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ / ١٠٩٤ م . وقد كتب الفارقي تاريخه عن مدينة ميافارقين شأنه في ذلك شأن المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ المدن والأمصار.

تكلم الفارقي في كتابه عن الدولة العباسية ، وأفاض في ذكر الحوادث ذات العلاقة بميافارقين فتحدث عن القوى التي اثرت في تاريخ بلاد الشام والجزيرة وارمينية ، مثل البويهيين ، والسلاجقة والاتابكة ، والمروانيين ، والاراتقة ، والبيزنطيين ، وأشار الى العلاقات السياسية بين تلك القوى بعضها ببعض . ومما ساعد الفارقي على فهم الحوادث المتصلة بتاريخ ميافارقين ، المناصب التي تقلدها حتى وصل الى نظارة الاوقاف ، مما جعل له صلة وثيقة بالحوادث . وقد اعتمد الفارقي على كتب من سبقه من المؤرخين ومذكراته الشخصية ، ومن الكتب التي أفاد منها ، كتاب التشميث الذي وجده بالسريانية فترجمه الى العربية ، وتاريخ هلال الصابي وغيره من المؤرخين (٤).

---

(١) انظر اسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق فيليب حتي ، ط. برنستون ١٩٣٠م ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربي جـ٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) انظر مايلي ص ٢٤٩ - ٢٥٠

(٣) ابوالفدا ، المختصر في اخبار البشر جـ ٣ ص ٣١ - ٣٢ .

(٤) تاريخ الفارقي ، مقدمة المحقق ص ١ - ٤ ، ١٣ - ١٩ .

كما روى الفارقى بعض الاخبار عن والده عن جده الذى عاصر الغزو السلجوقى للجزيرة والشام . ويضاف الى هذا اعتماده على بعض الاثار وما عليها من نقوش . (١)

وقد أفاد البحث من تاريخ الفارقى أثناء دراسة أول غارة شنها التركمان على اقليم الجزيرة ، وعن حملة ألب أرسلان الى بلاد الشام ، ومعركة ملازكرد بين السلاجقة والبيزنطيين والحملة السلجوقية بقيادة ابن جهير الى منطقة الجزيرة ودور مسلم بن قريش فى ذلك ، ثم سقوط الامارة المروانية أمام الزحف السلجوقى (٢) . كما أفاد البحث من تاريخ الفارقى فى دراسة النتائج التى ترتبت على وفاة ملكشاه على بلاد الشام والجزيرة وجهود تتش لبسط نفوذه على اقليم الجزيرة ، ونزاعه مع ابن اخيه بركياروق ، وقيام امارات تركية فى الجزيرة اسهمت فى تمزق بلاد الشام والجزيرة عشية الحملة الصليبية الاولى . (٣)

ويعتبر كتاب (الكامل فى التاريخ) من أهم المصادر لموضوع البحث . وابن الاثير أحد ثلاثة اخوة عرفوا جميعا بالعلم والفضل . اشتهر الاخ الاكبر مجد الدين ابوالسعادات بدراسة علوم القرآن والحديث والنحو ، بينما اشتهر الاصغر ضياء الدين بالبحث فى علوم الادب والبلاغة ، أما الاخ الاوسط فهو المؤرخ المشهور عز الدين أبوالحسن على بن أبى الكرم بن محمد بن عبدالكريم الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى (٥٥٥ هـ - ٦٣٠ هـ) (٤) .

---

(١) انظر مثلا تاريخ الفارقى ص ٨٦ ، ١٦٣ - ١٦٤ .
(٢) انظر مايلى صفحات ٨٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ .
(٣) انظر مايلى صفحات ١٨٨ ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ - ٢٨٩
(٤) سعيد عاشور ، دراسة حول كتاب الكامل لابن الاثير فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٣٩٣ ، انظر ايضا العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٤ .

ألف ابن الاثير العديد من الكتب التاريخية ، أفاد البحث من كتابين هما : الكامل فى التاريخ ، والتاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية . وابن الاثير مؤرخ أصيل ، وصاحب فكر ناقد ، ينظر للحوادث العظيمة نظرة فاحصة ويربط بين جزئياتها وما يتصل بها من حوادث ، ففى كلامه عن استيلاء الصليبيين على أنطاكية سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م يقول : " كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم ، وخروجهم الى بلاد الاسلام .... سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الاندلس ..... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها ، وتطرقوا الى بلاد الشام ... (١) " فابن الاثير يضع الحروب الصليبية فى اطارها الطبيعى من حركة التاريخ الانسانى ، موضحا أن تلك الحروب عبارة عن هجوم صليبى ضد بلاد المسلمين دارت على ثلاثة محاور . وبعد ذلك يستشف ابن الاثير السبب الحقيقى الذى أدى الى نجاح الحملة الصليبية ، وهو ما دار من خلافات ونزاع بين القوى المختلفة فى المشرق الاسلامى فيقول : " واختلف السلاطين فتمكن الفرنج من البلاد "(٢) .

وكتاب الكامل لابن الاثير هو تاريخ عام ، ركز فيه ابن الاثير على تاريخ العالم الاسلامى وحاول فيه التوازن بين الاقاليم ، فلم يدع أخبار اقليم تطغى على حوادث اقليم آخر ، واعتمد فى ذلك على المصادر الموثوقة والخاصة بكل قطر(٣) . ورغم أن ابن الاثير يسير فى كتابه على طريقة الحوليات فانه كان يدرك عيوب هذه الطريقة ، ولهذا كثيرا ما تحاشى تلك العيوب اذا رأى أن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٢ ، انظر ايضا : سعيد عاشور ، دراسة حول كتاب الكامل لابن الاثير ، ص ٤١١ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٨٤ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١ ، المقدمة ص ٢ - ٥ ، العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

الحادثة اذا قسمت سوف تختل ، عندئذ يأتي بها متتابعة ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : عندما تحدث عن صالح بن مرداس ومحاولته الاستيلاء على حلب سنة ٤٠٢ هـ ، واصل ابن الاثير حديثه مفصلا عن امارة بني مرداس حتى سقوطها سنة ٤٧٢ هـ وقال في ختام حديثه : " فهذه جميع أخبار بني مرداس أتيت بها متتابعة لئلا تجهل اذا تفرقت "(١) . واتبع ابن الاثير الطريقة نفسها عند ذكر قيام الدولة السلجوقية ، فساق أخبارها متتابعة حتى عصر طغرلبك(٢) . واستفاد البحث من هذه المعلومات .

وترجع أهمية كتاب الكامل الى أن ابن الاثير اعتمد على مؤرخي الشام ونقدهم في بعض الاحيان ، ففي كلامه عن اتسز يقول : " يذكر الشاميون هذا الاسم أقسيس ، والصحيح انه اتسز وهو اسم تركي " . كما ان ابن الاثير لا ينقل حرفيا عن مؤرخي الشام ، بل أضاف احيانا معلومات جديدة أفاد منها البحث ، فمثلا عندما تحدث عن اتسز وحملته على مصر قال : " وحكي لي جماعة من فضلاء مصر أن اتسز . . . " ثم أورد الاخبار الجديدة .(٣)

وقد أفاد البحث أيضا من كتاب الكامل لابن الاثير عند دراسة موضوعات ظهور السلاجقة وتأسيس دولتهم ، وعلاقة السلاجقة بالبيزنطيين ، وحالة بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي ، والغزو السلجوقي لبلاد الشام ، وأثر وفاة ملكشاه على تمزق بلاد الشام وسائر أجزاء الدولة السلجوقية(٤) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٢٢٧ - ٢٣٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٩ ص ٤٧٣ - ٤٨٤ .
(٣) انظر المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٠٣ - ١٠٤ .
(٤) انظر مايلي صفحات ٩٥ - ٩٦ ، ٩٨ - ١٠١ ، ١٨٥ - ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ - ١٩٣ .

أما كتاب التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية لابن الاثير ، فقد أمد البحث بمعلومات طيبة عن سياسة أقسنقر فى حلب ، وعلاقته بتتش، وأثر ذلك على بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين الى أنطاكية (١) .

ومن أهم المصادر لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ كمال الدين بن العديم التى لا تقل أهمية لتاريخ بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، عن مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ، وابن العديم هو كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله من بنى جرادة العقيلى ، ولد سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٩٢م وتوفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م . وهو من أسرة عريقة فى حلب ، اشتغلت بالعلم والفقه والقضاء والادب والشعر على مدى قرنين من الزمان . ونشأ كمال الدين بن العديم وتعلم فى حلب على يد العديد من العلماء ، ورافق أباه فى بعض رحلاته الى دمشق وبيت المقدس والعراق والحجاز، وجالس العلماء وأخذ عنهم . (٢)

كتب ابن العديم العديد من الكتب فى التاريخ والادب . أشهرها كتاب (بغية الطلب فى تاريخ حلب) وكتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) وكلاهما من أهم المصادر لتاريخ بلاد الشام ، ولذلك فهما من المصادر الاساسية لتاريخ بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى .

---

(١) انظر مايلى ص ١٧٧ .
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون جـ ٢ ص ٢٦٣ .

أما كتاب (بغية الطلب) فهو تراجم لاعيان حلب ، ترجم فيه ابن العديم لكل من دخلها أو اتصل بها من الاعيان ، والساسة ، والقادة ، والعلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم[1]. وترجع أهمية كتاب بغية الطلب لموضوع البحث الى أنه من أوثق المصادر وأصدقها عن تاريخ بلاد الشام وخاصة فى الفترة موضوع الدراسة ، نظرا لان ابن العديم اعتمد على مصادر أصيلة ومعاصرة معظمها مفقود . ومن تلك المصادر التى نقل عنها ابن العديم كتاب فى التاريخ لمؤلفه غرس النعمة محمد بن هلال الصابى المتوفى سنة ٤٨٠ هـ . ومن مصادره أيضا مانقله ابن العديم من خط المؤرخ يحيى بن على بن عبد اللطيف بن زريق ، الذى يبدو أنه عاش فى القرن الخامس الهجرى ، وتاريخ ابى غالب همام بن الفضل بن المهذب المعرى ، وهو أيضا من رجال القرن الخامس الهجرى . كما نقل ابن العديم بعض الروايات عن العماد الاصفهانى ، يبدو أنها من كتب للعماد مفقودة اذ لاتوجد هذه المعلومات فى مؤلفات العماد المتداولة . ومن المصادر التى اعتمد عليها ابن العديم فى بغية الطلب كتاب (عنوان السير) لمحمد بن عبد الملك الهمذانى المتوفى سنة ٥٢١ هـ ، وتاريخ على بن مرشد بن على بن منقذ ، وتاريخ أخيه منقذ بن مرشد ، الذى ذيل به على تاريخ ابن المهذب المعرى . كما حفظ ابن العديم الكثير من روايات المؤرخ محمد بن على العظيمى فى تاريخه الكبير المفقود . ونقل ابن العديم عن تواريخ مجهولة لم يعرف أسماء اصحابها ، واعتمد ايضا على والده فيما يرويه عن اسلافه عن فترة الغزو

---

(١) وصل الينا منه عشر مجلدات بخط ابن العديم نفسه محفوظة فى مكتبات استامبول ، ثمانى مجلدات منه فى مكتبة احمد الثالث برقم ٢٩٢٥ ، ومجلد واحد فى مكتبة ايا صوفيا برقم ٣٠٣٦ ، ومجلد اخر فى مكتبة فيض الله برقم ١٤٠٤ .

السلجوقى لبلاد الشا م ، كما قابل ابن الاثير ونقل عنه مشافهة ، هـذا عدا مصادر اخرى كثيرة نقل عنها ابن العديم ، ولا يتسع المجـال لذكرها [١] .

أما كتاب (زبدة الحلب من تاريخ حلب) فهو فى ثلاثة اجزاء ،استله ابن العديم من كتابه الكبير بغية الطلب ، وأفرده للتاريخ السياسى لحلب على طريقة الحوليات من العصر البيزنطى حتى سنة ٦٤١ هـ .

وكتابا ابن العديم مصدران أساسيان لتاريخ بلاد الشام . وما جاء فيهما افاد البحث كثيرا ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات البيزنطية الاسلامية وهجمات البيزنطيين على شمال الشام ، واحوال الثغورالشامية الفاصلة بين المسلمين والبيزنطيين [٢] . وافاد البحث من المعلومات التى اوردها ابن العديم فى كتابيه : بغية الطلب وزبدة الحلب ، عند دراسة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشا م واحوال الامارة المرداسية وعلاقتها بغيرها من القوى والقبائل فى بلاد الشا م خلال القرن الخامس الهجرى .
وأفاد البحث ايضا من كتابى ابن العديم فى مناقشة موضوع الغزو السلجوقى لبلاد الشا م ، وغارات التركمان واعمالهم التخريبية فى شمال الشام ،وامارة مسلم بن قريش ومواقفه ازاء السلاجقة فى بلاد الشام ، واستيلاء سليمان بن قطلمش على انطاكية ونزاعه مع تتش بن ألب أرسلان وأثر ذلك على بلاد

---

(١) انظر على سبيل المثال ، ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ١ الاوراق ٥٩ ب ، ٧٩ أ ـ ب ، ١٤٠ ب ، جـ ٢ الاوراق ١٦٦ أ ـ ب ، ١٩٦ ب ، ١٩٧ أ ، ١٩٨ أ × ب ، ٢٠٢ ب ، جـ ٣ الاوراق ٢٥٨ ب ، ٢٦٨ أ ، ٢٧٠ أ ، ٢٧١ ب ، ٢٨٤ أ ـ ب ، جـ ٤ الاوراق ١٩٧ ب ، ١٩٨ أ ، جـ ٥ الاوراق ٢٢١ أ ـ ب ، ٢٢٢ أ ـ ب ، ٢٢٣ ب .

(٢) انظر مايلى ص ٧٢ ـ ٧٥ ، ٧٩ ـ ٨١ .

الشام . كما أفاد البحث من كتابى ابن العديم عند دراسة سياسة آقسنقر فى حلب وعلاقته بتتش ، واخيرا فى اثر تنازع القوى فى بلاد الشام على نجاح الحملة الصليبية الاولى (١) .

ومن كتب التراجم التى أفادت البحث كتاب (وفيات الاعيان) لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ . فقد أفاد البحث من تراجم بعض الشخصيات التى لعبت دورا هاما فى تاريخ بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، مثل السلطان طغرلبك ، وألب أرسلان ، وملكشاه ، وتتش ، واقسنقر ، وبدر الجمالى وامراء بنى مرداس ، وأمراء بنى عقيل وغيرهم .

كما يعتبر كتاب (الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة) من مصادر البحث الهامة . ومؤلفه هو المؤرخ عزالدين ابوعبدالله محمد بن على بن ابراهيم بن شداد الانصارى الحلبى (٦١٣ - ٦٨٤ هـ) (١) . جمع ابن شداد فى كتابه بين التاريخ والجغرافية ، وجعله ثلاثة اقسام : أحدها خاص بمسقط رأسه حلب ، وخصص القسم الثانى لدمشق والاردن وفلسطين ، والثالث لمنطقة الجزيرة . وتحدث عما فيها من معالم واثار ومدارس ومساجد وخوانق وغيرها ، ثم ألحق بكل قسم تاريخا لتلك البلاد منذ الفتح الاسلامى حتى عصره (٢) .

وقد افاد البحث من كتاب الاعلاق الخطيرة وبخاصة الجزء الخاص بفلسطين والاردن لما حواه هذا القسم من معلومات طيبة عن مدن هذين

---

(١) هو غير بهاء الدين ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ) مؤلف كتاب سيرة صلاح الدين المعروف باسم (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) انظر ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، تحقيق سامى الدهان ، مقدمة المحقق ، جـ٢ ص ١٣ - ١٤ .

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٢ ، مقدمة المحقق ص ٢٦ .

الاقليمين ، والقوى التى توارثت حكمهما . وكذلك أمدنا ابن شـــداد بمعلومات تاريخية طيبة عن موانئ الشام مثل طرابلس وصور ، وعكا ، ويافا وغيرها ، وسياسة التركمان والسلاجقة والفاطميين ازاء هذه الموانئ ، فضلا عن أحوال امارة بنى عمار فى طرابلس وابن أبى عقيل فى صور . كما أفـــاد البحث من المعلومات التى أوردها ابن شداد فى القسم الخاص بحلـــب ، عند دراسة عهد اقسنقر والمنشآت التى اقامها فى حلب .(١)

أما مؤلفات المؤرخ الكبير جمال الدين محمد بن سالم بن واصــل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م ، ولا سيما كتاب (التاريخ الصالحى) فقد أفادت البحث كثيرا ، وكتب ابن واصل التاريخ الصالحى للسلطان الصالـــح نجم الدين الأيوبى (٢) . وعلى الرغم من ان هذا الكتاب يقع فى مجلد واحد ، لا يزال مخطوطا ، فان ابن واصل - بحكم انه شامى - أورد فيه معلومـــات جديدة وقيمة عن تاريخ بلاد الشام ، أفادت البحث عند دراسة الامـــارة المرداسية وعلاقتها بالخلافة الفاطمية ، واول غارة شنها التركمان على اقليم الجزيرة ، فضلا عن الغزو السلجوقى لبلاد الشام وأثر سياسة تتش فـــى دمشق وجنوب الشام . (٣)

أما الجزء الاول من كتاب (مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب) لابن واصل ، فقد استفاد منه البحث أثناء دراسة النزاع بين تتش وسليمان بـــن قطلمش ونتائجه ، والحملة السلجوقية على بلاد الجزيرة بقيادة ابن جهير ،

---

(١) انظر طايلى ص ١٨٠-١٨١ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ - ٢٦٣ .
(٢) انظر : احمد بدوى ، الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٨٠ - ٢٨١ .
(٣) انظر طايلى ص ٦٠ ، ٦٦ ، ٨٣ - ٨٤ ، ١٥٢ .

ورحلة السلطان ملكشاه الى حلب واقطاعها لقسيم الدولة اقسنقر ، وأمارة خلف بن ملاعب فى حمص ، وأثر وفاة ملكشاه على احوال بلاد الشام(١).

ومن المصادر المتأخرة المهمة لموضوع البحث ، الجزء السادس عشر من كتاب (مسالك الابصار فى ممالك الامصار) لمؤلفه احمد بن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . وتعتبر مؤلفات خليل بن ايبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ من مصادر البحث . فقد كتب الصفدى تاريخا خاصا بمدينة دمشق اطلق عليه عنوان (تحفة ذوى الالباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب) وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا وهو عبارة عن ارجوزة وعليها شرح ، اورد فيها الصفدى معلومات هامة عن تاريخ من حكم دمشق حتى عصره(٢) . وأفاد البحث من تحفة ذوى الالباب عند دراسة الحكم الفاطمى لمدينة دمشق وحصار اتسز لها ثم استيلائه عليها ، وعن حكم تاج الدولة تتش وابنه رضوان لدمشق .(٣)

وأهم المصادر المتأخرة لموضوع البحث مؤلفات المؤرخ القدير أحمد بن على المقريزى . ولد المقريزى سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٤ هـ بحارة برجوان بمدينة القاهرة ، وتوفى سنة ٨٤٥ هـ /١٤٤٢ م ، وهو بعلبكى الاصل ، وعرف باسم المقريزى نسبة الى حارة المقارزة فى مدينة بعلبك . وعكف المقريزى على دراسة القرآن وعلوم الدين والتاريخ وغير ذلك . وتقلد العديد من الوظائف ، كان آخرها وظيفة الحسبة بالقاهرة . وتميزت كتابات المقريزى

---

(١) انظر مايلى صفحات ١٦٨ - ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٦٤-٢٦٧

(٢) الصفدى (تحفة ذوى الالباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب) ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٥٢ تاريخ .

(٣) انظر مايلى صفحات ٧٠ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ٢٧٣ .

بالدقة فى ايراد الحقائق ، والتخصص المتنوع ، والاعتماد على مصادر ووثائق لا تزال أصولها مفقودة (١) .

وقد أفاد البحث من كتابين للمقريزى : هما المقفى ، واتعاظ الحنفا . أما المقفى فاسمه (التاريخ الكبير المقفى فى تراجم اهل مصر والواردين اليها) كتبه المقريزى فى ستة عشر مجلدا (٢) . غير ان معظم مجلدات المقفى مفقودة ، وبقى منها اربعة مجلدات لا تزال مخطوطة فى مكتبات مختلفة . وقد أفاد البحث من المجلد الاول (٣) الذى احتوى على ترجمات مستفيضة لبعض الشخصيات التى كان لها دور بارز فى تاريخ بلاد الشام خلال الفترة التى تناولها البحث (٤) . وأورد المقريزى فى ترجمته لتلك الشخصيات معلومات قيمة افادت البحث كثيرا عند دراسة ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، وتحالف قبائل الشام ضد الفاطميين وعلاقة المرداسيين بالخلافة الفاطمية فضلا عن العلاقات الفاطمية البيزنطية (٥) . وكان كتاب المقفى مصدرا اساسيا للبحث عند دراسة حالة جنوب الشام اثناء ولاية بدر الجمالى ، واضطراب احوال الخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر ، ومحاولة السلطان السلجوقى ألب ارسلان غزو مصر ، وظهور اتسز بن اوق الخوارزمى فى جنوب الشام واغارته على مصر (٦) .

---

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، جـ ٢ ص٢١ ، انظر كتاب دراسات عن المقريزى ، مجموعة ابحاث اشترك فى اعدادها مصطفى زيادة واخرون .
(٢) السخاوى ، الضوء اللامع جـ٢ ص ٢٢ .
(٣) مخطوط المكتبة السليمانية باستامبول - رقم ٤٩٦ .
(٤) انظر على سبيل المثال ترجمة انوشتكين الوزيرى ملحق رقم (١) .
(٥) انظر مايلى صفحات ٥٥ - ٦٠ ، ٨٠
(٦) انظر مايلى صفحات ١٠٩ ، ١٢٨ ، ١٣٩ - ١٤٠ .

أما كتاب (اتعاظ الحنفا) للمقريزى ،فلا يقل فى أهميته لموضوع البحث عن المقفى ،نظرا لانه تناول بالشرح والتفصيل تاريخ الدولة الفاطمية . وأفاد البحث من كتاب اتعاظ الحنفا عند دراسة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، وعلاقة الفاطميين بالبيزنطيين وعلاقة الفاطميين بالقبائل العربية فى بلاد الشام ، وتنازع السلاجقة والفاطميين واثر ذلك على احوال بلاد الشام قبل الغزو الصليبى . (١)

وأفادت الدراسة ايضا من كتاب (عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان) لبدر الدين محمد بن محمود العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ذلك أن الجزء الحادى عشر من عقد الجمان يغطى الحقبة التى تناولها البحث. وقد انفرد العينى بمعلومات فريدة من نوعها عن حملتى ،رومانوس ديوجينس على شمال الشام سنتى ٤٦١ - ٤٦٢ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩م وهى معلومات قل أن نجدها فى مصدر آخر.

وفضلا عن هذه المصادر التى سبق التعريف بها ، فقد اعتمد البحث على بعض العملات النقدية التى سلمت من الضياع ، وسكت فى بلاد الشام خلال القرن الخامس الهجرى للتدليل على بعض الحقائق وتصحيح بعض المعلومات ، ومن ذلك مثلا دينار ضرب بمدينة حلب سنة ٤١٧ هـ فى عهد صالح بن مرداس وعلى الدينار اسم الخليفة الظاهر الفاطمى (٢). ولهذا الدينار اهمية تاريخية بالغة ، لانه ضرب فى وقت اشترك فيه صالح بن مرداس

---

(١) انظر مايلى صفحات ٣٠-٣٢ ، ٣٥ ، ٤٣ - ٤٤ ، ٤٦ - ٤٨ ، ٢٩٥ .

(٢) انظر : S. Lane-poole,Catalogue of the collection of the Arabic Coins, pp. 337-338.

فى حلف مع زعماء طى وكلب لاقتسام بلاد الشام فيما بينهم . وهذا الدينار يدل على ان صالح بن مرداس ظل يدين بالمذهب الشيعى ويعترف بالسيادة الروحية للفاطميين ، رغم العداء السياسى بينه وبين الدولة الفاطمية . (١)

وأشار البحث الى بعض الدنانير التى ضربت فى طرابلس وصور أثناء حكم امارة بنى عمار فى طرابلس وبنى عقيل فى صور وعليها اسم الخليفة الفاطمى (٢) ، وتدل هذه الدنانير على اعتراف الامارتين بالسيادة الفاطمية رغم استقلالها الفعلى عن الحكم الفاطمى (٣) .

وفضلا عن هذه المصادر المتنوعة التى ورد ذكرها ، فقد افاد البحث من مصادر اخرى مخطوطة ومطبوعة مثبتة فى حواشى الرسالة .

• • •

وتحتوى الرسالة على مقدمة ، واربعة فصول وخاتمة . اقتصرت المقدمة على دراسة نقدية لأهم مصادر البحث . وناقش الفصل الاول موضوع احوال بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقى . والقى هذا الفصل اضواء جديدة على أسباب ومظاهر ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام . ومن أهم اسباب ضعف النفوذ الفاطمى منافسة القرامطة للفاطميين على بسط نفوذهم فى بلاد الشام ، فضلا عن موقف سكان الشام المعادى للفاطميين ، والسياسة التى اتبعها ولاة الفاطميين وكثرة تعاقبهم ، وموقف احداث دمشق المعادى

---

(١) انظر مايلى ص ٥٤

(٢) Lavoix, Catalogue, des Monnaies Musulmanes, vol. III pp. 128, 132-133.

(٣) انظر مايلى ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ - ٢٦٣ .

للفاطميين ، هذا فضلا عن تمرد قبيلة طيء بزعامة آل جراح على الفاطميين . ثم بحث الفصل موضوع تحالف القبائل العربية في بلاد الشام ضد الفاطميين ، وخاصة قبائل كلب وكلاب طيء . ثم ناقش الفصل اضطراب احوال بلاد الشام بعد موت انوشتكين الدزيري ، وعلاقة المرداسيين بالخلافة الفاطمية وأثر روح العصبية القبلية على النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

وتناول الفصل الاول أيضا دراسة علاقات البيزنطيين بالفاطميين في اوائل القرن الخامس الهجري واثر تلك العلاقات على احوال بلاد الشام، وفشل محاولة الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث في الاستيلاء على حلب سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م . كما ناقش هذا الفصل علاقة الامارة المرداسية بالدولة البيزنطية وتدهور علاقات الفاطميين بالبيزنطيين في منتصف القرن الخامس الهجري ، ونتائج سياسة البيزنطيين على احوال بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي . وبحث الفصل ايضا موضوع غارات التركمان على بلاد الشام ، بدءً من اول اغارة شنها التركمان على الموصل والجزيرة سنة ٤٣٣ هـ ثم توغل التركمان الى بلاد الشام منذ منتصف القرن الخامس الهجري وبخاصة اغارات التركمان في منطقة حلب بقيادة ابن خان ، وفي أنطاكية تحت زعامة افشين بن بكجي ، وفي بعض بلاد الشام بقيادة صندق التركي ، هذا فضلا عن دخول التركمان الناوكية الى جنوب الشام بدعوة من الوالي الفاطمي بدر الجمالي .

أما الفصل الثاني وعنوانه (الغزو السلجوقي لبلاد الشام منذ سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م) فقد بحث اولا موضوع دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام واشار الفصل في اختصار شديد الى ظهور السلاجقة وتاسيس دولتهم وجهود طغرلبك في سبيل السيطرة على العراق والشام ودعم الفاطميين لحركة

البساسيرى للوقوف فى وجه السلاجقة ، ونتائج ذلك على اوضاع بلاد الشام ثم ناقش الفصل موضوع خضوع المرداسيين فى حلب للسلطان ألب أرسلان (٤٦٢ - ٤٦٣ هـ) وخروج القائد الفاطمى ناصر الدولة بن حمدان على طاعة الخليفة الفاطمى المستنصر ، وحثه للسلطان ألب أرسلان على القضاء على الخلافة الفاطمية مما اغرى السلطان السلجوقى على اعداد حملة ضخمة قادها بنفسه نحو مصر سنة ٤٦٣ هـ ، وهى الحملة التى لم تتم بسبب خروج الامبراطور البيزنطى رومانوس الرابع لغزو بلاد السلاجقة والقى هذا الفصل أضواء جديدة على معركة ملازكرد التى جرت بين السلاجقة والبيزنطيين سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، وما تمخض عنها من نتائج هامة بالنسبة للسلاجقة والبيزنطيين .

وعالج هذا الفصل ايضا موضوع ظهور القائد اتسز بن اوق الخوارزمى فى جنوب الشام سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م وحملته على مصر سنة ٤٦٩ هـ ، وما نجم عنها من نتائج على احوال بلاد الشام بسبب سوء ادارة اتسز وقسوته كما بحث الفصل ايضا موضوع فتوحات الامير السلجوقى تتش فى بلاد الشام فيما بين سنتى (٤٧١ - ٤٧٩ هـ) واستيلائه على دمشق وسياسته فى توطيد نفوذه فى بلاد الشام .

وناقش الفصل الثانى كذلك موضوع النزاع بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام منذ عصيان قطلمش على السلطان ألب أرسلان ومقتله ، وما ترتب على ذلك من قطيعة بين أبناء قطلمش وأبناء ألب أرسلان . وتلا ذلك تدخل أبناء قطلمش فى شئون بلاد الشام اثناء حكم اتسز . ثم استيلاء سليمان بن قطلمش على انطاكية سنة ٤٧٧ هـ ، وما اعقب ذلك من نزاع بين سليمان

ابن قطلمش ومسلم بن قريش ، ثم بين سليمان وتتش وأثر ذلك على أحـــوال بلاد الشام .

ودرس الفصل وصول السلطان ملكشاه الى الشام سنة ٤٧٩ هـ ومنحه اقاليم شمال الشام والجزيرة كاقطاعيات حربية لامرائه وقادته ، ثم النفـوذ السلجوقى فى بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه سنة ٤٧٩ هـ ثم بعد وفاتـه سنة ٤٨٥ هـ عندما دب النزاع والشقاق والخلاف بين أمراء وقادة السلاجقة للاستيلاء على مدن الشام والجزيرة أو الفوز بعرش السلطنة السلجوقيـــة . وأدى هذا الى معارك وحروب كان لها الاثار السيئة على أحوال بـــلاد الشام قبل الغزو الصليبى .

أما الفصل الثالث من الرسالة فعنوانه (الامارات العربية فى بـــلاد الشام قبل الغزو الصليبى) . والقى هذا الفصل أضواء جديدة على تاريخ الامارة المرداسية فى حلب وبخاصة فى سنواتها الاخيرة ثم استيلاء مسلم بن قريش على حلب وقضائه على الامارة المرداسية . كما بحث هذا الفصل تاريخ امارة مسلم بن قريش العقيلى فى الجزيرة وشمال الشام . وتابعـــــت الدراسة تطور تاريخ هذه الامارة منذ تطلع مسلم بن قريش الى بسـط نفوذه على شمال الشام ودخوله فى علاقات مع السلاجقة والفاطميين وغيرهم من القوى فى بلاد الشام والجزيرة حتى نزاعه مع سليمان بن قطلمش ، وهـو النزاع الذى تمخض عنه مقتل مسلم بن قريش وزوال نفوذ العقيليين مـــن شمال الشام ، وسقوط امارتهم لحساب السلاجقة .

وعالج هذا الفصل ايضا تاريخ امارة عربية ثالثة هى امارة بنى منقـــذ فى شيزر ، وهى الامارة التى عاشت نحو نصف قرن من الزمان بعد وصـــول

الحملة الصليبية الاولى . وبحث هذا الفصل نشأة امارة بنى منقذ في شيزر وخاصة فى عهد على بن المقلد وابنه نصر ، ثم علاقة بنى منقذ بالسلاجقة وغيرهم هذا فضلا عن دور هذه الامارة فى احوال بلاد الشام حتى وصول الصليبيين . وتناول الفصل ايضا دراسة امارة بنى عمار فى طرابلس ، وهى الامارة التى ظلت صامدة فى وجه الفاطميين والسلاجقة حتى سقطت اخيرا فى أيدى الصليبيين سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وعالج هذا الفصل أيضا أحوال امارة ابن ابى عقيل فى صور ، وتتبعت هذه الدراسة تاريخ هذه الامارة منذ قيامها سنة ٤٥٥ هـ على يد عين الدولة القاضى على بن عبد الله ابن ابى عقيل وحتى سقوطها سنة ٤٨٢ هـ ، والقى الفصل ضوءا على امارة خلف بن ملاعب فى حمص وافاميه ، ودور تلك الامارات كلها فى تمزق بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الاولى .

أما الفصل الرابع والاخير فقد ناقش تنازع القوى فى بلاد الشام حتى وصول الصليبيين الى أنطاكية سنة ٤٩١ هـ . وقدم هذا الفصل دراسة جديدة عن اثر سياسة الاخوين رضوان ودقاق ابنى تتش فى انهيار النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام ، ودخولهما فى نزاع وحروب وفشلهما فى توطيد نفوذهما فى بلاد الشام وما تمخض عن ذلك النزاع من نتائج خطيرة على بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الاولى .

وبحث الفصل الرابع أيضا دور القادة العسكريين الاتراك والاتابكة فى تمزق بلاد الشام ، ومن هؤلاء القادة ياغى سيان وكربوقا وسكمان بن ارتق واخيه ايلغازى وغيرهم . كما ناقش هذا الفصل موضوع جماعات العساكر

البطالين الذين كانوا عاملا من عوامل تمزق بلاد الشام وتفككها عشية الحملة الصليبية الاولى . وتناول الفصل أيضا انهيار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، وتمثل فى حركات العصيان التى قامت على سبيل المثال فى صور من قبل الولاة الفاطميين والجهود اليائسة التى قام بها الفاطميون للاحتفاظ ببعض موانىء الشام . كما بحث الفصل موقف الفاطميين من وصول الصليبيين الى بلاد الشام وعدم فهمهم لطبيعة الحركة الصليبية واستعادة الفاطميين لبيت المقدس من الاراتقة .

ومن الموضوعات التى تم دراستها فى هذا الفصل ، دور الاقليات الدينية والعرقية فى انقسام وتمزق بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، وعلى راس الاقليات الدينية الدروز ، والنصيريون ، والمارنيون ، والباطنية ، ومن الاقليات العرقية التى ساهمت فى تفكك وتمزق بلاد الشام الاتراك والارمن والاكراد .

وقبل الحديث عن وصول الصليبيين الى أسوار أنطاكية كان لابد من القاء الضوء على تفكك سلاجقة الروم ، الامر الذى ساعد الصليبيين على المسير عبر آسيا الصغرى دون صعوبة كبيرة حتى وصولهم الى أنطاكية . وبحث الفصل موضوع حصار الصليبيين لانطاكية ، والخلافات التى جرت بين زعماء المسلمين والتى أدت الى فشل النجدة التى نهضت بقيادة كربوقا لمساعدة ياغى سيان فى انطاكية وسقوط انطاكية أخيرا فى أيدى الصليبيين سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م .

واحتوت الرسالة على خاتمة ، توضح اهم النتائج التى توصل اليها

البحث ومجموعة من الملاحق التى تفسر بعض الحوادث الواردة فى فصول الرسالة .

وفى الختام لا يسعنى الا أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى وعظيم امتنانى الى المشرف على هذه الرسالة استاذى الجليل الدكتور حسنين محمد ربيع لما بذله من جهود مضنية طيلة مراحل البحث ، ولما أبداه من توجيهات سديدة وارشادات علمية صائبة فى روح من العطف والامانة العلمية ، فجزاه الله عنى وعن طلابه خير الجزاء .

والله أسأل العون والسداد انه نعم المولى ونعم النصير .

• • •

الفصل الأول

بلاد الشام قبل الغزو السلجوقي

- ضعف النفوذ الفاطمي وتفرق القبائل العربية وتمزقها في بلاد الشام.
- اعتداءات جيوش الدولة البيزنطية على مدن شمال الشام.
- غارات الأتراك الغز (التركمان) على بلاد الشام.

((الفصـــل الاول))

بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقـــى

* ضعف النفوذ الفاطمى وتفرق القبائل العربية وتمزقها فى بلاد الشام .
* اعتداءات جيوش الدولة البيزنطية على مدن شمال الشام .
* غارات الاتراك الغز (التركمان) على بلاد الشام .

—•—

بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقي

- ضعف النفوذ الفاطمي وتفرق القبائل العربية وتمزقها في بلاد الشام:

بعد أن تم للفاطميين فتح مصر كان من الضروري ان يمدوا نفوذهم في بلاد الشام ، لان الخلافة الفاطمية ادعت الزعامة الدينية للعالم الاسلامي وحتى يتحقق هذا الهدف ،وجب عليها القضاء على الخلافة العباسية في بغداد ، وهذا لن يتم الا عن طريق فتح بلاد الشام . ولهذا جعل الفاطميون فتح بلاد الشام هدفهم الرئيسي مستعينين في ذلك بقبائل البربر التي جندوها من اقاليمهم الافريقية (١) . ولن نتعرض هنا الى شرح تفاصيل الفتح الفاطمي لبلاد الشام(٢) ، ويجدر شرح اسباب ومظاهر ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام اذ أن امتداد النفوذ الفاطمي الى هذه البلاد في حمل في طياته عوامل الضعف بسبب العوامل التالية :

أولا : واجه الفاطميون في بلاد الشام خطر قرامطة البحرين ، الذين كانت تربطهم بالفاطميين قبل وصولهم الى مصر علاقات طيبة .فالقرامطة كانوا يتبعون مذهب الاسماعيلية ، واعترفوا بالخليفة الفاطمي كخليفة شرعي ، الا أن تضارب المصالح بين الطرفين أدى الى تغيير تلك العلاقة ، فقد كان القرامطة يحصلون من الاخشيديين في بلاد الشام على اتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة الف دينار انقطعت بعد فتح الفاطميين لمدينة دمشق (٣) .

---

(١) جمال الدين سرور ،النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ١٦ ، Gibb, op.cit. p. 15.

(٢) عن الفتح الفاطمي لبلاد الشام ، انظر ابن الاثير ،الكامل جـ ٨ ص ٥٩١ - ٥٩٢ ، المقريزي ،اتعاظ الحنفا ،جـ١ ص ١٢٢ - ١٢٧ .

(٣) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،جـ١ ص ١٨٧ - ١٨٨ ، سرور،النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

وسار الحسن بن أحمد القرمطى الى الشام سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م بعد أن تلقى المساعدة من الملك البويهى بختيار ، والتقى الحسن القرمطى بجعفر ابن فلاح قائد جيش الفاطميين فى بلاد الشام وقتله مع كثير من جنوده المغاربة . ودخل القرمطى الى دمشق ، ثم سار الى الرملة وفتحها ، وأقام الخطبة العباسية وحذف خطبة الفاطميين (١) . ثم سار القرمطى بجموعه الى مصر ، وهدد مدينة القاهرة ، الا أن القائد الفاطمى جوهر الصقلى تمكن من صده عنها ، وهزمه هزيمة شديدة سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧٢م انسحب بعدها الحسن القرمطى الى الاحساء (٢) .

وعندما قدم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الى مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م ، أرسل خطابا طويلا الى الحسن بن احمد القرمطى ، فيه الكثير من ضروب الوعظ والتهديد والوعيد (٣) . فرد القرمطى على خطاب المعز بالمسير الى الشام بعد ان انضم اليه ابن جراح الطائى بقومه ، وقصد مصر واقترب من القاهرة ، على أن الفاطميين تمكنوا من استمالة ابن جراح بالمال فانسحب عند اول اشتباك ، فحلت الهزيمة بقوات القرمطى ، وعاد مهزوما الى الاحساء سنة ٣٦٣ هـ/ ٩٧٤ م (٤)

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١ - ٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص١٨٧ - ١٨٨ ، سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص٢٥-٢٦ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٨٨ ، جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٢٧ .

(٣) انظر خطاب المعز الى القرمطى فى المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ص ١٨٩ - ٢٠١ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

واتجهت سياسة الخليفة المعز لدين الله ،بعد انزال الهزيمة بالقرامطة الى محاولة توطيد الحكم الفاطمى فى بلاد الشام ، فقلد ظالم بن موهوب العقيلى ولاية دمشق ، وارسل اليه جيشا لمعاونته بقيادة ابى محمود بن جعفر ، ولكن جنود الفاطميين من البربر مارسوا اعمال العبث والفساد وقطع الطريق ، فثار عليهم أحداث دمشق ،فعزل المعز ابا محمود بن جعفر وقلد ريان الخادم ولاية دمشق ،فعجز بدوره عن اعادة الامن والنظام الى المدينة (١) . وفى هذا الوقت سار الى دمشق احد قادة بغداد الاتراك ويدعى افتكين التركى بعد هزيمته امام الديلم وقد استدعى اهالى دمشق افتكين ، وطلبوا مساعدته فسار ودخل دمشق وعضده سكانها فأقام الخطبة للطائع العباسى بدلا من المعز الفاطمى وذلك سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٥ م . (٢)

وعندما آلت الخلافة الفاطمية الى العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٦ م، جهز جيشا الى الشام بقيادة جوهر الصقلى لاسترداد دمشق من افتكين التركى وحاصر جوهر افتكين فى دمشق فوقف أهل دمشق مع افتكين ، وأشاروا عليه بالاستنجاد بالحسن القرمطى ، فبعث افتكين الى القرمطى طالبا مساعدته ، فسار الحسن القرمطى الى الشام ، ولما اقترب من دمشق انسحب عنها جوهر وسار الى الرملة ومنها الى عسقلان ،فلحق به الحسن القرمطى وافتكين ، وحاصراه بعسقلان ،فاضطر الى طلب الصلح من افتكين ،فوافق واقنع حليفه

---

(١) ابن القلانسى ص ١٠ - ١١.

(٢) ابن القلانسى ص ١١ - ١٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

القرمطى بقبوله . ونص الصلح على ان يدفع جوهر مبلغا معينا من المال وان يخرج بجنوده من تحت سيف افتكين ورمح القرمطى بعد ان يحلقا على باب عسقلان . وهكذا عاد القائد الفاطمى جوهر الى مصر بعد ان تعرض للاهانة والمذلة ، واوضح للخليفة العزيز حقيقة الوضع فى بلاد الشام وما اصاب سلطان الفاطميين من ضعف وانهيار. (١)

وسار الخليفة العزيز بالله الفاطمى الى بلاد الشام سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٨م للقضاء على تحالف القرامطة مع افتكين التركى ، ولاستعادة نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام . وحاول العزيز استمالة افتكين فلم ينجح ، واخيرا نشبت المعركة بين الفريقين قرب الرملة ، فحلت الهزيمة بافتكين ووقع فى الاسر وفر الحسن القرمطى الى الاحساء ، وبذلك زال نفوذ القرامطة من بلاد الشام ، بيد ان دمشق لم تسقط بيد الفاطميين اذ ظلت خاضعة لقسام زعيم الاحداث بها (٢) . ورغم انتصار الفاطميين اخيرا فان النزاع مع القرامطة احدث قلاقل واضطرابات فى بلاد الشام حالت دون توطيد النفوذ الفاطمى ، كما ان نجاح القرامطة فى انزال الهزيمة بالفاطميين عدة مرات أسقط هيبة الفاطميين واغرى القوى المختلفة فى بلاد الشام بمناوئة النفوذ الفاطمى فى هذه البلاد .

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٥ - ١٧ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٨ ص ٦٥٩ - ٦٦٠ ، خاشع المعاضدى ، الحياة السياسية فى بلاد الشام ص ٤٨ - ٥١ .

(٢) ابن القلانسى ص ٢١ - ٢٤ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٨ ص ٦٦٠ - ٦٦١ ، سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٤٣ ، المعاضيدى ، الحياة السياسية فى بلاد الشام ص ٥١ - ٥٢ .

ثانيا : العامل الثانى الذى أسهم فى اضعاف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، هو موقف سكان بلاد الشام - وخاصة اهل دمشق - من الفاطميين حيث كان سكان بلاد الشام يكنون للفاطميين اشد الكراهية لاسباب ثلاثة اوضحها ابن القلانسى بقوله : " وكان اهل دمشق يابون المغاربة لمخالفتهم فى الاعتقاد ولانهم امويون ولقبح سيرة الناظرين الذين كانوا عليهم "(١) .
وهذا النص الذى أورده ابن القلانسى يوضح ان الموقف العدائى لاهالى دمشق ، ومعهم سكان الشام ، ازاء الفاطميين ، يعود الى الخلاف المذهبى ، فأهل الشام كما هو معروف يدينون بالمذهب السنى بينما الفاطميون اسماعيليو المذهب وعملوا على نشر مذهبهم فى كل المناطق التى أمكنهم الوصول اليها . كما ان سكان بلاد الشام مازالوا فى ذلك الوقت يذكرون العصر الاموى عندما كانت بلاد الشام مركز العالم الاسلامى وكان سكان الشام جنود الخلافة ورجالها المخلصين . ومن المعروف ان سياسة الولاة الفاطميين فى بلاد الشام غرست بذور الحقد فى نفوس الشاميين ، لان اولئك الولاة انتهجوا سياسة بالغة القسوة فى معاملتهم للسكان . يضاف الى ذلك ان جنود الخلافة الفاطمية كانوا من عناصر بربرية من شمال افريقية تنزع دائما الى الفساد وقطع الطريق ، مما جعل السكان يثورون ضد الجنود الفاطميين . ويوجد الكثير من الامثلة على سوء سياسة الولاة الفاطميين تجاه سكان بلاد الشام ، من ذلك مثلا ان القائد جعفر بن فلاح لما فتح دمشق ارسل اليه اهلها وفدا يطالبه باصلاح شئون مدينتهم ، فقبض على الوفد بعض جنود جعفر من المغاربة ، واهانوهم وسلبوا ثيابهم ، وكان

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٦ .

لهذا العمل أسوأ الاثر في نفوس اهالي دمشق (١) .

ولم تكد تستقر الامور في دمشق حتى عاد جند جعفر بن فلاح الى العبث بالنظام وانتهاك الحرمات مما دفع اهل دمشق الى مقاتلتهم ، فرد جعفر على ذلك بان قبض على بعض زعماء دمشق وامر بضرب اعناقهم ، مما زاد في كراهية اهل دمشق لحكم الفاطميين ، وجعلهم يتحينون الفرص للتخلص من سيطرتهم (٢) .

وقد أدت هذه الاسباب التي اوردها ابن القلانسي الى انضمام سكان الشام الى القرامطة والى افتكين التركي في حروبهم ضد الفاطميين ، اذ يذكر ابن القلانسي انه عند ما سار القرمطي وافتكين التركي لمطاردة جوهر الصقلي "اجتمع اليهما من رجال الشام وعربها تقدير خمسين الف فارس وراجل "(٣) وهذا دليل واضح على مدى كراهية سكان بلاد الشام للحكم الفاطمي ، الامر الذي ساعد على عدم توطيد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

ثالثا : هناك عامل ثالث ساعد على ضعف النفوذ الفاطمي ، وهو كثرة تعاقب الولاة على بلاد الشام ، حيث لم يتح هذا فرصة لتوطيد النفوذ الفاطمي في بلاد الشام . اذ مايكاد يعين الوالي حتى يعزل ، وبالتالي اصبح همه يتركز على جمع اكبر قدر ممكن من المال ، لتسديد الاتاوة المقررة للخلافة الفاطمية ولتامين مستقبله عند عزله . وطبيعي ان هذه الاموال التي

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ١٢٤ - ١٢٥ ، جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ١٩ .
(٢) ابن الاثير الكامل ، جـ ٨ ص ٥٩١ - ٥٩٢ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ ، سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ١٩ - ٢٠ .
(٣) ابن القلانسي ص ١٦ - ١٧ .

يجمعها الوالى ، تكون عن طريق فرض الضرائب الباهظة على السكان .

ومن الامثلة على كثرة تعاقب الولاة على بلاد الشام واثره فى ضعف النفوذ الفاطمى ماحدث فى دمشق خلال العقدين الاولين من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، حيث تعاقب على دمشق سبعة عشر واليا ذكرهم ابن القلانسى ولم تتجاوز مدة ولاية بعضهم الشهرين بينما تولى آخرون الولاية بضع مرات متباعدة . وفى سنة ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م وصل الى دمشق ابوالقاسم عبد الرحمن بن الياس بن احمد بن العزيز بالله ، أخو الخليفة الحاكم واليا على دمشق ، فاستقبله اهل دمشق استقبالا مشهودا راجين ان تستقر الامور فى عهده ، وان يوفر لهم العدل والاطمئنان باعتباره من البيت الفاطمى الحاكم ، غير ان املهم تلاشى عندما وصلت جماعة من مصر هجمت عليه فى قصره وقتلت اصحابه وحراسه وخرجت به فى ربيع الاول سنة ٤١٢ هـ / يونيه - يوليه ١٠٢١ م ولكنه عاد الى دمشق فى رجب من السنة نفسها ونزل القصر ، وفى يوم عرفة سنة ٤١٢ هـ/ مارس ١٠٢٢ م قدم الوزير الفاطمى ابن المغربى مع بعض الجنود ، واخرجوا الوالى ابا القاسم من القصر ، وضربوا وجهه على مراى من سكان دمشق ، واخذوه الى مصر مما جعل اهل دمشق يفقدون الثقة فى الولاة وفى الحكم الفاطمى ذاته . ويعلق ابن القلانسى على ذلك بقوله : " واكثر الناس فى التعجب من اختلاف الاراء فى تدبير هذه الولايات وتنقل الاغراض والاهواء فيها .. فزاد عجب الناس ، وحاروا فيما هم فيه ، وتشاكوا ماينزل بهم من الاحوال المضطربة والاعمال المختلفة ". (١)

---

(١) ابن القلانسى ص ٦٦ - ٧٠ .

رابعا : وكان لجماعة الاحداث فى دمشق دور مؤثر فى ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى . والاحداث جماعة من القوات المدنية لعبت دورا هاما فى دمشق وبعض مدن الشام واعالى الجزيرة من القرن الرابع الى القرن السادس الهجرى/ العاشر الى الثانى عشر الميلادى . وكان الاحداث مسئولين عن حفظ النظام ومكافحة النيران وما الى ذلك داخل المدينة ، وفى وقت الحاجة كانوا يشكلون قوة عسكرية لمساندة القوات النظامية ، ولهذه الواجبات حصل الاحداث على اموال كثيرة أتت اليهم من ضرائب معينة تجبى فى المدن .(١)

وكانت حركة الاحداث نتيجة ظروف سياسية واجتماعية سادت بلاد الشام والجزيرة منذ النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى عندما اضمحلت سلطة العباسيين واشتدت حملات البيزنطيين على بلاد الشام والجزيرة وتوالت فتن القرامطة وغارات البدو ، وقد أدت هذه الظروف الى وجود شعور بعدم الاستقرار بين سكان المدن فى بلاد الشام . وفى ظل هذه الظروف قام السكان فى المدن والقرى بتنظيم نوع من المقاومة ضد هذه الاخطار وايجاد قوة لحماية وصون النظام الاجتماعى فى البلاد . وتطورت تلك القوة الى خدمة اهداف ومصالح القادة وغيرهم من الشخصيات الطموحة الذين استخدموها لتحقيق اطماعهم السياسية . وكان المؤرخون يشيرون اولا الى جماعات الاحداث باسم اهل المدينة ثم انتشر اصطلاح الاحداث على

---

(١) Zakkar, The Emirate of Aleppo, pp.255 - 256 ;
The Encyclopaedia of Islam Vol.I. p. 256 ;

سعيد عاشور، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٣٠ - ٣١ .

هذه الجماعات . وتكون معظم افرادها من الفقراء والعامة ، بيد أنها تأتمر بأمر زعيم لها عرف بلقب رئيس البلد ، وقد عرفت معظم مدن الشام والجزيرة جماعات الاحداث على انها تتفاوت فى عددها من مدينة الى اخرى ، حيث كانت تصل الى بضعة الاف فى دمشق وحلب ، ولا تتجاوز المئات فى المدن الاخرى من بلاد الشام (١) .

وفى دمشق بلغت جماعات الاحداث ذروة نشاطها خلال النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى . ولعبت دورا هاما فى مناوئة الحكم الفاطمى لدمشق . وكثيرا ماقاد الاحداث حركات العصيان والتمرد ضد الولاة الفاطميين داخل دمشق . فقد اعتمد الفاطميون على جنود هم المغاربة الذين عاطوا السكان بقسوة بالغة واشار ابن القلانسى الى ذلك بقوله : " ان الرعية تكره المغاربة فى الفساد ، وقطع الطريق على الصدار والوراد " . ففى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وصل جيش فاطمى بقيادة ابى محمود ابن ابراهيم بن جعفر لحماية دمشق من هجمات القرامطة ونهب المغاربة بعض اسواق دمشق ، وزاد عبثهم وفسادهم فثار الاحداث بهم وقادوا حركة المقاومة ضدهم ووقع القتال بين الاحداث وبين جنود الخلافة . ونجم ذلك اشعال النيران فى اكثر احياء دمشق . واخيرا تمكن الاحداث بقيادة الباورد (رئيس شطار الاحداث) من وضع المتاريس داخل احياء دمشق لمنع الجيش الفاطمى من اقتحامها . وظلت الفتنة مشتعلة داخل دمشق

---

(١) Zakkr , op.cit. pp. 257 - 258. ; شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ص ٣١٥ - ٣١٦ ،
انظر ايضا Gibb, op.cit. p. 27- 28 .
وعن احداث حلب انظر مايلى الفصل الثالث ص ٢١٣ - ٢١٦ .

بين احداثها والجنود المغاربة خلال شهر صفر وبعض ربيع الاول سنة ٣٦٣ هـ / نوفمبر - ديسمبر ٩٧٣ م الى ان تم الصلح بين الفريقين ، عندما تولى دمشق جيش بن محمد بن الصمصامة من قبل خاله القائد ابى محمود بن جعفر (١).

وفى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م أصبح رجل يدعى قسام التراب رئيسا على احداث دمشق ، وتغلب على دمشق فى السنة التالية واطاح رئيس الاحداث قساما طاع الامير الحمدانى ابى تغلب الغضنفر بن حمدان فى الاستيلاء على دمشق . وعندما هزم ابن حمدان امام الفاطميين فى فلسطين سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ارسلت الخلافة الفاطمية جيشا بقيادة سليمان بن جعفر بن فلاح لاستعادة دمشق وفشل الجيش الفاطمى فى الاستيلاء على دمشق . وظل قسام واحداثه يسيطرون على دمشق حتى سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م عندما تمكن القائد الفاطمى بلتكين التركى من استعادة دمشق من قسام التراب واتباعه من الاحداث. (٢)

وفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م قام الاحداث ايضا بطرد الوالى الفاطمى سليمان بن فلاح ، وسيطروا على دمشق (٣). فعينت الخلافة الفاطمية فى السنة التالية جيش بن محمد بن الصمصامة واليا على دمشق فجاء بجيشه وعسكر خارج دمشق واخذ يقيم علاقات الود والصداقة مع زعماء الاحداث ودبر مؤامرة راح ضحيتها ما يقارب الف رجل من الاحداث(٤) . وقضت هذه الضربة القاسية على

---

(١) ابن القلانسى ص ٤ - ٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢١ - ٢٧.
(٣) المصدر السابق ص ٤٩.
(٤) المصدر السابق ص ٥٣ - ٥٤.

أحداث دمشق ، مما جعلها خاضعة تماما للحكم الفاطمي . ولم يمتد نشاط الاحداث اليها الا بعد فترة طويلة من الزمن .

أما عن النفوذ الفاطمي في شمال بلاد الشام : فعلى الرغم من أن الحمدانيين قد اصابهم الضعف والانقسام بعد وفاة سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م فان الفاطميين عجزوا عن بسط حكمهم المباشر على حلب طوال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي [١] ؛ ويرجع السبب في ذلك - فضلا عن اسباب ضعف النفوذ الفاطمي في وسط وجنوب الشام - الى ضعف القوة العسكرية للفاطميين ، وبعد شمالي بلاد الشام عن قاعدة الخلافة الفاطمية ، اضافة الى وجود قوات الدولة البيزنطية على اطراف شمال الشام. ولهذا اخذت الدولة الفاطمية تعدل سياستها بحيث تقنع بالولاء الاسمي في شمال الشام مع عدم التساهل مطلقا ازاء استقلال الجنوب الشامي ، لما يمثله ذلك من تهديد مباشر للخلافة الفاطمية في مصر [٢] .

والواقع أن سياسة الحمدانيين ازاء الخلافة الفاطمية كانت تتسم بالعداء بصورة عامة ، ولم يبدأ النفوذ الفاطمي في الوصول الى حلب الا في أواخر عصر الامارة الحمدانية ، عندما استبد غلمان الحمدانيين بالسلطة ، دون أسيادهم . ففي سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م اصبح لؤلؤ السيفي وصيا على ابني سعد الدولة الحمداني ، فنفاهما الى مصر ، واستبد لو بالحكم الى أن توفي

---

(١) عن تفاصيل محاولات الفاطميين بسط نفوذهم على حلب . انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ١٥١ - ١٩٥ .

(٢) انظر : Zakkār , op.cit. , pp. 39-40.

سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م(١) . وخلفه فى امارة حلب ابنه منصور الملقب بمرتضى الدولة فاقام الخطبة للخليفة الفاطمى الحاكم . غير ان مرتضى الدولة التمس فى الوقت نفسه رضى الدولة البيزنطية ، وانتهج سياسة المناورة ازاء الفاطميين والبيزنطيين ، مستغلا اهمية موقع حلب لكلا الدولتين" وكان اذا اضطرب عليه الحاكم موه عليه بملك الروم ، واذا اضطرب عليه امر ملك الروم موه عليه بالحاكم "(٢) كما يقول ابن واصل .

على أن مرتضى الدولة اتبع سياسة تعسفية فى منطقة حلب ، نجم عنهما نفور بنى كلاب فراسلوا الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى BASIL II (٩٧٦ - ١٠٢٥م) وطلبوا منه ارسال الامير ابى الهيجاء الحمدانى ، المقيم عنده ، ليتولى امارة حلب . فاستجاب الامبراطور لطلب كلاب ، وأرسل أبا الهيجاء ، فلما وصل الامير الحمدانى الى ميافارقين أمده صهره ابن مروان بمائتى فارس ، وسار قاصدا حلب ، ومعه بنو كلاب الذين تخاذلوا عنه ، ورفضوا مساعدته بعد ان وعدهم مرتضى الدولة بالاموال والاقطاعات ، فعاد ابوالهيجاء الى القسطنطينية(٣) .

ونشب الخلاف بين بنى كلاب وبين مرتضى الدولة عندما رفض تنفيذ ماشرطه لهم مقابل تخليهم عن مساعدة ابى الهيجاء ، فبادروا بسوق

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ، جـ (ص ١٩٥ ،
The Cambridge Medieval History, Vol.IV, p.725.

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقم ١٥٢ أ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ١٩٧ - ٢٠٠ ،
The Cambridge Medieval History, Vol.IV. p.725.

ماشيتهم في مزارع حلب ، ورعوا ثمارها وقطعوا اشجارها وحاصروا حلب .
فأخذ مرتضى الدولة يتودد اليهم ويبذل لهم الوعود مظهرا رغبته في
تسوية الخلاف معهم ، وطلب منهم ان يحضروا طعامه داخل حلب . ولما
تم ذلك أمر باغلاق ابواب القلعة وقبض عليهم وقتل منهم جماعة ، وزج
بزعمائهم في السجن وعلى رأسهم صالح بن مرداس(١) .

غير أن صالحا نجح في الفرار من سجنه ، وجمع قومه من بني كلاب
وأغار على حلب سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٥ م ، واستولى على تل حاصد
قرب حلب مما اضطر مرتضى الدولة الى التصدى له ، فجمع جيشا على
عجل من سكان حلب وفيه بعض اليهود النصارى وتمكن صالح من انزال
الهزيمة بمرتضى الدولة وأسره ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان دفع فدية
كبيرة ، وأطلق مرتضى الدولة سراح الاسرى من بني كلاب ، وتعهد بتسليم
نصف حلب كاقطاع لبني كلاب وترتب على هذه المعركة ازدياد نفوذ قبيلة
بني كلاب بزعامة صالح بن مرداس(٢) .

وعند ما عاد مرتضى الدولة الى حلب رفض تسليم الاقطاعات لصالح وقومه ،
فحاصر بنو كلاب حلب مرة ثانية ومنعوا الميرة من الوصول اليها ، وأدى ذلك
الى تذمر سكان حلب وسخطهم على سياسة مرتضى الدولة . وانتهى الامر

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٥٢ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٠١ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٥١ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

بقيام ثورة فى قلعة حلب بزعامة فتح القلعى غلام مرتضى الدولة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م . ونادى فتح القلعى بشعار الخليفة الفاطمى الحاكم فهرب مرتضى الدولة الى انطاكية . وجدد فتح القلعى الاتفاق مع صالح بن مرداس وسلمه نصف حلب اقطاعا . وكاتب فتح القعلى الخليفة الفاطمى الحاكم يخبره بما تقرر فى حلب فرد عليه الحاكم يشكره على ما فعل ولقبه مبارك الدولة وكتب الخليفة الفاطمى لاهل حلب مرسوما " باطلاق المكوس والمظالم والصفح عن الخراج " وحتى يؤكد الخليفة الحاكم نفوذه على حلب ارسل واليا من قبله هو الامير الحمدانى أبو شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة . وتسلم فاتك حلب من فتح القلعى سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م وبذلك خضعت حلب للحكم الفاطمى المباشر (١) . وأقطع الخليفة الفاطمى فتح القلعى عوضا عن حلب شريطا ساحليا شمل مدن صور وصيدا وبيروت ،على ان يدفع عنها خراجا سنويا للخلافة قدره ثلاثمائة ألف دينار. (٢)

بدأ عزيز الدولة فاتك حكم ولايته فى حلب فى رمضان سنة ٤٠٧ / فبراير ١٠١٧ م وأخذ يوطد نفوذه فى حلب فقام بتجديد بناء القصر الملاصق للقلعة وامر بصناعة القناديل للمسجد الجامع فى حلب واخذ يسعى لتحسين علاقته بصالح بن مرداس أمير قبيلة كلاب (٣) . ولم يلبث عزيز الدولة فاتك أن خلع طاعة الخليفة الفاطمى الحاكم ، ودعا لنفسه على المنبر ، وضرب النقود باسمه سنة ٤١١ هـ / ١٠٢١ م (٤) . فأخذ الخليفة يعد الجيوش

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ١ ص ٢١٤ ، انظر ايضا : ابن واصل التاريخ الصالحى ورقة ١٥١ ب - ١٥٢ أ .

(٢) ابن واصل ،التاريخ الصالحى ،ورقة ١٥٢ ب ، ابن العديم، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢١٥ ،ابن يحيى ،تاريخ بيروت ص ١٥ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ١ ص ٢١٨ .

(٤) ابن واصل ،التاريخ الصالحى ورقة ١٥٤ أ ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ١ ص ٢١٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ،جـ٢ ص ١٢٩ .

لاستعادة حلب والقضاء على فاتك الذى ما ان علم بذلك حتى أرسل الى الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى يستدعيه ليسلم اليه حلب . وقدم الامبراطور البيزنطى حتى وصل مرج الديباج فى شمال الشام فبلغ فاتك خبر وفاة الحاكم الفاطمى ، فارسل الى باسل يتنصل من وعده بتسليم حلب ، وأنه لو قدم الى حلب لحاربه بمن معه من العساكر وحلفائه بنى كلاب ، فانسحب باسيل وسار نحو أرمينية . (١)

ووصلت الخلع من الخليفة الفاطمى الظاهر الى عزيز الدولة فاتك . وأخذت ست الملك عمة الخليفة الظاهر وكفيلته تتودد الى فاتك ، وبعثت اليه بالهدايا ليطمئن (٢) . واستمالت احد غلمانه ويدعى بدرا ، فاغتال سيده فعهدت اليه بولاية حلب مكان مولاه . وبذلك عادت حلب مرة أخرى الى دائرة النفوذ الفاطمى . وانتهجت الخلافة الفاطمية سياسة جديدة ازاء حلب ، كى تحكم قبضتها عليها ولتمنع قيام اى وال بالثورة ضد الخلافة فجعلت فى القلعة واليا واخر فى المدينة وسار الامر على هذا المنوال ، حتى آلت ولاية حلب الى ابن ثعبان الكتامى ، والقلعة الى موصوف الخادم ، كواليين عليها من قبل الفاطميين الى سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م عندما تمكن صالح بن مرداس ـ كما سنرى ـ من انتزاع حلب وتأسيس الامارة المرداسية (٣).

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٥٤ أ ـ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ومرج الديباج واد بين الجبال بينه وبين المصيصة عشرة اميال ، انظر ياقوت ، معجم البلدان

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٠ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، كرد على ، خطط الشام ، جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ ، ابوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ص ١٤١ ، وانظر مايلى ص

وجاءت المقاومة الرئيسية للنفوذ الفاطمى فى بلاد الشام من جانب شيوخ القبائل العربية القاطنة بلاد الشام[1] . ومن المفيد القاء الضوء على توزيع القبائل العربية فى بلاد الشام ومواطنها ، قبل شرح علاقتها بالخلافة الفاطمية ، ودورها فى اضعاف النفوذ الفاطمى ، وأثر مقاومتها للفاطميين على تمزق القبائل وتفرقها فى بلاد الشام .

أورد اليعقوبى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) شرحا وافيا عن مواطن القبائل العربية فى بلاد الشام ، حيث عرفنا منه أن منطقة حمص واواسط الشام كان جميع قبائلها من اليمن ، من طى وكنده وحمير وكلب وهمدان وتمتد هذه القبائل الى الساحل ازاء هذه المناطق ، وفى منطقة دمشق كان معظم سكانها من قبيلة كلب اليمنية ويوجد بينهم بعض العشائر من قيس وخاصة فى منطقة الغوطة وغالبية العرب فى دمشق وما يقابلها من ساحل لبنان من قبيلة كلب ، وبقايا غسان مع بعض الاقلية القيسية الذين يتركزون فى منطقة الجولان . اما فى جنوب الشام وفلسطين وشرق الاردن فكان سكانها خليطا من لخم وجذام وكندة وقيس وكنانة[2] .

وتجدر الاشارة الى أن الوضع القبلى فى بلاد الشام كان يتغير باستمرار نتيجة لوصول موجات جديدة من القبائل المهاجرة ، تغير الوضع القبلى تغييرا كبيرا . ففى زمن ابن حوقل (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) كانت تسكن منطقة الجزيرة الفراتية وشمال الشام قبائل من ربيعة ومضر ، ثم هاجرت اليها بطون من قشير وعقيل ونمير وكلاب ، فطردت

---

(١) Gibb, op.cit. p.18.

(٢) اليعقوبى ، البلدان ص ٣٢٤ - ٣٢٩ .

قبائل ربيعة ومضر ، واستولت على معظم ديارها فى هذه المناطق ، مثـــل حران ومنبج ومنطقة الخابور وا خانوقة ، وقرقيسياء والرحبة (١) .

وغالبا ماتقوم القبائل الجديدة اثناء وصولها بغارات مدمرة علـــى هذه المناطق ، تقضى علـى النشاط الاقتصادى فيها حتى تستقر ، ثـــم تعاود نشاطها الاقتصادى من جديد . ومن امثلة ذلك ماحدث سنـــــة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ - ٩٨٠م عندما وصلت الى الشام قبيلتا عقيل وفزارة ونزلتا منطقتى حوران والبثنية فى اواسط الشام " وخربتها حتى بطل الزرع فيها وجلا اهلها فهلكوا من الضر ، وصار كثير منهم الى حمص وشيزر واعمال حلب فعمـــرت بهم البلاد " (٢) .

وفى اوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فرضـــت قبيلة طى اليمنية نفوذها على منطقة فلسطين وجنوب الشام ، وقبيلة كلـــب اليمنية على منطقة دمشق واواسط الشام ، وكلاب العدنانية على منطقة حلـــب واجزاء من شمال الشام والجزيرة مثل الرحبة ومنبج ، والحلف الذى عقـــد بين زعماء هذه القبائل الثلاث انما جاء تطبيقا لهذا الواقع الجديد (٣) .

وكان من اسباب ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام تمرد قبيلـــــة طى فى جنوب الشام بزعامة آل جراح الذين لعبوا دورا هاما فى تاريـــخ بلاد الشام منذ دخول الفاطميين دمشق سنة ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وحتى سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م . ففى سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١م اسس المفرج بن دغفـــل

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ص ٢٠٥ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ١ ص ٢٥٠ ، انظر ايضا ابن حوقـــل ، صورة الارض ص ٢٠٤ .
(٣) انظر مايلى ص ٥١ - ٥٢ .

ابن الجراح بمساعدة القرامطة امارة طائية فى جنوب الشام ، واتخذ من الرملة عاصمة له ، واعلن طاعته للفاطميين الا انه يبدو ان المفرج وقومه لم يعتنقوا المذهب الاسماعيلى الذى تدين به الخلافة الفاطمية (١) .

وكانت سياسة ابن الجراح تتسم بالتقلب والمراوغة ازاء الفاطميين وفقا لما تمليه مصالحه ، وكان لتلك السياسة أثر بارز على النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام قبل الغزو السلجوقى . فقد كان لانضمام ابن الجراح الى القرامطة فى حروبهم ضد الفاطميين أثره فى انتصارات القرامطة ، ولما استطاله الفاطميون بالاموال تخلى عن مساعدة القرامطة مما أدى الى هزيمتهم وانحسار نفوذهم عن بلاد الشام . (٢)

وابتداء من سنة ٣٦٩ هـ / ٩٨٠ م زاد نفوذ قبيلة طى بزعامة مفرج ابن جراح على حساب الفاطميين . ففى تلك السنة صار صاحب الموصل أبو تغلب الغضنفر بن حمدان الى دمشق ، فصده عنها قسام التراب رئيس أحداثها فسار ابو تغلب الى الرملة ، فجهز الوزير الفاطمى ابن كلس حملة بقيادة الفضل بن ابى الفضل ، استمالت ابن جراح بمنحة ولاية الرملة . وتمكنت الحملة الفاطمية بمساعدة ابن جراح من هزيمة ابن حمدان وقتله ، الامر الذى نجم عنه ازدياد نفوذ قبيلة طى بزعامة مفرج بن جراح (٣) . وبدأ ابن جراح فى تقويض دعائم الامن والنظام فى جنوب الشام . لذلك راى القائد الفاطمى الفضل بن ابى الفضل وجوب القضاء على ابن جراح ، واستعان على ذلك بقبيلة

---

(١) مسكوية ، تجارب الامم ، جـ ٢ ص ٤٠٢ ، ابن القلانسى ص ٢ ، المناوى ، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ٣٧١ .
(٢) انظر ابن القلانسى ص ٣ .
(٣) مسكويه ، تجارب الامم ، جـ٢ ص ٤٠١ - ٤٠٣ ، ابن القلانسى ص٢١-٢٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٢٥٤ .

بني عقيل ، فعندئذ ارسل ابن جراح الى القاهرة يعتذر ويتلطف ، فصدر أمر الخليفة العزيز الى قائده الفضل بالكف عن مطاردة ابن جراح ، والعودة الى مصر . وما ان رجع الفضل الى مصر حتى "عاد ابن جراح الى فلسطين فأخربها وأهلك من فيها "(١) . وظل ابن جراح يعيث فسادا في جنوب الشام ، بعد ان انضم اليه الكثير من اعراب الشام من قيس وغيرها . وجرد اليه الفاطميون جيشا بقيادة بلتكين التركى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨٢ م فاستولى على الرملة بعد ان انسحب منها ابن جراح ، ثم عاد ابن جراح بعد أن حشد جموعا اخرى ، الا انه هزم امام الجيش الفاطمى وأسر ، ولكنه أفلت من الاسر ولجأ الى البيزنطيين فى أنطاكية (٢) .

وفى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م استغل ابن الجراح فتنة اندلعت فى صور ضد الحكم الفاطمى فعاد الى فلسطين ونزل الرملة ونهبها . واخيرا تمكن القائد الفاطمى جيش بن الصمصامة من اخضاع صور ، وطارد المفرج بن جراح حتى الجأه الى جبلى طى (٣) بشمال جزيرة العرب . واخيرا طلب المفرج الصفح والامان ، فعفا عنه جيش بن الصمصامة ، بعد ان تعهد ابن جراح بالكف عن خرق النظام فى بلاد الشام(٤) .

---

(١) ابن القلانسى ص ٢٤ ، انظر ايضا المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٢٥٤
(٢) ابن القلانسى ص ٢٥ .
(٣) جبلا أجا وسلمى : يقعان شمال الجزيرة العربية قرب مدينة حائل الحالية . وقد سكنت قبائل طى عند سفوح جبلى اجا وسلمى منذ العصر الجاهلى . وظلت تقطنه فترة طويلة بعد الاسلام . انظر : اليعقوبى ، البلدان ص٣١٢ ، ياقوت ، معجم البلدان جـ١ ص ٩٤ - ٩٧ ، القزوينى ، اثار البلاد واخبار العباد ص ٧٤ - ٧٦ ، ابوالفداء ، تقويم البلدان ص ٦٧ - ٦٨ .
(٤) ابن القلانسى ص ٥٠ - ٥١ ، ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم جـ٣ ص ٢٢٧ .

وقد هدد بنو الجراح نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام تهديدا حقيقيا فى اوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) بمساعدة أحد وزراء الدولة الفاطمية وهو ابوالقاسم بن الحسين بن على بن المغربى ، حيث قتل الخليفة الحاكم والده وعمه وأخويه ، ففر الوزير الى الشام ولجأ الى حسان ابن المفرج بن الجراح سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م[١] . واصبح ابن المغربى بمثابة المستشار لحسان بن مفرج ، فأخذ يحرضه على خلع طاعة الحاكم مستغلا امتعاض حسان واخوته من تولية الحاكم ليارختكين التركى ولاية دمشق وقيادة جيوش الشام ، وأقنعهم برفض الاعتراف بهذا القائد ، وأعدوا له كمينا وهو فى طريقه من مصر الى الرملة ، وأسروه ونهبوا كل ما معه . فأرسل الحاكم الى المفرج يعاتبه على فعل اولاده ويعده بالاموال ان أطلق سراح قائده . وخشى ابن المغربى مغبة الصلح بين بنى الجراح والخليفة الحاكم فأوعز الى حسان بقتل القائد يارختكين ، فاستجاب حسان لطلبه ، وسار الى الرملة واستولى عليها . [٢]

وبدأ ابن المغربى فى وضع مخططه ضد الخليفة الحاكم فاجتمع بالمفرج واولاده . وأشار عليهم بمراسلة امير مكة ابى الفتوح الحسن بن جعفر العلوى ومبايعته خليفة على المسلمين (فانه لا مغمز فى نسبه) [٣] . وسار ابن المغربى

---

(١) ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم جـ٣ ص ٢٣٣ ، ابن القلانسى ص ٦٢ ، ابن ظاقر الازدى ، اخبار الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ص ٤٨ ، جمال الدين سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص٤٤-٤٥ .
(٢) ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم ، جـ٣ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ٩ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ١ ص ٢١٨ ، سرور ، النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٤٥ .
(٣) ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم ، جـ٣ ص ٢٣٦ .

الى مكة واقنع ابا الفتوح بقبول الخلافة ووعده بتاييد سكان الشام . وسار أبوالفتوح مع ابن المغربي الى الشام ، وأخذ الوزير البيعة لابي الفتوح من بني الجراح ، وضرب السكة باسمه وانضمت قبائل الشام الى ابي الفتوح الذى نزل بدار الامارة بالرملة وسيطر على اكثر بلاد الشام سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢م[(١)].

وهكذا انحسر النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام اثناء هذه الحركة ، بيد أن هذه الحركة الخطيرة التي حاك خيوطها الوزير ابن المغربي كانت تحمل في طياتها عوامل فشلها . فعلى الرغم من انه اختار لها ابوالفتوح الحسني العلوى الذى لا يتطرق الشك الى نسبه ، وهذا ما يكفل لها القوة المعنوية ، الا أنها افتقرت تماما الى مورد مادى يدعمها ويكفل لها الاستمرار . وجميع أعراب الشام الذين أيدوا ابا الفتوح لا يهمهم الا مصالحهم الشخصية ، فقد كانوا على استعداد دائم لتغيير ولائهم لمن يدفع لهم مالا اكثر ، وهذا ما أدركه الخليفة الفاطمي الحاكم ، فلجأ الى سلاح المال ، وارسل الى حسان ابن المفرج يفاوضه على التخلي عن ابي الفتوح ، " وترددت الرسل حتى تقرر انه يدفع اليه خمسين الف دينار عينا كل واحد من اخوته كذلك ، سوى هدايا وثياب وحظايا تهدى اليه والى اخوته ، وسير ذلك جميعه فمالوا عن أبي الفتوح "[(٢)] .

وسعى الخليفة الحاكم لكسر شوكة آل جراح فاستمال كاتبا للمفرج ابن دغفل واوعز اليه بقتل سيده ، وتمكن الكاتب من تنفيذ ذلك عن طريق السم

---

(١) ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم جـ ٣ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ابن ظافر الازدى ، اخبار الدول المنقطعة ص ٤٨ - ٤٩ ، محمد كرد علي ، خطط الشام جـ ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ ، سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ص ٤٥ .

(٢) الازدى ، اخبار الدول المنقطعة ص ٥٠ .

وفر الى مصر . واندلعت ثورة طى من جديد بزعامة حسان بن المفرج .واستمرت اكثر من سنتين (٤٠٤ - ٤٠٦ هـ) تغلبت فيها طى على كثير من بلاد الشام ، وكثرت مصادرتهم للناس حتى هرب الكثير من النصارى الى انطاكية. ثم أرسل الحاكم جيشا كبيرا بقيادة على بن جعفر بن فلاح لمحاربة آل جراح ، وتمكن من الاستيلاء على كثير من معاقل طى ، حتى اصبح حسان بن المفرج طريدا فى البرية واخذ يتوسل الى الخليفة حتى عفا عنه وسمح له بالعودة الى الشام، بعد أن تعهد بالكف عن الفساد فى بلاد الشام. (١)

ومما تجدر ملاحظته هنا ، أنه اذا كانت الدولة الفاطمية قد نجحت فى الحد من دور قبيلة طى ومنعها من تأسيس امارة مستقلة فى جنوب بلاد الشام ، الا انها لم تتمكن من القضاء عليها . ويرجع ذلك الى تكوين قبيلة طى وغيرها من قبائل الشام التى تتكون فى غالبيتها من البدو الذين يصعب على الجيوش المنظمة ملاحقتهم والقضاء عليهم ، فكثيرا ما هربت جموع طى الى شمال جزيرة العرب ، ثم لا تلبث ان تعود الى جنوب الشام . وقد أدت سياسة طى بزعامة ال جراح الى نتائج سيئة على الاحوال الاقتصادية فى جنوب بلاد الشام بسبب غاراتها على المناطق الحضرية والزراعية . ونجم عن تلك السياسة ايضا اضعاف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .

ولما تولى الظاهر بن الحاكم الخلافة الفاطمية سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م عاد بنو الجراح لاثارة الاضطراب فى بلاد الشام ،وسعوا لعقد حلف مع قبيلتى كلب بزعامة سنان بن عليان ، وكلاب بزعامة صالح بن مرداس لاقتسام

---

(١) ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم جـ٣ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، مصطفى الحيارى الامارة الطائية ص ٤٩ - ٥٠ ، امينة البيطار ،امراء العرب فى بلاد الشام والعراق وموقفهم من الفاطميين ص ٦٩ .

بلاد الشام فيما بينهم ،وطرد الفاطميين منها . وحاولوا تدعيم هذا التحالف بالاستعانة بالدولة البيزنطية ،فراسلوا الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) طالبين منه مساعدتهم اذا حاولت الدولة الفاطمية القضاء على الحلف . ورفض الامبراطور البيزنطى ان يجازف بعلاقته الودية مع الخلافة الفاطمية [1] . وفى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م راسل حسان بن جراح صالح ابن مرداس وسنان بن عليان ، واجتمع الثلاثة بفلسطين ، وتعاهدوا على توحيد قواهم ضد الخليفة الفاطمى . ونص الحلف على " أن تكون فلسطين وما برسمها لحسان بن الجراح حتى باب مصر ، ولاخيه محمود بن جراح طبرية ومايتصل بها من الساحل ،ولسنان بن عليان دمشق وسوادها ،وحلب وما يتبعها لصالح بن مرداس " [2] .

وتنفيذا لهذا الاتفاق سار سنان بن عليان وصالح بن مرداس بجموعهما الى دمشق وحاصروها ، وشنوا عليها غارات متتالية ،ونهبوا الغوطة وجميع القرى المحيطة بها ، وقتلوا الفلاحين ، وصادروا الغلات . وأرسل حسان ابن جراح نجدة الى سنان وصالح لمساعدتهما على حصار دمشق ، ولكن دمشق ظلت صامدة رغم مانزل بها من كوارث [3] . أما حسان بن جراح فانه هاجم الرملة واستولى عليها وهزم الوالى الفاطمى انوشتكين الدزبرى ،واجبره على الانسحاب الى عسقلان فى رجب سنة ٤١٥ هـ / اكتوبر ١٠٢٤ م . ولما

---

(١) مصطفى الحيارى ،الامارة الطائية ص٥١ ،
Zakkar , op.cit. pp.92- 93.

(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ ،الغزى ،نهر الذهب فى تاريخ حلب ، جـ٣ ص ٦٨ ، الحيارى ،الامارة الطائية ص٥١ .

(٣) المقريزى ،اتعاظ الحنفا ،جـ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ ،سهيل زكار ،مختارات من كتابات المؤرخين العرب ص ١٠٣ - ١٠٤ (نقلا عن كتاب اخبار مصر للمسبحى ، Zakkar, op.cit., p.96.

دخل حسان الرملة عاث فيها حرقا ونهبا ، وسبى الكثير من النساء والاطفال ، وحمل منها اربعمائة جمل محملة بالمال والمتاع ، وارسل الى الظاهر الفاطمى يطلب منه أن يزيد فى اقطاعه نابلس والقدس فى مقابل وقف اعماله فى فلسطين ، فأجابه الظاهر باقطاعه نابلس دون القدس.(١)

وفى الوقت نفسه تمكن كاتب صالح بن مرداس ، واسمه سليمان بن طوق ، من الاستيلاء على معرة مصرين احدى قرى حلب ، وتوجه الى حلب فى رجب سنة ٤١٥ / اكتوبر ١٠٢٤ م ودارت الحرب بينه وبين واليها الفاطمى ابن ثعبان بن محمد الكتامى ، والوالى على القلعة موصوف الخادم الصقلبى . وترك صالح بن مرداس حليفه سنان بن عليان يحاصر دمشق ، وسار لنجدة قواته أمام حلب ، وشدد عليها الحصار قرابة الشهرين (٢) . وقد ساعد الانقسام داخل حلب على سقوطها بيد صالح بن مرداس ، هذا فضلا عن المساعدة التى قدمتها جماعة الاحداث بحلب بزعامة سالم بن المستفاد مما سهل على صالح دخول حلب ، وتسلم صالح المدينة فى ذى القعدة سنة ٤١٥ هـ / يناير ١٠٢٥ م وبذلك تأسست الامارة المرداسية فى حلب (٣) . واعتصم ابن ثعبان الكتامى بالقصر الملاصق للقلعة ونصب صالح المنجنيقات على القصر وقلعة حلب ، ثم عهد الى سالم بن المستفاد ، زعيم احداث حلب ، وسليمان ابن طوق بتشديد الحصار على القصر والقلعة ، وسار صالح مسرعا الى فلسطين

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٥٤ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
Zakkar, op.cit., pp.96-97.

= عن دور جماعة الاحداث زمن صالح بن مرداس انظر مايلى : الفصل الثالث ص ٢١٣ - ٢١٤ .

لنجدة حسان بن المفرج على انوشتكين الدزبرى . ودام حصار قلعة حلب سبعة أشهر ، وأخيرا قرر نواب صالح بالمدينة اقتحام القلعة ،ونادوا فى السكان بالجهاد ، وتمكنوا من نقب اسوار القلعة ، واقتحموها فى جمادى الاولى سنة ٤١٦ هـ / يونيه ١٠٢٥ م ! وعاد صالح بن مرداس من فلسطين وطرد جميع انصار الفاطميين من حلب(١) . وسار صالح فى السنة نفسها واستولى على حمص ، وتوجه نحو بعلبك فأخذها وتغلب على كل مايحيط بها من قرى بالاضافة الى صيدا ، وحصن ابن عكار قرب طرابلس ،وبذلك سيطر على معظم المناطق الخاصة به ،والتى نص عليها الحلف ، فضلا عن الرحبة ومنبج وبالس ورفنية التى كان يسيطر عليها قبل فتح حلب.(٢)

وعلى الرغم من عصيان صالح بن مرداس وحروبه ضد الفاطميين فى بلاد الشام فانه ظل معتنقا للمذهب الشيعى ومعترفا بالسيادة الروحية للخليفة الظاهر الفاطمى . ومما يبرهن على هذا ، ذلك الدينار الذى ضرب فى حلب سنة ٤١٧ هـ فى عهد صالح ،وعليه الشعار الشيعى واسم الخليفة الظاهر ، بالاضافة الى اسم صالح بن مرداس(٣) .

ومهما يكن من أمر ،فقد ذكر ابن خلكان وغيره ،أن حسانا بن المفرج

---

(١) ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ،جـ٢ ص ١٧١ ، العرينى ،الدولة البيزنطية ص ٦٩٠ ،
Zakkar, op.cit., pp.97-98.

(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣٠ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٣ - ٤٤ .
انظر ايضا : Zakkar, op.cit., p.98.

(٣) انظر : Lane-pool, Catalogue of Arabic Coins, pp. 337 - 338.

أرسل سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م الشاعر علي بن محمد التهامي الى بني قرة(١) في مصر يدعوهم الى نصرته ولكن الفاطميين قبضوا على الشاعر وسجنوه في خزانة البنود ، ثم قتلوه في السنة نفسها (٢) . ويبدو أن حسانا كان يهدف من سفارته تلك الى اشغال الدولة الفاطمية بفتنة داخل مصر تلهيها عما يجرى في بلاد الشام ريثما يفرغ حسان وحلفاؤه من السيطرة على بلاد الشام وتوطيد نفوذهم بها . ويزكي هذا الرأي أن حسانا ارسل في أعقاب هذه السفارة فرقة من ألفي فارس ، وصلت الى الفرما واوقعت الفزع والاضطراب بين سكانها ، ففروا في المراكب الى تنيس ، ووصل بعضهم مستغيثين الى القاهرة (٣) .

واستمرت الحرب في فلسطين بين حسان بن المفرج وبين الوالي الفاطمي انوشتكين الدزبرى الذى وجه ضربات قوية لحسان في فلسطين . ثم تمكن حسان من استمالة الوزير الفاطمي الحسن بن صالح الروذباري وأعدت مؤامرة تم فيها القبض على انوشتكين الدزبرى بعسقلان سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦ م ، وبذلك خلا الجو لحسان في جنوب الشام(٤) . على ان الظروف

---

(١) بنو قرة " بطن من هلال بن عامر بن صعصعة من العدنانية ، بلادهم اخميم من صعيد مصر " . انظر : القلقشندى ، نهاية الارب في معرفة انساب العرب ص ٣٩٧ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ٣ ص ٣٨١ ، ابوالفدا ، المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٦٢ .

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٦٦ ، خطط المقريزى ، جـ ١ ص ٣٥٤ ، وتنيس جزيرة قريبة من البر مابين الفرما ودمياط . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ٢ ص ٥١ .

(٤) المقريزى ، المقفى ورقة ٢٢٤ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام " مخطوط " جـ ١١ ورقة ٨٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ص ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧١ .

تغيرت بعد ذلك لصالح الفاطميين . فقد استمر سنان بن عليان الكلبي في غاراته وحصاره لدمشق حتى توفى سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م وخلفه في زعامة قبيلة كلب ابن اخيه رافع ابن ابي الليل بن عليان فدخل بقبيلته في طاعة الظاهر الفاطمي الذي أوكل اليه قتال بني الجراح وبني كلاب حلفاء عمه بالامس ، وبذلك انفرط عقد التحالف بين قبائل الشام الرئيسية (١) .

وفي مصر تقلد الوزارة على بن أحمد الجرجرائي ، فأعاد انوشتكين الدزبري الى ولاية الشام سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م وجهزه على راس حملة عسكرية يبلغ عدد افرادها حوالي سبعة الاف فارس ، وأمر الجرجرائي رافع بن ابي الليل زعيم كلب وبعض بطون قبيلة فزارة بالانضمام الى حملة انوشتكين الدزبري ، وسار الجميع الى الشام . وتمكنت هذه الحملة بقيادة انوشتكين الدزبري من هزيمة قوات طي وكلاب مجتمعة في معركة الاقحوانة في ربيع الثاني سنة ٤٢٠ هـ / ابريل ١٠٢٩ م . وقتل صالح بن مرداس وابنه ، وحمل رأسه الى القاهرة ، وبذلك استعاد الفاطميون سيطرتهم على المناطق الجنوبية والوسطى من بلاد الشام. (٢)

ويمكن اعتبار معركة الاقحوانة بداية انحسار النفوذ السياسي للقبائل العربية في بلاد الشام . ففي هذه المعركة قضى على تحالف قبائل الشام

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦ ، امينة البيطار ، موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ص ١٢٣ - ١٢٤ ،
Zakkar, op.cit. p.100.

(٢) المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٢٤ ب ، الذهبي ، تاريخ الاسلام جـ ١١ ، ورقة ٨٦ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١٧٨ ، Zakkar, op.cit., p.100. ، الاقحوانة ، موضع بالاردن على شاطئ بحيرة طبرية ، ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٢٣٤ .

الرئيسية المناهضة للفاطميين ، وفر حسان بن جراح الطائى زعيم قبيلة طى الى الامبراطور البيزنطى ونزل فى جواره وشارك فى بعض الحملات البيزنطية فى بلاد الشام ، وبالتالى انحسر نوفوذ طى عن جنوب الشام (1) . واستمال الفاطميون الى جانبهم قبيلة كلب بزعامة رافع بن ابى الليل الذى شارك فى معركة الاقحوانة وساهم فى قتل صالح بن مرداس زعيم قبيلة كلاب . ومنذ ان اصطنع الظاهر الفاطمى رافع بن ابى الليل واعترف به زعيما لقبيلته كلب ، اصبحت قبيلة كلب اصدق قبائل الشام فى ولائها للفاطميين . وظل رافع بن ابى الليل وقبيلته يدينون بالطاعة والولاء للفاطميين وينفرون معهم لقمع القبائل العربية الاخرى فى بلاد الشام . (2) على ان هذه السياسة التى انتهجتها قبيلة كلب كان لها اثرها فى اثارة روح العصبية القبلية بين كلب اليمنية وكلاب العدنانية مما ادى الى تمزق قبائل الشام وتفرقها .

وهكذا قضى أنوشتكين الدزبرى على حلف قبائل الشام فى معركة الاقحوانة واضحى واليا على جنوب واواسط الشام ، وأخذ يوطد النفوذ الفاطمى فى هذه المنطقة مستعينا فى ذلك بخبرته السابقة بها وكفاءته لما عرف عنه من عدل وصلاح وحزم . (3) ولم تخضع حلب لحكم انوشتكين

---

(1) انظر مايلى ص ٧٦ - ٧٧

(2) امينة البيطار ، موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ص ١٢٥ - ١٣٢ .

(3) كان انوشتكين الدزبرى قد تقلد ولاية بعلبك ، ثم قيسارية ثم فلسطين قبل ولايته العامة على الشام ، انظر المقريزى ، المقفى ورقة ٢٢٤ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج ١١ ورقة ٨٦ ب ، ابن القلانسى ص ٧١ - ٧٢ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ج ٩ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

ان سيطر عليها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، واستعاد ملك أبيه بها سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م[1] . وأخذ نصر يسعى جاهدا لتحسين علاقته بالخلافة الفاطمية . على أن العلاقة بين انوشتكين ونصر بن صالح أخذت فى التوتر بسبب رغبة انوشتكين فى ضم حلب الى ولايته ، ولذلك ارسل انوشتكين حملة اليها بقيادة رافع بن ابى الليل زعيم قبيلة كلب التقت بقوات نصر بن صالح خارج حلب . وقتل نصر فى المعركة وسقطت حلب بيد انوشتكين وتسلمها فى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ، وفر بعض اقارب نصر بكل مافى قلعة حلب من اموال وذخائر . وكان لقتل نصر بن صالح وضياع الاموال والذخائر من القلعة أسوأ الاثر فى نفس الوزير الفاطمى على بن احمد الجرجرائى فبدأ النفور يستحكم بينه وبين انوشتكين الدزبرى[2] .

وبعد ضم حلب سار انوشتكين الى بالس ومنبج واستولى عليها ثم عاد الى دمشق[3] . وبذلك سيطر على معظم بلاد الشام ، ووصلت هيبته

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٣٧ - ٢٥٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢٣١ ، Zakkar, op.cit. p.101.

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، مخطوط ، جـ١٢ ورقة ٥٧ ب ، ٥٨أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ينسب الوزير ابوالقاسم على بن احمد الجرجرائى الى جرجرايا وهى قرية بالعراق . تولى للخليفة الحاكم بعض امور الدواوين واتهمه الحاكم بالخيانة وقطع يديه من المرفقين سنة ٤٠٤ هـ ، ثم تولى ديوان النفقات سنة ٤٠٩ هـ واخيرا استوزره الظاهر الفاطمى سنة ٤١٨ هـ وظل يلى الوزارة للخليفة الظاهر ولابنه المستنصر حتى توفى سنة ٤٣٦ هـ ، انظر ترجمة الجرجرائى فى : ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ص ٣٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ٣ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٣) المقريزى ، المقفى ورقة ٢٢٤ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

اقليم الجزيرة الفراتية ، بحيث هدد صاحب الرقة وحران شبيب بن وثاب النميرى ، عندما قطع الخطبة الفاطمية واقامها للعباسيين فتراجع النميرى عن ذلك خوفا من انوشتكين (١) . وهكذا وطد انوشتكين نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام واستقر حكمهم بها كما اوقف الخطر البيزنطى على بلاد الشام بعد أن أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١م (٢) .

ورغم كل الجهود التى بذلها انوشتكين لتوطيد الحكم الفاطمى فى بلاد الشام لم ترض عنه الخلافة فى القاهرة ، وساءت العلاقة بينهما لعدة أسباب اهمها ؛ جمع انوشتكين الأموال لنفسه ، واستخفافه بالوزير على بن احمد الجرجرائى وعدم تنفيذ اوامره ، وقتله نصر بن صالح بن مرداس ، كما قيل انه انحرف عن مذهب الاسماعيلية فى أواخر عهده (٣) . فأوعز الوزير الجرجرائى الى جنود الخلافة بدمشق بالخروج على انوشتكين فتمردوا عليه فرد على ذلك بقطع ارزاقهم فحاربوه ونهبوا خزائنه فاضطر الى الفرار من دمشق وقصد بعلبك فصد عنها ، وسار الى حماة فلم يستطع دخولها . وعقد بنو كلاب العزم على نهب ما معه فاستنجد بالمقلد بن منقذ الكنانى أمير كفرطاب ، فسار اليه فى الفى رجل من قومه وذب عنه حتى دخل حلب ، وتوفى بعد دخوله اليها بفترة وجيزة وذلك سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢م (٤) . وكان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ٩ ص ٤٦٥ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ١٨٣ ، تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص ٦٨٠ .

(٢) انظر مايلى ص ٧٨ .

(٣) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٢٤ ب ، ٢٢٥ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ ١١ ورقة ٨٦ ب ، ٨٧ أ ، ابن القلانسى ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٠٠ - ٥٠١ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات جـ٩ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ، ابن بدران ، تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ٣ ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٦٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ٩ ص ٥٠١ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات جـ٩ ص ٤٢٦ ، يوسف الدبس ، تاريخ سورية جـ٣ ص ٤٦١ ، حمدى المناوى ، الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ص ٢٠ .

موت انوشتكين من أهم اسباب ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام قبل الغزو السلجوقى فبموته " فسد أمر الشام وزال النظام وطمعت العرب وخرجوا فى نواحى الشام "(١) .

وفى أعقاب موت انوشتكين الدزبرى سار ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م من الرحبة بجموع كلاب وانتزع حلب وقلعتها من بنجوتكين غلام الدزبرى (٢) . وحصل ثمال من الخليفة المستنصر الفاطمى على الاعتراف بامارته على حلب بعد ان تعهد للخليفة بارسال جميع الاموال التى تركها انوشتكين فى القلعة مع اتاوة سنوية عن حلب وأعمالها . بيد أن ثمالا أنفق بعض اموال القلعة فى ترميم اسوارها ، وارسل الجزء الباقى الى المستنصر ثم تأخر فى ارسال الاتاوة سنتين ، مما أساء الى العلاقة بينه وبين الفاطميين ، واعلن ثمال عصيانه ، فسير المستنصر اليه سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م والى دمشق ناصر الدولة بن حمدان على راس حملة عسكرية معظم جنودها من قبيلة كلب اليمنية . ورغم استيلاء ناصر الدولة على حمص وحماة ونزوله قرب حلب ، فقد هزم بسبب هطول الامطار الغزيرة وعاد الى دمشق(٣) .

---

(١) العينى ، عقد الجمان ، ج ١١ ورقة ٧ أ - ب ، ابوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ورقة ١٤٨ أ - ب ، ابن واصل التاريخ الصالحى ، ورقة ١٥٧ ب ، ١٥٨ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١ ، ديوان ابن ابى حصينة ج ١ ص ٣٠ - ٣١ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ج ٤ ص ١٦٩ ،
Zakkar , op.cit. pp.138 - 139.

(٣) المقريزى ، المقفى ورقة ٢٩١ ب ، ٢٩٢ أ ، العينى عقد الجمان ، ج ١١ ورقة ١٤٨ أ - ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج ١ ص ٢٦٥ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٣٥٥ ، Zakkar, op.cit., pp.141-142.

وتجدر الاشارة هنا الى أنه منذ أن دخلت قبيلة كلب اليمنية فى طاعة الفاطميين ، وانخرط رجالها فى صفوف جيوشهم ضد امارة بنى مرداس الكلابية المدنانية ازدادت روح العصبية القبلية بين كلب وكلاب . وقد أدت مشاركة كلب فى حملات الفاطميين ضد امارة بنى مرداس الى أن يقاتل الكلابيون ببسالة فائقة ضد الفاطميين ، ليس لكراهيتهم للحكم الفاطمى فحسب، بل لان حملات الخلافة الفاطمية تضم فى غالبيتها قبيلة كلب التى كان مجرد وصولها الى شمال الشام ،يثير حساسية مفرطة فى نفوس الكلابيين ، ويمكن ايجاد شواهد على هذا فى شعر ابن ابى حصينة شاعر المرداسيين (١) .

ومهما يكن من أمر ، ففى سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م حاول والى حمص الفاطمى جعفر بن كليد مضايقة حلب ، فقتله المرداسيون وسقطت حمص وحماة بيد ثمال المرداسى وازداد نفوذه فى شمال الشام. (٢) وحاول المستنصر توطيد حكم الفاطميين فى بلاد الشام وعقد العزم على القضاء على ثمال بن صالح ، فجهز سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م حملة ضخمة بلغ عدد افرادها ثلاثين الفا معظمهم من قبائل كلب وفزارة وطى بقيادة رفق الخادم . وسارت الحملة حتى وصلت دمشق وقبض رفق الخادم على ناصر الدولة بن حمدان لاخفاقه فى استعادة حلب . ثم سار رفق قاصدا

---

(١) يقول ابن ابى حصينة من قصيدة نظمها على لسان الامير المرداسى ثمال بن صالح فى أعقاب حملة ناصر الدولة بن حمدان على حلب :

فما رعت حقنا كلب ولا حفظت   لنا الصنيعة قحطان ولا أدد

واطمعتكم حماة فى ممالكنا   والمطمع السوء مقرون به الحسد

ديوان ابن ابى حصينة ، ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٤ ، انظر نص القصيدة فى الملاحق .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ص ٢٦٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، Zakkar, op.cit.p.142.

حلب ، فلما وصلها خرج لقتاله أهل حلب وبنو كلاب بقيادة ثمال ، وأنزلوا الهزيمة بالجيش الفاطمى ، وأسروا قائده رفق الخادم مع أعداد كبيرة من أصحابه ، وتوفى رفق متأثرا بجراحه ، وأرسل ثمال كل من بقى من أصحاب رفق مقيدين الى مصر (١) .

وشعر ثمال بن صالح أن الخليفة المستنصر لن يسكت على تلك الهزائم التى ألحقها المرداسيون بجيوشه وانه سوف يتعرض لحملات أشد واعنف قد تنهى حكمه فى حلب لذلك قرر التقرب الى المستنصر فارسل سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م ولده وثابا وزوجته الى مصر ومعهما الكثير من الهدايا والتحف الفاخرة واربعين الف دينار ، ووصلا القاهرة واستقبلهما المستنصر واكرمهما ، وكتب لزوجة ثمال توقيعا لزوجها بولاية حلب ، وأرسل معهما الكثير من الخلع لثمال ولبنى عمه ، وبذلك تحسنت العلاقات بين المستنصر والمرداسيين الى حين ، (٢)

ويبدو أن الخلافة الفاطمية لم تدرك أثر روح العصبية القبلية المستحكمة بين قبيلة كلاب العدنانية وقبيلة كلب القحطانية ، فواصلت استعانتها دائما بقبيلة كلب فى حروبها ضد الامارة المرداسية . والخلافة بهذه السياسة تدفع كلاب الى التشبث باستقلالها والى العصيان الدائم على الخلافة . وقد أدرك هذه السياسة المؤيد فى الدين داعى الدعاة الفاطمى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ناصرى خسرو ، سفرنامه ص ١١٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٠٢ و ٢٠٩ ، خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، Zakkar, op.cit., pp.143-144.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ناصرى خسرو ، سفرنامه ص ١١٣ - ١١٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢١٣ ، Zakkar, op.cit., pp.147-148.

عندما خرج من القاهرة سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م مجهزا بالاموال الطائلة لدعم حركة البساسيرى ضد الخلافة العباسية. وكانت اوامر الوزير الفاطمى اليازورى للمؤيد فى الدين أن يصطحب معه قوة كلبية قدرها ثلاثة آلاف رجل لحراسة الاموال التى معه اثناء سيره الى ديار كلاب فى شمال الشام لنيل دعم ثمال المرداسى وغيره من امراء الجزيرة لحركة البساسيرى. وقد تجاهل المؤيد أوامر الوزير اليازورى المشددة فى اصطحاب كلب معه لمعرفته ان هذه الخطوة ستؤدى الى نفور ثمال بن صالح ووحشته عندما تطأ كلب ارض قبيلته، وما ينجم عن ذلك من خطر محقق على مهمة المؤيد ذاتها. فقد جاء فى سيرة المؤيد فى الدين قوله: "وسرت فى جلبة عظيمة ... وكان الناس يتعجبون ويحكمون بأن المال المحمول فى صحبتى مال كتب الله عليه الضياع فهو من دون وصوله الى حلب يتخطف ... فكان فيما مثل لى اننى استتبع ثلاثة الاف رجل من الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح فحدثتنى نفسى بمنافاته للصواب". واجتمع المؤيد بوالى صور ابن ابى عقيل وعرض عليه اوامر الوزير فى اصطحاب كلب الى شمال الشام، فرأى نفس راى المؤيد فى خطورة ذهاب كلب الى شمال الشام. وقد أرسل المؤيد الى ثمال يخبره انه لن ينفذ أوامر الوزير فى اصطحاب كلب الى دياره. ثم ارسل المؤيد الى الوزير اليازورى يخبره بانه "غير مستتبع احدا من الكلبيين ... فقامت قيامته فى هذا الباب وكاتبنى يحذرنى من تبديد قوله فلم يجد كلامه منى اذنا سمعية ولا نفسا مطيعة". وشرح المؤيد خطورة مجىء كلب الى ديار كلاب بأن

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ١٠٠ - ١٠١.

ذلك قد يثير روح العصبية القبلية بين القبيلتين فتندلع الحرب بينهما ، مما يهدد جهود الخلافة فى مساعدة البساسيرى للتصدى للزحف التركمانى السلجوقى على بلاد الشام والعراق ، وفى ذلك يقول المؤيد " ولقد شققت العصا بالخلاف عليه ... أخشى أكل لحمى ونهش عظمى فى سقيفة كلب وكلاب قبل دخول دار ترك وتركمان "(١) .

ظل ثمال يحكم حلب حتى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م حين طرأت ظروف قاسية جعلت استمراره فى حكم حلب فى غاية الصعوبة . واهم تلك الظروف حركة البساسيرى فى العراق بدعم الفاطميين واتخاذه الرحبة - التابعة للامارة المرداسية - قاعدة لاعماله الحربية ، واضطراب بنى كلاب على ثمال طامعين فى المزيد من الاموال التى بحوزته ، وانتشار القحط فى منطقة حلب(٢) . ودفعت هذه العوامل مجتمعة ثمالا الى مكاتبة الخليفة المستنصر . وتنازل له عن حلب وارسل المستنصر الحسن بن ملهم وقاضى صور فتسلما حلب من ثمال سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م(٣) وعوض المستنصر ثمالا بدلا عن حلب مناطق ساحلية من بلاد الشام شملت مدن عكا وبيروت وجبيل(٤)

---

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ١٠١ - ١٠٧ .
(٢) انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، الذهبى العبر فى خبر من غبر ، جـ ٣ ص ٢١٨ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٥ ، القلقشندى ، مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، جـ ١ ص ٣٤٤ ، Zakkar, op.cit.,pp.148-154.
(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٧٤ ، صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ١٥ - ١٦ .

وحدث انه بعد ما تسلم الفاطميون مدينة حلب ،استقر عطية بن صالح (شقيق ثمال) فى مدينة الرحبة ، وقرر مناهضة الفاطميين . وأقام الخطبة للعباسيين فقرر الفاطميون سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ارسال حملة لاخضاعه معظم جنودها من قبيلة كلب ، فاتصل زعماء كلاب بالقائد الفاطمى الحسن بن ملهم وقالوا له : " قد بلغنا مجىء كلب الى هاهنا لاجل عطية والرحبة ، ونحن نعطيكم رهائن ونكفيكم امر عطية والرحبة ، من غير ان تطأ بنو كلب ديارنا ومتى فعلتم ذلك اخرجتمونا الى العصيان" . ويتضح من هذا النص ان قبيلة كلاب قبلت بان تحارب عطية ومن معه من بنى كلاب فى الرحبة فى سبيل عدم دخول كلب بلادها . ولما لم يستجب القائد الفاطمى لطلب زعماء كلاب استدعوا عطية من الرحبة وأمروه عليهم وساروا جميعا فاستولوا على حمص وحماة وهما من املاك بنى كلب ، واضطر الفاطميون الى استعطاف عطية حتى تخلى عن حمص وحماة(1) .

أما حلب فقد ظلت خاضعة للفاطميين ثلاث سنوات فقط اذ حدث سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ان شن بنو كلاب بقيادة محمود بن نصر هجوما على حلب ولم يتمكن الوالى الفاطمى الحسن بن ملهم من مقاومته بعد أن ثار الاحداث بحلب تاييدا لمحمود بن نصر وفتحوا له ابواب حلب فدخلها مع قبيلته واعتصم ابن ملهم بالقلعة ، وأرسل الى المستنصر طالبا النجدة . فأمر الخليفة الفاطمى واليه على دمشق ناصر الدولة بن حمدان بالمسير لنجدة ابن ملهم . وسار

---

(1) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ١٨٤ ب - ١٨٥ أ . ؛ Zakkar , op.cit., pp.157-158.

ابن حمدان مصطحبا جموع طى وكلب . وبعد مناوشات بين الطرفين التقت قوات محمود المرداسى بناصر الدولة بن حمدان بالفنيدق [١] ، وانسحبت طى وكلب من جيش الفاطميين ، فحلت الهزيمة بمن بقى مع والى دمشق ، ووقع ناصر الدولة فى الاسر . وتقدم محمود بن نصر ودخل حلب واستولى على القلعة . وبذلك عادت الامارة المرداسية من جديد الى حلب [٢] .

لم يكد يستقر محمود بن نصر فى امارته بحلب حتى عزل الخليفة المستنصر عمه ثمالا عن عكا وبيروت وجبيل ، وجهزه على رأس حملة عسكرية لاستعادة حلب من ابن أخيه [٣] . فسار ثمال الى الشام واستمال اليه بعض عشائر بنى كلاب ، واستعاد حلب من ابن اخيه محمود سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م . بيد أن ثمالا لم يلبث ان توفى فى العام التالى وخلفه فى امارة حلب بناء على وصية اخوه عطية بن صالح . غير ان محمودا قام ينازع عمه عطية على الامارة وايدته فى ذلك قبيلة كلاب . وبعد معارك طويلة بين الاثنين نجح محمود فى الاستيلاء على حلب وصالح عمه عطيه على اعطائه الرحبة والرقة وبالس ومنبج وذلك فى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م [٤] .

---

(١) الفنيدق من اعمال حلب على مسافة خمسة فراسخ ، انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ٤ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٦٢ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلبى جـ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٩ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ديوان ابن ابى حصينة جـ١ ص ٣٥٣ ، Zakkar, op.cit., pp.156-160.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٨١ ، صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ١٦ .

(٤) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٩٢ أ - ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٨١ - ١٩٤ ، القلقشندى ماثر الانافة فى معالم الخلافة جـ ١ ص ٣٤٤ ، Zakkar, op.cit., pp.156-160.

أخذ محمود بن نصر يسعى جاهدا لتدعيم امارته فى حلب ، وحصل من الخلافة الفاطمية على الاعتراف به أميرا عليها (١) . على ان علاقته بالفاطميين ما لبثت أن تدهورت عندما بعث اليه الخليفة المستنصر سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م يأمره بارسال المال المقرر عليه الى القاهرة ، وشن الهجوم على الروم وطرد التركمان من منطقة حلب . فرد محمود بأنه عاجز عن تسديد ماعليه من اموال ، ومن غير المعقول ان يحارب الروم بعد ماعقد الهدنة معهم واعطاهم ولده رهينة مقابل اموال اقترضها منهم . واوضح فى رده انه لا يقوى على طرد التركمان من بلاده بعد ما اصبحوا اكبر قوة منه ، وابدى استعداده فى مساعدة الخلافة اذا ما أرسلت جيشا الى حلب لطرد التركمان . وبعد ان وصل رد محمود بن نصر المرداسى الى الخليفة المستنصر أمر واليه على دمشق بدر الجمالى ان يزحف على حلب لقتال محمود ، ولكن بدرا لم يتمكن من ذلك بسبب اضطراب الامور فى دمشق وجنوب الشام ، فضلا عن عجز الخلافة عن ارسال اية مساعدة له من جراء الشدة المستنصرية ، وهذا مادفع بدرا الجمالى الى قبول وساطة ابن عمار قاضى طرابلس بينه وبين محمود المرداسى . (٢)

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٠

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ج١٢ ورقة ٢٣١ ب ، ٢٣٢ أ ، ابوالمحاسن ، النجوم الزاهرة ج٥ ص ٧٩ .
Zakkar, op.cit.pp.170-171.

وكان بدر الجمالى مملوكا ارمنيا لجمال الدولة ابى الحسن على بن عمار صاحب طرابلس تميز بقوة العزيمة والاخلاص فى العمل حتى اسند اليه الخليفة المستنصر ولاية دمشق ثم ولاية الشام . ولما استفحلت الشدة المستنصرية وكثرت توارث الجند وتمرد القادة على الخليفة المستنصر بعث الى بدر الجمالى ببلاد الشام طالبا قدومه لنجدته . وسار من الشام الى مصر ومعه اعداد كبيرة من الجنود الارمن وتمكن من اخماد الفتن فى مصر واستبد بالحكم دون المستنصر . انظر المقريزى : المقفى ورقة ٢٤٢ أ ـ ب ، ٢٤٣ أ ـ ب ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج ٢ ص٤٤٨ـ ٤٥٠ .

وفى وسط الشام وجنوبه اخذ النفوذ الفاطمى يتدهور تدريجيا ، حيث تعاقب على حكم دمشق خلال الفترة من ٤٣٣ - ٤٦٠ هـ/ ١٠٤١-١٠٦٧ م ثلاثة عشر واليا ، لم يستطع اى منهم توطيد الامن والنظام فى هذه المناطق ، حتى ان بدرا الجمالى المعروف بقدرته وكفايته عجز عن ضبط الامور بدمشق عندما عهد اليه بولايتها سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م فتمردت عليه فخرج منها هاربا فى السنة التالية. (١)

ومما زاد الامور سوءً وتدهورا فى بلاد الشام فى هذه الفترة ما حل بمصر من كارثة اقتصادية بدأت فى سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥م واستمرت سبع سنوات وهى التى عرفت فى التاريخ باسم الشدة المستنصرية ، نتيجة ضعف الخلافة الفاطمية وتوارث الامراء وقصور النيل مما ادى الى انتشار المجاعة بعد أن تعطلت الزراعة وانعدمت الاقوات(٢). ومما لا شك فيه ان هذه الشدة القت بظلالها واثارها على بلاد الشام ، فالاموال التى كانت ترسلها الخلافة الى زعماء القبائل العربية فى بلاد الشام وخصوصا زعماء كلب وطى لضمان ولائهم وكف ايديهم عن مدن الشام انقطعت . وترتب على ذلك عودة هذه القبائل لشن غاراتها المدمرة على مناطق الشام المختلفة ، فعبثت قبائل طى وغيرها فى المناطق الحضرية بفلسطين واغار بنو كلب بزعامة مسمار بن سنان الكلبى على دمشق وما حولها ونهبوا غلاتها ونشروا الخراب والدمار

---

(١) المقريزى ، المقفى ورقة ٢٤٢ أ - ب ، ابن القلانسى ص ٩١ - ٩٢ ، واورد ابن القلانسى (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٨٣ - ٩٤) ثبتا باسماء الولاة وسنى حكم كل منهم.

(٢) عن الشدة المستنصرية ، انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ، ورقة ٢٤٧ أ - ب ، المقريزى ، اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٢٣ - ٢٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٧٩ - ٣٠٠.

فى منطقة دمشق بكاملها (١) .

وحاولت الخلافة الفاطمية انقاذ ما يمكن انقاذه من نفوذها على بلاد الشام فعينت بدرا الجمالى واليا على دمشق وسائر الشام للمرة الثانية سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م . وسار بدر بجيش كبير ، وقتل بعض زعماء القبائل الذين نشروا الفوضى والاضطراب فى جنوب الشام "ثم سار يشق حلل العرب كلب وطى وغيرها شقا وفعل فعلا لم يسبقه اليه احد حتى وصل الى دمشق". ورغم الهدوء الذى خيم على دمشق عقب وصول بدر اليها فانه لم يستطع التوفيق بين القوى المتنازعة داخل دمشق ، فقبض على بعض أعيان دمشق ، وفرض عليهم عشرة الاف دينار . واندلعت الفتنة فى دمشق ضد بدر ، واستعان الدمشقيون بحسار بن سنان الكلبى زعيم قبيلة كلب . مما اجبر امير الجيوش على الانسحاب من دمشق وسار الى صور فحاصرها واخفق فى الاستيلاء عليها من القاضى عين الدولة بن ابى عقيل ، ثم عاد بدر الجمالى الى فلسطين ، وجمع عشائر طى ، وهاجم دمشق مرة اخرى ففشل امامها مما اضطر الى الذهاب الى عكا سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م . (٢)

وزاد من تدهور اوضاع دمشق ما وقع من خلاف بين جنود الحامية الفاطمية وبين سكان دمشق فى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ونشب القتال بين الجانبين ، وقام جنود الحامية بعمليات النهب ، وانتهى الامر باشعال النار

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ، ورقة ٢٢٣ أ - ب .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٢ ، ورقة ٢٤٣ ب ، ٢٤٤ أ ، ٢٤٥ أ ، انظر ايضا : المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٦٠ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٨٧ ؛ ديوان ابن حيوس ، جـ ١ ص ٧ ؛ الحنبلي ، الأنس الجليل ، جـ ١ ص ٣٠٣

فى بعض أحياء دمشق ، وامتد الحريق الى الجامع الاموى ، ودمره تدميرا شاملا بحيث لم يبق منه الا جدرانه الاربعة(١) . وظلت دمشق تعانى مما أصابها حتى تغلب عليها معلى بن حيدرة بن منزو الكتامى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م من غير ان يعهد اليه بولايتها من قبل الخلافة الفاطمية . وانتهج فيها سياسة بالغة القسوة فعامل السكان معاملة سيئة ، وصادر اموالهم ، واستولى على غلات الفلاحين وفرض عليهم الاتاوات الباهظة مما اجبر الكثير من مزارعى دمشق على الفرار وترك حقولهم لما عانوه من بطشه وقهره . (٢)

وأخذ النفوذ الفاطمى فى الانحسار عن بلاد الشام . ففى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠م طرد نواب امير الجيوش بدر الجمالى من دمشق واستقل بصور ابن ابى عقيل . وفى طرابلس تغلب عليها قاضيها ابوطالب بن عمار وسيطر على الرملة والساحل ناصر الدولة بن حمدان القائد الفاطمى الخارج على الخليفة المستنصر " ولم يبق لا مير الجيوش غير عكا وصيدا "(٣) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ص ٢٤٥ أ - ب ، النويرى نهاية الارب جـ ٢١ ورقة ١١٨ ، الشريف الجنابى ، البر الزاخر ، ورقة ٤٠٧ أ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ٩٨ .

(٢) خليل ابن ايبك الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ، ورقة ١٣٥ أ ، ابن القلانسى ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٦ أ .

- اعتداءات جيوش الدولة البيزنطية على مدن شمال الشام :

كان من الطبيعى أن تنتهز الدولة البيزنطية فرصة ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام وتفرق القبائل العربية وتمزقها لتشن الاغارات المتكررة على مدن بلاد الشام. ومن المعروف ان بلاد الشام لم تتعرض خلال العشرين سنة الاولى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لاى هجوم بيزنطى كبير، فقد تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين حتى انه فى سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م عقدت هدنة بين الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن والخليفة الفاطمى الظاهر، تعهد الامبراطور بموجبها بالسماح بذكر اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة فى جميع الجوامع الواقعة داخل الاراضى البيزنطية. وتعهد الظاهر بالسماح للبيزنطيين باعادة بناء كنيسة القيامة التى تعرضت للتخريب بايام الخليفة الحاكم، والتسامح مع المسيحيين الذين اضطهدوا فى أواخر عصر الحاكم (١) .

بعد مقتل صالح بن مرداس فى معركة الاقحوانة سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م قرر الحاكم البيزنطى فى أنطاكية ميخائيل المعروف بالاسبنديلس Spondyles

---

(١) المقريزى، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٧٦، خطط المقريزى، جـ ١ ص ٣٥٥.

The Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 726

مهاجمة حلب دون أن يتلقى أمرا من الامبراطور رومانوس الثالث (Romanus III) ، معتقدا سهولة ضمها بعد مقتل اميرها المسلم واندحار قواته ، ولما هاجم حاكم انطاكية حصن قيبار[1] من أعمال حلب ،خرج اليه نصر بن صالح المرداسى الذى استعاد ملك ابيه بحلب وانزل به هزيمة ساحقة فى جمادى الاخرة ٤٢٠ هـ / أكتوبر ١٠٢٩ م[2].

على أنه بعد هذه المعركة وقع النزاع بين نصر بن صالح وأخيه ثمال على حكم امارة حلب فأرسل نصر الى الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث يطلب مساعدته ،فقرر الامبراطور استغلال النزاع بين الاخوين للاستيلاء على حلب ، وقام على رأس حملة ضخمة قاصدا حلب سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م . وتوسط زعماء قبيلة كلاب بين نصر وثمال واصلحوا بينهما على أن تكون حلب لنصر ،ولثمال بالس والرحبة . وارسل نصر ابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس الى الامبراطور البيزنطى طالبا منه وقف زحفه نحو حلب مقابل تعهد نصر بن صالح بدفع الاتاوة التى كان يؤديها خلفاء سيف الدولة للبيزنطيين . واعتقل رومانوس الثالث مقلد بن كامل ، وقرر المضى قدما فى حملته[3] . وفى

---

(١) قيبار : حصن بين انطاكية والثغور . انظر ياقوت : معجم البلدان .
(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٣٧ ،ابن الاثير، الكامل ، جـ ٩ ص ٢٣١ ،ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٢٥٣-٢٥٤ ، الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٧٧٨ ، Zakkar, op.cit, p. 109 , The Cambridge Medieval History, Vol.IV.p.725.
(٣) ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، Zakkar, op.cit. p.115.

الحقيقة لم يعد هناك سبب جوهرى للقيام بهذه الحملة بعد ان تعهد أمير حلب بدفع الاتاوة للامبراطور ، ولم يكن هناك مبرر لهذه الحملة سوى حرص الامبراطور على أن يذيع اسمه وشهرته باحراز نصر فى الشرق مثلما ذاع اسم نقفور فوقاس (NicephorusIIphocas) وحنازيمسكيس (John Tzimiscps) وباسيل[1] (Basil) وكان عسكر الامبراطور البيزنطى يضم عناصر مختلفة من الروس والارمن والبلغار ، والبجناك ، والخزر[2]. ونزل على تبل من بلاد اعزاز فى الشمال الشرقى من حلب ، وحفر حول معسكرة خندقا لحمايته[3]. بيد ان توقيت المعركة لم يكن لصالح الامبراطور حيث كان الزمان صيفا شديد الحر[4] وتمكن نصر بن صالح من جمع عشرة آلاف مقاتل من العرب ومناطق شمالى الشام[5] واخذ يناوش جيش الامبراطور البيزنطى فى الوقت الذى كان فيه قائد رومانوس يدبر مؤامرة ضد سيده[6]. وارسل الامبراطور سرية للاستكشاف ويبدو انها ضلت الطريق وفاجأها المسلمون فانهارت بذلك الخطط الحربية

---

(١) العرينى ، الدولة البيزنطية ص٧٧٨ ، Zakkar, op.cit.pp.115-116

(٢) ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ١٤٥ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج١ ص ٢٤٠ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج ١ ص ٥١٥ - ٥١٦.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ١ ص ٢٤٠ ، تبل من قرى حلب من ناحية عزاز ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٤٠٤ .

(٥) الحميرى ، الروض المعطار ص ١٩٧ .

(٦) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

واضطرب جيش الامبراطور البيزنطى وحاول الانسحاب الى أنطاكية ، وتحول الانسحاب الى هزيمة ساحقة . واندفع المسلمون فى جرأة وبسالة يحاولون تطويق معسكر الامبراطور ويقطعون عنه الماء والمؤن وانهارت الروح المعنوية لدى البيزنطيين وولوا الادبار . واسر المسلمون اعدادا كبيرة منهم وذلك فى شعبان سنة ٤٢١ هـ / اغسطس ١٠٣٠ م[1] وقد هام الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث على وجهه ونزع خفه حتى لا يعرف ، وتمكن من النجاة عائدا الى بيزنطة[2] . ووقع فى ايدى المسلمين غنائم لا تحصى من الاسلحة والاموال والمؤن والدواب حيث ترك جنود الامبراطور معظم ماكانوا يحملون من أمتعة وذخائر . [3]

بعد اخفاق الامبراطور رومانوس الثالث فى حملته على حلب سعى نقيطا Nicates حاكم انطاكية لترميم ما اصاب النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام من انهيار . فشن فى سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م غارات سريعة على اعمال حلب واستولى على حصن المنيقة وهاجم رفنية ودخلها وسبى الكثير من سكانها ، وهدم اجزاء من سورها[4] . وعاد فى العام التالى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٤١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٠٥ ، ديوان ابن ابى حصينة جـ ١ ص ٣٤٧-٣٤٨ ، الروض المعطار ، ص ١٩٧ ، الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٧٧٩-٧٨١ ، The Cambridge Medival History Vol.IV,p.725 , Zakkar, op.cit.pp.116-117.

(٢) يشير ابن العديم الى أن رومانوس نزع خفة الاحمر ولبس خفا اسود حتى لا يعرفه احد . انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ص ٢٤٢ .

(٣) ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ١٤٥ ب - ١٤٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ، الحميرى ، الروض المعطار ص ١٩٧ ، يوسف الدبس ، تاريخ سورية جـ ٣ ص المجلد الخامس ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٤٦ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٧٨٣ .

٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م واستولى على حصنين فى منطقة حلب هما حصن بنى غناج وحصن بنى الاحمر مما دفع نصر بن صالح بن مرداس لمراسلته واستمالته وطلب منه التوسط لتسوية النزاع بينه وبين الامبراطور. وعقد الصلح بين الجانبين ، وتعهد نصر بموجبه بان يدفع للامبراطور سنويا نصف مليون درهم واطلق رومانوس الثالث سراح مقلد بن كامل بن مرداس رسول نصر وأعطاه صليبا من ذهب كعنوان امان لنصر ، ووفاء لما تم بينهما من شروط(١).
ولا شك أن الدافع لنصر المرداسى لعقد هذا الصلح وارتباطه ببيزنطة هو أن نصرا توقع هجوما فاطميا لم يكن فى مقدوره الوقوف فى وجهه ولم يجد بدا من البحث عن حليف يشد من أزره ، ويقف بجانبه اذا ماتعرضت حلب لخطر الجيوش الفاطمية بقيادة والى الشام انوشتكين الدزبرى . ومما يبرهن على صحة هذا القول أن انوشتكين عندما قرر مهاجمة حلب سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م لم يجرؤ على تنفيذ قراره الا بعد ان ارسل الى الامبراطور البيزنطى ميخائيل الرابع يستأذنه فى فتح حلب مقابل تعهد انوشتكين بان يؤدى ما كان مقررا من المال على امير حلب ، فاستجاب الامبراطور لطلبه(٢).

ولم تتوقف أطماع البيزنطيين عند منطقة حلب فحسب ، بل امتدت الى الرها الواقعة على أطراف الفرات الشمالية لما تمثله الرها من موقع هام يمكن اتخاذه قاعدة للسيطرة على الجزيرة والشام . وكانت الرها خاضعة للامير عطير شيخ بنى نمير حتى سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، عندما ثار سكان الرها

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٧٨٣ ، Zakkar , op.cit.p. 118.
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

على عطير لسوء سيرته وسلموا المدينة لنصر الدولة بن مروان أمير ميافارقين وديار بكر . واستغاث عطير بصالح بن مرداس فتوسط صالح لدى ابن مروان فأعاد لعطير نصف الرها ثم قتل عطير ، وبسط ابن مروان نفوذه على الرها . بيد أن صالح بن مرداس تدخل مرة اخرى لدى ابن مروان فأعاد الاخير نصف الرها الى بنى نمير وكان بها برجان تسلم ابن عطير احدهما وتسلم الاخر ابن شبل الكلابى الذى يدين بالولاء لنصر الدولة بن مروان [1] . وفى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ارتكب ابن عطير عملا مشينا عندما راسل الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث وباعه حصته من الرها بعشرين الف دينار ، وقدم البيزنطيون وتسلموا البرج من ابن عطير ودخلوا المدينة فانتشر الذعر بين اتباع نائب نصر الدولة المروانى وفروا من المدينة . وحاول ابن مروان استعادة الرها الا انه اخفق بسبب وصول الامدادات البيزنطية الى الرها [2] .

وزاد تدخل الدولة البيزنطية فى شئون بلاد الشام بعد هزيمة القبائل العربية ، فبعد هذه المعركة الهامة ارسل الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث الى حسان بن المفرج وقومه طى وبعض زعماء كلب طالبا منهم اللجوء الى الاراضى البيزنطية فنزلوا انطاكية . وسافر علان بن حسان الطائى الى القسطنطينية فاكرمه رومانوس وعينه بطريقا واعاده الى ابيه حسان

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، مخطوط احمد الثالث ، جـ ١ ص ١٠٦ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، ابوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٨٣ - ٧٨٤ .

(٢) النويرى ، نهاية الارب ، جـ ١ ورقة ١٠٦ أ - ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤١٣ ، ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٨ ، العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٧٨٤ ، يوسف الدبس ، تاريخ سورية جـ ٣ ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

فى أنطاكية (١) . وانتهج الامبراطور البيزنطى سياسة التدخل فى شئون بلاد الشام باستخدامه لشيوخ القبائل الخارجين على سلطة الخلافة الفاطمية ، خصوصا بعد فشل محاولات آل جراح فى اقامة امارة خاصة بهم فى جنوب الشام . ويبدو ان الامبراطور البيزنطى كان يهدف من استضافة هؤلاء الزعماء الى استخدامهم فى شن الغارات على بلاد الشام والجزيرة ومساعدة الحملات البيزنطية فى بلاد الشام. ففى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م ارسل الامبراطور حسان بن المفرج على راس حملة الى الشام وصل بها افامية ، واستولى عليها لحساب البيزنطيين (٢) . وفى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م استخدم الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث ابن وثاب النميرى في شن هجوم كبير على أراضى الامارة المروانية فى ميافارقين وديار بكر . وتمكن ابن مروان من صد الهجوم عن بلاده . وأعقب ابن مروان انتصاره على البيزنطيين وحلفائهم النميريين بمحاولة استعادة الرها مستعينا فى ذلك ببعض عرب الجزيرة . وضرب الحصار حول الرها فارسل البيزنطيون جيشا لنجدة الرها بقيادة حسان بن المفرج الطائى وتمكن حسان من فك الحصار عن الرها لتظل خاضعة للبيزنطيين (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٢٠ ، ابوالفدا ، المختصر ، جـ ٢ ص ١٥٨ ، محمد كرد على ، خطط الشام جـ ١ ص ٢٢٤ ، الباز العرينى ص ٧٨٢ ، The Cambridge Medival History, Vol.IV, p.725; Zakkar , op.cit. p.119.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٢٠ ، ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٨ ، محمد كرد على ، خطط الشام جـ ١ ص ٢٢٤ .
افامية : مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص . انظر معجم البلدان جـ ١ ص ٢٢٧ .

استمرت حملات البيزنطيين على أطراف الشام الشمالية ، حتى وقعت الهدنة بين الخليفة المستنصر الفاطمي وبين الامبراطور البيزنطي ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م (١) . غير أنه لم تلبث أن ساءت العلاقات بين الوالي الفاطمي على الشام أنوشتكين الدزبري وبين البيزنطيين ، عندما جرت المراسلة بين ثمال بن صالح بن مرداس وبين البيزنطيين ، فقد سعى ثمال الى الحصول على مساعدة البيزنطيين للمحافظة على امارته التى انتقلت الى الرقة (٢) ، بعد استيلاء انوشتكين الدزبري على حلب . وحاول البيزنطيون خلال تلك المفاوضات شراء الرقة من ثمال كما فعلوا مع ابن عطير بالرها .
وعندما علم انوشتكين بتلك المفاوضات أرسل تهديدا شديدا لثمال بن صالح فرد يعتذر وينفي اتصاله بالبيزنطيين . وفي الوقت نفسه هاجم بعض عرب كلاب أفامية الخاضعة للبيزنطيين ، ونهبوا اعمالها فخرجت اليهم الحامية البيزنطية وهزمتهم ، فرد على ذلك نائب انوشتكين الدزبري في حلب بطرد التجار الفرنج من المدينة ، وأرسل الى حاكم انطاكية يطلب اخراج تجار المسلمين منها ، فقرر حاكم انطاكية مهاجمة حلب . وعندما علم انوشتكين بذلك أرسل جيشا التقى بالبيزنطيين بين حماة وافامية ، وحلت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م . وواصل الجيش الفاطمي زحفه على الاراضي البيزنطية حتى راسل البيزنطيون انوشتكين الدزبري واعادوا تجديد الهدنة مع الفاطميين (٣) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٤٦٠ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ، ص ١٨٧ ، ديوان ابن حيوس جـ١ ص ٧ ، مجير الدين الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل جـ١ ص ٣٠٣ .

(٢) الرقة مدينة مشهورة على الفرات معدودة في بلاد الجزيرة لانها من جانب الفرات الشرقي . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ٣ ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٩١ - ٤٩٢ ، المقريزي ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٨٨ ، Zakkar, op.cit. pp. 137-138.

وقد صاحب فترة سوء العلاقات بين ثمال بن صالح المرداسي وبين الفاطميين خلال الفترة من ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م حتى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م تحسنا ملحوظا في علاقات الامارة المرداسية مع الامبراطورية البيزنطية ، التي رغبت - فيما يبدو - في وجود دولة صغيرة في حلب تكون حاجزة بينها وبين الدولة الفاطمية ، لما يمثله وجود الفاطميين في حلب من تهديد مباشر لاملاك الدولة البيزنطية خصوصا في المناطق التي انتزعتها من بلاد الشام مثل انطاكية والرها وافامية وشيزر واللاذقية . لذلك سعت الامبراطورة تيودورا (Theodora) الى توطيد علاقات بلادها مع المرداسيين ، فمدت يد المساعدة لثمال بن صالح الذي حاصر حلب بعد موت انوشتكين الدزبري ، واستعاد ملك أسرته بها سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣م . وأرسلت اليه الكثير من الهدايا ، وأضفت عليه وعلى شيوخ اسرته الالقاب ، وتعهد ثمال بدفع الجزية التي كان يؤديها اخوه نصر للبيزنطيين [١] . وظل ثمال يحافظ على علاقاته الحسنة مع البيزنطيين ويدفع لهم الاتاوة المقررة سنويا حتى تنازل ثمال عن حلب للفاطميين سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م [٢] .

وفي سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م اثناء الازمة الاقتصادية التي حلت بمصر ، أرسل المستنصر الفاطمي الى الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع يطلب منه تزويد مصر بأربعمائة ألف اردب قمح لمواجهة القحط الذي أصاب بلاد مصر . ووافق الامبراطور على طلب الخليفة الفاطمي . على أن الظروف تغيرت في القسطنطينية ، اذ توفي الامبراطور وتولت العرش بعده الامبراطورة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ؛
Zakkar , op.cit. p. 140.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٦٨ - ٢٧٠ .

تيودورا التى اشترطت على المستنصر لمده بالقمح ان يساعدها بالجنـــد لمواجهة اى خطر يهددها داخل بلادها . ورفض المستنصر هذا الشـــرط واوقفت تيودورا ارسال القمح . ونشب الخلاف بين الدولتين فجهز المستنصر حملة كبيرة اسند قيادتها الى الحسن بن ملهم ، فسار الى الشام واستولى على اللاذقية وحاصر انطاكية ، وأحرز العديد من الانتصارات على البيزنطييـــن . غير أنه تعرض للهزيمة مع قواته أمام حملة بحرية أرسلها البيزنطيون سنـــة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م[١].

وقد ازدادت العلاقات سوءً بين البيزنطيين والفاطميين عندمـــا استقبلت الامبراطورة ثيودورا سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م مبعوث السلطـــان السلجوقى طغرلبك وسمحت باقامة الخطبة للخليفة العباسى والسلطـــان السلجوقى فى جامع القسطنطينية[٢] . ولم تستطع الدولة الفاطمية القيـــام باى عمل عسكرى ضد بيزنطة بسبب انشغالها بالزحف السلجوقى على العراق والشام وفشل حركة البساسيرى ، فضلا عن ظروفها الاقتصادية القاسيـــة وما صاحب كل ذلك من انحسار نفوذها عن اجزاء كبيرة من بلاد الشام.

واستغل البيزنطيون بعد ذلك فترة النزاع بين ثمال بن صالح وبيـــن ابن اخيه محمود بن نصر على امارة حلب فاستولوا على بعض الحصون القريبـــة من حلب وشحنوها بالجنود والمؤن .[٣] وبعد ما انتهى النزاع لصالـــح ثمال واستعاد حلب من ابن أخيه سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م ، هاجم ثمـــال

---

(١) المقريزى ، المقفى ورقة ٢٧٠ ب - ٣٧١ أ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ، خطط المقريزى جـ١ ص ٣٣٥ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٣٠ ، خطط المقريزى جـ١ ص ٣٣٥ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

حصن أرتاح الخاضع للبيزنطيين فى شمال شرق حلب وهزمهم واستولى على الحصن ، ثم واصل زحفه حتى مشارف انطاكية حيث صالحه البيزنطيون ودفعوا له مبلغا من المال مقابل اعادة حصن ارتاح اليهم (١) . وظل حصن ارتاح فى أيدى البيزنطيين حتى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م عندما هاجمه هارون بن خان مقدم التركمان بالشام واستولى عليه وانزل بالبيزنطيين خسائر فادحة . (٢)

وخلاصة القول ان احوال بلاد الشام ازدادت سوءا بسبب اعتداءات البيزنطيين على بلاد الشام . واستولى البيزنطيون على انطاكية والرها وشيزر واللاذقية وافامية وغيرها . وقاست مدن شمال الشام من نهب وتخريب الحملات البيزنطية أثناء تقدمها .

- غارات الاتراك الغز (التركمان) على بلاد الشام :

ولا يمكن الحديث عن بلاد الشام قبيل الغزو السلجوقى دون دراسة غارات الاتراك الغز (٣) (التركمان) . والحق ان هجرة التركمان الى العراق

---

(١) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٤٣ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، جـ ٣ ص ٢٩٢ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢ - ١٣ ،

(٣) يبدو انه كلمة الغز هى اسم الشعب التركى الذى تتفرع منه قبائل التركمان التى عبرت اواسط آسيا المعروفة بصحراء التركمان الواقعة بين بحر ارال وبحر قزوين فضلا عمن جاء من منطقة تركستان وبلاد ماوراء النهر وممن دفعت بهم دولة السلاجقة على هيئة افواج متلاحقة ، انظر العينى ، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ص ٢٠ - ٢٢ ، سعيد عاشور بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٤٦ .

والشام وهضبة الاناضول ، حدث فى غاية الاهمية ، حيث يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الاسلام والمسيحية . فقد ترتب على ذلك خضوع هذه المناطق للحكم السلجوقى واصبح العنصر التركى ركنا اساسيا فى عناصر المجتمع الاسلامى فى هذه المناطق ، كما ان التركمان نجحوا فيما اخفق العرب فى تحقيقه ، ألا وهو فتح آسيا الصغرى ومن ثم التمهيد لسقوط الدولة البيزنطية وقيام الدولة العثمانية مكانها ، (١)

بدأت أول هجرة للتركمان الى أعالى الجزيرة والموصل حوالى سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م . ويستنتج من حديث ابن الاثير عنهم انهم كانوا رعايا للدولة السلجوقية ، لكنهم لم يلتزموا بالنظام وما رسوا اعمال النهب ضد السكان فى منطقة اذربيجان مما دفع ابراهيم اينال اخا السلطان السلجوقى طغرلبك الى تعقبهم ففروا من امامه واستعانوا ببعض الاكراد من سكان المنطقة فسا روا بهم فى طرق وعرة حتى نفذوا الى جزيرة ابن عمر بشمال الجزيرة (٢) . ويقدر ابن الاثير انهم كانوا يزيدون على ثلاثين ألفا (٣) . ومن جزيرة ابن عمر سار الغز فى اتجاهات مختلفة ، فجماعة منهم بقيادة بوقا وناصفلى قصدوا ديار بكر ، ونهبوا القرى فى هذه المنطقة وحاصروا مدينة ميافارقين . وفاوضهم أميرها نصر الدولة بن مروان وعرض عليهم خمسين الف دينار مقابل مغادرتهم بلاده ، فرفضوا وعسكروا حول ميارفارقين . وخرج نصر الدولة المروانى

---

(١) سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٥ - ١٦ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٧٩ - ٦٨٠ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٩١ .

بجنوده الى معسكر الغز وفاجأهم ، وقتل اكثرهم وغنم كل ما معهم . ويعلق الفارقي على هذه الغارة بقوله : " وكان هذا اول ظهور للترك بهـــذه البلاد ولم يكن رأوا صورهم "(١).

وظل قسم من الغز مقيما بالجانب الشرقي من الجزيرة بقيادة أحـد مقدميهم ويدعى منصور بن غزغلى فراسله سليمان بن نصر الدولة المروانـــى وعرض عليه المصالحة مقابل السماح للغز بالاقامة بالجزيرة حتى ينجلى فصـل الشتاء ، وبدأ سليمان يتقرب الى منصور حتى قبض عليه فتفرق اصحابه فـى أنحاء الجزيرة(٢). وأعقب ذلك اجتماع عرب عقيل والاكراد ، وطـــاردوا الغز حتى التقوا بهم . ونجح الغز رغم قلتهم فى انزال الهزيمة بتحالــف العقيليين والاكراد ، وظلوا يعيثون نهبا وتدميرا فى مناطق الجزيـــرة . ووصلوا فى غاراتهم الى نصيبين وسنجار ، مما دفع نصر الدولة المروانى الـى أن يأمر ابنه سليمان باطلاق سراح زعيم الغز منصور ظانا انه بهذا الاجـراء يصانعهم ويمنع غاراتهم ، الا أن ذلك زاد من عبثهم وفسادهم(٣). وقـد هاجم الغز الموصل مرتين متتاليتين فى عامى ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٣ م و ٤٣٥ هـ/ ١٠٣٦ م ونهبوها ، مما جعل البويهيين فى بغداد يرسلون شكوى الـى طغرلبك من أعمال هذه الجماعات الغزية ، فرد طغرلبك على ذلـــك

---

(١) تاريخ الفارقى ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٢) ابن الاثير الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٦ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٧٩ .
(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٥٨ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٦٧٩ - ٦٨٠ .

بأن هؤلاء الغز كانوا من أتباعه ، وانهم عصوا وفارقوا البلاد ، وانه سوف يرسل اليهم من يخرجهم من الجزيرة . على ان شيئا من هذا لم يحدث ، الامر الذى جعل العرب والاكراد فى الموصل والجزيرة يوحدون قواهم ضد الغز ، والتقوا بهم سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م وانزلوا بهم هزيمة ساحقة ولم ينج من الغز الا جماعات قليلة وعادت بعض فلولهم الى أذربيجان (١) .

ورغم ان بلاد الشام نجت هذه المرة من غارات التركمان ، فان اغارتهم على الموصل والجزيرة كان لها صدى مدوى فى بلاد الشام ، خشية تعرضها لما تعرضت له الموصل والجزيرة ، ويؤيد هذا القول ماورد فى قصيدة لشاعر المرداسيين ابن ابى حصينة مدح بها ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٤ م حيث وصف هؤلاء الغز بالاتراك وأنهم لم يجسروا على الاغارة على حلب حيث قوة ثمال بن مرداس. (٢)

ويعتبر ابن العديم أن سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م هى السنة التى دخل فيها التركمان لاول مرة الى بلاد الشام (٣) . على انه توجد شواهد تفيد

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٥٨ أ ـ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣٨٧ - ٣٩١ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٣٧ - ٩٣٨ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام (المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام) ص ٣٢٠ .

(٢) يقول الشاعر ابن ابى حصينة من قصيدة طويلة يمدح بها ثمال المرداسى :

من مبلغ الاتراك انا مامهم	بحرا يغرق موجه من يشرع
أموا وهموا بالورود فراعهم	من دونه هذا الهمام الاروع
وتيقنوا ان الشام وأهله	أحمى بلاد الخافقين وأمنع

انظر ديوان ابن ابى حصينة جـ١ ص ٣٦٠ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ، انظر ايضا Zakkar , op.cit., p.196.

أن التركمان قد دخلوا الى الشام قبل هذا التاريخ ، فالمقريزى اورد خبـــرا سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م بأنه تجمع كثير من التركمان بمنطقة حلب وافسـدوا فى أعمال الشام [١]. وذكر المؤيد فى الدين داعى الدعاة فى سيرته أنـــه فى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦م تلقى خطابا من قائد الجيش الفاطمى بالشـام يخبره فيه بوجود سرية تركمانية تتقدم نحوه [٢]. كما يذكر المقريزى أنه عند مـا تسلم الحسن بن ملهم حلب من ثمال بن مرداس سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧م ، " انكفت أيدى التركمان عنها بعد حروب عظيمة " [٣]. ويحدد العمـــاد الاصفهانى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م بانها السنة التى ظهر فيها التركمـان ببلاد الشام . [٤] ويستنتج من كل هذه الشواهد ان التركمان ظهــروا فى بلاد الشام قبل سنة ٤٥٦ هـ ، وهى السنة التى ذكرها ابن العديـــم ومن المحتمل انهم وصلوا الى الشام من منطقة الجزيرة التى عرفوها قبل ذلك ، ومن ارمينية التى غزاها طغرلبك سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وتخلف عنـــه بها بعض جماعات الغزو ، الذين تسللوا الى آسيا الصغرى ومنها تسلـــل بعضهم الى الشام . [٥]

وكيفما كان الامر فيمكن ايضا اعتبار سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، السنة التى احدثت تغييرا كبيرا فى توازن القوى فى بلاد الشام ، حيث أخـــذ

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٠ .
(٢) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ١٠١ - ١٠٢ .
(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٥ .
(٤) العماد الاصفهانى ، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مخطوط أحمد الثالث ، ورقة ٨٩ أ ، والعماد الاصفهانى غير العماد الكاتـب المعاصر لصلاح الدين .
(٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، مخطوط احمد الثالث ، جـ١ ص ١٩٧ أ .

التركمان يمارسون دورا فعالا فى تقرير مصير المنطقة . فبعد وفاة ثمال بن صالح ، حدث النزاع على عرش الامارة المرداسية بين عطية بن صالح وبين ابن أخيه محمود بن نصر ، وحاصر محمود عمه عطيه فى حلب سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤ م مما دفع عطيه الى الاستنجاد باحد زعماء التركمان ، ويدعى هارون بن خان ، كان مقيما مع أتباعه فى اراضى الامارة المروانية فى منطقة ميافارقين وديار بكر . ووصل ابن خان حلب ومعه الف فارس معظمهم من رماة السهام ، ونجم عن ذلك ترك محمود ومن معه من بنى كلاب حصار حلب خوفا من ابن خان وأتباعه .(١)

وقد فرض عطيه على نفسه عطاء شهريا لابن خان وأصحابه قدره أحد عشر ألف دينار ، وأنزلهم خارج مدينة حلب(٢) . وعقد الصلح سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥ م بين عطيه وابن اخيه محمود وانفرد عطيه بحكم حلب بالاضافة الى الرحبة ومنبج وبالس(٣) . وهكذا كانت التسوية فى صالح عطيه بسبب تأييد ابن خان له . ويبدو ان عطيه بدأ يشعر انه أخذ يفقد سلطته ازاء ابن خان وقواته ، مما دفعه الى الخروج فى السنة نفسها لغزو الاراضى البيزنطية مصطحبا معه ابن خان ، ظانا انه بذلك يجعل ابن خان يقيم بالاراضى البيزنطية وبالتالى يتخلص منه ، ولكنه عندما رجع وجد ابن خان فى صحبته الى حلب(٤) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٥٦ هـ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ١٢١ ب ، ١٢٢ أ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٥ .
(٤) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

انزعج أهل حلب لوجود ابن خان وأتباعه فى حلب ،كما شاركهم فى ذلك احداث المدينة الذين شعروا أن التركمان يهددون مصالحهم وامتيازاتهم . يضاف الى هذا أن كثيرا من سكان حلب كانوا شيعة بينما كان التركمان يدينون بالمذهب السني . وقد استغل عطية شعور الشك والريبة السائد فى حلب تجاه التركمان ، فأغرى الاحداث بشن هجوم مفاجئ على معسكر الغز فى احدى ليالى صفر سنة ٤٥٧ هـ / يناير ١٠٦٥م ونتج عنه مقتل عدد كبير من التركمان ونهب الاحداث خيولهم واسلحتهم ، وجمع ابن خان من بقى من اتباعه وخرج من حلب وهو يتوعد عطيه بالانتقام (١).

وقد واجهت ابن خان وأتباعه صعوبات جمة اثناء انسحابهم عن حلب حيث هاجمتهم نمير وكلاب ونهبتهم ، واضطروا الى مقاتلة فرقة بيزنطية وجدوها فى طريقهم ، واخيرا التحق ابن خان بمحمود بن نصر بسرمين من أعمال حلب ولم يبق معه سوى حفنة من الرجال (٢) . وقد اعتذر ابن خان لمحمود عن مساعدته لعمه عطية وعرض خدماته على محمود وسافر معه الى طرابلس(٣) . ولم يرد اى شئ فى المصادر عن طبيعة المهمة التى سافر من أجلها محمود وابن خان الى طرابلس ، ومن المفترض أن محمودا كان يهدف الى الحصول على بعض المساعدات المالية او القروض من القاضى ابن عمار . ويرجح هذا الافتراض ان محمودا ارسل فى نفس الوقت ابنه الى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٥ ، ابن القلانسى ص ٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) ابن القلانسى ص ٩٢ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٥٦ هـ .

البيزنطيين رهينة مقابل أموال اقترضها (١) منهم . أما ابن خان فمن المحتمل انه قام باستخدام بعض التركمان حيث يذكر ابن العديم انه عندما خرج مع محمود انضوى تحت لوائه جماعة من التركمان . (٢)

ومهما يكن من أمر فان محمود وابن خان حشدا قواتهما والتقى بهم عطيه فى مرج دابق فهزم عطية وانسحب الى حلب وتبعه محمود وابن خان وشددا الحصار على حلب ومنعا المؤن من الوصول اليها فاشتد الجوع بأهلها واضطر عطيه الى طلب الصلح وتنازل عن حلب لابن اخيه محمود ابن نصر وسلمها اليه فى جمادى الاخرة ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥م (٣) ، وقد احتفظ عطيه بموجب شروط الصلح بالرحبة وعزاز وبالس وجميع القرى الواقعة شرق وشمال حلب . (٤)

وخشى ابن خان الاصطدام مرة اخرى باحداث حلب ، لذلك غادرها وسار شرقا الى الجزيرة وشمال العراق (٥) . ويبدو انه جمع من هذه المناطق اعدادا اخرى من الترك وغيرهم ، حيث عاد فى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦م ومعه ألف فارس من عناصر مختلفة من ترك وكرد وديلم . وخشى محمود بن نصر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٣١ ب .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٢٣ أ ، ابن القلانسى ص ٩٣ ، العظيمى حوادث سنة ٤٥٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٩٧ .
(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٩٧ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٢٣ أ ، ابن القلانسى ص ٩٣ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٥٧ هـ .

أن يسبب وجود التركمان فى منطقة حلب الاضطراب والفوضى ، لذلك أقطع ابن خان واتباعه معرة النعمان فنزلوا بها ، ورغم التزام ابن خان واتباعه للنظام وعدم تعرضهم بالاذى للسكان ، الا أن الرعب والفزع منهم انتشر بين عرب هذه المنطقة (١) .

وفقدت قبيلة كلاب نفوذها السياسى أمام التركمان ، وقد اعترف بهذه الحقيقة محمود المرداسى نفسه عندما طلبت منه الخلافة الفاطمية سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م أن يطرد ابن خان ومن معه من التركمان فرد بأنه عاجز عن طردهم لانهم اضحوا أقوى منه (٢) .

وفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م استعان محمود المرداسى بقائد تركمانى آخر لمتورد المصادر اسمه ، مما جعل ابن خان ينسحب عن حلب ويتجه الى ابن أبى عقيل فى صور حيث أكرمه واستعان به ضد بدر الجمالى الذى قدم لحصار صور . على ان بدرا الجمالى راسل ابن خان واستماله الى جانبه مما دفع ابن ابى عقيل الى تدبير أمر اغتيال ابن خان ونجح فى ذلك سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م (٣) .

لم يكن هارون بن خان هو القائد التركمانى الوحيد الذى وصل الى بلاد الشام ، بل وصل اليه زعماء آخرون منهم : افشين بن بكجى الذى يصفه ابن العديم بانه كان من اتباع السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، ولكنه قتل أحد قادة الجيش السلطانى وهرب خوفا من ألب ارسلان الى الاراضى

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩ - ١٠ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر جـ ١ ص ٥٥٩ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٣١ ب ، ٢٣٢ أ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٩ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ٢٤٨ ب - ٢٤٩ أ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، Zakkar, op.cit. p. 197.

البيزنطية (١) . وقام أفشين بغارات مدمرة فى عمق الاراضى البيزنطية فنهب عمورية ووصل الى غرب آسيا الصغرى ، ثم عاد شرقا ومعه الكثير من الغنائم (٢) .
ثم دخل أفشين منطقة حلب سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م وسار فى الف من اتباعه الى ريف انطاكية ونهبوا اربعين الف جاموس " حتى ان الجاموس كان يباع بدينار واكثره بدينارين وثلاثة " ، ولجأ المزارعون الى الحصون وبقيت الغلات فى اماكنها لاتجد من يرفعها (٣) ، وحاصر افشين انطاكية واجبر حاكمها على دفع اتاوة مقدارها عشرون الف دينار مقابل انسحابه عنها ، وقدم بكل ما معه من غنائم الى حلب فباعها . ووصلته كتب السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٨ م بالرضا عنه فعاد الى العراق فى السنة نفسها (٤) .

ولم تنج بلاد الشام من اعمال زعيم تركمانى ثالث هو صندق التركى ، الذى قدم ايضا من الاراضى البيزنطية فى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ليقضى فصل الشتاء فى بلاد الشام . ولم يدع صندق فصل الشتاء يضيع عليه سدى ،

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١١ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٤٦ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ٢٤٢ ب ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٤٧ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١١ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٤٧ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٣ أ ، ابن الجوزى المنتظم فى تاريخ الملوك والامم جـ ٨ ص ٢٥٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١ - ١٢ .

فنهب جميع القرى الواقعة بين معرة النعمان وكفر طاب وحمص وحماة ورفنية وفيض الاموال على الاماكن الحصينة " ولقى اهل الشام من عسكره شدة عظيمة وهو أول نهب وفساد جرى بالشام من الاتراك " . وبعد انقضاء فصل الشتاء ، عاد صندق التركى الى الاراضى البيزنطية بعد ما اكرمه محمود المرداسى بتحف وهدايا قدمها اليه . (١) ولعب الافشين وصندق دورا هاما فى تاريخ بلاد الشام اثناء الفتح السلجوقى بقيادة تتش بن ألب أرسلان (٢) .

ويتحدث سبط ابن الجوزى عن طائفة من التركمان أطلق عليها اسم الناوكية ، لعلها احدى القبائل التركية التى خرجت مع الهجرة الكبرى للترك بزعامة السلاجقة صوب الاراضى الاسلامية فى ايران . ويبدو ان الناوكية خرجوا هاربين من وجه السلطان ألب أرسلان لاسباب لا تذكرها المصادر ودخلوا الاراضى البيزنطية فى آسيا الصغرى (٣) .

وفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م أرسل بدر الجمالى والى الشام الفاطمى الى الناوكية فى آسيا الصغرى طالبا منهم القدوم الى بلاد الشام . ويبدو أن مادفع بدرا الجمالى الى هذا الاجراء هو غارات القبائل العربية على المناطق الحضرية فى جنوب ووسط الشام ، وعجزه عن مواجهة ذلك ، فضلا عن عجز الخلافة الفاطمية فى مصر عن ارسال اى نجدة اليه لوقوعها تحت وطأة الازمة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٦ ،
Zakkar, op.cit. p. 199.

(٢) انظر مايلى : ص ١٤٦ ، ١٥٢ - ١٥٤ .

(٣) مرآة الزمان : جـ ١٢ ورقة ٢٥٢ أ ، شاكر مصطفى دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٥٠ .

الاقتصادية المعروفة بالشدة المستنصرية . وقد وصلت جماعات الناوكية الى جنوب الشام ، وطردوا العرب من هذه المناطق . وقد جنى بدر نتيجة عمله اذ طالبه التركمان بالمال ، فاعتذر بأنه لا يملك شيئا وانه لم يسلطهم على العرب الا أنهم سيقنعون بنهبهم ، فردوا عليه بأنهم أخذوا البلاد بسيوفهم ثم حاصروا طبرية ، واقتسموا البلاد فيما بينهم بعد ما نهبوا غلالها (١). وحاول بدر وقف تسلط الناوكية على بلاد الشام ، فراسل القبائل العربية الشامية طالبا اليهم الرجوع الى الشام ووعدهم بالمساعدة ضد الناوكية ، فقدم العرب فى جموع ضخمة ، فلما اقتربوا من طبرية فاجأهم التركمان الناوكية وهزموهم واستولوا على الرملة وعلى حصن البلقاء ، وفيه ذخائر العرب وأموالهم . (٢)

ومن الرملة سار التركمان الناوكية الى دمشق ، ونهبوا القرى المحيطة بدمشق وحاصروها ثم صالحهم المتغلب على دمشق ابن منزو الكتامى (٣) على خمسين ألف دينار . ورحلوا الى عكا ، وحاصروا بدرا الجمالى بها دون أن يستطيعوا افتتاحها فانسحبوا عنها . وقد امتدت غاراتهم الى أطراف مصر ووصلوا بلبيس . وبلغت غاراتهم وادى القرى فى شمال الحجاز ووصل منهم سبعة عشر شخصا الى المدينة المنورة وزاروا قبر النبى صلى الله عليه وسلم (٤) . وكان زعيم هؤلاء التركمان الذين عرفوا باسم الناوكية يدعى قرلو (٥) حيث يذكر

---

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ ورقة ١ ب ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٢) مرآة الزمان جـ ١٣ ورقة ٤ ب - ٥ أ .

(٣) انظر ماسبق ص ٧٠

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١ ب .

(٥) يذكر سبط ابن الجوزى ان اسمه " قزلى " وقد يكون هذا تصحيف . انظر سبط ابن الجوزى جـ ١٣ ورقة ٤ ب

ابن القلانسى وابن الاثير ان بدرا الجمالى عندما حاصر القاضى عين الدولة ابن ابى عقيل فى صور سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م استنجد الاخير بالامير قرلسو قائد الاتراك بالشام . فوصل اليه منجدا فى قوة تتراوح بين ستة آلاف واثنى عشر ألف فارس مما أجبر بدرا الجمالى على فك الحصار عن صور. (١)

وخلاصة القول أنه رغم ان جماعات التركمان فى بلاد الشام كانت تعمل منفردة عن سلطة السلاجقة فقد مهدت لخضوع بلاد الشام للحكم السلجوقى (٢). يضاف الى ذلك انه بعد الانهاك الاقتصادى والتمزق السياسى الذى أصاب بلاد الشام ، أتى التركمان بغاراتهم المدمرة لتضيف المزيد من اسباب الضعف والانهيار. فغزو التركمان كان غزوا بربريا اذ نهبت وخربت الموجات التركمانية المتلاحقة كل الاقاليم التى مروا بها سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م حتى وصلت بلاد الشام الى أقصى درجات الضعف والتمزق والاضطراب ، وبدأ الغزو السلجوقى لبلاد الشام . وهو موضوع الفصل الثانى .

...

(١) ابن القلانسى ، ص ٩٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٠
= يذكر ابن القلانسى ان عدد التركمان الذين قدم بهم قرلو الى صور لنجدة ابن ابى عقيل ستة الاف بينما يقدر عددهم ابن الاثير باثنى عشر ألف .

(٢) Zakkar , op.cit. pp. 198- 199.

الفصل الثاني

الغزو السلجوقي لبلاد الشام منذ سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م

- دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام.
- خضوع المرداسيين في حلب للسلطان ألب ارسلان ٤٦٢ - ٤٦٣هـ.
- إغارة اتسز على جنوب الشام ٤٦٣ - ٤٧١هـ.
- فتوحات تتش في بلاد الشام.
- بلاد الشام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام
- السلطان ملكشاه في بلاد الشام ٤٧٩هـ
- النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه ٤٨٠ - ٤٨٥هـ.
- موت ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ونتائجه على الغزو السلجوقي لبلاد الشام.

((الفصل الثانـــــى))

الغزو السلجوقى لبلاد الشام منذ سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م

* دوافع الغزو السلجوقى لبلاد الشام .
* خضوع المرداسيين فى حلب للسلطان ألب أرسلان ٤٦٢ هـ - ٤٦٣ هـ .
* اغارة اتسز على جنوب الشام : ٤٦٣ - ٤٧١ هـ .
* فتوحات تتش فى بلاد الشام .
* بلاد الشام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام .
* السلطان ملكشاه فى بلاد الشام ٤٧٩ هـ .
* النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه (٤٨٠-٤٨٥هـ) .
* موت ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ونتائجه على الغزو السلجوقى لبلاد الشام .

—.—

- دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام :

كان الاتراك السلاجقة يقطنون منطقة تركستان فى بلاد ماوراء النهر، وكانوا قبائل بدوية متنقلة [١] . ولا يمكن تحديد الزمن الذى بدأت فيه تلك القبائل هجرتها نحو الغرب ، ويغلب على الظن ان تلك الهجرة بدأت خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة تحت وطأة الظروف الاقتصادية المختلفة، وغلبة قبائل اكثر منها قوة [٢] . وقد عرف السلاجقة بهذا الاسم نسبة الى زعيم احدى تلك القبائل وهو سلجوق بن دقاق [٣] . ودخل سلجوق واتباعه فى خدمة بعض الدول القائمة فى بلاد ماوراء النهر واعتنق السلاجقة الاسلام وتحمسوا له واخذوا يغزون من يليهم من قبائل الترك الوثنية [٤] .

وخلال سنوات قليلة نمت قوة السلاجقة واستشعر الغزنويون خطرهم، فقام محمود الغزنوى بالتودد اليهم ، حتى قبض على زعمائهم وعلى راسهم أرسلان بن سلجوق وظل أرسلان فى سجنه حتى توفى [٥] . وعبر السلاجقة

---

(١) الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ١٧ .

(٣) دقاق او تقاق ، معناه بالتركية القوس الجديد . انظر ابن الاثير الكامل جـ ٩ ص ٤٧٣ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ارمينيوس فامبرى ، تاريخ بخارى ص ١٢٨ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٤٧٥ - ٤٧٦ ، عبدالنعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٢٤ .

الى اقليم خراسان واستولوا على مرو ونيسابور وبدأ نفوذهم يزداد قوة . وقرر طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق الذى آلت اليه زعامة السلاجقة القضاء على نفوذ الغزنويين فى خراسان . وفى معركة داندقان سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م تمكن السلاجقة من سحق قوات مسعود الغزنوى ، وأدى ذلك الى انحسار نفوذ الغزنويين عن ايران ، وقصر دولتهم على الاقاليم الخاضعة لهم فى الهند (١) .

وفى عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م بعث السلاجقة برسالة الى الخليفة العباسى القائم فاجابهم الخليفة وأضفى على دولتهم الشرعية وطلب من طغرلبك زيارة بغداد فاجاب طغرلبك على الخليفة وأكد له عزمه على زيارة بغداد فى الوقت المناسب (٢) . وواصل طغرلبك بسط نفوذه على اقاليم ايران المختلفة فاستولى على خوارزم ، وقزوين ، وكرمان ، والديلم ، وانتزع همذان من البويهيين سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م (٣) . وما ان حل عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حتى سيطر طغرلبك على المناطق الجنوبية من ايران فاستولى على أصبهان ، واتخذها عاصمة لدولته . وبذلك شمل نفوذ السلاجقة كل ايران فضلا عن اقليم ماوراء النهر ، وأصبحت دولة السلاجقة هى القوة الاولى فى المشرق الاسلامى . (٥) . وفى الحقيقة ان ظهور السلاجقة كان فى مصلحة الخلافة

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، جـ ٩ ص ٢٨٢ - ٤٨٣ ، فامبرى ، تاريخ بخارى ص ١٣٣ - ١٣٤ ، بارتولد ، تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ص ١٠٤ ، عبد النعيم حسنين ، دولة السلاجقة ص ٢٨ .

(٢) الراوندى ، راحة الصدور واية السرور ص ١٠٢ - ١٠٥ ، عبد النعيم حسنين دولة السلاجقة ص ٢٨ - ٢٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٥٠٤ - ٥١٠ .

(٤) المصدر السابق جـ ٩ ص ٥٦٢ - ٥٦٣ .

(٥) Gibb, Damascus Chronicle The Crusades, pp.19-20; وانظر ايضا : The Cambridge Medieval History Vol.IV, p.655.

العباسية فى وقت انتشر فيه دعاة الخلافة الفاطمية فى بلاد الخلافة العباسية . ومايدل على ذلك وجود الداعية الفاطمى المؤيد فى الدين الشيرازى فى هذه البلاد خلال الربع الثانى من القرن الخامس الهجري ، حيث كان -فيما يبدو- يقود نشاط الدعاة الفاطميين فى بلاد العراق وغرب ايران ، حتى تمكن من مقابلة امير الامراء البويهى فى خلافة الخليفة القائم ودخل فى مناظرات طويلة مع علماء السنة فى مجلس الامير البويهى (١) . وبلغ من نشاط المؤيد فى الدين أن اقنع الامير البويهى ابا كاليجار باعتناق المذهب الفاطمى -على حد قوله- (٢) .

أدرك طغرلبك ماتعانيه الخلافة العباسية من ضعف وتسلط البويهيين الشيعة عليها ، فقرر الحلول محل البويهيين فى العراق . ولم يكن بمقدوره مجاهرة البويهيين بالعداء الصريح ، الا عن طريق اغراء الخليفة باستبدال البويهيين بالسلاجقة واشعار الخليفة بان السلاجقة يعملون مخلصين للقضاء على الفاطميين الخارجين على خلافة بغداد . لذلك قرر طغرلبك العمل ضد الخلافة الفاطمية وانتزاع بلاد الشام التى كان العباسيون قد فقدوها لحساب الفاطميين منذ زمن طويل (٣) .

غير أن طغرلبك السلجوقى لا يستطيع فى هذا الوقت تقرير مصير بلاد الشام بمعزل عن القوى الاخرى وعلى راسها الدولة البيزنطية التى تملك اجزاء

---

(١) عن مناظرات المؤيد مع العلماء فى بلاط أمير الامراء البويهى ، انظر سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة الصفحات ٤ - ٥٤ .

(٢) سيرة المؤيد ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) انظر: شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٢٢ - ٣٢٤ .

هامة فى شمال الشام مثل الرها وانطاكية ، فضلا عن حرصها الشديد على بقاء بلاد الشام ممزقة ، لان فى ذلك تحقيقا لمصالحها وحماية لاراضيها فى آسيا الصغرى . وفى عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م قام ابراهيم ينال اخو طغرلبك بغارات واسعة على اراضى الدولة البيزنطية امتدت الى ملازكرد وطرابزون وقاليقيلا واقليم الابخاز (١) ، وأحرز ابراهيم ينال انتصارات باهرة على البيزنطيين وأسر ملك الانجاز فاريط (ليبارتس) التابع للامبراطور البيزنطى ، ورغم عرض فاريط افتداء نفسه بثلاثمائة ألف دينار فان السلاجقة رفضوا اطلاق سراحه (٢) . وكان هدف طغرلبك من ذلك هو مساومة الامبراطور البيزنطى على تحسين علاقاته مع السلاجقة على حساب الفاطميين . وقد نجح طغرلبك فى تحقيق هدفه اذ أرسل الامبراطور البيزنطى الى طغرلبك يطلب اقامة الهدنة بينهما واطلاق سراح ملك الابخاز ، فاستجاب طغرلبك لطلب الامبراطور قسطنطين التاسع ، وأطلق ملك الابخاز ، وفى مقابل ذلك عمر البيزنطيون جامعا بالقسطنطينية ، وأقيمت فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك سنة ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م (٣) على أن طغرلبك لم يكن يرمى الى اقامة الخطبة له بأحد جوامع القسطنطينية

---

(١) ملازكرد = منازجرد واهله يقولون منازكرد ، بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم ويعد فى ارمينية ، ارزن : مدينة مشهورة قرب خلاط لها قلعة مشهورة ، قاليقلا : بارمينية العظمى من نواحى خلاط ، والانجاز : اسم ناحية من جبل القبق شمال ارمينية المتصل بباب الابواب وهو جبال صعبة المسالك وعرة لا مجال للخيل فيها ، تجاور بلاد اللان ويسكنها امة من النصارى يقال لهم الكرج . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٥٤٩ ، الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٨٤٨ .

(٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٩٦ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٥٦ - ٥٥٧ .

الى جانب خطبة الفاطميين فحسب ، وانما كان يريد ضمان حياد الدولة البيزنطية عندما يسير الى الشام ومصر لقتال الفاطميين . فبعث سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١ م الى الامبراطور البيزنطى قنسطنطين التاسع ، يستأذنه فى السير الى مصر عبر بلاد الشام . ولكن الامبراطور البيزنطى اعتذر عن الاستجابة لطلب طغرلبك موضحا له مدى المودة التى بينه وبين المستنصر " وأنه لا يرخص فى أذيته "(١) . وفى العام التالى أرسل طغرلبك رسولا آخر الى الامبراطور طالبا من اطلاق سراح الرسول الذى بعثه الخليفة القائم بامر الله العباسى بالخلع والتقليد الى المعز بن باديس الذى خرج على الفاطميين فى شمال أفريقية . ويظهر من خطاب طغرلبك مدى الشعور العدائى الذى يكنه ازاء الخليفة الفاطمى ، حيث وصفه بانه " ناجم ضلاله " لكن الامبراطور البيزنطى ، أكد مرة اخرى لرسول طغرلبك أنه لن ينقض الهدنة مع المستنصر والتى بقى منها سنتان . (٢)

ويبدو أن الخلافة العباسية لمست جهود طغرلبك فى مناوئة الفاطميين فعملت محضرا فى مدينة بغداد سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢ م وقع عليه الاشراف العلويون والعباسيون والفقهاء ، وتضمن القدح فى نسب الفاطميين وارجاع نسبهم الى المجوس واليهود . وأرسلت نسخ من المحضر الى سائر البلاد ، وهذا مايدعم موقف طغرلبك فى موقفه ضد الفاطميين (٣) .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٤ .
(٢) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٩١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٢٣ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص٣٢٥ .

وذكر ابن الاثير أن طغرلبك قام فى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م بغزو الاراضى البيزنطية ، أى فى السنة التى تنتهى فيها الهدنة بين القسطنطينية والقاهرة . وقد وصل طغرلبك فى غزوته الى ملازكرد وارزن وانزل بالبيزنطيين ضربات موجعة خلال هذه الغارة (١) . ويبدو أن طغرلبك كان يسعى لتوطيد علاقته بالبيزنطيين - ولو عن طريق القوة - على حساب الفاطميين . ووصلت أخبار محاولة طغرلبك تحسين علاقته بالبيزنطيين الى القاهرة ، وعقد مشاورات سرية فى البلاط الفاطمى تقرر العمل لمواجهة هذا الموقف ، فقام المؤيد فى الدين داعى الدعاة بمراسلة الكندرى وزير طغرلبك . وقد أوضح المؤيد فى سيرته انه كان يهدف من هذه المراسلة الى محاولة اجتذاب بعض السلاجقة للدولة الفاطمية ، وايقاع الشك والريبة فى نفس الخليفة العباسى تجاه السلاجقة (٢) .

وفى هذا الوقت بلغ الصراع أشده فى بغداد بين ابن المسلمة وزير الخليفة القائم وبين القائد البويهى أرسلان التركى المعروف بالبساسيرى الذى كان يدين بالتشيع . واخذ نفوذ البساسيرى فى العراق يزداد قوة على حساب الخليفة ووزيره ابن المسلمة ، فاتهم ابن المسلمة البساسيرى بفساد عقيدته ومراسلة الفاطميين ، مما جعل الخليفة يبعث على عجل الى طغرلبك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٥٩٩ ،
The Cambridge Medieval History Vol. IV. p. 204.

(٢) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٩٤ - ٩٦ .

سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م[1] طالبا منه القدوم الى بغداد . وبعد أن تلقى طغرلبك دعوة الخليفة ، تجهز على راس قوات ضخمة من الترك والديلم والعجم . وعندما وصل اطراف العراق أعلن ان هدفه تقديم الولاء والطاعة للخليفة القائم والمسير الى مكة لاداء فريضة الحج ثم فتح بلاد الشام ومصر وازالة الخلافة الفاطمية [2] ، ثم وصل طغرلبك الى بغداد فاستقبله الخليفة القائم ، واقيمت الخطبة له فى جوامع بغداد بعد الخليفة ، وتم القبض على الامير البويهى خسرو فيروز الملقب بالرحيم وبذلك انقرضت الدولة البويهية سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م[3] . وانسحب البساسيرى قبل دخول طغرلبك من بغداد ووصل الرحبة فى شمال الشام واستقبله ثمال بن مرداس وقدم له الاموال وسلمه الرحبة فاتخذ منها قاعدة لاعماله الحربية .[4]

أدركت الخلافة الفاطمية ما يمثله دخول السلاجقة العراق من خطر محقق يهدد وجودها فى بلاد الشام ومصر ، وقرر الوزير الفاطمى محمد

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ج٢ ورقة ج ٢ ورقة ١٩٦ ب ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ - ١٨٩ ، ابن طباطبا الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٢٩٣ ، الاربلى ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٥ ، ذكر الداعية الفاطمى ، المؤيد فى الدين أنه هو الذى بدأ بمراسلة البساسيرى بعد ان علم بجهود طغرلبك مع البيزنطيين . ويمكن ترجيح رواية المؤيد دون غيرها من الروايات لانه ساهم فى صنع حوادث هذه الفترة . انظر سيرة المؤيد ص ٩٦ .

(٢) ابن الجوزى المنتظم ج ٨ ص ١٦٤ ، ابن العمرانى ، الانباء فى تاريخ الخلفاء ص ١٩١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ص ٦٠٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٦١٠ - ٦١٢ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٣٣ ، انظر ايضا .
Ostrogorsky. History of the Byzantine State, p.343.

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ج ٢ ورقة ١٩٧ أ ، السيوطى ، تاريخ الخلفا ص ٦٦٥ ،
Zakkar, op.cit. p.149.

اليازورى مساعدة البساسيرى للوقوف فى وجه السلاجقة . وارسل اليـــازورى رسالة الى السلطان طغرلبك عند ما عرف عزمه على قصد بلاد الشام يهنئه فيها بوصوله الى العراق ويعرض عليه الخدمة والطاعة وأن مصر واعمالها بحكمه " وعبر عن اشفاقه على بلاد الشام من عساكر السلطان ، ويرجوه " اعفاءها مـــن وطء العساكر لها "(١) . والرسالة فى حقيقتها لا تعدو ان تكون منـــاورة سياسية قصد بها اليازورى ان يحول دون وصول السلطان طغرلبك الـــى بلاد الشام ، ريثما يفرغ الوزير الفاطمى من اعداد خططه لمواجهة السلاجقة وقد نجح اليازورى فى مناورته مع السلطان طغرلبك ، حيث قال طغرلبـــك عند ما قرأ رسالة اليازورى : " هذا كتاب رجل عاقل " وأذن لعساكره فـــى العودة الى بلادهم . (٢)

وفى الوقت نفسه أخرج الوزير الفاطمى اليازورى معظم اموال الخزائـــن الفاطمية والكثير من الخلع والاسلحة وسلمها للمؤيد فى الدين داعى الدعـــاة وسار المؤيد قاصدا الرحبة لدعم حركة البساسيرى (٣) .

وعند ما وصل المؤيد فى الدين داعى الدعاة الى الرحبة استقبله ثمـــال المرداسى ومن هناك راسل المؤيد فى الدين امراء الشام والجزيرة مثل ابـــن وثاب امير بنى نمير وابن مروان امير ميافارقين وديار بكر وغيرهم من الامـــراء يحذرهم من الزحف السلجوقى على بلاد الشام وذلك كيما يحثهم على الانضمام

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٣٦ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٦ .
(٣) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٩٤ - ١٠٠ ، ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٥ .

الى حركة البساسيرى ضد السلاجقة[١] .

وفى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ارسل السلطان طغرلبك قوة سلجوقية بقيادة ابن عمه قطلمش لمطاردة البساسيرى ، غير ان البساسيرى انزل بها هزيمة ساحقة قرب سنجار . وكان من أثر ذلك انضمام بعض زعماء العرب الى حركة البساسيرى وعلى راسهم قريش بن بدران العقيلى امير الموصل ودبيس بن مزيد شيخ بن أسد [٢] . وجدير بالملاحظة هنا ان تاييد امراء العرب لحركة البساسيرى كان بسبب خوفهم الشديد من الغزو السلجوقى الذى بات يهدد اماراتهم بالسقوط ـ وهو ما حدث بعد ذلك ـ كما ان بعض شيوخ القبائل العربية فى شمال الشام والعراق كانوا يدينون بالتشيع مثل العقيليين والمرداسيين . يضاف الى ذلك اغراء الاموال الضخمة التى حملها المؤيد لدعم حركة البساسيرى .

وفى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧ م وقع الخلاف بين السلطان طغرلبك وبين أخيه لامه ابراهيم ينال ، فانسحب ابراهيم ينال من العراق الى ايران ، وأعلن عصيانه . ودارت المراسلة بين ابراهيم ينال وبين المؤيد فى الدين والبساسيرى وتلقى ابراهيم منهما وعودا بالمساعدة لانتزاع عرش السلطنة السلجوقية من طغرلبك واستولى ابراهيم على بلاد الجبل وهمذان مما اجبر طغرلبك على الانسحاب من العراق عائدا الى الرى لمواجهة تمرد أخيه . واخيرا التقى طغرلبك بابراهيم فى معركة حاسمة انتهت بهزيمة ابراهيم ومقتله سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٨ م[٣] .

---

(١) سيرة المؤيد ص ١٠٩ - ١٣٠ ، رشيد الجميلى امارة الموصل فى العصر السلجوقى ص ٥٥ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ٩ ص ٦٢٥ - ٦٢٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) سيرة المؤيد ص ١٧٤ - ١٧٦ ، ابن العمرانى الانباء فى تاريخ الخلفاء ، ص ١٩٢ ، ابن الاثير الكامل ، جـ ٩ ص ٦٣٩ - ٦٤٥ .

انتهز البساسيرى فرصة انسحاب طغرلبك من العراق لمواجهة تمرد أخيه واندفع الى بغداد حاملا الرايات المستنصرية الفاطمية ، وكان معه حليفه قريش بن بدران العقيلى ، وتم الاستيلاء على عاصمة الخلافة العباسية فى ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م . وقبض قريش بن بدران على الخليفة القائم وارسله فى صحبة عمه مهارش العقيلى الى حصنه بمدينة عانة (١) مع أهله وحاشيته . وأقيمت الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى فى جامع المنصور ببغداد وقطعت الخطبة العباسية وزيد فى الاذان عبارة " حى على خير العمل " (٢) .

واذا كان دخول البساسيرى بغداد واعتقال الخليفة العباسى واقامة الخطبة للمستنصر ، بدا وكأنه قمة النجاح بالنسبة لجهود الفاطميين ، الا أنه فى الحقيقة كان بداية الفشل والاخفاق . ففى مصر عزل المستنصر وزيره اليازورى الذى وضع الخطط لمواجهة الزحف السلجوقى ، ولم يخلفه فى الوزارة من يماثله فى كفاءته وحنكته (٣) . وبعد ان نجح طغرلبك فى القضاء على حركة أخيه

---

(١) عانه بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد فى اعمال الجزيرة . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٩٧ ب ، ابن ظافر الازدى ، أخبار الدول المنقطعة قسم الفاطميين ص ٦٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٦٤٠ - ٦٤٥ ، ابن طباطبا ، الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية ص ٢٩٣ ، السيوطى ، تاريخ الخلفا ص ٦٦٥ ، الاربلى ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٣٦ = وصف ابن ظافر الازدى حركة البساسيرى بقوله : " وكانت هذه الحادثة العظيمة اخر سعادة هذه الدولة (الفاطمية) وأول تناقص احوالها مثل السراج الذى يلتهب عند انطفائه " . ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة : قسم الفاطميين ص ٦٨ ، انظر ايضا : ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ١١ ، المقريزى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٥٧ .

ابراهيم ، عاد مسرعا الى العراق لاعادة الخليفة القائم الى عاصمته . وعند اقتراب السلطان السلجوقى من بغداد هرب البساسيرى منها ، ودخل طغرلبك بغداد ، وعاد الخليفة العباسى الى عاصمته ، وعادت الخطبة العباسية الى العراق بعد انقطاعها قرابة عام . وارسل السلطان طغرلبك جيشا لمطاردة البساسيرى . ثم سار طغرلبك بنفسه وراء البساسيرى ودارت معركة فاصلة فى ذى الحجة سنة ٤٥١ هـ / يناير ١٠٥٩ م انتهت بمقتل البساسيرى وفشل الخطط الفاطمية . (١)

وبعد القضاء على فتنة البساسيرى بلغت قوة طغرلبك واتساع نفوذه حدا جعله يفكر فى مصاهرة الخليفة القائم ، فخطب ابنته ولم يجد الخليفة الضعيف بدا من الموافقة على طلب طغرلبك وتم الزواج سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م (٢) ولم يفكر طغرلبك فى غزو بلاد الشام بعد سيطرته على بغداد ، تاركا هذه المهمة لغيره من السلاجقة ، ولم يلبث ان توفى سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وعمره سبعون عاما (٣) .

خلف السلطان ألب ارسلان عمه طغرلبك ، وقد واجهه الكثير من الفتن داخل حدود الدولة السلجوقية ، صرفت انتباهه مؤقتا عن بلاد الشام وغيرها من الاقاليم التابعة للدولة الفاطمية (٤) . وبعد أن وطد ألب أرسلان نفوذه اخذ يرنو ببصره نحو الغرب حيث الاقاليم الخاضعة للفاطميين ، فبعث الى محمد بن أبى القاسم الحسنى أمير مكة المكرمة بثلاثين ألف دينار وخلع

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ٢٠٠ ب ، ٢٠١ أ - ب ، ابن ظافر الازدى ، اخبار الدول المنقطعة : قسم الفاطميين ص ٦٨ ، ابن الاثير الكامل جـ ٩ ص ٦٤٦ - ٦٤٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢٥٦-٢٥٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٠ - ٢٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، جـ ٥ ص ٦٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٦ ، فامبرى ، تاريخ بخارى ص ١٣٥ .

(٤) انظر ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ الصفحات ٣١ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٣ .

وهدايا قيمة أخرى ، وأجرى له فى كل سنة عشرة آلاف دينار مقابل اسقاط اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة ، واقامة الخطبة للسلطان السلجوقى والخليفة العباسى على منبر المسجد الحرام . وبعث أيضا الى أمير المدينة المنورة بعشرين ألف دينار وهدايا ونفائس ، ووعده براتب سنوى . فقطعت خطبة الخليفة الفاطمى المستنصر من الحرمين الشريفين ودعى فيهما للخليفة العباسى القائم وللسلطان ألب أرسلان ، وبذلك دخل الحجاز فى طاعة السلاجقة سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م مع مايمثله هذا الاجراء من مغزى سياسى ودينى هام (١) . وبدأ السلطان ألب أرسلان يتطلع لغزو بلاد الشام .

- خضوع المرداسيين فى حلب للسلطان ألب أرسلان ٤٦٢ هـ/ ٤٦٣ هـ :

وكان من الطبيعى ان يدخل محمود بن نصر المرداسى فى طاعة السلاجقة وان تقام الخطبة للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى بدلا من الفاطميين . فقد انتصر محمود فى نزاعه مع عمه عطية على امارة حلب بمساعدة ابن خان واتباعه من التركمان ، كما ان علاقة محمود بالخلافة الفاطمية تدهورت كثيرا ، فضلا عن ان بلاد الشام أضحت تحت رحمة القوى التركمانية الجديدة . كل هذه العوامل مجتمعة ، دفعت محمودا المرداسى الى الارتباط بالولاء للسلاجقة ، فراسل السلطان ألب أرسلان وتقرر ان يخطب بحلب سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م للخليفة العباسى وللسلطان من بعده . ووصل الى حلب

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

مبعوث الخلافة العباسية طراد بن علي الزينبي (١) ، حاملا الخلع والتقليد ، والالقاب من الخليفة والسلطان لمحمود بن نصر (٢) . وجمع محمود زعماء حلب وعرض عليهم الدخول في طاعة السلاجقة قائلا " هذه دولة جديدة ، ومملكة شديدة ، ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لاجل مذاهبكم ، والرأى ان نقيم الخطبة قبل أن يأتى وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل " (٣) . وقد وافق زعماء حلب على راى محمود ، الا ان الامر لم يخل من المعارضة اذ أن معظم سكان حلب يدينون بالمذهب الشيعى . وحينما خرج الخطيب والمؤذن يوم الجمعة وهم يلبسون الشعار العباسى ، انزعج الناس . ولما ذكر اسم الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى نفر معظم المصلين من الجامع . وفى الجمعة التالية ، طلب محمود بن نصر من ابن خان واتباعه التركمان ، الوقوف على باب الجامع ، وقتل كل من يخرج دون أدائه الصلاة . لكن زعماء حلب خشوا مغبة هذا الاجراء . فاجتمعوا بمحمود وتكفلوا

---

(١) طراد بن محمد بن على الزينبى ، ينتهى نسبه لابيه وامه الى عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، سمع الحديث وقرأ امهات الكتب وانفرد بالرواية عن جماعة ، وشد اليه طلاب العلم الرحال ، كما املى الحديث فى بلدان مختلفة ، وكان يحضر مجلسه العلماء والاشراف ، تولى نقابة الطالبين مدة طويلة وتوفى سنة ٤٩١ هـ وعمره يزيد على تسعين سنة ، انظر ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٥٥ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٦ ، ويذكر ابن العديم أن محمود لقب من قبل القائم بامر الله العباسى بلقب : الامير الاجل حسام الدولة العباسية ، وزعيم جيوشها الشامية ، تاج الملوك ناصر الدين شرف الامة ذوالحسبين خالصة أمير المؤمنين " .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٣ ، انظر ايضا : سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٢ أ .

بالقيام على باب الجامع لمنع المصلين من الخروج . وبعد نهاية الصلاة عبر المصلون عن احتجاجهم باخذ حصر الجامع[١] . وفى الوقت الذى وجد فيه محمود المرداسى معارضة من سكان حلب ازاء اقامة الخطبة العباسية السلجوقية أقامت قبيلته كلاب الخطبة فى ريف حلب للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، وذلك درءا لخطر التركمان[٢] .

وفى هذا الوقت بلغت الامور فى مصر حدا أثار أطماع السلطان ألب أرسلان فى امتلاك مصر : فالشدة المستنصرية طحنت البلاد ، ونجم عن ذلك وقوع الفتنة فى مصر بين الاتراك والسودان . فقد كان يقود الاتراك ايلدكز وناصر الدولة الحسين بن حمدان القائد الفاطمى الخارج على الخليفة المستنصر ووقعت الحروب بين القوى المتنافسة من أجل التسلط على المستنصر[٣] . وفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م بعث ناصر الدولة بن حمدان ، الفقيه ابا جعفر بن محمد البخارى قاضى حلب الى السلطان ألب أرسلان طالبا منه امداده بالعساكر ليقيم الدعوة العباسية على أن تصبح مصر ولاية تابعة لابن حمدان . وعندما ابلغ ابوجعفر رسالة ابن حمدان للسلطان الب ارسلان رأى فى ذلك تحقيقا لحلم عمه طغرلبك فى الاستيلاء على بلاد الشام

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٤٢ أ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٦ - ١٨ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٦٣ ، ابن ايبك الداوادارى ، كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٦ ، الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٣٨٨ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٢ أ .

(٣) ابن ميسر ، اخبار مصر جـ٢ ص ١٣ - ١٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٢٦٥ - ٣١٠ ، زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٤٠ .

ومصر . (١) فتجهز على راس جيش كبير من الغز قاصدا بلاد الشام . وكان سيره من همذان فى ذى القعدة سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م عن طريق اذربيجان وارمينية فوصل الى رجيش (٢) وملا زكرد فى ارمينية وفتحهما . وبعث من ارمينية بسرية الى الاراضى البيزنطية بقيادة افشين لمطاردة احد زعماء التركمان الناوكية المتمردين ويدعو اريسيغى (٣) . ويبدو أن ألب أرسلان كان يتأمل من بعثه الافشين استطلاع موقف البيزنطيين من زحفه على الشام ومصر، اذ لا يمكنه الاستمرار فى زحفه نحو مصر دون حساب الموقف البيزنطى .

وكيفما كان الامر فان السلطان ألب أرسلان واصل زحفه حتى وصل الى ميافارقين ودخل وزيره نظام الملك الى المدينة واخرج معه نصر بن مروان امير ميافارقين وديار بكر وفرض عليه السلطان مائة الف دينار وخلع عليه واقره على امارته . وفتح ألب أرسلان فى هذه المنطقة حصن السويداء وبعض الحصون الاخرى من ايدى البيزنطيين . (٤)

واصل ألب أرسلان سيره حتى ضرب الحصار حول مدينة الرها الخاضعة للبيزنطيين ، وكان يحكمها دوقس يسمى باسيل بن اسار من قبل الامبراطور رومانوس ديوجينس . أما سكان الرها فكانوا من عناصر مختلفة منهم

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٨١ ب ، المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٠٧ أ ، العينى ، عقد الجمان جـ١١ ورقة ٥٨ ب ، ابن ميسر أخبار مصر جـ٢ ص ١٩ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) ارجيش ، مدينة قديمة من نواحى ارمينية الكبرى قرب خلاط واهلها ارمن نصارى . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٢ أ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ورقة ٢٥٢ ب ، السويداء بلد مشهور فى ديار مضر قرب حران بينها وبين بلاد الروم غالبية اهلها نصارى ارمن انظر ، ياقوت ، معجم البلدان .

" ثمانية الاف ارمني وعشرون الف سرياني وستة الاف رومي ، والف افرنجي "(١).
وأرسل ألب أرسلان الى أهل المدينة يعرض عليهم الانسحاب عنهم مقابل
بعض الاموال وفي الوقت نفسه امر بعض النقابين بالعمل سرا لفتح ثغرات
في اسوار المدينة . وبينما كان سكان الرها يعملون على جمع الاموال التي
طلبها ألب أرسلان اكتشفوا اماكن النقب في الحصن فاوقعوا بالعاملين فيها
وأسروا بعضهم وقتلوهم ، ورموا رؤوسهم بالمنجنيقات(٢) على معسكر السلطان
وصاحوا عليه وشتموه من فوق الأسوار . وحاصرهم ألب أرسلان ثمانية
وثلاثين يوما وقام بالزحف على المدينة عدة مرات مستخدما المنجنيقات والدبابات(٣)

---

(١) زكار ، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ص ١٤٦ .
(٢) المنجنيقات : جمع منجنيق وهي اصناف مختلفة وذات تراكيب متباينة فمنها العربي والفارسي ، والافرنجي . فمثلا المنجنيق العربي يصنع من الخشب الجيد ، وأجزاؤه الرئيسية تتكون من مثلث متساوي الساقين تكون قاعدته اصغر من الساق بمقدار التسع ويركب في اعلا المثلث خنزيرة من خشب السنديان ويكتنفها من اسفل بطانة ويوجد تحت الخنزيرة سقف ليمنع وصول الاذى الى الرجال الذين تحته . وتستخدم المنجنيقات لرمي السهام الى مسافات بعيدة ولرمي الحصون بالحجارة الضخمة كما تستخدم كذلك لقذف قدور النفط والكرات المشتعلة وغيرذلك . انظر : الطرسوسي ، تبصرة ارباب الالباب ، نشركاهن ، ص ١٦ - ١٧ ، عبدالرحمن زكي ، السلاح في الاسلام ص ٥٨ - ٥٩ .
(٣) الدبابات : جمع دبابة ، يستعان بها في ثقب الاسوار وما شابهها وهي تتفاوت في الكبر والصغر حسب الحاجة لها ، وتتكون في الغالب من آلة سائرة من الخشب الثخين وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار وتركب على عجلة مستديرة وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر . انظر الطرسوسي تبصرة ارباب الالباب ص ١٨ ، المقريزي اتعاظ الحنفا ، تحقيق الشيال ، ج ١ ص ٨١ حاشية رقم (٣) .

بيد أنه اخفق في ذلك بسبب حصانة المدينة ومتانة أسوارها (١). ثم أمر السلطان ألب أرسلان بوضع الاخشاب في الخندق المحيط بالحصن، لتتمكن الخيل من العبور عليه، فتسلل المدافعون عن الحصن الى الخندق واضرموا فيه النيران وحالوا بذلك دون زحف جيش السلطان على المدينة. وبعد المفاوضات والاقامة الطويلة تبين للسلطان صعوبة اخضاع المدينة، خصوصا بعد انتشار موجات الضجر والتذمر داخل صفوف التركمان، الذين لم يتعودوا على الاقامة مدة طويلة لحصار مدينة واحدة، بل اعتادوا على النصر السريع في معارك مكشوفة. لذلك قرر السلطان ترك حصار الرها قاصدا الفرات الى الشام. وذكر سبط ابن الجوزي أن رحيل ألب أرسلان عن الرها كان لسببين "أحدهما تاخر خبر الافشين، والثاني تقاعد من بقي معه من العراقيين عسكر طغرلبك عن القتال وخبث نفوسهم لتأخر أرزاقهم" (٢) لذلك عندما سار قاصدا حلب لم يبق معه الا القليل من العساكر. (٣)

أرسل السلطان ألب أرسلان الى محمود بن نصر المرداسي أمير حلب يدعوه الى الخروج اليه لتقديم فروض الطاعة والولاء اسوة بغيره من أمراء الشام والجزيرة مثل مسلم بن قريش العقيلي، امير الموصل ونصر بن مروان الكردي امير ميافارقين وديار بكر وابن وثاب النميري امير حران وابن مزيد وغيرهم من أمراء الترك والديلم. غير ان محمود المرداسي شعر بالخوف من السلطان

---

(١) زكار، مختارات من كتابات المؤرخين العرب ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٢) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٢ ب.
(٣) ابن ايبك الدواداري، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

وأرسل اليه يعلن دخوله فى طاعته دون أن يخرج اليه بنفسه .(١) وقطع السلطان ألب أرسلان نهر الفرات نحو حلب فى منتصف شهر ربيع الاخر سنة ٤٦٣ هـ / يناير ١٠٧١ م . وكان لعبور ألب أرسلان نهر الفرات مغزى سياسى كبير ،اذ انه أول ملك تركى يجتاز هذا النهر. وقد عبر عن هذا المغزى الفقيه أبوجعفر البخارى عندما خاطب السلطان ألب أرسلان قائلا : " يامولانا احمد الله تعالى على هذه النعمة ،وهى أن هذا النهر لم يقطعه تركى الا مملوكا وأنت قطعته ملكا " . فأعجب السلطان هذا القول وحمد الله وأثنى عليه (٢) .

وصل السلطان ألب أرسلان بجيشه الى مشارف حلب وقام بعض التركمان بنهب ريف حلب ووصلوا فى غاراتهم الى قرى حمص ونهبوا قبيلة كلاب " وعادوا بغنائم عظيمة وهربت العرب الى البرية "(٣) . وأرسل السلطان مرة أخرى الى محمود بن نصر طالبا منه الحضور فرفض . واستمرت المراسلة بين السلطان ألب أرسلان وبين محمود المرداسى بواسطة ايتكين السليمانى حاجب السلطان ومبعوث الخليفة العباسى طراد الزينبى الذى حمل الخلع والتقليد الى محمود من الخليفة القائم . وأصر السلطان على حضور محمود اليه واعلان خضوعه وتقديم الخدمة له ، بينما ظل محمود متمسكا برأيه فى عدم الخروج .(٤)

---

(١) ابن العديم ،بغية الطلب ج٣ ورقة ٢٨١ ب ،سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ج ١٢ ورقة ٢٥٢ ب ، العمرى مسالك الابصار ج١٦ ورقة٢ . ١ب العينى ،عقد الجمان ج ١١ ورقة ٦٠ ب ،ابن العديم، زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩ . انظر ايضا : Zakkar, op.cit.pp.177-178.

(٢) ابن العديم ،بغية الطلب ج٣ ورقة ٢٨٢ أ ،ابن العديم ،زبدة الحلب ج٢ ص ١٩-٢٠ ،ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٥ ص ٦٩ ،انظر ايضا : Zakkar, op.cit., p. 185.

(٣) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ج١٢ ورقة ٢٥٢ب.

(٤) المصدر السابق ج١٢ ورقة ٢٥٣ أ ،العينى ،عقد الجمان ج١١ ورقة ٦٠ ب ، ١٦١أ ،ابن الاثير، الكامل ج١٠ ص ٦٤ ،ابن العديم ،زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٠ .

ويبدو أن محمود المرداسي اعتقد ان اقامة الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي اجراء يعفيه من تقديم الخضوع الشخصي للسلطان . ولعل اخفاق ألب ارسلان في فتح الرها شجع محمودا على الاعتصام بحلب معتمدا على حصانتها ، واصرار سكانها على الوقوف ضد الغز خوفا مما قد يجره سقوط المدينة من أضرار . ولكن السلطان لم يكن ليرضى بالاخفاق مرة أخرى أمام حلب بعد عجزه امام الرها لان حلب نقطة الانطلاق الهامة الى بقية اجزاء بلاد الشام ومصر . كما ان الفشل امام حلب بعد الرها سيحط من مكانته وسمعته باعتباره سلطان المسلمين الذي أوكل اليه الخليفة العباسي مهمة توحيد الاقاليم الاسلامية(١) .

ولجأ سكان قرى حلب الى داخل المدينة خوفا من الجيش السلجوقي الذي حاصر حلب في جمادى الاخرة سنة ٤٦٣ هـ/ مارس ١٠٧١ م . ودام الحصار اكثر من شهر وقام الجيش السلطاني بعدة هجمات على المدينة اخفقت كلها في اقتحامها وبذل سكان حلب اقصى جهودهم في الدفاع عن مدينتهم ثم أمر السلطان بالزحف على المدينة وقاد الهجوم بنفسه فقتل فرسه أثناء الهجوم ثم أمر بوقف القتال . ولجأ الى مناورة سياسية لاستدراج محمود وتخويفه فراسل زعماء بني كلاب واحضرهم من بادية حلب ، وقرر تقليد بعضهم امارة حلب . وكان هذا الاجراء كافيا لاخضاع حلب . فحينما علم محمود بما أزمع عليه السلطان خشي زوال حكمه من حلب ، فراسل ايتكين الحاجب واخبره أنه قرر الخروج الى السلطان وخدمته . وخرج ليلا مع والدته منيعة بنت وثاب

(1) انظر: Zakkar, op.cit. p.177.

النميرى ، ودخل على السلطان وسلم له مفاتيح حلب واعتذر له عن تصرفه . فأكرمه السلطان وقبل عذره وأمره بالعودة الى حلب والخروج فى اليوم التالى علنا . فخرج محمود فى صباح الاول من شعبان سنة ٤٦٣ هـ / ٤ مايو ١٠٧١ فاستقبله السلطان ألب أرسلان وخلع عليه وكتب له توقيعا بامارة حلب[1] .

وقد برزت أمام السلطان ألب أرسلان بعض الصعوبات جعلت استمرار حملته على بلاد الشام ومصر مهمة شبه مستحيلة . وعلى رأس هذه الصعوبات جميعا خروج الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينس (الرابع) على رأس جيش كثيف الى أرمينية قاصدا خراسان معقل الاتراك السلاجقة .[2]

ومن الاسباب التى حدت بالسلطان ألب أرسلان الى وقف حملته على الشام ومصر التذمر والضجر الذى حدث فى صفوف عساكره من التركمان . وقد بدأ هذا التذمر اثناء حصار الرها ، فالسياسة التى سار عليها ألب أرسلان فى حملته على الشام وهى سياسة الموادعة لاجتذاب زعماء المنطقة الى طاعته ، ومحاولته كف ايدى التركمان عن النهب لاتتفق وطبيعة التركمان التى درجوا

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٣ أ ـ ب ، ابن العديم بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٨٠ أ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٦٠ ب ، ٦١ أ ، ابن الشحنة روض المناظر فى علم الاوايل والاواخر ورقة ٦٠ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٢ - ٢٣ ، ابن ايبك الداوادارى ، الدرة المصية فى اخبار الدولة الفاطمية ، ص٣٩٢ ، Zakkar , op.cit. p.178.

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٣ ورقة ٢٨٢ ب ، ابن ابى الدم الحموى التاريخ المظفرى ورقة ١٥٢ ب ، ١٥٣ أ ، المقريزى ، المقفى ورقة ٢٠٧ أ ، العينى ، عقد الجمان جـ١١ ورقة ٥٨ ب ، ٥٩ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٢ ، ابن ميسر اخبار مصر جـ٢ ص ١٩ - ٢٠ .

عليها ،ومن المرجح أن الرغبة فى الغنائم هى التى دفعت اعدادا كبيرة من الغزالى التطوع فى جيش السلطان لغزو الشام ، كما أن محاولة السلطان اخضاع المدن الهامة الواقعة على الطريق الى مصر مثل الرها وحلب وما يقتضيه ذلك من حصار طويل لهذه المدن سياسية لا تتفق ونفسية التركمان الذين تعودوا على النصر السريع فى معارك مكشوفة ، وما ينجم عن ذلك من غنائم وفيرة. ويضاف الى هذا ان كثيرا من الجنود امتد غيابهم عن أهلهم الى ما يقارب السنة ، لذلك كانوا يطالبون بالعودة الدورية الى اهلهم وهى عادة غزية لا يستطيع السلطان حرمانهم منها (١).

وفضلا عن شعور السلطان بالتذمر والضجر فى صفوف عساكره ، فانه أدرك أن استمراره فى حملته نحو مصر سيؤدى الى انسحاب معظم عساكره لانه لا يوجد فى مصر ما يثير الطمع بالنسبة لهم ،فالمجاعة الشديدة المعروفة بالشدة المستنصرية أتت على كل شىء فى تلك البلاد . ويدل على هذا أن التركمان الناوكية الذين اغاروا على بلاد الشام خلال ولاية بدر الجمالى وصل بعضهم الى بلبيس فى مصر فلم يجدوا ما يأكلونه ولا ما تأكله خيولهم، فعادوا أدراجهم الى الشام. (٢)

ومن المحتمل أن السلطان ألب أرسلان شعر أن المغامرة بالمسير الى مصر فى غاية الخطورة ، حيث لا تزال معظم موانىء الشام خاضعة للفاطميين،

---

(١) شاكر مصطفى ،دخول الترك الغز الى الشام ،ص ٣٥٧.

(٢) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٤ ب - ٥ أ.

وبها حاميات فاطمية وقطع تابعة للاسطول الفاطمى ، قد تهاجم مؤخرة جيش السلاجقة وتقطع عليه خط الرجعة عند زحفه على مصر ، ويضاف الى هذه الصعوبات ان السلطان اكتشف ان الذى كان يحرض محمود المرداسى على عدم الخروج لدوس بساط السلطان احد اقرباء الزعيم التركمانى ابن خان الذى ما ان علم بموقفه حتى تسلل هاربا الى دمشق ، وهذا يعنى أن جماعات التركمان الموجودة فى بلاد الشام منذ زمن ، فقد تثقف موقف العداء من السلطان لما يمثله استيلاؤه على بلاد الشام من خطر على نفوذها (١) .

أما عن موقف الدولة البيزنطية ففى الحقيقة انه لم يكن بمقدورها ان تقف موقف المتفرج امام زحف التركمان على اسيا الصغرى وبلاد الشام ، فالسلطان طغرلبك سبق ان هاجم ارمينية ، كما أن السلطان الب ارسلان قام فى عامى ٤٥٦ هـ / ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ - ١٠٦٦ م بحملات واسعة على اقليم ارمينية وبلاد الكرج ، ونجح فى الاستيلاء على كثير من مناطق هذه الهضبة بما فيها مدينة انى حاضرة ارمينية (٢) . وفى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م تمكنت طوائف التركمان الاخرى من الاستيلاء على قيصرية فى اقليم قيليقية (٣) .

وكان الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجينس جنديا فائقا ووطنيا صادقا (٤) ساعدته

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ، ورقة ٢٥٣ ب ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٥٦ .

(٢) انظر تفصيل حملات الب ارسلان فى أرمينية فى : ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ١ ورقة ١٩٧ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٧ - ٤١ ، ناصر بن على الحسينى ، اخبار الدولة السلجوقية ص ٣٨ - ٤٠ ، Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p.343.

(٣) Ostrogrosky, op.cit., p.343.

(٤) رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ ١ ص ٩٦ .

الظروف على تقلد منصب الامبراطور ، وذلك عند ما توفى الامبراطور قنسطنطين دوقاس سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م فآل عرش الامبراطورية الى زوجته ايدوكيا التى أضحت وصية على أبنائها . بيد أن الاخطار التى تعرضت لها الامبراطورية جعلت ايدوكيا تسارع بالزواج من القائد العسكرى رومانوس ديوجنيس ، ذى الخبرة الطويلة فى حروب البجناك . وفى أواخر سنة ٤٦٠ هـ / يناير ١٠٦٨م تم الاعلان عن رومانوس ديوجينس امبراطورا للدولة البيزنطية (١) . ولما اشتدت غارات التركمان على اراضى الدولة البيزنطية فى هضبة أرمينية وقيليقية ، وأطراف الشام الشمالية ، بذل الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس جهدا مضنيا لوقف زحف التركمان وسد المنافذ أمامهم . وفى سبيل ذلك قام بثلاث حملات على بلاد الشام وأعالى الجزيرة فى السنوات ٤٦١ - ٤٦٣ هـ/ ١٠٦٨ - ١٠٧١م كانت الحملة الاولى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م ضد حلب ، وفيها انتصر الامبراطور رومانوس على محمود المرداسى ومن معه من التركمان والعرب . واستولى رومانوس على بعض الحصون مثل أرتاح ، وواصل زحفه حتى استولى على منبج وقتل كثيرا من سكانها ، ثم شحنها بالرجال والمؤن . وعقد الامبراطور البيزنطى العزم على الاستمرار فى حملته على بلاد الشام ، غير انه تراجع عن ذلك وانسحب عائدا الى بلاده بسبب ورود أخبار تفيد بأن احد قادة التركمان ، ويدعى افشين بن بكجى ، قد استولى على عمورية ونهبها ، وأنه أوغل فى عمق الاراضى البيزنطية . (٢)

---

(١) Ostrogorsky , op.cit. pp.343-344.

(٢) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٥٧ أ ، الاصفهانى ، البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ورقة ٩٠ أ ، المظيمى حوادث سنة ٤٦٢ ، خودا بخش حضارة الاسلام ص ٦٢ ، Ostrogorsky, op.cit. p.343.

وفى العام التالى ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م عاد الامبراطور رومانوس على رأس حملة أخرى الى بلاد الشام وصل فيها الى منبج والىعزاز من أعمال حلب وقام بتدمير القرى والحقول الواقعة بين الاراضى البيزنطية ومنبج ، ثم انسحب لقلة المؤن وانتشار القحط. وظلت منبج خاضعة للبيزنطيين لمدة سبعة أعوام. (١)

أما الحملة الثالثة فهى التى انتهت بمعركة ملازكرد . فقد صمم الامبراطور رومانوس ديوجينس على استرداد اراضيه . ويبدو انه قرر استغلال غياب السلطان ألب أرسلان فى بلاد الشام لمهاجمة دولة السلاجقة فخرج على راس جيش ضخم من الروم والنورمان والغز والروس وغيرهم (٢) .

وعندما كان السلطان ألب ارسلان مقيما بمنطقة حلب فى شعبان سنة ٤٦٣ هـ / مايو ١٠٧١ م بلغه نبأ عودة قائده افشين الذى ارسله لرد اريسيغى . ووصله فى الوقت نفسه رسول من الامبراطور البيزنطى يحمل عرضا باعادة بعض المناطق فى ارمينية وشمال الشام وتوقيع الهدنة . بيد ان سبط بن الجوزى الذى اورد خبر هذه السفارة البيزنطية الغامضة لا يعطى أى تفصيل عنها ،

---

(١) العينى ،عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٥٩ ب ، الذهبى ،دول الاسلام جـ ١ ص ٢٧٠ ، اليافعى ، مرآة الجنان جـ ٣ ص ٨٥ ،
Ostrogrsky , op.cit., p.343.

(٢) تبالغ المصادر العربية فى عدد جيش الامبراطور البيزنطى ، لتفاصيل ذلك ،انظر : مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٥ أ ، ابن الجوزى ،المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ ، ابن الاثير ،الكامل جـ ١٠ ص ٦٧ ،ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٣ ، ابن العبرى ،تاريخ مختصر الدول ص ١٨ ، ابن ايبك الداوادارى ،الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية، ص ٣٩٢ .

ومن المرجح ان الامبراطور البيزنطى كان يهدف منها الى استطلاع مدى قوة السلطان حيث لاحظ رسول الامبراطور رجوع ألب أرسلان عندما " قطع الفرات وهلك أكثر الدواب والجمال وكان عبوره شبه الهارب .... وعاد رسول الروم مستبشرا الى صاحبه فقوى ذلك عزم ملك الروم على اتباعه وحربه "(١) .

وعندما اجتاز السلطان ألب أرسلان نهر الفرات عائدا من الشام لم يبق معه سوى خمسة عشر الف مقاتل ، حيث عاد الكثير من التركمان الى أهلهم فى خراسان . ولم يكن عامل الزمن فى صالح السلطان حتى يتمكن من جمع عساكره ، فقرر مواجهة الامبراطور البيزنطى بمن معه ، وارسل أهله واثقاله مع وزيره نظام الملك الى همذان ، وسار هو بفرسانه قاصدا ارمينية لصد الامبراطور البيزنطى . (٢)

ورغم ان السلطان ، عندما سار بمن معه لمواجهة الامبراطور البيزنطى كان فى قلة من العساكر حسب ماذكرته المصادر فان الامر الذى لاشك فيه انه قد انضم الى صفوف جيش السلطان الكثير من القبائل التركمانية التى كانت تعمل ضد البيزنطيين فى آسيا الصغرى ، اضافة الى الحاميات السلجوقية التى كانت تقيم فعلا فى بعض مدن ارمينية منذ فتح السلطان لها سنة ٤٥٦ هـ - ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م - ١٠٦٦ م . وأخذ السلطان يستثير حماس جنوده عندما خاطبهم قائلا : " انا احتسب نفسى عند الله وهى اما السعادة بالشهادة واما النصر

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٣ ب - ٢٥٤ أ .

(٢) نفس المصدر والجزء ورقة ٢٥٤ أ - ب ، ابن ايبك الدواداري ، الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٣٩٢ ، Cahan la Campagne de Mantzikrtd, apres les sources Musulmanes in Byzantion, IX (1934), pp.614-615.

(وليبنصرن اللهمن ينصره[١]) ثم سار مرتبا جيشه قاصدا جموع الروم "[٢] .
أرسل رومانوس مقدمة جيشه من الروس وعددها عشرة آلاف جندى للاستيلاء على خلاط[٣] ، وتوجه هو ببقية الجيش الى ملازكرد (منازكرد) واستولى عليها .
وعند ما وصل ألب أرسلان الى أرمينية جعل لجيشه مقدمة بقيادة صندق التركى ، فسارت والتقت بمقدمة الامبراطور عند مدينة خلاط وهزمتها وأسرت قائدها ، الذى حمل الى السلطان فجدع أنفه ، وبعث بالغنيمة الى نظام الملك ، وأمره أن يرسلها الى بغداد مبشرا الخليفة بمقدمات النصر.[٤]

على ان نشوة هذا النصر لم تدفع ألب أرسلان الى المجازفة بمواجهة الامبراطور الذى يفوق جيشه جيش السلطان عددا وعدة . كما ان حملات ألب أرسلان على اراضى الدولة البيزنطية لم يكن يسعى من ورائها الى القضاء على هذه الدولة وانما كان هدفه اضعافها اوالزامها بموقف الحياد حتى يوجه جهوده نحو توحيد العالم الاسلامى . ولهذا ارسل الى رومانوس يطلب الصلح والهدنة . ولم يكن الامبراطور على استعداد لقبول الهدنة بعد ما انفق أموالا طائلة فى اعداد جيشه من عناصر مختلفة يصعب جمعها مرة اخرى ، لذا رد على السلطان قائلا "لاهدنة الا بالرى " اى ان هدفه لا يقتصر على استرداد ارمينية

---

(١) سورة الحج آية (٤٠) .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥ .
(٣) خلاط ، من اشهر مدن ارمينية وهى قصبة ارمينية الوسطى بينها وبين ملازكرد سبعة فراسخ ، انظر ياقوت : معجم البلدان ، ابوالفدا : تقويم البلدان ص ٣٩٥ .
(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٤ ب ، ابن الجوزى : المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٦ ، ابن ايبك الدوادارى ، الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٣٩٣ .

فقط ،بل يريد غزو بلاد السلاجقة حتى يصل الى قلب دولتهم بخراسان ، وعندئذ ادرك السلطان انه لم يعد هناك مفر من القتال . (١)

وتصف المصادر الاسلامية الروح المعنوية القوية التى بثها السلطان ألب أرسلان فى نفوس جنوده قبل المعركة لدرجة انه عندما تلقى جواب الامبراطور رومانوس برفض الهدنة قال له امامه وفقيهه ابوجعفر محمد البخارى : " انك تقاتل عن دين وعد الله بنصره واظهاره على سائر الاديان ، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح .." واخذ السلطان يهيئ جنوده لخوض المعركة . وفى يوم الجمعة السادس والعشرين من ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ / ٩ اغسطس ١٠٧١ م باغت السلاجقة جيش بيزنطة بين ملازكرد وخلاط . ودارت المعركة الفاصلة فى هذا المكان وحاقت الهزيمة بالبيزنطيين ، وانتصر المسلمون انتصارا ليس كمثله انتصار . وغنم المسلمون غنائم ضخمة من ساحة المعركة ، ووقع الامبراطور رومانوس أسيرا فى ايدى السلاجقة ،وهو أول امبراطور يأسره المسلمون خلال صراعهم الطويل مع الدولة البيزنطية . وأمر السلطان باحضار رومانوس بين يديه ووبخه على موقفه فى رفض الهدنة ،فاعتذر بأنه أنفق كل موارد بلاده فى سبيل الاعداد لحملته ولم يعد بوسعه الرجوع قبل خوض المعركة . ثم فاوضه السلطان فى مقدار الفدية وابدى كرما جما فى معاملته واطلق سراحه بعد ان تعهد بتقديم جزية كبيرة ،وان يعيد انطاكية والرها ومنبج الى المسلمين وان يطلق سراح الاسرى المسلمين . ثم أعطاه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٢ ١ ورقة ٢٥٤ ب ، ابن شداد الاعلاق الخطيرة جـ١ ورقة ١٩٧ ب ، ابن واصل التاريخ الصالحى سعيد عاشور الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٦ .

السلطان المسلم عشرة آلاف دينار ليتجهز بها في عودته الى بلاده وارسل معه فرقة لحراسته وودعه فرسخا . (١)

على أن الحظ عبس في وجه رومانوس ديوجينس ، اذ استولى ميخائيل السابع على عرش الامبراطورية ، وأعلن نفسه امبراطورا فأرسل رومانوس الى الامبراطور الجديد يخبره بما تقرر مع السلاجقة من شروط ، فوافق عليها ميخائيل لانه لم يعد بوسعه الرفض بعد ما سحقت قوات الامبراطورية في ملازكرد . وجمع رومانوس مائتي الف دينار وارسلها الى السلطان ألب أرسلان واقسم انه لا يجد غيرها . ثم قبض عليه وسملت عيناه وقتل في صيف عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢م . وعلى هذه الصورة انتهت حياة رومانوس ديوجينس بعد ما أبداه من شجاعة في ملازكرد (٢) .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٢ ورقة ٢٥٥ أ - ب ، ابن الجوزي ، المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ - ٢٦٣ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ٦٥ ، ٦٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ٢٧ - ٢٩ ، الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ص ٤٩ - ٥١ ، الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٣ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥ - ١٨٦ ، ابن ايبك ، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ، ص ٣٩٤ - ٣٩٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٠١ ، قشوع ، اوربا العصور الوسطى قسم ١ ص ١٧٥ ، Ostorogorsky, op.cit. p. 344 ; Cahen, op.cit. p.619.

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٧ أ - ب ، ابن الجوزي ، المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٦٧ ، Ostrogorsky, op.cit. pp. 344-345 ; The Cambridge Medieval History, Vol. IV, pp. 210-211.

أما عن أهم أسباب انتصار السلاجقة وهزيمة البيزنطيين فى ملازكـرد فيرجع الى مايلى :

أولا : ان الجيش البيزنطى كان مفتقرا الى التجانس ، وحسن التنظيم ، فضلا عن انعدام الولاء ، لدى قادة الجيش البيزنطى . فقد كان جيش بيزنطة مؤلفا من جنود مرتزقة من البيزنطيين والنورمان والروس والتركمان وغيرهم . وحينما وقعت المعركة استجاب التركمان الذين جندهم رومانوس لرابطة الدم فانضموا الى السلاجقة (١) .

ثانيا : الثقة المفرطة التى بلغت حد الغرور لدى الامبراطور وقادته عند ما اعتقدوا انهم يستطيعون الوصول الى قلب الدولة السلجوقية فى خراسان ، لدرجة ان الامبراطور اقطع قادته بلاد المسلمين بما فيها بغداد ، وكان القادة يقولون : " لابد أن نشتو بالرى ، ونصيف بالعراق ونأخذ فى عودتنا بلاد الشام " فى الوقت الذى كان هدف معظم جنود بيزنطة الكسب السريع السهل فلما اشتدت المعركة فر الكثير من الجنود المرتزقة وتركوا الامبراطور يواجه مصيره . (٢)

ثالثا : بطء حركة الجيش البيزنطى بسبب ماكان يحمله من عدد ضخم من العجلات والمنجنيقات وآلات الحفر والحصار ، وما تتطلبه هذه الالات من رجال مختصين فى تشغيلها ، الامر الذى زاد من أعباء

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٨٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٥٥ أ ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٨ ص ٢٦٤ .

من أعباء الجيش التموينية وأدى الى ابطاء حركته ، فى الوقت الذى لم تكن المعركة فى ملازكرد فى حاجة الى تلك العدة الضخمة (١).

رابعا : خفة الحركة لدى فرسان السلاجقة ، وكان لكل فارس فرسان ، واحد يركبه والاخر يجنبه ، فضلا عن أن السلطان ألب أرسلان وضع خطة محكمة ، تتلخص فى تقسيم بعض فرق الجيش الى مجموعات من الكمائن اختفت خلف التلال المحيطة بميدان القتال ، فلما بدأت المعركة انقضت تلك الكمائن على الجيش البيزنطى ولعبت دورا حاسما فى تمزيقه . (٢)

وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى التاريخ البيزنطى ، ومن الصفحات الناصعة فى التاريخ الاسلامى ، ولا تقل فى أهميتها ونتائجها عن معركة اليرموك فى راى بعض الباحثين . فاذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام فان معركة ملازكرد قررت ايضا مصير آسيا الصغرى التى أصبحت مفتوحة على مصراعيها امام الاتراك السلاجقة بحيث توغلوا فيها ، واقاموا بها دولتهم المعروفة بسلاجقة الروم . وبذلك انتقلت هذه البلاد نقلة كاملة من الحضارة اليونانية البيزنطية المسيحية الى الحضارة الاسلامية ، وظلت الحضارة الاسلامية قائمة فى هذه البلاد على يد الاتراك السلاجقة رغم موجات الزحف الصليبى على آسيا الصغرى . (٣)

---

(١) انظر: سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٥ أ ، ابن الجوزى المنتظم جـ ٨ ص ٢٦١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٢٨ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٥٤ ب ، الاصفهانى ، تاريخ دولة سلجوق ص ٤٢ - ٤٣ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٨ .

(٣) انظر عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ص ٥٧ - ٥٩ ، زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٤٥ .

أما عن أثر هذه المعركة الحاسمة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ففى الحقيقة أن هذه الموقعة تعتبر كارثة عظمى منيت بها الدولة البيزنطية بل واعتبرها المؤرخون نقطة تحول فى التاريخ البيزنطى كله . حيث فقدت تلك الامبراطورية اغلى وأهم أقاليمها الشرقية ، هذه الاقاليم التى كانت تمد الامبراطورية بخيرة جنودها واشهر قوادها ، كما أنه لم تتعرض الدولة البيزنطية لخطر جسيم مثل الذى تعرضت له فى أعقاب معركة ملازكرد ، حيث حجز السلاجقة بين البيزنطيين واغنى اقاليمهم الاسيوية حين اتخذ السلاجقة من نيقية اولا ثم من قونية ثانيا عاصمة لدولتهم [١] . وفى نظر كثير من الباحثين أن موقعة ملازكرد تبرر ما حدث سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥م من دعوة للحرب الصليبية فى الغرب الأوربى على أساس ان هذه الدعوة انما جاءت كرد فعل للكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية فى ملازكرد سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م [٢].

وفى الحقيقة فان الامبراطور البيزنطى الجديد ميخائيل السابع طلب المساعدة ضد الترك من البابا جريجورى السابع. ثم جدد الامبراطور الكسيوس كومنين الاستغاثة بالبابا ايربان الثانى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤م ومن هنا بدأت الدعوة للحرب الصليبية [٣] . الا أن الامر الذى لا شك فيه ان معركة ملازكرد ليست السبب الوحيد الذى تمخض عنه الحركة الصليبية ، بل هناك

---

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٣٠ ،فشر، تاريخ اوربا العصور الوسطى القسم الاول ص ١٧٥ ،
Ostrogorsky, op.cit., p.345.

(٢) انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ١ ص ١٠٠ .

(٣) Painter, A History of The Middle Ages, p.200.

أسباب اخرى كثيرة ومتشابكة ،اقتصادية ، واجتماعية وسياسية تداخلت جميعها ونسجت حولها رداء دينيا لتخفى وراءه المطامع الصليبية فى السيطرة على بلاد المشرق الاسلامى .

أما بالنسبة لاثر هذه المعركة على السلطان ألب أرسلان ، فقد جاءت تعويضا له عن اخفاق حملته الى بلاد الشام ومصر . فبدل ان يتجه بجيوشه جنوبا الى مصر ، اتجه شمالا الى ارمينية ، وكان يزمع الانتصار فى القاهرة ، فانتصر فى ملازكرد . وبدلا من هزيمة الخليفة الفاطمى الضال - فى رأيه - هزم الامبراطور البيزنطى الكافر. (١)

وهكذا كانت حملة ألب أرسلان على بلاد الشام ومصر بلا نتائج قيمة اذ لم ينجم عن الحملة ضم بلاد الشام الى السلطنة السلجوقية باستثناء خضوع المرداسيين الاسمى للسلطان ألب أرسلان . فبعد ان قرر السلطان مغادرة منطقة حلب امر حاجبه ايتكين السليمانى والامير محمود المرداسى بان يتوجها الى دمشق ومصر لفتحهما . غير ان هذه المهمة الشاقة التى اسندها السلطان الى محمود المرداسى وحاجبه السليمانى اكبر من ان يستطيعا تحقيقها . فقد سار محمود بصحبة ايتكين لمهاجمة دمشق وعندما وصلا بعلبك جاءهما من الانباء مايفيد انعطيه عم محمود أغار على اعمال حلب مستعينا فى ذلك بحاكم انطاكية البيزنطى فاضطر محمود الى العودة للدفاع عن امارته ، وعندئذ غادر ايتكين السليمانى بلاد الشام ولحق بالسلطان . (٢)

---

(١) شاكر ،مصطفى ،دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٥٨ .

(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣٠ - ٣١ ،
Zakkar , op.cit. pp.179-180.

ومن أهم نتائج حملة ألب أرسلان الى الشام انه خلف بعض جماعات التركمان فى بلاد الشام ، وعلى رأسهم اتسز بن اوق الخوارزمى واخوته الذين ساعدوا محمود المرداسى ضد عمه عطيه ودوق انطاكية حتى تمكن من طردهم من منطقة حلب[١]. وبقى ناصر الدولة بن حمدان ، الثائر الفاطمى الذى استنجد بالسلطان دون مساعدة حتى قتل سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م[٢] . أما ألب أرسلان فقد رجع عقب انتصاره فى ملازكرد الى خراسان وجد من الحوادث فى شرق السلطنة السلجوقية فى سمرقند وبلاد ماوراء النهر مما جعله ينصرف الى معالجتها ، حيث قتل سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م فى بلاد ماوراء النهر[٣]. وبمقتله ظل غزو بلاد الشام ومصر معلقا بيد غيره من التركمان .

- اغارة اتسز على جنوب الشام : ٤٦٣ - ٤٧١ هـ :

كان اتسز بن اوق الخوارزمى من امراء ملكشاه بن ألب أرسلان[٤]. ولا يعرف شىء عن اتسز قبل ظهوره فى بلاد الشام ، فلم تشر المصادر الى ذكره

---

(١) المقريزى ، المقفى ورقة ٢٠٧ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٠٢ .

(٢) ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٧٣ ، الحسينى ، اخبار الدولة السلجوقية ص ٥٣ - ٥٤ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٧ - ٤٨ .

(٤) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ورقة ١٠٣ أ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٦٢ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٦٨ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر جـ١ ص ٥٦٣ .

قبل سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م . واتسز (اتسز) كلمة تركية معناها الـذى لا اسم له ، او ليس معه فرس[1] . ويتضح من اسمه انه كان تركمانيا ، غير انـه لا يمت بصلة للاسرة السلجوقية . ويذكر المقريزى انه كان مع اخوته ، جاولـى وشكلى والمأمون ، ضمن الجماعات التركمانية التى خلفتها حملة ألب أرسـلان على بلاد الشام[2] . ومن غير المعروف ما اذا كان اتسز ينتمى الى جماعـات الناوكية أم لا ، اذ ان كل المصادر التى تحدثت عنه لم توضح ذلك ، وليـس من المستبعد ان يكون اتسز خوارزميا حسب ما جاء فى اسمه .

ظهر فى جنوب بلاد الشام بضعة آلاف من التركمان الناوكية الذيـن استدعاهم بدر الجمالى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م لمساعدته على اخماد ثورات عرب الشام . وقد انضم اتسز بمن معه من التركمان فساعدوا محمود المرداسى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م على طرد عمه عطيه ودوق انطاكية من اعمال حلـب . واستبقى منهم محمود الف فارس وسار الباقون الى جنوب الشام ، حيث نزلـوا على حصن عمان بالبلقاء واستولوا على ذخائر العرب واموالهم[3] . وانتشـر التركمان الناوكية فى جنوب الشام ، فساروا الى الرملة التى كانت قد دمرتهـا الزلازل سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨م وجلبوا اليها المزارعين الذين اعادوا زراعتها بعد الخراب الذى اصابها فى أواخر ولاية بدر الجمالى . وقد تعهد المزارعون بدفع ضريبة مقدارها ثلاثين الف دينار للتركمان عن محصول الزيتون ، واثمـرت

---

(١) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٠٧ أ .
(٢) المصدر السابق ، ورقة ٢٠٧ أ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١ ب .

جهود المزارعين فى بيع محصول الزيتون بثلاثمائة ألف دينار ،أعطوا التركمان ثلاثين ألف دينار وأخذوا الباقى . (١)

وسار الناوكية بزعامة قرلوا فحاصروا دمشق ونهبوا حقولها ،فصالحهم واليها الفاطمى ابن منزو الكتامى على خمسين ألف دينار ،أعطاهم ثلاثة وعشرين ألف درهم ،وسلم اخاه رهينة على الباقى فرحلوا عن دمشق الى ميناء عكا ،وانضم الى قرلو زعيم الناوكية بعض العرب من بنى كلب وغيرهم خلال حصار عكا . ولكن قرلوا توفى اثناء حصار عكا ،فنهب التركمان العرب الذين معهم كما نهبوا جميع المناطق الواقعة بين عكا وصور .ولم يكن حصار بدر الجمالى فى عكا فعالا ،حيث ظل بدر يتلقى الامدادات والمؤن عن طريق البحر (٢).

وقد فتحت وفاة قرلو المجال أمام اتسز بن اوق لفرض زعامته على جميع التركمان فى جنوب الشام . وبدأ فى بسط نفوذه على منطقة الجنوب الشامى فاستولى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م على بيت المقدس ، وجميع المناطق المجاورة ماعدا عسقلان (٣) . وأدرك بدر الجمالى ، والى عكا من قبل الفاطميين ،أن فقدان بيت المقدس له معنى دينى وسياسى خطير على النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ،فسارع واستعاد بيت المقدس ، وولى فيها نائبا من قبله سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م (٤) . ولكن اتسز عاد وشدد الحصار على بيت المقدس فى

---

(١) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ، جـ ١٢ B ورقة ١ أ.

(٢) نفس المصدر والجزء ورقة ٤ ب ـ ٥ أ.

(٣) العينى ،عقد الجمان ،جـ ١١ ورقة ٦٢ أ ،ابن الاثير ،الكامل ،جـ ١٠ ص ٦٨ ،الذهبى ، العبر ،جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٢٠٠ .

السنة نفسها ، ومنع الغلات والمؤن من الوصول اليها ،فاشتدت الضائقة الاقتصادية بالمدينة ؛ حتى بلغت غرارة القمح سبعين دينارا ، وكان النائب الفاطمى فى بيت المقدس تركيا فراسل اتسز قائلا : "أنا منكم ، وما أقمت على الامتناع الا وفاء لمن كنت خادما له ... فان امنتنى على نفسى ومالى سلمت اليك البلد " فأجابه اتسز بالموافقة ، وأقطعه ضياعا اخرى عوضا عن بيت المقدس. وتسلم اتسز البلد بالامان ولم يتعرض للسكان بالاذى ، وضم الحصون التابعة لبيت المقدس ؛ وارسل الى بغداد مبشرا بالاستيلاء على بيت المقدس ،والغاء الخطبة الفاطمية واقامتها للخليفة العباسى والسلطان السلجوقى . وافتخر فى رسالته بانه لم يقاتل أهل بيت المقدس احتراما لمكانته .(١)

وهكذا أصبح اتسز يملك جميع فلسطين ماعدا عكا وعسقلان . وكان فتحه لهذه المناطق دون مساعدة السلاجقة ، غير انه راى ان من مصلحته الارتباط بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية حتى يكسب الحماية من السلاجقة عندما يتعرض لهجمات الفاطميين الذين لن يسلموا بضياع نفوذهم من بلاد الشام .

وكان بدر الجمالى لايزال حتى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤م واليا فى عكا من قبل الفاطميين . ثم استدعاه الخليفة المستنصر وعهد اليه بتولى منصب الوزارة ، وكلفه باخماد الفتن ومعالجة الازمة الاقتصادية فى مصر. ويبدو ان بدرا الجمالى لما راى عدم قدرته فى تلك السنة على اخراج اتسز ومن معه من

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٥ب١٦أ .

التركمان من فلسطين ، أخذ يسعى لشق صفوف التركمان . ومن أجل تحقيق هدفه تودد الى أخى اتسز لامه واسمه شكلى ، ووعده بتزويجه ابنته (١) . ولما غادر بدر الجمالى عكا قاصدا مصر ، أخذ معه ستين رجلا من أعيان عكا كرهائن لضمان ولاء المدينة . واصطحب معه أحد اتباعه المخلصين ، ويدعى ابن سقحا ، ثم أمر بدر تابعه ابن سقحا بالعودة بأمواله الى عكا . واثناء عودة ابن سقحا غرق المركب المحمل بالاموال فخشى ابن سقحا انتقام بدر الجمالى ، فزعم لاهل عكا ان بدرا قتل الرهائن واشار عليهم بالخروج عن طاعة بدر ، وراسل ابن سقحا شكلى الذى كان يحاصر عكا ودبر معه امر الاستيلاء على المدينة ، وتمت المؤامرة بنجاح ، وعندما تسلم شكلى عكا قبض على نائب بدر بعكا ، واستولى على أموال بدر وذخائره وذلك سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م (٢) .

وبعد استيلاء شكلى على عكا اصبح للتركمان ميناء تجارى هام على ساحل الشام . وعادت الحركة التجارية الى عكا بعد حصار شكلى الشديد لها " وقوى البلد واستفحل امره " . غير ان سقوط عكا بيد شكلى كاد أن يعصف بنفوذ اتسز فى جنوب الشام ، لان شكلى اعتبر عكا ملكا خاصا له ، بينما اعتبر اتسز فتح عكا استكمالا لمقومات الدولة التى أنشأها فى فلسطين . وميناء تجاريا لها . ولكى يؤكد اتسز سلطته على عكا ارسل اليها واليا من قبله ، وطلب من شكلى ارسال زوجة بدر الجمالى وابنه ونصف الاموال التى غنمها .

---

(١) المصدر السابق نفس والجزء ورقة ٢٣ أ - ب .

(٢) نفس المصدر السابق والجزء والورقة .

فرد شكلى بقتل الوالى قائلا : " انا اخذت هذه المدينة بسيفى " . وكان لابد من الصدام بين الاخوين ، فتحالف شكلى مع ابن منزو الكتامى المتغلب على دمشق وصاهره على اخته وكذلك تحالف مع قبيلة كلب (١) .

شعر اتسز انه بات محصوراً من الشمال ، حيث يسيطر ابن منزو على دمشق وبنى كلب على المناطق المحيطة بها ، ومن الجنوب من جهة أخيه شكلى فى عكا . فقرر اتسز القضاء على شكلى فسار الى ساحل فلسطين فى رمضان سنة ٤٦٧ هـ / ابريل ١٠٧٥ م والتقى بشكلى فهزمه ، وهرب شكلى الى الشمال ونزل رفينة . وسار اتسز لحصار دمشق (٢) . على ان هزيمة شكلى لم تمنعه من البحث عن حلفاء آخرين ليساعدوه على تقويض نفوذ اتسز فى جنوب الشام . وتلقى شكلى وعودا بالمساعدة المالية من الخلافة الفاطمية التى لم يكن بمقدورها ارسال اية نجدة لشكلى بسبب انشغالها بفتن الجند فى مصر ، فأرسل شكلى الى أحد ابناء قطلمش بآسيا الصغرى طالبا منه القدوم الى الشام ووعده بالانضمام اليه . وجاء فى رسالة شكلى الى ابن قطلمش " أنت من السلجوقية وبيت الملك ، واذا اطعناك وكنا فى خدمتك تشرفنا بك ، واتسز ليس من بيت الملك ولا نرضى باتباعه وطاعته " . وهون شكلى فى رسالته الى ابن قطلمش سهولة الاستيلاء على بلاد الشام . وقد أثارت هذه الرسالة اطماع ابن قطلمش فى بلاد الشام ، فقصدها واجتمع بشكلى وسارا الى طبرية وانضم اليهما سكانها

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٣ أ ـ ب .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ورقة ٢٥ ب ، ورفنية : كورة ومدينة من اعمال حمص : ياقوت : معجم البلدان .

وأعلنوا جميعا طاعة الخليفة الفاطمى . وفى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م التقى بهم اتسز ، وقتل شكلى وابنه وأطلق أباه ، كما أسر ابن قطلمش ، وأخاه وابن عمه ، ونهب طبرية ، وقتل معظم سكانها انتقاما منهم لمناصرتهم أعداءه (١) .

ولم يؤد انتصار اتسز الى استعادة عكا ، حيث يذكر سبط ابن الجوزى أن والد شكلى جاء بعد اطلاق سراحه الى عكا ، فاغلق اهلها الباب فى وجهه ، وراسلوا احد أنصار الفاطميين فى صور ، فقدم اليهم وتسلم عكا ، واعاد الخطبة للمستنصر الفاطمى (٢) . ويذكر ابن شداد رواية اخرى مخالفة خلاصتها ان والد شكلى بقى نائبا بعكا عندما خرج ابنه لقتال اتسز ، فلما قتل شكلى سار والده بحريم واموال بدر الجمالى الى مصر ، فأعاده بدر واليا على عكا من قبله . (٣)

ويبدو أن اتسز راسل السلطان ملكشاه يشكو اليه انضماء ابناء قطلمش الى أعدائه . ويؤيد هذا وصول ثلاثة آلاف جندى الى اتسز من جيش ملكشاه سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م لمعونته فى بلاد الشام. (٤) وأطلق اتسز على نفسه لقب " الملك المعظم " وأخذ يتطلع لبسط نفوذه على شمال الشام على

---

(١) المصدر السابق ورقة ٢٦ أ - ب .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٦ ب .
(٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٧٤ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٦ ب .

حساب المرداسيين . فسار سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م الى جنوب حلب ، ونزل على نهر العاصى مما أوقع الرعب فى نفوس سكان هذه المناطق ، فهربوا من أمامه ، ونهب اتسز كل ما امكنه الوصول اليه ، واستولى على بلدة رفنية التابعة لامارة حلب ، وولى عليها أخاه جاولى . وأخذ اتسز يبعث بالسرايا الى أعمال حلب للنهب ومضايقة الامارة المرداسية فى حلب . ويذكر ابن العديم تردد الرسل بين اتسز وبين نصر بن محمود المرداسى " فلم يستقر بينهما أمر "(١) ولم يوضح ابن العديم ما الذى أراده اتسز من حلب ، فالمعروف ان المرداسيين دخلوا فى طاعة السلاجقة منذ سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وليس هناك من مبرر لاتسز لقتالهم اللهم الا اذا قصد القضاء على المرداسيين ، وضم شمال الشام الى دولته التى أنشأها لنفسه مع اعلانه السيادة الاسمية للسلاجقة .

عاد اتسز الى دمشق لحصارها سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦م ، وأبقى أخاه جاولى فى رفنية لمضايقة حلب وشن الغارات على ريفها ، مما جعل نصر بن محمود المرداسى يجهز جماعة من التركمان العاملين فى خدمة الامارة المرداسية بقيادة أحمد شاه التركى للوقوف فى وجه جاولى أخى اتسز . فسار أحمد شاه بمن معه من التركمان لقتال جاولى ، بيد أن جاولى هزمهم عند حماة وغنم كل ما معهم(٢) . وبعد هزيمة أحمد شاه جمع فلول مقاتليه التركمان ، فأبدوا له رغبتهم فى العودة الى حلب فرفض أحمد شاه ذلك خجلا من نصر بن محمود

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٤٧ ، انظر أيضا :
Zakkar, op.cit. p.187.

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٤٧ - ٤٨ .

الذى استخدمهم وأعطاهم الاموال فى سبيل الدفاع عن امارته . وأشار أحمد شاه على اتباعه بالعودة لقتال جاولى ، فوافقوه على ذلك ، وساروا جميعا الى معسكر جاولى وباغتوه ، ونهبوا ما معه واسروا ثلاثمائة من رجاله ساقهم احمد شاه الى حلب . وهرب جاولى بعد الهزيمة الى دمشق (١) . ولم يفكر اتسز فى الاستيلاء على حلب خشية الاصطدام بمن فيها من التركمان ، فضلا عن أن امارة حلب كانت تقيم الدعوة للسلطان ملكشاه الذى لن يرضى عن سياسة اتسز ازاء شمال الشام .

وقبل رجوع اتسز من شمال الشام مر على صور وطرابلس الخاضعتين لقضاتهما واجبرهما على توقيع هدنة حصل بموجبها على امتيازات تجارية لدولته التى اقامها فى جنوب الشام . (٢)

أما عن دمشق فقد تدهورت احوالها كثيرا اواخر الحكم الفاطمى وتغلب عليها معلى بن حيدره بن منزو الكتامى فى اعقاب هرب بدر الجمالى منها سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م (٣) . واتبع ابن منزو سياسة بالغة القسوة ازاء

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٤٨ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ ورقة ٢٣٢ B أ ، شاكر مصطفى دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٦٩ .

(٣) يصور شعر ابن حيوس مدى ما اصاب دمشق من فتن وما عمها من دمار بقوله :

لقد دفعنا الى حالين لست أرى	مابين ذاك وهذا حظ مختار
اما المقام على خوف ومسغبة	او الرحيل عن الاوطان والدار
والموت ايسر من هذا وذاك وما	كرب الممات ولا فى الموت من عار

انظر : ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ١١ - ١٢ ، وابن حيوس احد الشعراء الشاميين المحسنين من فحولهم المجيدين له ديوان شعر كبير ، لقى جماعة من المعاصرين ومدحهم ونال جوائزهم مثل انوشتكين الدزبرى =

السكان مثل مصادرة اموالهم وفرض الاتاوات الباهظة عليهم ، مما اجبر الكثيرين من سكان دمشق على مغادرة مدينتهم وانضم بعضهم الى اتسز ، ثم ثار من بقى فى دمشق على ابن منزو فهرب منها أواخر سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م الى صور ثم الى مصر حيث قتل (١) .

وبعد هرب ابن منزو ، اجتمع المصامدة (٢) بدمشق على تولية انتصار بن يحيى المصمودى ولاية دمشق فى محرم سنة ٤٦٨ هـ/ اغسطس ١٠٧٥م ورضى سكان دمشق عن هذا الاختيار لما عرف عن الوالى الجديد من حسن السيرة (٣) على أن الامور فى دمشق لم تلبث أن تدهورت عندما نشبت الفتنة بين المصامدة وبين احداث دمشق . ومما زاد احوال دمشق سوءا حملات اتسز المتكررة ضد دمشق وكان فى كل موسم ربيع يهاجمها ويرعى زرعها ثم يعود اليها فى موسم الحصاد فينهب الغلال من اماكنها . ومنع اتسز التجار والقوافل من الدخول الى دمشق حتى انتشرت المجاعة داخل المدينة ، واضطر الناس الى أكل الميتات وبلغت قيمة الغرارة من القمح أكثر من ثمانين دينارا . وحاصر اتسز دمشق حصارا طويلا استمر من شعبان حتى الحادى عشر من ذى القعدة سنة ٤٦٨ هـ/ مارس - يونية ١٠٦٨ م ، واخيرا استسلمت دمشق لاتسز . (٤)

= وابن عمار وابن منقذ ، وبنى مرداس وشرف الدولة مسلم بن قريش وغيرهم ، انظر ابن خلكان جـ٤ ص ٤٣٨ - ٤٤٤ ، ديوان ابن حيوس جـ ١ ، مقدمة المحقق .

(١) الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ورقة ١٣٥ أ ، ابن القلانسى ص٩٥-٩٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٥ .

(٢) المصامدة ، نسبة الى قبيلة مصمودة البربرية وهى احدى طوائف الجيش الفاطمى انظر خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٠ .

(٣) الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ورقة ١٣٥ ب ، ابن القلانسى ص ١٠٨ ، ابن بدران ، تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٣ ص ١٣٤ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٣ ب ، الصفدى ، تحفة =

دفعت دمشق ثمن صمودها الطويل في وجه اتسز فقد انتقم اتسز من سكانها بانزال التركمان دور الدمشقيين واغتصب ممتلكاتهم ، وقبض على زعمائهم وسجنهم بمرج راهط(١) ، حتى افتدوا انفسهم باموال دفعوها اليه . وهرب كثير من سكان دمشق الى طرابلس . اما والي دمشق انتصار بن يحيى المصمودي الذي سلم المدينة الى اتسز ، فقد اقطعه اتسز قلعة بانياس ويافا على الساحل عوضا عن دمشق . ثم قطع اتسز خطبة الفاطميين من دمشق وأقام الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي .(٢)

وبعد انتقام اتسز من اهل دمشق سعى لتعمير القرى الزراعية خارج دمشق فسلم الغلال للفلاحين وامرهم بالاشتغال بالزراعة ، وعمارة الاراضي في المرج والغوطة . وعاد النشاط التجاري الى دمشق " فصلحت الاحوال وتواصلت من سائر الجهات الغلات ورخصت الاسعار "(٣) . وتجدر الاشارة الى أن هذا الازدهار كان مؤقتا اذ عاد الخراب والدمار الى دمشق بسبب سوء ادارة اتسز(٤) .

= ذوي الالباب ورقة ١٣٥ ب ، المقريزي ، المقفى ، ورقة ٢٠٧ أ - ب ، ابن القلانسي ص ١٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٩٩ - ١٠٠ ، الصفدي ، امراء دمشق في الاسلام ص ٤ ، ابن بدران ، تهذيب تاريخ ابن عساكر جـ ٢ ص ٣٣١ .

(١) مرج راهط : موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه . انظر : ياقوت معجم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٣ ب ، الصفدي ، تحفة ذوي الالباب ورقة ١٣٦ أ ، ابن القلانسي ص ١٠٩ ، القرماني ، اخبار الدول واثار الاول ص ٢٢٧ ، الصفدي : امراء دمشق في الاسلام ص ٤ .

(٣) ابن القلانسي ص ١٠٩ ، انظر ايضا : سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٣ ب .

(٤) انظر مايلي ص ١٤٣ .

وبعد سقوط دمشق سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦م عزم السلطان ملكشاه على ارسال اخيه تتش بن الب بن أرسلان الى الشام (١) . ويبدو ان هذا كان وفقا للنظام السلجوقي القائم على اقطاع السلطان المناطق البعيدة لامراء من البيت السلجوقي لتأكيد سلطة السلاجقة عليها ، ولابعاد الامراء خوفا من الفتن والمنافسة على الحكم . وعندما علم اتسز بعزم السلطان ملكشاه انفاذ أخيه تتش الى الشام بعث الى السلطان يؤكد اخلاصه له في هذه المنطقة التي فتحها بنفسه دون ان يكلف الدولة السلجوقية اية مؤونة وانه اقام الخطبة للسلطان ، وذكر الاموال التي بعثها للسلطان كدليل على تبعيته وولائه . وقد جاء في رسالته قوله : " ... وقد بلغني ماعليه العزم من انفاذ الامير تاج الدولة تتش ، وماههنا من يقتضي استعمال ذلك وابعادي عن الخدمة .. " واكد اتسز اهمية موقفه العدائي ازاء الخلافة الفاطمية الشيعية ، وما يحتاجه ذلك من اعداد للوقوف في وجهها . ولما اطلع الوزير نظام الملك على رسالة اتسز آثر بقاء اتسز واليا على جنوب الشام ، وأرسل له قباء السلطان وقلنسوته وفرسه ، وسيفه تشريفا له وتاكيدا على استمراره في امارته (٢) .

ويبدو أن محاولة ملكشاه ارسال اخيه الى الشام لجني ثمار جهود اتسز دفعت الاخير الى المغامرة بغزو مصر للاستيلاء عليها والقضاء على الخلافة الفاطمية ، وتحقيق حلم الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في القضاء على

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٣٢ ب .
(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٣٢ ب ، ٣٣ أ .

هذه الخلافة ، حتى يصبح جديرا بحكم المناطق التى فتحها او لتكون مصر ملجأ يتحصن به اذا قرر السلطان ارسال اخيه الى الشام . يضاف الى ذلك هروب عدد من الاتراك من مصر الى اتسز وعلى رأسهم تركان شاه بن يلدكوش. وقد شارك هؤلاء الاتراك فى الفتنة بمصر زمن الخليفة المستنصر ، حتى تمكن بدر الجمالى من هزيمتهم ، ففروا الى الشام . وقدم ابن يلدكوش (يلدكز) الى اتسز ستين حبة لؤلؤ وحجر ياقوت ، وتحفا كثيرة حصل عليها والده من خزائن المستنصر اثناء الفتنة . وحث ابن يلدكوش (يلدكوز) اتسز على غزو مصر واغراه بها . واعتقد اتسز أن فى مقدوره الاستيلاء على مصر بسهولة فاستقر رأيه على غزوها(١) .

حشد اتسز جيشا كبيرا من التركمان والاكراد وقبيلة طى وغيرها من عرب الشام وصحبهم بعض الشعراء وسار اتسز بجيشه عن طريق الساحل قاصدا مصر ووصل الى ريفها فى جمادى الاولى سنة ٤٦٩ هـ / يناير ١٠٧٧ م وبدلا من الاتجاه راسا الى القاهرة التزم اتسز بمشورة ابن يلدكوش بترك حصار القاهرة ، والاستيلاء على الريف زاعما انه مفتاح مصر . وكان بدر الجمالى مشغولا بفتنة عرب الصعيد (٢) . ومكث اتسز بجموعه فى ريف مصر قرابة الشهرين ينهب الاموال ويسبى النساء ويذبح الاطفال ويراسل فى الوقت نفسه بدرا الجمالى طالبا الاموال . وقد اتاحت المدة التى اقامها اتسز فى الريف الفرصة

---

(١) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٠٧ ب ، ابن ميسر اخبار مصر جـ٢ ص ٢٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٠٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٨ ب ، المقريزى : المقفى ورقة ٢٠٧ ، ابن القلانسى ص ١٠٩ ، ابن ميسر ، اخبار مصر جـ ٢ ص ٢٥ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ .

لبدر الجمالي للعودة من الصعيد ، واستدعى من بقى فيها من الجنود واخذ يستعد لمواجهة اتسز . فاستمال بدر بن حازم الطائى الذى خرج مع اتسز فى ألفى رجل من قومه . كما جند بدر الجمالى ثلاثة الاف حاج قدموا الى القاهرة فى طريقهم الى الحجاز ، وأوعز الى والد شكلى أن يكاتب من يعرفه من التركمان الذين مع اتسز فاستمال منهم سبعمائة رجل كانوا يكرهون اتسز لقسوته وبخله ، واتفق معهم والد شكلى على الانضمام الى جيش بدر الجمالى عند وقوع المعركة . وسار اتسز الى القاهرة فى آخر جمادى الاخرة سنة ٤٦٩ هـ / يناير ١٠٧٧ م ، وانتشر الذعر بين السكان . وبلغ من شدة الضيق على الناس ان اجتمعوا امام قصر الخليفة المستنصر يبكون ويتضرعون . ثم خرج بدر الجمالى فى حشد بلغ ثلاثين الف مقاتل فلما رآهم اتسز خشى الاصطدام معهم فآثر الانسحاب الى الشام . بيد ان اخاه المامون وابن يلدكوش وغيرهما اشاروا عليه بالقتال ، واوهموه ان كل اصحاب بدر الجمالى مجرد سوقة وصيحة واحدة كفيلة بهزيمتهم وحثوه على عدم ترك ملك مصر الذى أشرف على اخذه . ونظم بدر الجمالى جيشه بحيث جعل بدر بن حازم الطائى مع قومه خلف جيش اتسز . ولما بدأت المعركة اشعل الطائيون النيران فى معسكر التركمان ، وانقضوا على جيش اتسز من الخلف . وفى الوقت نفسه استأمن سبعمائة من التركمان الذين استمالهم والد شكلى . وحلت الهزيمة الساحقة باتسز ومن معه ، وقتل اخوه المأمون وقطعت يد أخيه جاولى ، وغنم بدر الجمالى كل ماكان مع اتسز ومنها ثلاثة الاف حصان وعشرة الاف صبى وجارية وكميات كبيرة من الاموال والثياب بحيث مكث الفاطميون مدة شهر وهم يجمعون الاموال والخيل والامتعة والاسرى. (١)

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٨ ب ، ٣٩ أ ، المقريزى المقفى ورقة ٢٠٧ ب ، ابن فضل الله العمرى ، الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٥ أ ـ ب ، ابن القلانسى ص ١٠٩ - ١١٢ وحاشية رقم (٢) ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ ٢ ص ٢٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص١٠٣-١٠٤ المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣١٧ - ٣١٨ ، شاكر مصطفى ، دخول الترك الغزالى الشام ص٣٧٢ ، احمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ص ٩٢ .

وقد نجم عن هزيمة اتسز فى مصر اندلاع حركة عصيان عارمة فى جنوب الشام ضده . فلما وصل اتسز بعد الهزيمة الى غزة فى قليل من العساكر، ثار عليه أهلها وقتلوا بعض من بقى معه ، فهرب الى الرملة فقاتله أهلها ، وأخيرا هرب الى دمشق "فى بضع عشرة نفسا" ، فاستقبله ولده ، وسمار أحد زعماء الكلبيين ، وكان اتسز قد استخلفهما على دمشق عند خروجه الى مصر فى مائتى فارس . ونزل خارج دمشق فى العاشر من رجب سنة ٤٦٩ هـ ، ٧ فبراير ١٠٧٧ م . ورغم كراهية أهل دمشق الشديد لاتسز وفرحهم لهزيمته ، واملهم فى هلاكه فانهم صانعوه لوجوده بينهم ولانهم اصبحوا فى غاية الضعف فخرجوا اليه وهنأوه بالسلامة ، وشكوا اليه حال بلدهم وما أصابه من الضعف والفاقة ، فشكرهم اتسز وكافأهم على موقفهم باعفائهم من الخراج لمدة سنة ، ووعدهم ان لا يترك مدينتهم دون حماية .(١)

بدأ اتسز فى اعداد قواته لاستعادة سيطرته على جنوب الشام فاستقدم التركمان من آسيا الصغرى ولم يجند غيرهم وسار الى بيت المقدس. وعندما وصل الى مشارفها راسل أهل المدينة واعطاهم الامان مقابل التسليم، فرفضوا ، ثم جاء بنفسه الى تحت الاسوار وخاطبهم فى الصلح ، فشتموه وتوعدوه بالقتال فرد على ذلك بفرض الحصار على المدينة . واخيرا دخل اتسز والتركمان الى مدينة القدس وارتكبوا فيها مذبحة شنيعة قتل خلالها ثلاثة الاف انسان . ولجأ بعض السكان الى الصخرة والجامع فلم يقتلهم لاجل المكان وفرض عليهم الاموال وصادر كل اموال السكان ، وسلط التركمان لنهب الدور ، ثم أمر اتسز باعدام

---

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٩ أ ـ ب .

القاضى والشهود لتزعمهم الفتنة فى بيت المقدس[١] . ثم سار اتسز بعد ذلك الى الرملة "فلم يجد بها احدا لفرار سكانها قبل وصوله ثم قصد غزة " وقتل كل من فيها فلم يدع بها عينا تطرف " . وسار الى العريش وارسل سرية من الفرسان أغارت على الريف وعادت وقصد يافا وحاصرها ، فهرب سكانها ، فدخل اتسز الى يافا وهدم سورها [٢] .

وكيفما كان الامر تعتبر هزيمة اتسز فى مصر ، وما قام به من تخريب وتدمير جنوب الشام نكسة للنفوذ السلجوقى فى بلاد الشام . لذلك قرر السلطان ملكشاه ارسال أخيه تتش الى الشام رغم ما قام به اتسز من الكتابة الى بغداد يخبر انه سيعود مرة اخرى الى غزو مصر بعد انتهائه من جمع العساكر[٣] . وكان فى امكان بدر الجمالى بعد هزيمة اتسز سنة ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م القضاء عليه لو قام بهجوم سريع الى الشام اثناء تمرد سكان الشام على اتسز . غير ان بدرا لم يعاجل بالهجوم ، وانما اكتفى بارسال فرقة صغيرة سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ - ١٠٧٨ م بقيادة غلامه ناصر الدولة الجيوشى . وحاصر ناصر الدولة دمشق دون جدوى فعاد الى مصر[٤] .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٩ ب ، ٤٠ أ ، ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٦٧ ب ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٢٠٠ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ١٠ ص ١٠٣ ، تاريخ ابن خلدون ، جـ ٣ ص ٩٨٢ ، الذهبى ، العبر جـ ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٠ أ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ١٣ ورقة ٤٠ أ ؛ Gibb, op.cit.,p . 21.

(٤) ابن القلانسى : ص ١١٢ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٣١٩ .

وقد تميز حكم اتسز بالعنف والقسوة وسوء الادارة مما ادى الى انهيار اقتصادى شامل فى جنوب الشام ودمشق فضلا عن ان سياسته أدت الى جلاء الكثير من السكان عن مدنهم وقراهم ومزارعهم ، مثلما حدث فى الرطة ويافا وغزة وغيرها من مدن فلسطين . وفى دمشق انخفض عدد سكانها الى ثلاثة آلاف حتى اشرفت على الفناء فى عهد اتسز . وقد وصف المؤرخ المعاصر لهذه الفترة غرس النعمة محمد بن هلال الصابى ، حالة دمشق بعد عودة اتسز من جولته الانتقامية فى فلسطين فقال : " ثم عاد (اتسز) الى دمشق ولم يبق من اهلها سوى ثلاثة الاف انسان بعد خمسمائة الف افناهم الفقر والغلا والجلاء . وكان بها مائتان واربعون خبازا فصار بها خبازان والاسواق خالية والدار التى كانت تساوى ثلاثة الاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها احد . . واكلت الكلاب والسنانير وكان الناس يقفون فى الازقة الضيقة فياخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم وياكلونهم . . "(1) . ولا شك ان وصف غرس النعمة لاحوال دمشق يفسر لنا الموقف السلبى لهذه المدينة من الحملة الصليبية الاولى .

- فتوحات تتش فى بلاد الشام (٤٧٠ هـ / ٤٧٩ هـ) :

قرر السلطان ملكشاه اقطاع اخيه تتش بلاد الشام مدفوعا بعدة عوامل منها : فشل حملة اتسز على مصر ، وما يعنيه ذلك من نكسة للنفوذ السلجوقى فى بلاد الشام ، فضلا عن سياسة اتسز السيئة فى جنوب الشام . يضاف الى ذلك ماساد امارة حلب من اضطراب سياسى خلال الفترة من ٤٦٨ هـ الى

---

(١) انظر : سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٠ أ - ب .

٤٧٠ هـ / ١٠٧٥ - ١٠٧٧ م . فقد أشرنا فيما سبق الى استخدام محمود بن نصر المرداسي للتركمان الذين تمكن بمساعدتهم من طرد عمه عطيه والبيزنطيين عندما هاجموا حلب سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م (١) .

وعندما توفي محمود المرداسي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م سار ابنه نصر على السياسة نفسها في استخدام التركمان الذين كانوا بقيادة احمد شاه التركي . وقد استعاد احمد شاه منبج (٢) من البيزنطيين سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م لمصلحة الامارة المرداسية (٣) . ويبدو ان احمد شاه بدأ يفرض نفوذه على الامارة المرداسية مما دفع نصر بن محمود الى اعتقاله صبيحة عيد الفطر سنة ٤٦٨هـ / ٩ مايو ١٠٧٦م . وفي اليوم نفسه خرج نصر بن محمود بمفرده الى معسكر التركمان خارج حلب لنهبهم ، فرماه تركي بسهم فقتله . وزحف التركمان الى داخل حلب فسارع زعماء حلب بتولية سابق بن محمود الامارة المرداسية فاطلق سابق سراح احمد شاه وخلع عليه فنزل احمد شاه الى اتباعه وهدأ ثائرتهم (٤) .

---

(١) انظر ماسبق ص١٢٦ - ١٢٨

(٢) منبج مدينة كبيرة من مدن شمال الشام تقع في منطقة خصبة بينها وبين حلب عشرة فراسخ وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ . انظر: ياقوت معجم البلدان ، ابوالفدا ،تقويم البلدان ص ٢٧٠ * ٢٧١ .

(٣) ابن العديم : بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٥ ب ، ابن ابى الدم الحموى التاريخ المظفرى ،ورقة ٥٣ أ ، ب ،ابن العديم ، زبدة الحلب ،جـ ٢ ص ٤٦ - ٤٧ . Zakkar , op.cit. p. 186.

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٦٥ ب ، ١٦٦ أ ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢ ص ٤٩ - ٥٣ ،ابوالفدا ،المختصر جـ ٢ ص ١٩٣ . Zakkar, op.cit. p.188.

وفرض أحمد شاه وصايته على سابق بن محمود ، وشعر بنو كلاب أن نفوذهم بات مهددا من قبل التركمان فاجتمعوا الى وثاب وشبيب ابني محمود ، والى مبارك بن شبل الكلابي ، وطالبوهم بانتزاع حلب من سابق بن محمود . وعندما علم سابق المرداسي بالخبر ، تحالف مع أحمد شاه وزعيم تركماني آخر يدعى محمد بن دملاج . وخرج القائدان التركيان باتباعهما الى جموع كلاب الذين كانوا في جمع يقارب سبعين الف فارس وراجل . فباغتهم التركمان بمنطقة قنسرين (١) في ذي الحجة سنة ٤٦٨ هـ / يوليه ١٠٧٦ م ، فانهزموا من غير قتال وتركوا نساءهم واولادهم واموالهم وغنم التركمان كل ماكان لبني كلاب وعادوا بالاسرى الى حلب فاطلقهم سابق بن محمود (٢) .

وكانت هذه الهزيمة القاسية هزيمة للعنصر العربي في بلاد الشام ولنفوذهم السياسي ، وايذانا بمغيب الدور الذي لعبته قبيلة كلاب في تقرير مصير منطقة شمال الشام خلال فترة تنيف على قرن من الزمان . وقد فقد العرب وقتذاك الكثير من صفات الفروسية ، وخبت روح القتال لديهم فاستخدموا العبيد المقاتلة بينما امتاز التركمان باجادة فنون القتال وخاصة استخدام السهام والاعتماد على النفس (٣) .

وكيفما كان الامر ، فقد ادرك بنو كلاب ان سابق المرداسي أضحى واقعا تحت سيطرة التركمان وان نفوذهم السياسي في شمال الشام في طريقه الى الزوال . فسار زعماء كلاب الى بلاط السلطان ملكشاه يشكون اليه حالهم ،

---

(١) قنسرين : مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، كانت قاعدة اجناد الشام . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ابوالفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٦٦ أ - ب ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٣) زكار : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٩٠ .

ويطلبون معونته على سابق بن محمود ومن معه من التركمان ، فلبى السلطان طلبهم واقطع بعض زعمائهم الاقطاعات فى بلاد الشام. (١)

وفى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م ارسل ملكشاه الى اخيه تتش المقيم باذربيجان يامره بالمسير الى بلاد الشام . فسار تتش ولما وصل الى ديار بكر بلغه مافعله اتسز من انتقام شديد من اهل جنوب الشام فارسل تتش للسلطان يطلب امداده لانه كان فى قلة من العسكر. فامر السلطان بعض امراء التركمان بالمسير مع تتش وخدمته وعلى راسهم أفشين بن بكجى ، وصندق التركى وابن طوطو ، وابن بريق وغيرهم . وبالاضافة الى هؤلاء الزعماء التركمان الذين انضموا الى تتش. فقد سار فى صحبته زعماء كلاب نكاية فى اميرهم سابق بن محمود . كما امر السلطان مسلم بن قريش بالمضى مع تتش لمساعدته . (٢)

ولما علم اتسز بمسير تتش بعث الى السلطان بالهدايا والاموال ، وزعم انه لم يفعل مايوجب ارسال تتش نحوه . واكد اخلاصه للسلطان وانه نائبه المطيع فى جنوب الشام . وتعهد بان يرسل للسلطان كل سنة مبلغ ثلاثين الف دينار فامر السلطان تتش بعدم التعرض لاتسز. (٣) ويبدو ان هذا الامر بتاثير الوزير نظام الملك بدليل موقفه السابق لمصلحة اتسز (٤) . انضم الى تتش

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٧ ب ، ابن العديم بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ ب ، ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٧ب.

(٤) انظر ماسبق ص ١٣٨ .

الحاجب ايتكين السليمانى ، ثم عبر الجميع بقيادة تتش نهر الفرات واستولوا على منبج . ونزل تتش بمن معه بالمروج قريبا من حلب ثم وصل اليه مسلم بن قريش العقيلى حسب أوامر السلطان ملكشاه ، وانضم بنو كلاب الى تتش . وبدأ حصار تتش لحلب فى الثالث من ذى القعدة سنة ٤٧٠ هـ / ١٨ مارس ١٠٧٨م ، ودام الحصار ثلاثة شهر وعشرين يوما وقتل اثناء الحصار احمد شاه زعيم التركمان بحلب . (١)

أدرك مسلم بن قريش ان استيلاء الاتراك السلاجقة على حلب سيجعل امارته فى الموصل والجزيرة مطوقة بالنفوذ السلجوقى من الشرق والغرب ، لذلك بدأ مسلم بن قريش العمل لاحباط حملة تتش على حلب . فكان اول عمل قام به مسلم فى سبيل ذلك ان كتب للسلطان يطلب استدعاء الحاجب ايتكين السليمانى عدو مسلم بن قريش حيث كان يقيم مع اتباعه بمنطقة الجزيرة يهدد الامارة العقيلية فاستجاب ملكشاه لطلب ابن قريش وسحب الحاجب اتيكين (٢) . ثم أخذ مسلم يسعى لتفريق بنى كلاب عن تتش . وفى هذا يقول ابن العديم : " وكان هوى شرف الدولة (مسلم بن قريش) مع سابق ، فكان يسير اليه فى الباطن بما يقوى نفسه وينكر على بنى كلاب خلطتهم بعسكر الترك " . وقد اثمرت جهود مسلم بن قريش مع بنى كلاب ، اذ استأذنوا تتش فى ترحيل اهلهم من المعسكر فأذن لهم . (٣) كما زود مسلم بن قريش اهل حلب بالغلال التى

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٦٦ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٥٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ٤٧ ب .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٧ ورقة ١٤٣ ب ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٧

بحوزته . وعند ما تأكد تتش من مراسلة شرف الدولة مسلم للامير سابق واهل حلب يحثهم على الصبر والصمود استدعاه وعاتبه على موقفه وطلب منه الرحيل . فانسحب مسلم وجعل عبور جيوشه على باب حلب ، وباع لسكان حلب كل ماكان فى عسكره من مؤن . وارسل الى وثاب وشبيب ابنى محمود ومن معهم من الزعماء يحثهم على الهرب من معسكر تتش(١) .

وافلحت جهود مسلم بن قريش فى اقناع زعماء كلاب بالفرار عن تتش خصوصا بعد ما راسلهم سابق بن محمود قائلا : "انما أذب واحامى عن بلادكم ولوصار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا ". فأدرك زعماء كلاب تناقض موقفهم ففى الوقت الذى ذهبوا فيه الى ملكشاه لطلب المساعدة ضد تسلط التركمان على سابق ، اذا بهم يأتون بموجة تركمانية جديدة بقيادة تتش بن ألب أرسلان . كما ان مقتل أحمد شاه كان مشجعا لزعماء كلاب للعودة الى حلب . وانضموا الى سابق بن محمود ضد تتش(٢) .

وارسل تتش الى أخيه السلطان ملكشاه تقريرا عن صعوبة موقفه وقلة عسكره بعد انسحاب مسلم بن قريش وبنى كلاب . فارسل السلطان لتتش نجدة تحمل آلات الحصار بقيادة رجل يدعى تركمان التركى فى ألف فارس . فقابل مسلم بن قريش النجدة السلجوقية فى منطقة الجزيرة وحاول اثناء عزم تركمان التركى عن مواصلة الزحف الى الشام وخوفه من بنى كلاب . ورفض القائد تركمان التركى رأى مسلم بن قريش الذى سارع بابلاغ سابق بامر النجدة . وتمكن سابق

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٧ ب - ٤٨ أ ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٤ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٧ ورقة ١٤٤ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٨ .

وزعماء كلاب بمساعدة مسلم بن قريش من جمع الف وخمسمائة مقاتل من بنى نمير وعقيل وقشير وكلاب وكمنوا للنجدة عند وادى بطنان فى مكان بين حلب ومنبج يسمى الفايا (١) ، وانقضوا على تركمان ومن معه فقتلوهم وغنموا كل ما معهم بما فى ذلك بعض اموال التجار الواصلين فى صحبتهم (٢) . وكان لهذا النصر أثره الواضح فى رفع معنويات سابق وبنى كلاب (٣) .

علم تتش بهزيمة النجدة المتجهة اليه ، فترك حصار حلب فى شهر صفر ٤٧١ هـ / سبتمبر ١٠٧٨ م واتجه شرقا لمطاردة كلاب وغيرهم من العرب . وترك مؤنه وأثقاله قريبا من حلب ، فخرج سكانها ونهبوا مؤن تتش وقتلوا حراسها . وكان هدف تتش من المسير شرقا الانتقام من مسلم بن قريش لموقفه من تتش ، بيد ان تتش فوجىء باستعداد مسلم للقائه فعدل عن خطته وسار شمالا الى ديار بكر لقضاء فصل الشتاء ، واجتاح المناطق التابعة لنصر بن مروان امير ميافارقين ونهبها ، ثم ارسل الى ملكشاه يطلب النجدة (٤) .

---

(١) وادى بطنان : واد بين منبج وحلب كان بينه وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة فيه انهار جارية وقرى متصلة قصبتها بزاعة والفايا : كورة بين منبج وحلب كانت فى اعمال منبج قرب وادى بطنان كان لها قرى عامرة وفيها بساتين ومياه جارية . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٨ أ ، ابن العديم بغية الطلب جـ ٧ ص ٤٤٥ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٦١ .

(٣) مدح الشاعر ابن حيوس سابق بن محمود المرداسى بعد القضاء على نجدة تركمان التركى بقصيدة طويلة منها قوله :

ومانجا تركمان اذ ندبت له	من عاصر عصبا اعزز بها عصبا
وافى بلادك مغترا بمالكها	جهلا وحينا فلا قود ونها العطبا
وكانت الترك بالاعراب جاهلة	حتى أتحت لها ان تعرف العربا

انظر : ديوان ابن حيوس جـ ١ ص ٥٢ - ٥٣ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٤٧ أ .

وبعد انتهاء فصل الشتاء سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨/١٠٧٩ م عاد تتش الى شمال الشام بعد ما انضم اليه جماعات اخرى من التركمان . وانتهج تتش سياسة جديدة في التضييق على حلب ، وهي الاستيلاء على الريف والحصون التابعة لحلب حتى يسهل أخذ المدينة بعد ذلك . وتطبيقا لهذه الخطة استولى على منبج وحصني الفايا والدير وشحنها بالرجال . ثم سار الى حصن بزاعا الذى كان يقيم به شبل بن جامع الكلابى ، فاستولى عليه ونهبه . وسار تتش الى عزاز التى لجأ اليها الفارون منه فمنعهم والى عزاز من الصعود للقلعة ، فلجأوا بامتعتهم واهلهم الى سور القلعة الخارجى فاشعل التركمان النيران فى امتعة الفارين وكادت النيران تلتهم القلعة ، فاستسلمت لتتش فى ذى القعدة ٤٧١ هـ / مارس ١٠٧٩ م . سار تتش بعد ذلك الى حلب واستولى فى طريقه على بعض الحصون مثل جبرين قورسطايا وغيره . وخسر تتش الكثير من جنوده اثناء التردد بين الحصون ، وعند ما وصل حلب تمكن المدافعون من صده عنها مما كان له اثر واضح فى اضعاف عسكره (١) . ورأى تتش ان الاستيلاء على حلب امر فى غاية الصعوبة فقرر مهاجمة المدن الواقعة جنوب حلب ونجح فى أخذ المعرة وحماة . وأدرك صاحب حمص خلف بن ملاعب أن الدور بات عليه فاعلن دخوله فى طاعة تتش فأقره على ولايته . ثم رحل تتش الى جبرين للتربص بحلب وهى صامدة رغم المجاعة الشديدة . (٢)

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٥ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٦٢ - ٦٣ ، وحصن الدير من اعمال حلب مشرف على صم الواقع بين حلب وانطاكية ، وبزاعا بلدة من اعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحلب كان فيها عيون ومياه جارية واسواق حسنة وعزاز او اعزاز - بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب وجبرين قورسطايا من قرى حلب من ناحية عزاز ويعرف بجبرين الشمالى . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٥ أ .

وهكذا بدا الامر وكأن تتش قد فشل فى تحقيق نصر ذى قيمة فى بلاد الشام ، فأوامر ملكشاه تقضى بعدم التعرض لاتسز فى الجنوب ، كما أن حلب عاصمة شمال الشام صمدت لكل محاولاته (١) . وتهيأت لتتش فرصة لم تكن فى الحسبان ساعدته فى بسط نفوذه على جنوب الشام ولتصبح المنطقة كلها خاضعة خضوعا مباشرا للبيت السلجوقى ، بعد تبعيتها للسلاجقة من الناحية الاسمية . فقد قرر الوزير الفاطمى بدر الجمالي القضاء على اتسز واسترجاع ما اغتصبه من بلاد الشام ، فجهز جيشا كبيرا من العرب والترك والاكراد وصنهاجه والبربر والسودان وبنى خفاجة ، بقيادة غلامه نصر الدولة الجيوشى وسار الجيش الفاطمى واسترد اعمال فلسطين وقصد دمشق ضاربا عليها الحصار الشديد . وشعر اتسز ان المدينة على وشك السقوط . فأرسل مستغيثا الى تتش وهو مقيم باعمال حلب يطلب منه النجدة ، ووعده بتسليم دمشق اليه قائلا : " انجدنى واكن نائبك بدمشق " . فسار تتش على عجل الى دمشق وبلغ الجيش الفاطمى خبر زحفه ففك الحصار عن دمشق وانسحب عائدا الى مصر . (٢)

وصل تتش الى مرج عذراء بالغوطة شمال شرق دمشق واستقبله اتسز وقدم له فروض الطاعة والولاء . وتسلم تتش مدينة دمشق فى ١٢ ربيع الثانى سنة ٤٧٢ هـ / ١٢ اكتوبر ١٠٧٩ م . وقرر تتش التخلص من اتسز لما فعله

---

(١) انظر ماسبق ص ١٤٦

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٠ أ - ب ، ابن واصل التاريخ الصالحى ورقة ١٦٨ أ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ ١٣ ورقة ١ أ ، ابن القلانسى ص ١١٢ ، تاريخ العظمى ، حوادث سنتى ٤٧١ - ٤٧٢ هـ ، ابن ميسر ، اخبار مصر جـ ٢ ص ٢٦ .

من تخريب وتدمير لجنوب الشام ، فقتله مع أخيه جاولى ، وبذلك انتهت سيرة اتسز السيئة فى جنوب الشام ، واصبح تتش أول امير سلجوقى من سلاجقة الشام يحكم فى هذه البلاد. (١)

واحسن تتش السيرة فى أهل دمشق وعدل فيهم . ورجع اهل دمشق الذين هربوا من جور وظلم اتسز (٢) . اما القائد التركمانى الافشين بن بكجنى الذى أغار على آسيا الصغرى وشمال الشام سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م (٣) والذى أمره السلطان ملكشاه بالانضمام الى تتش فقد استوحش من تتش عند ما قتل اتسز ، وخشى ان يناله نفس المصير ، فقرر الافشين الانفصال عن تتش وتبعه معظم جيش تتش . ولا يوجد فى المصادر المتداولة ما يفسر انضمام معظم العسكر الى الافشين عند انفصاله عن الامير تتش غير أنه من المحتمل ان التركمان الذين كانوا يشكلون معظم جيش تتش ، رأوا ما اصاب دمشق وجنوب الشام من الفقر والتدهور واصبحت بالتالى لا تشكل أى اغراء لهم ، لذلك آثروا مرافقة الافشين لنهب قرى ومدن شمال الشام الذى كانت أحواله الاقتصادية أحسن من جنوب الشام . يقول ابن العديم اثناء حديثه عن تتش " ثم فسح من عسكره افشين التركى ومعه اكثر العسكر وعاد شمالا ، ونهب عسكره ضياعا فى أعمال بعلبك " ووصل الافشين الى رفنيه فى العاشر من جمادى الاولى سنة

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٥١ أ ، ابن ابى الدم ، التاريخ المظفرى ، ورقة ١٥٤ أ ، ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٦٨ أ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ ١٣ ورقة ١ أ - ب ، ابن القلانسى ص ١١٢ ، العظيمى ، حوادث ٤٧٢ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٠١ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٨٢ ،
The Cambridge History of Islamic, p.195.

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٦٨ أ ، ابن القلانسى ص ١١٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١١١ .

(٣) انظر تفصيل غارات الافشين فى سنة ٤٦٠ هـ فى الفصل الاول ص ٨٩ - ٩٠ .

٤٧٢ هـ / ١٠ نوفمبر ١٠٧٩ م ، وكان بها قوافل تجارية متجهة الى طرابلس فباغتها الافشين وقتل رجالها واستباح نساءهم واولادهم ، واقام بها عشرة أيام . ثم سار الى حصن الجسر القريب من شيزر ، وكان يقيم به الامير على ابن منقذ ، فأكرمه ابن منقذ وكشف الافشين للامير على بن منقذ عن عزمه على نهب شمال الشام فطلب اليه ابن منقذ عدم التعرض لبلدته كفرطاب ، فأجابه الى ذلك وسار الافشين الى بلدة قسطون من أعمال حلب فنهبها وقتل من فيها واقام بها اكثر من عشرين يوما (١).

وهاجم الافشين ايضا الاماكن الحصينة فى أعالى الجبال وتنقل مع عسكره بالمنجنيقات على ابراج جبل السماق (٢) ولم يبق بها برجا او حصنا الا اقتحمه وقتل سكانه واستباح نساءهم واسر اولادهم . وسار الى معرة النعمان الشرقية وفتحها وسار الى معرتارج من ضواحى كفرطاب فتحصن سكانها بالابراج فاضرمها عليهم فاحترقوا جميعا (٣). وعندما اصبحت المناطق الواقعة بين حلب والمعرة قاعا صفصفا ، سار الافشين الى أنطاكية فنهب ريفها واجبرها على دفع ثلاثين الف دينار ، ثم توجه الى الشرق بعد امتلاء يده ويد عسكره بالغنائم ، لذلك يقول ابن العديم : " وجرى من امر هذا الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله وتلف اهله بعد ذلك بالجوع ووجد قوم قد

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٦٥ - ٦٦ ، وكفرطاب بلدة بين المعرة وحلب وقسطون حصن من اعمال حلب الغربية . انظر : ياقوت : معجم البلدان .

(٢) السماق ، جبل عظيم من اعمال حلب الغربية يشتمل على مدن وقرى عامتها للاسماعيلية . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٦٦ - ٦٧ ، ومعرة النعمان مدينة كبيرة قديمة ومشهورة من اعمال حمص بين حلب وحماة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

قتلوا قوما واكلوا لحومهم ، وبيعت الحنطة ستة ارطال بدينار. "(١).

وعند ما بلغ تتش خبر هذا النهب الشنيع سار الى كفرطاب ،فوجد تركمانيا آخر يدعى ارسلان تاش قد نهب قرى شرق حلب وهرب الى آسيا الصغرى وفى الوقت نفسه لم يلحق تتش بالافشين . فسار تتش وحاصر حلب بضعة أيام واستولى على بزاعة والبيرة من أعمال حلب واحرق ربض اعزاز وعاد الى دمشق (٢). وكان من أثر هذه الاعمال التخريبية التى ارتكبها الافشين ، انه بعد عشرين سنة مر الصليبيون فى هذه المنطقة الجبلية الصعبة فى طريقهم الى بيت المقدس دون ان يواجهوا مقاومة تذكر ، وهذا يشير الى انه حتى بعد عشرين سنة من هذه الحوادث لم يتم تعمير هذه البلاد مما لحقها من تخريب. (٣)

ونجم عن أعمال الافشين التخريبية جلاء كثير من سكان شمال الشام الى بلاد مسلم بن قريش بالموصل ،فاحسن اليهم مما كان له اثر واضح فى ضم مدينة حلب الى امارته ، خصوصا بعد وصول وفود بنى كلاب اليه ومراسلة سابق له طالبا منه القدوم لمساعدته . وسار مسلم بن قريش واستولى على مدينة حلب سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٨٠ م ودخل فى نزاع مع تتش على بلاد الشام. (٤)

عاد تاج الدولة تتش الى دمشق وعمل على توطيد مركزه فى عاصمة الشام وحماية نفسه فيها فقام بانشاء القلعة التى عرفت فيما بعد باسم قلعة

---

(١) ابن العديم ،زبدة الحلب ج٢ ص٦٧ ، انظر ايضا سبط ابن الجوزى، مراة الزمان ج ١٣ B ورقة ٥٠ أ - ب.

(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب ج ٢ ص ٦٧ ،ابن الاثير الكامل ،ج١٠ ص١١، تاريخ ابن خلدون ج٤ ص ٥٨٨.

(٣) Zakkar, op.cit. pp. 200-201 .

(٤) ابن العديم ،زبدة الحلب ج ٢ ص ٦٧ ، وانظر مايلى ص ٢١٠ - ٢١٣ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ .

دمشق ، وبنى فيها دار الامارة ، ودارا اخرى لولده رضوان (١) . وسار تتش سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م لاستعادة بعض مناطق جنوب الشام ، فاستولى على طبرية ، ثم سار الى الرملة وضمها وولى عليها واليا من قبله (٢) . وبعث تتش حملة عسكرية لحصار بيت المقدس سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م وكان به بعض أقارب اتسز ونائب عنه يدعى ترمش فلم يتمكن أصحاب تتش من استعادة المدينة (٣) . وذكر سبط ابن الجوزى ان تتش اعتقل فى سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨١ م سمارا امير قبيلة كلب بسبب اكتشاف مراسلة تمت بين سمار وبين الفاطميين . ويبدو ان تتش فرض سيطرته على قبيلة كلب وغيرها من قبائل جنوب الشام . ولم يطلق تتش سراح سمار زعيم كلب الا بشفاعة القائد التركمانى ارتق بن اكسب سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م (٤) .

وفى أوائل سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م جهز تتش حملة أخرى بقيادة القائد التركمانى ارتق بن اكسب لاستعادة بيت المقدس ، لما لها من اهمية روحية وسياسية . فوصل ارتق الى بيت المقدس وراسل ترمش وطيب قلبه ، فخرج اليه وسلمه المدينة . فتوسط ارتق لدى تتش ، فاقطع الاخير ترمش قلعة صرخد عوضا عن بيت المقدس . وكان يقيم فى بيت المقدس خال اتسز وزوجته وابنته فهاجروا الى بغداد خوفا من المقام ببلاد الشام . (٥)

---

(١) ابن طولون ، الشمعة المضية فى اخبار القلعة الدمشقية ورقة ١ أ .
(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٣١ - ١٣٢ ، ١٨٣ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٠ ب .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٣ أ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١٥ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٩ .

وأخيرا قرر تتش بسط نفوذه على شمال الشام ، فجمع سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م جيشا كبيرا وسار الى أنطاكية . ويبدو أنه كان يريد فتح انطاكية حتى تصبح حلب الخاضعة لمسلم بن قريش مطوقة من الشمال و الجنوب باملاك تتش ، مما يسهل عليه الاستيلاء عليها . غير ان مسلما لما علم بمسير تتش الى الشمال حشد جيشا كبيرا من قبائل عقيل ونمير والاكراد وغيرهم ، وقرر الاستيلاء على دمشق نفسها . فلما سمع تتش بعزم مسلم بن قريش عاد مسرعا وتمكن من دخولها قبل وصول الامير العقيلي . وعندما وصل الاخير حاصر دمشق ، الا أنه أخفق في الاستيلاء عليها لاسباب عديدة ثم فك مسلم حصار دمشق وسار الى حران للقضاء على تمردها (١) .

هاجم تتش حلب بعد انسحاب مسلم بن قريش عن دمشق ، ونهب بعض غلالها وباعها بثمن قليل . وكان ملكشاه قد كتب لتتش بمال على مسلم بن قريش فماطله فرد تتش بنهب الغلال وبيعها . ولما علم مسلم بن قريش باغارة تتش على حلب ارسل اليها نجدة بقيادة وزيره ابي العز بن صدقة فانسحب تتش غربا واقام بجسر الحديد وامر القائد التركي ارتق بشن الغارات على حلب . وتمكن ارتق من أسر اكثر من ثمانين رجلا من العرب فقتلهم . وهنا تدخل السلطان ملكشاه وامر اخاه تتش بعدم التعرض لحلب والعودة الى دمشق كما امر ارتق بك بالعودة الى بلاط السلطان مما ادى الى اضعاف تتش فانسحب عائدا الى دمشق . (٢) ويبدو ان ملكشاه ، أدرك انه اذا تم اخضاع شمال الشام والجزيرة

---

(١) ابن القلانسي ص ١١٤ - ١١٥ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٦ - ١٢٧ ، وانظر ماسبق ص

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٢ أ ، ابن القلانسي ص ١١٦ ، يقع جسر الحديد في الشمال الشرقي من انطاكية على مسافة نصف يوم سيرا على الاقدام بين انطاكية وحارم . انظر : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ حاشية رقم (١) .

الفراتية الغنية بمواردها المالية الاخيه تتش مضافا اليها دمشق وجنوب الشام، فان ذلك قد يغرى تتش بالمطالبة بعرش السلطنة السلجوقية ، لذلك آثر ملكشاه ابقاء تتش فى نطاق الموارد المحدودة لدمشق وجنوب الشام ، ونهاه عن محاولة بسط نفوذه على حلب وشمال الشام .

ولما رأى تتش أن محاولة الاستيلاء على حلب سوف تصطدم بمقاومة خصمه العنيد مسلم بن قريش العقيلى فضلا عن رفض السلطان ملكشاه لهذه السياسة اتجه الى ساحل بلاد الشام فى مطلع سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣م فاستولى على بيروت وطرد منها الوالى الفاطمى (١) . ثم سار الى طرطوس وانتزعها من صاحبها خلف بن ملاعب ، كما اخذ فى طريقه بانياس . ويبدو ان تتش احتاج للاموال فسلم طرسوس لحاكم طرابلس ابن عمار مقابل مبلغ من المال (٢) . ثم سار تتش فى سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م الى بعلبك التى كان يليها رجل يدعى عود بن الصقيل من قبل الفاطميين وباغته تتش فى احدى ضياع بعلبك واسره وتسلم منه بعلبك وولى فيها غلامه كمشتكين الخادم . ثم عاد تتش الى دمشق (٣) .

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٠٢ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٩ ب ، الاصفهانى ، البستان الجامع ورقة ٩١ ب ، ابن ايبك الدوادارى الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٠٧ ، الذهبى ، العبر جـ ٣ ص ٢٨٠ ، وطرطوس بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، وبانياس اسم لبلدة صغيرة تبعد عن دمشق مرحلة ونصف جهة الغرب وتقع فى لحف جبل لبنان ، انظر ابوالفدا ، تقويم البلدان ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ B١٣ ورقة ٦٤ ب ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٧٦ هـ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٤ - ٤٥ .

ويبدو أن اصرار السلطان ملكشاه على عدم السماح لاخيه تتش بتوسيع نفوذه فى بلاد الشام كان من الاسباب التى دفعت تتش الى محاولة اقامة علاقة ودية مع الفاطميين ، حيث يذكر كل من سبط ابن الجوزى وابن تغرى بردى أن تتش عزم سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م على مصاهرة الوزير الفاطمى بدر الجمالى على ابنته ، فتدخل ابن عمار حاكم طرابلس واقنع تتش بخطورة هذا الزواج على علاقته مع أخيه السلطان فتراجع تتش عما عزم عليه. (١)

على انه تجدر الاشارة الى ان محاولة تتش هذه لا تعنى حدوث تغير فى شعور الفاطميين العدائى ازاء سلاجقة الشام. ويبرهن على هذا قيام الوزير الفاطمى بدر الجمالى فى ربيع الاول سنة ٤٧٨ هـ / يوليه ١٠٨٥ م بحملة على دمشق بغية استردادها من السلاجقة . وحاصر بدر تتش بدمشق ووقع القتال بين الجانبين . وعندما ادرك بدر الجمالى انه لا يستطيع قهر تتش فى دمشق رحل عائدا الى مصر (٢) .

واذا كان السلطان ملكشاه استطاع وقف اطماع اخيه تتش فى شمال الشام فان استيلاء سليمان بن قطلمش على انطاكية سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م نجم عنه اندلاع النزاع على نطاق واسع حول منطقة شمال الشام بين مسلم بن قريش

---

(١) مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٥ ب ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١٦.

(٢) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٠ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ١٤٥ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٩٦ ، الذهبى ، العبر جـ ٣ ص ٢٨٩ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٣٧ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، جـ ١ ص ٥٧٦ ، محمد كرد على ، خطط الشام جـ ١ ص ٢٤١ ، الحصينى ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٣٦.

وسليمان بن قطلمش ثم بين تتش وسليمان مما استدعى تدخل ملكشاه بنفسه لحسم هذا النزاع .

- بلاد الشام بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام :

لم يكن استيلاء سليمان بن قطلمش على انطاكية سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م والنزاع بين تتش وسليمان بن قطلمش على السيطرة على شمال الشام سوى نهاية متوقعة لطبيعة العلاقات بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام . فعندما توفى طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣م وآلت زعامة السلاجقة الى ألب أرسلان ، ابن شقيق طغرلبك ، راى قطلمش وهو ابن عم طغرلبك انه احق بالملك من ألب ارسلان ، لان اباه كان ارشد افراد الاسرة السلجوقية واعظمهم مكانة . فأعلن قطلمش العصيان على ألب أرسلان فى اقليم الجبال الواقع جنوب بحر قزوين ، وهاجم قطلمش الرى ونهب قراها . وأرسل الب ارسلان يحذره من شق عصا الطاعة ويدعوه الى اعلان التوبة ، فرفض قطلمش ذلك ، الامر الذى اجبر السلطان ألب ارسلان على الخروج بنفسه للقضاء على عصيان قطلمش . والتقى السلطان بقطلمش سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م بالقرب من الرى وانزل به الهزيمة ، وقتل قطلمش فى المعركة . (١)

وكان لقتل قطلمش آثار بعيدة المدى ، فقد رسم هذا الحادث اول خطوط الانقسام بين فرعى السلاجقة فاخذ اولاد قطلمش يبحثون عن ملك خاص بهم ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٣٦ - ٣٧ ، تاريخ ابى الفدا جـ ٢ ص ١٨٤- ١٨٥ ، تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ص ٢٩ ، الباز العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية جـ ١ ص ٨ .

فساروا بعد معركة ملازكرد الى آسيا الصغرى فى نوع من الهرب العدائــــى لاولاد عمهم فى ايران ، وتمكن ابناء قطلمش بمساعدة قبائل التركمان من تاسيس حكم لهم فى اسيا الصغرى على اراضى الدولة البيزنطية . (١)

، تطلـــع أبناء قطلمـــش لبسط نفوذهم على بلاد الشـــام لاسيمـــا أن اجـــزاء من شمـــال الشـــام مثل شيـــزر وانطاكية كانت خاضعـة للبيزنطيين . ونجح ابناء قطلمش فى بسط نفوذهـــم فى عمق الاراضى البيزنطية . وكان من اثر ذلك ان حجز ابناء قطلمش بين الدولة البيزنطية وبين ممتلكاتها فى شمال الشام . وكان اول تدخل لابناء قطلمش فـــى شئون بلاد الشام سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م عندما ارسل شكلى الى ابن قطلمش طالبا قدومه الى الشام للقضاء على اتسز . وقد راينا كيف نجح اتسز فى قتـــل ابن قطلمش واسر اخيه الاخر وابن عمه . (٢) على ان تدخل ابناء قطلمش فـــى بلاد الشام لم ينته بمقتل احدهم واسر الاخرين ، فقد جاء سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م الى الشام ابن اخر لقطلمش فحاصر حلب ، وتمكن نصر بن محمود المرداســـى من الوقوف فى وجه ابن قطلمش بمساعدة احداث حلب الذين قاتلوا ابن قطلمش ونهبوا اصحابه وقتلوا بعضهم . وارسل نصر بن محمود المرداسى الى ابـــن قطلمش محتجا بانه - اى الامير المرداسى - مطيع للسلطان ملكشاه ، وقال فـــى رسالته الى ابن قطلمش : " فان كنت مطيعا للسلطان فارحل عنا " ولم يكـــن بمقدور ابن قطلمش اعلان العداء الصريح للسلطان ملكشاه ولهذا قبل ماعرضه الامير المرداسى من المال مقابل انسحابه عن حلب . (٣)

---

(١) تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ص ٤٣ - ٤٤ ،
شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .
The Cambridge Medieval History. Vol.IV.p.740.

(٢) انظر ماسبق " الفصل الثانى " ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٦ أ - ب .

وظل ابن قطلمش فى بلاد الشام ، وسار الى سلميه (١) من اعمال حماه ، وارسل الى اتسز طالبا منه اطلاق سراح اخيه فرد اتسز قائلا : " قد راسلت السلطان بسببه وانا متوقع الجواب فان رسم انفذته اليه وان رسم شيئا آخر كان ". ولم يستطع ابن قطلمش ان يفعل شيئا لفك أسر أخيه ، بعد ان اصبح ذلك متعلقا بامر السلطان ملكشاه . لذلك آثر ابن قطلمش الرحيل الى شمال الشام ، وحاصر انطاكية وفرض عليها عشرين الف دينار مقابل حماية ريفها من الغارات . وعلم ابن قطلمش ان جماعة من التركمان مروا بحلب فى طريقهم الى الانضمام الى اتسز ، وخرج اليهم كثير من سكان حلب ، فسار ابن قطلمش الى حلب وقاتل جماعة التركمان وقبض على بعض سكان حلب وقطع انا طهم انتقاما لموقف احداث حلب منه ثم عاد الى ريف انطاكية للقيام باعمال الحماية والخفارة . (٢)

وفى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨١ م فتح سليمان بن قطلمش مدينة طرسوس وبعث الى ابن عمار حاكم طرابلس " يستدعى لها قاضيا وخطيبا " (٣) وسار

---

(١) سلمية بليدة فى اعمال حماة . بناها عبد الله بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس وسكنها بنو هاشم . انظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٢٦ ب .

(٣) نفس المصدر والجزء ورقة ٦٢ ب ، طرسوس ، مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب ، وكانت من اجل الثغور وهى تشرف على المدخل الجنوبى لدرب ابواب قيليقية ويقع بينها وبين بلاد الروم سلسلة جبال منيعة متفرعة من جبال (اللكام) (طوروس) وقد بنيت طرسوس فى عهد الخليفة الرشيد وظلت بايدى المسلمين حتى انتزعها الامبراطور البيزنطى نقفور فوكاس سنة ٣٥٤ هـ . انظر : فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ١ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

الى نيقية فى غرب آسيا الصغرى وفتحها واتخذ منها عصمة لدولته . كما فتح الدورب التى تربط انطاكية باسيا الصغرى مثل أذنه والمصيصة وعين زربة ، واجزاء اخرى من آسيا الصغرى . (١) وبدأ سليمان يتطلع لبسط نفوذه على أنطاكية لينطلق منها الى بلاد الشام .

وتعتبر أنطاكية من اكثر مدن الشام تحصينا ، فالمرتفعات تحيط بها من جهتى الجنوب والشرق ، ويكتنفها نهر العاصى من جهة الغرب فى حين تكثر الغياض والمستنقعات بشمال المدينة ويحرسها سور بالغ التحصين به ثلاثمائة وستون برجا ، وتقع قلعة انطاكية على قمة الجبل داخل أسوار المدينة . وقد زاد البيزنطيون فى تحصين انطاكية خلال فترة بقائها تحت حكمهم (٣٥٨ - ٤٧٧هـ / ٩٦٩ - ١٠٨٤م) مما جعل اقتحام المدينة عنوة أمرا فى غاية الصعوبة (٢) . وكان يحكم انطاكية من قبل الدولة البيزنطية فيلاريتوس Philaretus وتسميه المصادر العربية " الفردوس " وهو

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٧٠ ب ، تامارا تالبو رايس السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ص ٤٩ ، Ostrogorsky , op.cit. pp.349-357; The Cambridge Medival History, Vol.IV. , p.740.
لفظ الدرب المراد به مابين طرسوس وبلاد الروم ، والثغر كل موضع قريب من ارض العدو كانه مأخوذ من الثغرة وهى الفرجه فى الحائط ، وبين كل ثغر وارض العدو درب وعقبة ، انظر ياقوت معجم البلدان ، فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، جـ١ ص ٢١٣ - ٢١٥ ، واذنه : بلد من الثغور قرب المصيصة على الشاطئ الايمن لنهر سيحان الذى يصب فى البحر المتوسط وتبعد اذنه عن طرسوس مسافة ١٢ ميلا ، والمصيصة مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرسوس ، وعين زربة عين زربى بالثغر من نواحى المصيصة . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ابوالفدا تقويم البلدان ص ٢٥٠ - ٢٥١ ، فتحى عثمان : الحدود الاسلامية جـ١ ص ٢٤٧ ، ٢٥٣ - ٢٥٤ .
(٢) رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، حسن حبشى ، =

أرمني الاصل . وكان اقليمه يمتد فيما بين انطاكية والرها . وسعى فيلاريتوس لتوطيد علاقاته مع التركمان ومع مسلم بن قريش العقيلي ،غير انه أساء السيرة مع رعاياه داخل انطاكية فصادر اموالهم ونكل بجماعات الاحداث داخل المدينة وبلغ من تعسفه ان قبض على ابنه وزج به في السجن (١) . وقد أدت سياسة فيلاريتوس السيئة الى سخط سكان انطاكية عليه . ولما غادر أنطاكية الى آسيا الصغرى لقضاء بعض شئونه انتهز ابنه وشحنة (٢) أنطاكية فرصة غياب فيلاريتوس ، فراسلوا سليمان بن قطلمش وطلبوا منه القدوم الى أنطاكية ووعدوه بالمساعدة على دخول المدينة (٣) .

وكان سليمان بن قطلمش يدرك تمام الادراك أهمية موقع انطاكية ، وسيطرتها على الطرق البحرية والتجارية بين بلاد الشام وآسيا الصغرى ، لذلك بادر بمغادرة نيقية على عجل ومعه قرابة ثلاثمائة رجل . وركب بمن معه البحر ثم نزل منه وسار في جبال وعرة ومضايق شديدة حتى يكتم خبره ، ووصل الى أنطاكية ليلا ، وحينما وصل بمن معه الى اسوار انطاكية ساعدهم الشحنة وابن فيلاريتوس فتسلق الاسوار منهم جماعة وفتحوا أحد ابواب المدينة . ودخل سليمان بعسكره الى انطاكية . وكان فتح انطاكية في العاشر من شعبان سنة

= الحرب الصليبية الاولى ص ١١٠ - ١١١ ، الباز العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٤٣٢ .

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ BB ورقة ٧٠ ب ، رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ ١ ص ١١٥ - ١١٦ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٨ ، العريني الدولة البيزنطية ص ٨٦٤ حاشية رقم (٢) .

(٢) الشحنة ، هو المسئول عن حفظ الامن في المدينة ، والشحنكية اسم الوظيفة انظر: Dozy, Supplement Aux Dictionnaires Arabes, Vol. I, p. 733.

(٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ ، العمري ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٧ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤ .

٤٧٧ هـ / اول ديسمبر ١٠٨٤ م . ووصل الى سليمان أحد أعوانه ويدعى ابن منجاك فى ثلاثمائة فارس . وظل اتباع سليمان يتواردون على انطاكية فازداد بذلك قوة . واتبع سليمان بن قطلمش سياسة عادلة مع سكان انطاكية وأمر جنوده بعدم التعرض للنصارى مما جعلهم يميلون اليه ويفضلون حكمه على حكم فيلاريتوس وكان لسياسة سليمان بن قطلمش احسن الاثر فى حياة انطاكية الاقتصادية حتى اضحت احسن حالا من سائر بلاد الشام . وحاصر سليمان بن قطلمش قلعة انطاكية حتى استسلمت فى رمضان سنة ٤٧٧ هـ / يناير ١٠٨٥ م (١) . وارسل الى السلطان ملكشاه يبشره بفتح انطاكية ، فأمر السلطان باقامة البشائر احتفالا بفتح انطاكية ، وقدم الناس والشعراء الى ملكشاه لتهنئته بهذه المناسبة . (٢)

أخذ سليمان يوطد نفوذه فى انطاكية وفتح الحصون المجاورة لها ثم سار الى الثغور الشامية وفتحها وضم اليه الساحل الواقع جنوب انطاكية حتى حدود طرابلس واصبح بذلك يسيطر على جزء هام من ساحل البحر المتوسط يمتد فيما بين طرابلس الشام ونيقية فى آسيا الصغرى (٣) . وكان يتبع انطاكية بعض القرى التى تغلب عليها محمود المرداسى بمساعدة التركمان وضمها الى حلب ولما فتح سليمان بن قطلمش انطاكية سار الى تلك القرى والحقها بانطاكية (٤) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ ، النويرى ، نهاية الارب جـ ٢١ ورقة ١٢٤ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨٦ - ٨٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤ ، ابوشامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٨٨ ، واهم الثغور الشامية ، عين زربة ، والهارونية ، وسيس والمصيصة ، واذنه ، وطرسوس . انظر فتحى عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ١ ص ٢٤٧ - ٢٥٧ .

(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٩ .

وكان لابد من وقوع النزاع بين مسلم بن قريش العقيلي وسليمان بن قطلمش ، وسبب ذلك أن انطاكية كانت تؤدى الجزية لمسلم بن قريش الذى اعتبر انطاكية داخل دائرة نفوذه . وشعر مسلم بن قريش ان سليمان بات يهدد نفوذه فى حلب وشمال الشام ، لذلك بعث الامير العقيلي الى حلب فرقة عسكرية مكونة من ألف فارس لحمايتها وارسل الى ابن قطلمش يطلب منه المال المفروض على أنطاكية (١) . وقد رفض سليمان بن قطلمش ارسال المال الى مسلم بن قريش ورد عليه قائلا : " اما طاعة السلطان فهى شعارى ودثارى ، والخطبة له والسكة فى بلادى وقد كاتبته بما فتح الله على يدى بسعادته من هذا البلد واعمال الكفار واما المال الذى يحمله صاحب انطاكية قبلى ، فهو كان كافرا ، وكان يحمل جزية راسه واصحابه - وانا بحمد الله مؤمن ولا احمل شيئا " (٢) . وبعث مسلم بن قريش نائبه بحلب ابن الحلزون الى سليمان بن قطلمش يطالبه بالاموال . وألح ابن الحلزون فى الطلب فغضب سليمان وارسل جيشه فنهب ريف حلب من منبج الى المعرة وساق الجمال والدواب والماشية الى أنطاكية . فسار أصحاب المواشى المنهوبة الى سليمان ، ورجوه ارجاع اموالهم فاخبرهم أن النهب ليس من عادته وانما اجبره على ذلك أميرهم مسلم بن قريش ، واعاد سليمان الاموال الى اصحابها (٣) . وجمع مسلم بن قريش جيشا من قبائل العرب واحداث حلب ومن التركمان بقيادة جبق التركمانى (٤) وسار قاصدا انطاكية . والتقى بسليمان بن قطلمش بين حلب وانطاكية وانضم جبق التركمانى باتباعه الى سليمان

---

(١) سبط ابن الجوزية ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ .
(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٦ أ ، ابن الشحنة روض المناظر ورقة ٦٢ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٩-١٤٠ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧١ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٠ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٦ .
(٤) انظر مايلى ، الفصل الثالث ص

ابن قطلمش مما ادى الى هزيمة العرب وفرارهم عن مسلم الذى لم يصمد معه سوى احداث حلب ، فقتل منهم أربعمائة شخص فى المعركة كما قتل مسلم بن قريش وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ / يونيه ١٠٨٥ م(١). وانتهى بمقتله جميع محاولاته فى سبيل اقامة دولة عربية فى بلاد الشام وليسدل الستار على ما تبقى للعرب من نفوذ سياسى فى هذه البلاد . وهذا يفسر الموقف السلبى الذى وقفه العنصر العربى فى بلاد الشام عند وصول الحملة الصليبية اذ لم يبق لهم من السلطان والنفوذ ما يحفزهم على الوقوف فى وجه الغزاة من الفرنج .

كان مسلم بن قريش قد اناب عنه فى حلب قائد الاحداث الشريف الحسن ابن هبة الله الهاشمى المعروف بالحتيتى ، كما ولى مسلم فى قلعة حلب ابن عمه سالم بن مالك بن بدران العقيلى . وعندما قتل مسلم بن قريش حمل سليمان بن قطلمش جثته وسار الى حلب ووضع الجثة امام باب المدينة ظانا انه بهذا الاجراء سوف يتسلم حلب(٢) . ورفض اهل حلب بزعامة الحتيتى وسالم بن مالك تسليم المدينة مما جعل سليمان يضرب الحصار حول حلب . واخيرا قبل سليمان هدنة مؤقتة مع حلب وكان هدفه من ذلك تجريد حلب من مواردها بالاستيلاء على المناطق التابعة لها . فسار الى المعرة وكفرطاب من اعمال حلب واستولى عليها ثم قصد شيزر وقاتلها واجبرها على دفع مبلغ من المال مقابل انسحابه عنها . ثم سار سليمان الى حصن لطمين قرب حلب واستولى عليه وشحنه

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ورقة ١٠٧ أ ، ابن الشحنة ، روض المناظر ، ورقة ٦٢ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩٠ - ٩٢ ، ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٠ ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥ ، ابو شامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٩١ - ٩٢ ؛
Salibi, op.cit. p.144.

بالرجال . ووصل الى المعرة فى جمادى الاولى سنة ٤٧٨ هـ / سبتمبر ١٠٨٥ م حسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش ، فثار عليه اهل المعرة واخرجوه منها ، فعاد وقاتل اهل المعرة وعاقبهم بدفع اتاوة قدرها عشرة الاف دينار .(١)

قرر سليمان - بعد ذلك - تعديل سياسته لاستمالة سكان شمال الشام ، فأمر أتباعه بحسن السيرة ونشر العدل بين السكان . واعاد سليمان بناء قلعة قنسرين وسكنها ، مما يشير الى عزمه على الاستيلاء على كل شمال الشام . وتزوج منيعة بنت محمود المرداسى ارملة مسلم بن قريش ، ويبدو ان هدفه من هذا الزواج كان استمالة بنى كلاب وامراء بنى مرداس(٢) . ولما راى الشريف الحتيتى زعيم أحداث حلب ، وسالم بن مالك العقيلى تصميم ابن قطلمش على الاستيلاء على حلب ، اتفقا على مراسلة السلطان ملكشاه وحثاه على القدوم لتسلم حلب ، او ارسال نجدة تدفع سليمان بن قطلمش .(٣)

ولما طال انتظار الشريف الحتيتى زعيم الاحداث لنجدة تصله من السلطان ارسل مبارك بن شبل زعيم كلاب الى تاج الدولة تتش طالبا مساعدته على سليمان ابن قطلمش ووعده بتسليم حلب له ومؤكدا رغبة سكان حلب فى حكمه . وكان تتش ينتظر هذه الفرصة لبسط نفوذه على حلب بعد ما اخفقت كل محاولاته السابقة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٩٥ ، لطمين كورة بحمص وبها حصن ، انظر ياقوت : معجم البلدان .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٩٥ - ٩٦ .
(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٩٦ .

للاستيلاء عليها . وفى الوقت نفسه أدرك تتش ان سقوط حلب بيد سليمان بن قطلمش سيهدد نفوذه فى بلاد الشام ، لذلك بادر تتش بحشد جيشه وخرج من دمشق فى أول المحرم سنة ٤٧٩ هـ / ١٨ ابريل ١٠٨٦ م قاصدا حلب وحاصر تتش حصن قنسرين ثم رحل الى الناعورة من اعمال حلب ، فسارع سليمان ابن قطلمش واعترض طريق تتش وتقابل الفريقان على عين سيلم من اعمال حلب . وقام القائد التركمانى الكفء ارتق بن اكسب بتنظيم وقيادة جيش تتش . ولما نشبت المعركة حاقت الهزيمة بجيش سليمان بن قطلمش وقتل فى المعركة فى شهر صفر ٤٧٩ هـ / يونيه ١٠٨٦ م(١) وقد وقف تتش امام جثة سليمان وعبر عن حقيقة النزاع بين فرعى السلاجقة قائلا : " ظلمناكم وابعدناكم ونقتلكم "(٢). وكان لمقتل سليمان بن قطلمش نتائج بعيدة المدى فقد أصبحت آسيا الصغرى بعد مقتله دون حاكم قوى الامر الذى مكن الصليبيين عند وصولهم الى آسيا الصغرى من شق طريقهم الى الشام دون صعوبة كبيرة ومن تحقيق انتصار على سلاجقة الروم عند ضوريليوم . فقد أثار مقتل سليمان الفرقة فى صفوف السلاجقة ، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لاقربائهم سلاجقة الشام وفارس ذلك الجرم . ولم يقدر للسلاجقة مطلقا ان يتحدوا لمواجهة الزحف الصليبى . وهكذا خدم الحظ الصليبيين فى مواجهة كل فرع من بنى سلجوق على انفراد مما مكنهم من انزال الهزيمة بكل قسم منهم على حدة(٣) .

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ورقة ١٠٧ ب ، ١٠٨ أ ، العينى ، عقد الجمان ، جـ١١ ورقة ٩٢ أ - ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٩٦ - ٩٧ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٧٩ هـ ، ابن الاثير الكامل ، جـ١٠ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ص ١٥ - ١٦ ، The Cambridge History of Islamic . Vol. I A.p.195; Zakkar, op.cit. pp.216 - 217.
الناعورة موضع بين حلب وبالس ، وعين سليم موضع بينه وبين حلب نحو ثلاثة اميال . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٩٨ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١٠٢ - ١٠٣

وكيفما كان الامر ، فان تتش بعد انتصاره على سليمان بن قطلمش وقتله سار الى حلب ليتسلمها حسب الاتفاق السابق مع الشريف الحتيتي زعيم الاحداث بها . ولكنه عندما وصل الى حلب وجد ابوابها مغلقة والحراسة على اسوارها مشددة ، فراسل الحتيتي مستفسرا عن اسباب غلق المدينة في وجهه فرد عليه الحتيتي مخبرا انه جاء من جهة السلطان ملكشاه مايفيد بقدومه الى حلب ولذلك لن يسلم المدينة الا للسلطان . وكان ابن الحيتي قد سلم كل برج من ابراج حلب الى أحد اعيان المدينة لحراسته وكان يحرس احد الابراج تاجر حلبي يدعى ابن الرعوي ، فاتصل ابن الرعوي بتتش واتفق معه على تسليم المدينة وساعده في تسلق بعض اتباعه للبرج ونزلوا وفتحوا احد الابواب فدخل تتش بجيشه الى حلب واستولى عليها في ٢٦ ربيع الاول ٤٧٩ هـ / ١١ يوليه ١٠٨٦ م . غير ان سقوط حلب بيد تتش لم يكن كاملا ، اذ ظل الشريف الحتيتي معتصما مع الاحداث في قلعة بناها لهم ، فضلا عن ان قلعة حلب الكبيرة تحصن بها سالم بن مالك العقيلي ورفض تسليمها الا للسلطان حسب وصية مسلم بن قريش . واخيرا تمكن تتش من فتح قلعة الشريف الحتيتي وقبض عليه وسلمه لقائده ارتق الذى نفاه الى بيت المقدس . ثم ضيق تتش محاصرته لقلعة حلب ودام حصاره لها قرابة الشهر دون ان يستطيع فتحها ، ثم بلغه وصول طلائع جيش أخيه السلطان الى مشارف حلب ، فانسحب تتش عائدا الى دمشق (١) . واخيرا وصل السلطان ملكشاه الى الشام ليجني ثمار مقتل مسلم بن

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٨٢ أ - ب ، ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٨ أ - ب ، ابن واصل ، التاريخ الصالحي ورقة ١٦٩ ب ، العييني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ٩٢ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٩٧ - ٩٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ١٦ - ١٧ ، Zakkar , op.cit. pp.217 - 218.

قريش وسليمان بن قطلمش .

- السلطان ملكشاه فى بلاد الشام ٤٧٩ هـ :

تلقى السلطان ملكشاه استغاثة والى قلعة حلب سالم بن مالك العقيلى والشريف الحتيتى زعيم الاحداث اثناء حصار سليمان بن قطلمش لحلب بعد مقتل مسلم بن قريش . ومن اصفهان قاد ملكشاه جيوشه قاصدا بلاد الشام فى جمادى الاخرة سنة ٤٧٩ هـ / اكتوبر ١٠٨٦ م(١) .

وكان التركمان يشكلون غالبية جيش السلطان ملكشاه . وكان جل اعتمادهم فى القتال على شجاعتهم الفردية وطبيعتهم الحربية . ولهذا افتقروا الى استقرار وتدريب القوات النظامية(٢) . وقد درج التركمان على النهب اثناء العمليات الحربية ، ولم يستطع الب ارسلان خلال حملته على الشام كبح جماح التركمان ومنعهم من ممارسة هذه العادة . ولهذا حاول ملكشاه اثناء مسيره الى الشام تعويد التركمان على التزام النظام وعدم التعرض للسكان(٣) . وسلك السلطان بجيشه الطريق الذى سلكه والده ألب ارسلان الى الشام فمر بالموصل وسار منها الى حران وسلمها اليه ابن الشاطر فاقطعها ملكشاه لمحمد ابن مسلم بن قريش . ووصل الى ملكشاه وفد من الرها يعلنون دخولهم فى طاعته لان فيلا ريتوس عاملهم بنفس السياسة القاسية التى انتهجها فى انطاكية . وارسل ملكشاه مع وفد الرها شخصيا يعرف بالعميد لادارة شئون المدينة(٤) .

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٨١ أ ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٧ ب ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٢ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٤٨ .

(٢) Gibb, op.cit. pp. 36 - 37.

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٨١ أ - ب .

(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٨١ أ - ب ، العينى عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٢ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧ ، ابوالفدا ، المختصر فى اخبار البشر جـ ٢ ص ١٩٧ .

واصل السلطان ملكشاه زحفه الى الشام ومر على قلعة جعبر ، وصاحبها جعبر بن سابق القشيرى ، وكانت هذه القلعة ملجأ لعصابات اللصوص، وقطاع الطرق . فحاصر ملكشاه القلعة حتى فتحها ، وقتل جعبر بن سابق ، وولديه اللذين كانا ينظمان عمليات الاغارة على المسافرين ونهب القوافل التجارية ... واستأصل السلطان شأفة اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يتحصنون بالقلعة (١) وعند ما اقترب السلطان ملكشاه من الشام أشار القائد ارتق بن اكسب على تتش بانتهاز فرصة وصول جيش ملكشاه فى غاية التعب والارهاق من أثر السفر والانقضاض عليه وتدميره ، فرفض تاج الدولة تتش مشورة ارتق قائلا : " لا أكسر جاه اخى الذى أنا مستظل بظله فانه يعود بالوهن على أولا "(٢).

عبر السلطان ملكشاه الفرات ، وملك فى طريقه منبج . وتقدمت طلائع الجيش السلجوقى الى مشارف حلب بقيادة برسق واياز وبوزان وغيرهم من القادة. وعلى اثر وصولهم انسحب تتش عائدا الى دمشق ثم وصل السلطان ملكشاه الى حلب فى ٢٣ شعبان سنة ٤٧٩ هـ / ٣ ديسمبر ١٠٨٦ م ودخل المدينة . ونزل سالم بن مالك العقيلى من قلعة حلب وسلمها للسلطان الذى شكره على حفظه للقلعة امام هجمات ابن قطلمش وتتش . وباستسلام حلب تسلم السلطان جميع القلاع والحصون التابعة لها فى شمال الشام. (٣)

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٨١ ب ، الاصفهانى ، البستان الجامع ورقة ٩٢ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ ١٢ ورقة ١٣ B ، ابن الجوزى المنتظم جـ ٩ ص ٢٨ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٧٤ ، قلعة جعبر على نهر الفرات بين بالس والرقة على الطرف الشمالى للنهر. وتقوم القلعة على هضبة صخرية صعبة المنال . انظر ياقوت معجم البلدان ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٤٩ ، ابن واصل، مفرج الكروب جـ١ ص ١٨ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٨١ ب ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨ أ ، الاصفهانى ، البستان الجامع ورقة ٩٢ أ ، النويرى نهاية الارب جـ٢١ ورقة ١٢٤ أ ، ابن القلانسى ص١١٩ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٧٩ هـ ، Zakkar, op.cit.p.218; Salibi, op.cit. pp.146 - 147.

وبعد أيام من دخول السلطان ملكشاه حلب ، سار السلطان ملكشاه الى أنطاكية التى كان يليها الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قطلمش. وعند وصول ملكشاه الى انطاكية استقبله الحسن بن طاهر واخذ منه الامان لنفسه ولاولاد سليمان وسلمه مدينة انطاكية . ومن انطاكية اخذ ملكشاه الابن الاكبر لسليمان ، قلج ارسلان ، ليعود به الى اصفهان واقطعه اقطاعا بخراسان . اما انطاكية فقد اقطعها السلطان لقائده ياغى سيان واعطاه فرقة من الفرسان لحماية المدينة (١) . ومن أنطاكية سار السلطان الى مينائها المعروف بالسويدية على ساحل البحر المتوسط وصلى شكرا لله "على أن ملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب" (٢) .

عاد السلطان من أنطاكية الى حلب فى رمضان ٤٧٩ هـ/ ديسمبر ١٠٨٦ وشرع فى تقسيم بلدان الشام كاقطاعات حربية ومنحها لقادته وغيرهم من الامراء ، فمنح سالم بن مالك العقيلى ، قلعة جعبر وعانة وهيت عوضا عن قلعة حلب . ووصل الى حلب وفد من نصر بن منقذ امير شيزر يعلن دخول ابن منقذ فى طاعة السلطان وتنازله عن اللاذقية وافامية وكفر طاب ، فكتب

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب - ٨٢ أ ، العينى عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٣ أ ، تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠١ ، تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم ص ٥٤ .

(٢) تاريخ العظيمى ، حوادث سنة ٤٧٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠١ ، الراوندى ، راحة الصدور واية السرور ص ٢٠٢ ، ابن النظام الحسينى ، العراضة فى الحكاية السلجوقية ص ٦٤ .

السلطان لابن منقذ توقيعا بامارة شيزر . كما وصله وفد من أخيه تتش يجدد الطاعة والولاء للسلطان . فجدد ملكشاه اقطاعه لتتش فى دمشق وجنوب الشام. وقدم الى حلب خلف بن ملاعب حاكم حمص ، وقدم للسلطان خيلا وهدايا فاخرة ، فشكره السلطان على هديته واقره على ولاية حمص . وزاد السلطان ملكشاه فى اقطاع محمد بن مسلم بن قريش العقيلى ، الذى اقطعه حران وهو فى طريقه الى الشام " ، فاضاف اليه الرحبة واعمالها وسروج والرقة ، والخابور كما زوجه باخته زليخا خاتون ابنة السلطان ألب أرسلان . (١)

وهنا لا بد من اعطاء فكرة عن طبيعة الاقطاع الحربى السلجوقى . فالمعروف ان الدولة السلجوقية تميزت بالصفة الحربية العامة ، وقد تطلبت هذه الصفة منذ اواسط تاريخ هذه الدولة ، وكثرة انغماسها فى الحروب ، ان ينتقل النظام المالى فيها انتقالا حتميا من نظام الرواتب والمهايا والاعطية النقدية الى نظام المكافأة والتعامل على قاعدة اقطاعية . فألغى الوزير السلجوقى نظام الملك ، عادة جباية الاموال من البلاد وصرفها على الجيش ، واحل محلها اقطاع البلاد ، الكبار القادة العسكريين حتى ينصرفوا الى الاهتمام بشئونها وعمارتها (٢) . يقول نظام الملك : " ينبغى لاهل الاقطاع ان يعلموا ان ليس لهم على الرعية من امر (اى سلطة قضائية) الا أن يجبوا منهم المال الذى عهدت اليهم جبايته بالحسنى . فاذا جبوه وجب أن يأمن الناس على انفسهم

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب ، ٨٢ أ ، العينى عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٣ أ ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨ أ - ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ - ١٥٠ ، ابوشامة ، الروضتين جـ ١ قسم ١ ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر زمن الايوبين ص ٢٦ .

ونسائهم وأموالهم وعيالهم ويطمئنوا على اسبابهم وضياعهم . وما لاهل الاقطاع عليهم بعد ذلك من سبيل . فاذا ارادت الرعية ان ترد باب الملك لتطلعه على امرها وجب عليهم الا يحولوا بينهم وبين ذلك . وكل من سار من المقطعين فى الناس بغير ذلك وجب ان تغل يداه وان يسترد منه اقطاعه وان يؤاخذ على ذلك حتى يعتبر به الاخرون . ومهما يكن من شىء فينبغى لهم ان يعلموا أن الملك والرعية للسلطان جميعا وانهم (أى المقطعون) وكذلك الولاة ، وهم على رأس الرعية شحنة لا ينبغى ان يكون لهم على الرعية الا ما يكون للسلطان عليها من حسنى تنعم بها ان شاءوا أن يأمنوا عذاب الاخرة وعقابها "(١) . وفى نظام الاقطاع الحربى الذى وضعه نظام الملك ضمان لعدم تكليف ميزانية الدولة اية مصاريف اضافية . ويدل على هذا ان نظام الملك اثناء توزيع ملكشاه لبلدان الشام والجزيرة كاقطاعات اشار على السلطان باقطاع قلعة جعبر لسالم بن مالك العقيلى وقال للسلطان : " ان قلعة جبر تريد منا فى كل عام جملة من المال ، وليس لها عمل جيد وهو - (اى سالم) - يرضى بها "(٢) .

ومع ان هذا النظام قد افاد الدولة من الناحية الاقتصادية ، عند ما ترك للقادة والامراء حرية تنظيم اقطاعاتهم الا انه كان سيئا من الناحية السياسية خصوصا فى بلاد الشام . فهؤلاء الامراء والقادة المقطعون احتفظوا بجيوش خاصة بهم ، الامر الذى اغراهم بالنزوع الى الاستبداد

---

(١) نظام الملك ، سياسة نامة ص ٦١ (الترجمة العربية) .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨ أ - ب .

ومحاولة تأكيد استقلالهم عن السلطان السلجوقي ، وحاول كل واحد منهم في بلاد الشام توسيع اقطاعه على حساب غيره من المقطعين مما اوجد حالة من الحروب المستمرة بين هؤلاء الامراء بحيث بات من الصعب اعادة الامن والنظام الى بلاد الشام. (١)

وعندما قرر السلطان ملكشاه مغادرة حلب عائدا الى خراسان خلف وراءه قسيم الدولة اقسنقر ، ومنحه اقطاعا ضخما اشتمل على حلب وحماة ومنبج واللاذقية والمعرة واعمالها . وترك السلطان لقسيم الدولة فرقة عسكرية مؤلفة من اربعة الاف فارس كما ترك له قائدا تركيا يدعى نوح لمساعدته في ادارة شئون القلعة . وعهد السلطان بجمع الاموال في ديوان حلب الى تاج الرؤساء ابى منصور بن الخلال الحلبي . (٢)

وبعد ان رتب السلطان ملكشاه امور بلاد الشام غادر حلب اواخر سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م وفي طريقه بلغه ان العميد الذى ولاه على الرها صادر اموال السكان مما ادى الى قيامهم ضده وطردهم له ، فأقطع السلطان مدينة الرها لقائده بوزان ، فسار بوزان وتسلم الرها . ومر ملكشاه على ميافارقين وديار بكر فعزل ابن جهير عنها وولى فيها اباعلى البلخي . وعاد السلطان الى خراسان . (٣)

---

(١) Gibb, op.cit. pp. 23-24.
وعن النزاع بين أمراء السلاجقة واثره على بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية الاولى انظر مايلي ص

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٥٨ ب ، ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ١٩ ، ابن ايبك الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣٠ ، حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الايوبين ص ٢٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ B١٣ ورقة ٨٢ ب.

ورغم ان حملة السلطان ملكشاه الى الشام بدت وكأنها اوصلت الدولة السلجوقية الى اقصى اتساعها فانها فى حقيقتها لم تؤد الى تكوين جبهة اسلامية متحدة فى بلاد الشام ، ذلك ان السلطان ملكشاه اخضع فعلا بلاد الشام للحكم السلجوقى المباشر ، الا انه اسهم فى تمزق بلاد الشام والجزيرة عندما منحها كاقطاعات حربية لقادة جيشه وغيرهم . فلو قدر لبلاد الشام ان تصير موحدة نتيجة حملة ملكشاه لتغير مصير الحملة الصليبية الاولى . يضاف الى هذا ان السلطان ملكشاه اقر وجود بعض الامارات المستقلة فى بلاد الشام مثل امارة بنى منقذ فى شيزر وامارة خلف بن ملاعب فى حمص وامارة تتش فى دمشق وجنوب الشام ، فضلا عن استقلال طرابلس وصور عن السلاجقة . وادى هذا الى انقسام وتفتت بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين .

واثناء وجود ملكشاه فى بلاد الشام لم يحاول الاتصال بالفاطميين وبالتالى ظل العداء السياسى والخلاف المذهبى قائما بين السلاجقة والفاطميين . كما ان منطقة شمال الشام خضعت لاول مرة لحكم السلاجقة المباشر . والمعروف ان معظم سكان شمال الشام يدينون بالمذهب الشيعى خلال هذه الحقبة ، بينما السلاجقة يعتنقون المذهب السنى ويتعصبون له ، واخذ الخلاف المذهبى يتفاقم بين الجانبين مما ادى فى نهاية الامر الى ظهور حركة الباطنية (١) فى شمال الشام كرد فعل على انتصار السلاجقة وضمهم بلاد الشام الى حظيرة الدولة السلجوقية . وكل ذلك افاد منه الصليبيون فيما بعد .

---

(١) عن ظهور الباطنية فى بلاد الشام انظر الفصل الرابع ص ٣٠١ - ٣٠٢

ـ النفوذ السلجوقي في بلاد الشام بعد رحيل ملكشاه (٤٨٠ - ٤٨٥هـ)

ترك السلطان ملكشاه اقسنقر الحاجب فى شمال الشام كنائب له .
وشمل اقطاع اقسنقر مدنا هامة مثل حلب واللاذقية وحماة وحمص ومنبج والمعرة . وينتمى اقسنقر بن عبد الله ال ترفان الى قبيلة الساب يو التركمانية (١)
وقد حظى اقسنقر باهتمام المؤرخين لما قام به من جلائل الاعمال خلال حكمه لحلب وشمال الشام . وكان اقسنقر مملوكا للسلطان ملكشاه ومن المقربين لديه . وقد نشأ معه ورافقه فى طفولته وصباه . وعندما آلت السلطنة الى ملكشاه سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م جعل اقسنقر من كبار أمرائه وأخص أصدقائه واعتمد عليه فى كثير من الامور وصار يعرف بلقب قسيم الدولة (٢) ، كما عرف اقسنقر بلقب الحاجب (٣) . ويبدو انه كان كبير حجاب السلطان ملكشاه اذ يذكر ابن الاثير ان قسيم الدولة اقسنقر "كان يقف الى جانب تخت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه أحد " (٤) . ويظهر ان تقريب السلطان ملكشاه لاقسنقر واشراكه فى مهام الامور اثار منافسة الوزير نظام الملك الذى اشار على السلطان باقطاعه حلب كيما يبعده عن بلاط السلطان . (٥)

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ج٣ ورقة ٢٦٧ ب .
(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٤ ، ابوشامة ، الروضتين ج ١ قسم ١ ص ٥٨ - ٥٩ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١١ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ٣١ .
(٣) العينى ، عقد الجمان ج١١ ورقة ١١٢ أ ، ابن خلكان ج١ ص ٢٤١ ، الصفدى ، الوافى بالوفيات ج ٨ ص ٣٠٩ .
(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٤ .
(٥) العينى ، عقد الجمان ج ١١ ورقة ١١٢ أ - ب ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص٤ ، ابوشامة ، الروضتين ج١ قسم ١ ص ٥٨ - ٥٩ ، عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ص ٣٢ .

وهكذا نشأ قسيم الدولة اقسنقر مع السلطان ملكشاه وتتلمذ معه على يد الوزير السلجوقى نظام الملك الذى قام بدور هام فى تنظيم الدولة السلجوقية الواسعة. فوضع لها نظمها السياسية والادارية والاقتصادية . وكتب نظام الملك (سياسة نامة) الذى ضمنه افكاره وتصوره لما ينبغى ان يكون عليه نظام الحكم فى الدولة السلجوقية. (١)

وكان من الطبيعى ان يتأثر أقسنقر - بحكم نشأته فى البلاط السلجوقى - بافكار نظام الملك فى الحكم والادارة . لذلك لما ان اصبح اقسنقر واليا لمنطقة حلب حتى تدخل فى كل صغيرة وكبيرة من شئون ولايته واصبح دوره بارزا وراء كل حدث . وادخل كثيرا من التغييرات التى لم تعهدها حلب من قبل . وكان من اهم اعمال اقسنقر هو توطيد الامن فى شمال الشام ، فى وقت ازداد فيه نشاط اللصوص وقطاع الطرق . وقد باشر قسيم الدولة اقسنقر بنفسه تحقيق الامن لمنطقة شمال الشام فشرع فى " مطاردة الحرامية وقطاع الطرق ومخيفى السبيل ، فأوقع بهم واستأصل شأفتهم قتلا واسرا " . واصدر اوامره الى جميع أعماله بتتبع المفسدين والقبض عليهم . وتوفير الحماية الكاملة للمسافرين عبر المناطق التابعة لحلب . وتشدد اقسنقر فى معاقبة اللصوص وقطاع الطرق . فقبض على الكثير منهم وصلبهم على ابواب حلب كما يثير الرعب فى قلوب الاخرين . كما طبق مبدأ العقوبة الجماعية فاصدر امرا يقضى بتغريم كل قرية تتعرض للقوافل التجارية المارة بها بالنهب ، بمقدار ما سلب منها من الاموال قلت ام كثرت ، مما اجبر سكان القرى على بذل اقصى جهودهم لحراسة المسافرين والقوافل التجارية والسهر على حمايتها ليلا ونهارا حتى

---

(١) ترجمه السيد محمد العزاوى كتاب نظام الملك الى اللغة العربية وصدر فى القاهرة سنة ١٩٧٥م.

تستأنف مسيرها (١) .

وعمد اقسنقر الى تكليف رئيس احداث حلب بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجن بمطاردة اللصوص وقطاع الطرق لمعرفته السابقة بهم، لانه كان " من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعار " فاستتابه قسيم الدولة وعهد اليه برئاسة احداث حلب ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق . وظل المجن الفوعي يلي هذه الوظيفة طوال حياة اقسنقر مما يدل على نجاحه في مهمته (٢) . وقد بلغ من سيطرة اقسنقر على الامن في قرى حلب وحقولها أن أرسل من ينادى فيها ان لا يغلق أحد بابه وان يتركوا آلاتهم الزراعية في اماكنها ليلا ونهارا ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما انجزه في هذا المجال . (٣)

وأفضت هذه السياسة الامنية الحازمة التى نفذها اقسنقر الى نتائج هامة على حلب وشمال الشام ، فساد الاطمئنان وأمنت الطرق ، مما جعل الناس يمارسون اعمالهم في نشاط جم ،فانتشر العمران وزاد الانتاج الزراعي وتضاعف قدوم التجار والجلابين الى حلب فازدهرت الحياة الاقتصادية مما ادى الى انخفاض الاسعار . (٤)

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٧ ب ، ابن القلانسي ص ١٢٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٣ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ ، ابن واصل ،مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٧ ، الداوادارى ،الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣٠ ،عماد الدين خليل ،عماد الدين زنكى ص ٣٤ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٨ - ٤٠ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٦٨ ب ، عماد الدين خليل ، عماد الدين ازنكى ص ٣٥ .

(٤) سبط ابن الجوزى ،مراة الزمن جـ ١٣ B ورقة ٨٥ أ ، ابن العديم بغية الطلب جـ ٣ ورقة ٢٦٧ ب ، ٢٦٨ أ ،ابن القلانسى ص ١١٩ ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وقام قسيم الدولة اقسنقر بالعديد من المنشآت العمرانية ، فأمر بتجديد سور حلب ونقش اسمه عليه كما قام بتحصين قلعة حلب وترك بها بعض الاثار الحسنة [١] . وأمر ببناء منارة جامع حلب ، وأنفق عليها الكثير من الاموال ونقش اسمه عليها [٢] .

وعمل اقسنقر على فرض سيادته على حلب ومن اجل ذلك قضى على الزعماء الذين يمكن ان يشكلوا عامل تهديد لحكمه ، فقبض سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م على شبل بن جامع امير بني كلاب وعلى ابنه مبارك بن شبل ومحمد بن زائدة الكلابي ، واعتقلهم بالقلعة ، وبذلك اضعف قبيلة كلاب ، وقضى على تأثيرها السياسي فى شئون حلب [٣] . كما قبض اقسنقر على الوزير ابى نصر محمد بن الحسن بن النحاس ، وهو من الشخصيات المشهورة زمن حكم المرداسيين وسلمه قسيم الدولة اقسنقر الى رئيس احداث حلب بركات الفوعى وامره بقتله سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ [٤] .

أما عن نفوذ تتش فى بلاد الشام بعد رحيل اخيه السلطان ملكشاه فقد استطاع تتش صد محاولات الفاطميين المتتالية لاستعادة نفوذهم على المناطق الداخلية من بلاد الشام . اما المناطق الساحلية فلم يستطع تتش مواجهة البحرية الفاطمية . ولذلك احتفظ الفاطميون فى قبضتهم بالعديد من

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ١ ص ١٧ ، ٢٤ .
(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٩ ب ، ابن الشحنة ، روض المناظر ، ورقة ٦٢ أ ، العظيمى حوادث سنة ٤٨٢ هـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ١ ص ٣٤ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٠ .

موانىء الشام . والدليل على عدم قدرة تتش التصدى للاسطول الفاطمى أن تتش تمكن من انتزاع صيدا من الفاطميين سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٨٠ م ، الا أن قوة بحرية فاطمية تمكنت من استعادة المدينة فى السنة التالية (١) .

وقد حاول تتش بعد رحيل ملكشاه بسط نفوذه على ساحل الشام ، وتمكن سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من الاستيلاء على صيدا مرة اخرى وبيروت. وحاصر تتش صور سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م وانتزعها من ايدى ابناء عين الدولة ابن ابى عقيل قاضيها وحاكمها السابق . (٢) على ان بدرا الجمالى أرسل على الفور حملة بحرية بقيادة غلامه ناصر الدولة الجيوشى فاستعاد صور وصيدا وعكا واستولى على جبيل ، وقتل جماعة من اصحاب تتش ، واستولى على أمواله وذخائره الموجودة فى هذه الموانىء . ولما وصلت الحملة الفاطمية الى جبيل قدم اليها حاكم حمص خلف بن ملاعب ودخل فى طاعة الفاطميين فارسل اليه بدر الجمالى الخلع والتقليد (٣) .

اجبر هذا النشاط البحرى الفاطمى تاج الدولة تتش على مراسلة أخيه السلطان ملكشاه وطلب منه ان يامر نوابه على الشام بتقديم المساعدة له ، لبسط النفوذ السلجوقى على موانىء الشام . وفى الوقت نفسه تلقى ملكشاه شكاوى رفعها اليه سكان الشام وولاته طالبين من السلطان تخليصهم من خلف بن ملاعب لانه كان " جبارا ظالما يقطع الطريق ، ويخيف السبيل " فضلا عن

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) الاصفهانى ، البستان الجامع ، ورقة ٩٢ ب ، العظيمى ، حوادث سنتى ٤٨٠ ، ٤٨٢ هـ ، ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ٢٨ ، المقريزى اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٦ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٩٠ أ ، المقريزى ، المقفى ورقة ٢٤٣ ب ، ابن ميسر ، اخبار مصر جـ ٢ ص ٢٨ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٢٦ ، جبيل بلد مشهور يقع شرقى بيروت على مسافة ثمانية فراسخ عنها انظر ياقوت معجم البلدان .

أن ابن ملاعب دخل فى طاعة الفاطميين واقام الخطبة لهمفاصدر السلطـان ملكشاه اوامره الى آقسنقر حاكم حلب وياغى سيان حاكم انطاكية ،وبوزان حاكم الرها بالانضمام بقواتهم الى اخيه تتش ومحاصرة ابن ملاعب فى حمص وانتـزاع املاكه وارساله اسيرا الى السلطان. (١)

ولم يجرؤ هؤلاء القادة على مخالفة اوامر السلطان رغم ادراكهـم أن تنفيذ اوامر السلطان سينجم عنها توسيع ممتلكات تتش فى بلاد الشـام، وبالتالى زيادة قوته مما يهددهم مستقبلا ، فانضموا الى تتش ، وساروا جميعا الى حمص ،وحاصروا خلف بن ملاعب حتى اقتحموا حمص وقبضوا على ابـن ملاعب وولديه ووضعوه فى قفص من حديد وبعثوا به الى بلاط السلطان فـى اصفهان سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وكتب كل واحد من هؤلاء الامراء الـى السلطان طالبا اليه اضافة حمص الى اقطاعه ،فجاء رد السلطان باقطاع حمص الى اخيه تاج الدولة تتش(٢).

ومن حمص سار اقسنقروبوزان وياغى سيان تحت قيادة تتش ،واستولوا فى طريقهم الى ساحل الشام على عرقة وضمها تتش الى املاكه (٣). واخيـرا

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩٠ أ ،ابن العديم بغية الطلب جـ ٥ ورقة ٢٢٠ ب ، ٢٢١ أ ،ابن العديم ،زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٠٦ ،ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠ - ٢١ ،ماهـر حمادة ،الوثائق السياسية والادارية للعصور العباسية ص ٤٤٧.

(٢) مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩١ أ ، ابن فضل الله العمرى ،مسالـك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١١ أ ـ ب ،ابن العديم ،بغية الطلب جـ ٥ ، ورقة ٢٢١ أ ـ ب ،ابن القلانسى ص ١٢٠ ، العظيمى حوادث سنـة ٤٢٣ ،زكار ،مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٧ ، Gibb, op.cit. , p.20.

(٣) ابن فضل الله العمرى ،مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١١ ب ، العينى عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١٩١ أ ،ابن شداد الاعلاق الخطيرة جـ٣ص٩٤ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٨٣ ، عرقة من اعمال دمشق وهى بلدة فـى ساحل الشام على مسافة اربعة فراسخ شمال شرقى طرابلس ،انظر ياقوت معجم البلدان ، ابوالفدا ،تقويم البلدان ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

وصلوا الى طرابلس التى كانت خاضعة لقاضيها جلال الملك بن عمار . واعد ابن عمار عدته للدفاع عن طرابلس ولكنه أدرك انه لا يستطيع المقاومة امام قوة امراء السلاجقة بالشام ، وفى الوقت نفسه لا يامل فى معونة فاطمية ، لان علاقته بالفاطميين كانت سيئة فارسل الى المحاصرين محتجا على الحصار ، وابرز وثائق من السلطان ملكشاه باقراره حاكما على طرابلس . ويبدو ان ابن عمار ادرك خلال المفاوضات مدى مابين تتش واقسنقر من الحسد والنفور فاراد استغلال ذلك لمصلحته فراسل اقسنقر سرا وعرض عليه مبلغ ثلاثين الف دينار مقابل انسحابه ، ووجد عرض ابن عمار هوى فى نفس اقسنقر الذى يبدو أن اضافة حمص الى اقطاع تتش قد اغضبه ، فضلا عن ان سقوط طرابلس المشهورة بثرائها بيد تتش سيجعل له ميناء تجاريا هاما ، مما سيزيد فى قوة تتش ، ويهدد فى الوقت نفسه اقسنقر فى حلب ، لذلك قرر اقسنقر قبول عرض ابن عمار ، وأبلغ تتش بصحة الوثائق التى عرضها ابن عمار ، وانه باستمرار حصارهم لطرابلس يخالفون اوامر السلطان . ودار نقاش حاد بين آقسنقر وتتش ، فقرر آقسنقر على أثره الانسحاب الى حلب وتبعه بوزان الى الرها . وكان لهذا التصرف من أقسنقر أسوأ الاثر فى نفس تتش ، وأدرك أنه بات عاجزا بمفرده عن الاستمرار فى حصار طرابلس . فآثر الانسحاب عائدا الى دمشق سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م[1] .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٩٤ أ ، ابن الاثير الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٢١ - ٢٢ ، ابن ايبك الدوادارى ، الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣١ - ٤٣٢ ، تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٢٢ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١٣٣ ، سيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٧١ ، ٧٢ ،

Zakkar, op.cit. pp.226 - 227; Salibi, op.cit. p.151.

وفى طريقه الى حلب ، استولى قسيم الدولة اقسنقر على افامية التى كانت تابعة لخلف بن ملاعب وسلمها الى نصر بن على بن منقذ امير شيزر ، وكان هدف اقسنقر من تسليم افامية لابن منقذ هو ان يحرم تتش منها ، وليوسع من املاك امارة بنى منقذ حتى تصبح اراضيها حاجزة بين شمال الشام الخاضعة لاقسنقر وبين جنوب واواسط الشام الخاضعة لتتش، (١)

وفى هذه الفترة وصل السلطان ملكشاه الى بغداد فى رمضان سنة ٤٨٤ هـ / نوفمبر ١٠٩١م ومكث فيها عدة اشهر واستدعى ولاته ليبحث معهم مشاكلهم وقضايا بلادهم، ووصل الى حضرة السلطان تاج الدولة تتش وآقسنقر وغيرهما اوائل سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م ، ويصف المؤرخون وصول اقسنقر فى ابهة عظيمة بحيث لم يكن فى اتباع السلطان من يماثله ، وأمام السلطان اشتكى تتش من آقسنقر ، ولكن السلطان ملكشاه اقتنع بحجة آقسنقر وحكم له على اخيه تاج الدولة تتش(٢) ، وكشف آقسنقر للسلطان حقيقة نوايا تتش ازاء السلطنة السلجوقية ، لذلك قام ملكشاه باستبقاء احد ابناء تتش فى بلاطه كرهينة ، وعهد مرة اخرى الى تتش واقسنقر وبوزان وياغى سيان باستعادة ساحل الشام من الفاطميين ، ومن ثم الزحف على مصر للقضاء على الخلافة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠٦ ، زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٩٥أ ، ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٣ ورقة ٢٦٨ ب - ٢٦٩ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١١ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٩٩ ، ابوالفدا المختصر فى اخبار البشر جـ٢ ص ٢٠١-٢٠٢ ، الذهبى ، دول الاسلام ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

الفاطمية(١) . غير ان هذا الامر لم ينفذ بسبب وفاة السلطان ملكشاه بعد فترة وجيزة ، وماكان لهذه الوفاة من آثار بالغة الخطورة على بلاد الشام وغيرها من أجزاء الدولة السلجوقية .

- موت ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ ونتائجه على الغزو السلجوقي لبلاد الشام:

بلغت الدولة السلجوقية فى عهد ملكشاه اقصى اتساعها ، واصبحت تمتد شرقا الى اقليم ماوراء النهر ، وغربا الى البحر المتوسط واسيا الصغرى . وفى اواخر عهد ملكشاه بدا الخلاف بينه وبين وزيره نظام الملك(٢) . وقد تمخض عن هذا الخلاف اغتيال نظام الملك فى رمضان سنة ٤٨٥هـ / اكتوبر ١٠٩٢ م ثم توفى بعده بفترة وجيزة السلطان ملكشاه فى شوال من نفس السنة(٣) .

كان لوفاة ملكشاه نتائج بالغة الخطورة على الدولة السلجوقية عامة وعلى بلاد الشام خاصة . فالانقسام الذى حدث بين افراد البيت السلجوقى بعد ملكشاه كان بداية تفكك الدولة السلجوقية الفتية ، فدب الوهن والضعف الى جيوشها . وخلف ملكشاه عددا من الابناء وقام التنافس بين ابنه الاكبر بركياروق يؤيده اتباع نظام الملك وبين اخيه الاصغر محمود وهو ابن تركان خاتون زوجة ملكشاه المدللة ذات النفوذ الكبير فى الدولة . وقد انقسم

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩٥ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١١ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٢ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة ال سلجوق ص ٧١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٣ .

(٢) عن اسباب الخلاف بين ملكشاه ونظام الملك . انظر ابن الاثير الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢١٠ .

قادة السلاجقة الى حزبين يناصر كل منهما احد الاخوين فى سبيل فرض سيطرته على الدولة السلجوقية (١) .

ولما علم تتش بوفاة ملكشاه قرر العمل للافادة من الانقسام الذى حدث بين اولاد ملكشاه . واخذ يستعد لاعلان نفسه سلطانا على الدولة السلجوقية ، فراسل آقسنقر حاكم حلب وياغى سيان صاحب انطاكية ، وطلب منهما الدخول فى طاعته ، ولم يكن بمقدور آقسنقر معارضة تتش لاسيما وان ملامح النزاع بين ولدى ملكشاه لم تتضح بعد حتى ينضم الى صاحب الكفة الراجحة .فانضم اقسنقر وياغى سيان الى تتش فازداد بهما قوة وخطبوا له فى بلادهم . (٢)

بدأ تتش فى اعداد خططه لاخضاع اقاليم الدولة السلجوقية وقرر الاستيلاء على مدينة الرحبة الواقعة على نهر الفرات لما تمثله من موقع عسكرى هام يمكنه من الانطلاق منها الى العراق والجزيرة فضلا عن اشرافها المباشر على بلاد الشام ، فسار تتش الى الرحبة واستولى عليها ورتب امورها ،واتخذها قاعدة لبسط نفوذه على منطقة الجزيرة . ومن الرحبة أعلن تتش نفسه سلطانا على الدولة السلجوقية فى المحرم ٤٨٦ هـ / فبراير ١٠٩٣م. (٣)

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢١٤ - ٢١٦ ،عبد النعيم حسنين ،سلاجقة ايران والعراق ص ٨٣ - ٨٥ .

(٢) ابن فضل الله العمرى ،مسالك الابصار جـ١٦ ورقة ١١٢ ب ، ابن القلانسى ص ١٢٢ ، ابن الاثير،الكامل جـ١ ص ١٠٧ ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠٧ ، ابن واصل ،مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٢ - ٢٣ ، القرمانى ،اخبار الدول واثار الاول ص ٢٧٧ .

(٣) ابن القلانسى ص ١٢٢ ، ابن الاثير ،الكامل جـ١ ص ٢٢٠ ،تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٩٩٥ ، الحصينى ،منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٣٧ ، والرحبة هى رحبة مالك بن طوق على شاطئ الفرات بين الرقة وبغداد . كانت محط القوافل بين العراق والشام .انظر ياقوت معجم البلدان ، ابوالفدا تقويم البلدان ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

سار تتش من الرحبة الى نصيبين فى شمال الجزيرة ، وعند وصوله الى مشارف نصيبين انضم اليه بوزان حاكم الرها . وحاصر تتش نصيبين التى اصرت على المقاومة وتمكن تتش من الاستيلاء على المدينة وقتل الكثير من رجالها ، وابــاح المدينة لعسكره فارتكبوا فيها اعمالا شنيعة من القتل والنهب والسبى . وبعد ذلك سلم تتش نصيبين لمحمد بن مسلم بن قريش ووصل الى تتش الكافى بن فخر الدولة بن جهير فاتخذه وزيرا . واخذ تتش يستعد للاستيلاء على الموصل ليسير منها الى بغداد للحصول على الاعتراف الشرعى بسلطانه من الخليفة المقتدى بالله العباسى (١) . وكان يلى امرة الموصل فى هذه الفترة ابراهيم بن قريش العقيلى ، فراسله تتش وطلب منه اقامة الخطبة له بالموصل وان يفسح له المجال للمسير الى بغداد لطلب الخطبة له بالسلطنة من الخلافة العباسية (٢) . ورفض ابراهيم بن قريش طلب تتش وحشد جيشا من العرب والاكراد لمواجهة تتش . والتقى الفريقان فى مكان يسمى المضيع على نهر الهرماس شرق مدينة نصيبين . وكان يقود ميمنة جيش تتش آقسنقر بينما يقود بوزان الميسرة ، ونشبت المعركة فى ربيع الاول سنة ٤٨٦ هـ / مارس ، ١٠٩٣ م ولم ينجح اى من الفريقين فى انزال الهزيمة بالاخر . وعندما رجع كل فريق الى معسكره ، قاد تتش جيشه على الفور وباغت جموع ابراهيم بن قريش وهم غافلون . وحاقت الهزيمة بالعرب والاكراد ، وقتل ابراهيم بن قريش ، وعمه بدران وكثير من زعماء بنى عقيل . واستولى تتش على الموصل وما يتصل بها واناب فيها على بن مسلم بن قريش وامه صفية عمة تتش (٣) .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٠٤ ب ، ١٠٥ أ ، ابن القلانسى ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٠ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣ ، ابن ايبك ، الدرة المضية ص ٤٣٢ .

(٢) انظر مايلى : الفصل الثالث ص

(٣) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ١٠٤ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١٣ أ ، ابن القلانسى =

ثم ارسل تتش الى الخليفة المقتدى طالبا اقامة الخطبة له بالسلطنة. وخلط طلبه بشئ من التهديد ، فلم يعبأ الخليفة بتهديد تتش ، وارسل اليه رسالة يرفض فيها طلبه موضحا ان الخطبة لا يحق له المطالبة بها الا اذا فرض حكمه على اجزاء الدولة السلجوقية بكاملها بما فيها اصفهان عاصمة السلاجقة ولم يبق من ابناء ملكشاه من يعارضه (١). وحينذاك شرع تتش فى العمل على السيطرة على اقاليم الدولة السلجوقية ، فسار الى ديار بكر سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م وقابله وفد من ميافارقين يعلنون دخولهم فى طاعته واعترافهم به سلطانا . وسار معهم ودخل آمد وملكها وقصد ميافارقين واستولى عليها ايضا بالامان (٢).

وعندما استولى تتش على ديار بكر والجزيرة والموصل هرب بنو عقيل من ديارهم ولجأوا الى السلطان بركياروق ، ولم يعد يوجد احد يعارض فى وجه تتش بمنطقة الجزيرة (٣) .

استقر راى تتش على المسير الى خراسان للقضاء على ابن اخيه بركياروق والانفراد بحكم الدولة السلجوقية وشجعه على ذلك مراسلة زوجة اخيه ملكشاه تركان خاتون طالبة اليه القدوم ، ووعدته بالزواج منها (٤). فسار تتش نحو

= ص ١٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٢١ – ٢٢٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠٧ – ١٠٨ ، تاريخ ابن خلدون ، جـ٣ ص ٩٩٥ .

(١) ابن الجوزى ، المنتظم جـ٨ ص ٢٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١٣٧ – ١٣٨ ، محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والادارية للعصور العباسية ص ٤٢٩ – ٤٣٠ .

(٢) تاريخ الفارقى ص ٢٣٦ .

(٣) ابن القلانسى ص ١٢٣ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٠٨ م .

خراسان سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، وخضعت له جميع المدن الواقعة على الطريق الى خراسان ، وعند وصول تتش الى تبريز ، حدث ان انفصل آقسنقر وبوزان باتباعهما عن تتش وسارا الى مدينة الرى وانضما الى بركياروق الذى ازداد بهما قوة . وامام هذا الموقف الجديد رأى تتش ان قواته باتت ضعيفة امام قوات ابن اخيه فقرر العودة الى بلاد الشام.(١)

قدم آقسنقر وبوزان المساعدة للسلطان بركياروق حتى تخلص من اسماعيل ابن ياقوتى خال بركياروق الذى مال الى مساعدة تركان خاتون وابنها محمود ضد بركيا روق (٢) . وحث آقسنقر وبوزان السلطان بركياروق على الاسراع فى القضاء على عمه تتش قبل ان يتمكن من الحشد قوات جديدة . وطلبا منه ان يسير معهما بنفسه الى الشام لمواجهة تتش ، فسار بركياروق مع آقسنقر حتى وصلوا جميعا الى الرحبة . وهناك عقد بركياروق حلفا مع آقسنقر وبوزان وعلى بن مسلم بن قريش العقيلى . وارسل بركياروق مع اقسنقر فرقة لمساعدته فى الرجوع الى حلب . وفى الوقت نفسه عاد بوزان الى الرها وذلك فى شوال سنة ٤٨٦ هـ / نوفمبر ١٠٩٣م. (٣)

أما عن تتش ، فانه لما عاد قاصدا بلاد الشام مر على الجزيرة ونزل على مدينة سروج وملكها ، وعين عليها وعلى مدن الجزيرة الاخرى ولاة من اخلص اتباعه . وعند ما سمع بوصول بركياروق وآقسنقر وبوزان الى الرحبة انسحب الى

(١) ابن القلانسى ص ١٢٤ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٢٢ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، الذهبى ، العبر جـ٣ ص ٣١٠ - ٣١١ - ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ص ٢٠٤ ، Gibb, op.cit.p.22.

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٢٤ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٩ .

(٣) ابن القلانسى ص ١٢٤ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٩ - ١١٠ .

أنطاكية ومكث بها مع حليفه ياغي سيان . وانضم الى تتش فى أنطاكية بعض زعماء بنى كلاب بأتباعهم خوفا على أنفسهم من آقسنقر ، وكان اهم هؤلاء الزعماء وثاب بن محمود المرداسي ، وترتب على وجود عسكر تتش فى أنطاكية قلة الاقوات وارتفاع الاسعار فاضطر تتش الى العودة بجيشه الى دمشق فى ذى القعدة سنة ٤٨٦ هـ / ديسمبر ١٠٩٣ م (١) .

أخذ تتش يعد نفسه للانتقام من آقسنقر وبوزان بعد ان ساهما فى افشال حملته على خراسان وجند تتش جيشا معظمه من العرب لانه وزع الاتراك على المدن التى اخضعها ، وخرج من دمشق فى ربيع الاول سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وقابل حليفه ياغي سيان عند حماة وخطب لابنه رضوان ابنة ياغى سيان ليوطد العلاقة مع ياغى سيان حاكم انطاكية (٢) .

واستعد اقسنقر منذ عودته الى حلب لمواجهة تتش ، فجند الكثير من قبيلة كلاب واطلق سراح زعيم كلاب شبل بن جامع وابنه مبارك بن شبل ومحمد بن زائدة الكلابى بعد ان سجنهم اقسنقر منذ مدة ، كما حشد فى جيشه معظم احداث حلب . (٣) ولم يدرك آقسنقر خطأ استخدامه لزعماء كلاب واحداث حلب ، لان بنى كلاب واحداث حلب لا يمكن ان يخلصوا له بعد أن فقدوا الكثير من نفوذهم خلال حكمه لحلب . ويبدو أن الذى اجبر آقسنقر على

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٢٤ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ١١٠ ، وسروج من اقليم الجزيرة قريبة من حران . انظر ياقوت معجم البلدان ، ابو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١٠ .

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٠ - ١١٢ .

حشد قوات من كلاب واحداث حلب هو قلة القوات التركية لديه . وسار تتش حتى نزل تل منس قرب معرة النعمان وبلغه وصول الامير كربوقا وبوزان حاكم الرها ويوسف بن ابق فى الفين وخمسمائة فارس نجدة لاقسنقر . ثم خرج الجميع لقتال تتش، وفى يوم السبت التاسع من جمادى الاولى ٤٨٧ هـ / ٢٦ مايو ١٠٩٤ م تقابل الفريقان عند نهر سبعين على مسافة ستة فراسخ شرقى حلب ، وانهزم العرب الذين جندهم اقسنقر ، ولحقهم أيضا كربوقا وبوزان ودخلا حلب واعتصما بها انتظارا لوصول نجدة من السلطان بركيا روق . وانتصر تتش انتصارا حاسما ووقع فى اسره قسيم الدولة آقسنقر فاحضره بين يديه وقتله بنفسه (١) .

تعقب تتش فلول المنهزمين حتى أسوار حلب وحاصرها حصارا شديدا ، فقام جماعة من الاحداث بفتح أحد ابوابها فدخل تتش بجيشه وتسلم حلب وقلعة الشريف ، ثم نزل اليه نوح التركى والى القلعة الكبيرة وسلمها لتتش وقبض تتش على بوزان وقتله . كما قبض على كربوقا واعتقله بحمص ، ثم سار تتش من حلب واستولى على حران والرها ، وبذلك اكمل سيطرته على شمال الشام والجزيرة . (٢)

وسار تتش مرة اخرى قاصدا خراسان سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وجعل طريقه على ديار بكر لان بركياروق كان قريبا من الموصل . ولما علمت تركان خاتون ارملة ملكشاه بمسير تتش خرجت من اصفهان للقائه . ودارت بينهما المراسلات واتفقا على الزواج ومحاربة بركياروق . بيد ان خاتون توفيت فى الطريق ، فانقسم

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٠٦ أ ـ ب ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ٣ ورقة ٢٦٩ أ ـ ب ، ابن ابى الدم ، التاريخ المظفرى ورقة ١٥٦ أ ، ابن الشحنة ، روض المناظر ورقة ٦٢ ب ، ابن القلانسى ص ١٢٦ ، العظيمى حوادث سنة ٤٨٧ هـ ،
Zakkar, op.cit. p.232.

(٢) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ١٦ ورقة ١١٣ ب ، ابن القلانسى ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ١١٧ - ١١٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، Gibb, op.cit. p.22.

أتباعها الى قسمين ، انضم احدهما الى تتش ، وقصد القسم الاخر بركيا روق ودخل فى طاعته . وسار بركياروق واستولى على أصفهان (١).

وصل تتش الى اذربيجان فاستولى عليها وارسل فرقة عسكرية باغتت بركياروق عند سرخاب ، احدى قرى الرى ، وهزمته ، فهرب بركياروق الى أصبهان ، وعلى اثر هذا النصر ارسل تتش الى بغداد يطلب اقامة الخطبة له بالسلطنة فاجابه الخليفة المستظهر بالله الى طلبه . (٢) ثم سار تتش الى همذان واستولى عليها ، وكيما يجذب الناس الى طاعته اسند تتش منصب الوزارة الى فخر الملك بن نظام الملك وذلك لشدة ميل الناس الى بيت نظام الملك (٣).

واصل تتش زحفه حتى استولى على مدينة الرى وارسل الى قادة جيش بركياروق المقيم باصبهان يطلب منهم الانضمام اليه . ولما كان بركياروق مريضا بالجدرى ارسل قادة جيشه الى تتش يزعمون انهم سيدخلون فى طاعته حتى لا يزحف على اصفهان واخبروه انهم ينتظرون مصير بركياروق (٤) . ولما شفى بركيا روق خرج على راس قواته لمواجهة عمه تتش ، والتقى به قرب مدينة الرى . ودارت معركة حاسمة فى شهر صفر سنة ٤٨٨ هـ / فبراير ١٠٩٥ م وفى ميدان المعركة قتل اتباع آقسنقر تتش ، بعد ما انضموا اليه وتظاهروا له

---

(١) ابن القلانسى ص ١٢٧ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ١١٨ .

(٢) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١١ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٣٣ ، ابوالفدا المختصر جـ ٢ ص ٢٠٥ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٠٠ ، القلقشندى ، ماثر الانافة جـ ٢ ص ١٢ .
،

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٣ .

(٤) ابن القلانسى ص ١٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ .

بالطاعة والاخلاص فى الخدمة . وحلت الهزيمة الساحقة بجيش تتش الذى حمل راسه الى بغداد وطيف بها (١).

وكان لهذه المعركة نتائج بالغة الاهمية على تاريخ بلاد الشام قبل الغزو الصليبى . فهذه المعركة قضت على تتش ومملكته فى بلاد الشام . ولو قدر للصليبيين ان يواجهوا تلك المملكة القوية التى اقامها تتش فى بلاد الشام بمواردها الضخمة وقوتها العسكرية ، لكان من المحتمل أن الحركة الصليبية قد اجهضت فى سنواتها الاول .

* * *

---

(١) ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ، ج١٣ ورقة ١ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ج١٦ ورقة ١١٤ ب ، ابن القلانسى ص١٢٩ - ١٣٠ ، العظيمى حوادث سنة ٤٨٨ هـ ، ابن الاثير ، الكامل ج١٠ ص ٢٤٤ ، الاصفهانى ، تاريخ الدولة آل سلجوق ص ٨٣ - ٨٤ ، الحصينى ، منتخبات التواريخ لدمشق ص ١٣٧ ؛
Gibb, op.cit. p.22.

الفصل الثالث

الإمارات العربية في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي

- إمارة بني مرداس في حلب ٤١٥ - ٤٧٢ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٧٩ م
- إمارة مسلم بن قريش العقيلي في الجزيرة وشمال الشام ٤٥٣ - ٤٧٨ هـ / ١٠٦١ - ١٠٨٥ م
- إمارة بني منقذ في شيزر ٤٧٤ - ٤٩١ هـ / ١٠٨١ - ١٠٩٧ م
- إمارة بني عمار في طرابلس ٤٦٢ - ٤٩١ هـ / ١٠٧٠ - ١٠٩٧ م
- إمارة ابن أبي عقيل في صور ٤٥٥ - ٤٨٢ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٨٩ م
- إمارة خلف بن ملاعب في حمص وأفاميه ٤٦٦ - ٤٩١ هـ ١٠٧٣ - ١٠٩٧ م

((الفصل الثالث))

الامارات العربية فى بلاد الشام قبيل الغزو الصليبى

- امارة بنى مرداس فى حلب ٤١٥ - ٤٧٢ هـ / ١٠٢٤ - ١٠٨٠ م .
- امارة مسلم بن قريش فى الجزيرة وشمال الشام ٤٥٣ - ٤٧٨ هـ / ١٠٦١ - ١٠٨٥ م .
- امارة بنى منقذ فى شيزر ٤٧٤ - ٤٩١ هـ / ١٠٨١ - ١٠٩٧ م .
- امارة بنى عمار فى طرابلس ٤٦٢ - ٤٩١ هـ/ ١٠٧٠ - ١٠٩٧ م .
- امارة ابن ابى عقيل فى صور ٤٥٥ - ٤٨٢ هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٨٩ م .
- امارة خلف بن ملاعب فى حمص وافامية ٤٦٦ - ٤٩١ هـ/ ١٠٧٤ - ١٠٩٧ م

—•—

- امارة بني مرداس في حلب ٤١٥ - ٤٧٢ هـ :

لم يكن الغزو السلجوقي لبلاد الشام هو الحادث التاريخي الهام الذى شهدته بلاد الشام قبل الحملة الصليبية الاولى ، بل قامت الامارات العربية في بلاد الشام بدور لا يقل اهمية عن دور الغزو السلجوقي في مجريات الحوادث في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي . واولى هذه الامارات الامارة المرداسية في حلب وشمال الشام .

ينتسب المرداسيون الى قبيلة كلاب العربية العدنانية ، التى هاجرت افخاذ منها اثناء الفتوحات الاسلامية الى اطراف الفرات الشمالية ، وبطون أخرى وصلت الى اطراف الفرات الشمالية وشمال الشام ، خلال القرن الرابع الرابع الهجري / العاشر الميلادي (١) . وفي سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م استولى زعيم قبيلة كلاب صالح بن مرداس على مدينة الرحبة على نهر الفرات ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي ، وبدأ يتطلع لبسط نفوذه على حلب وشمال الشام (٢) . ولتحقيق هدفه تحالف مع زعماء طي ، وكلب لاقتسام بلاد الشام وتمكن سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م من انتزاع حلب من الفاطميين وظل يعمل من اجل السيطرة على كل شمال الشام الى أن قتل سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م (٣) .

---

(١) ابن حوقل ، صورة الارض ٢٠٥ ، القلقشندى ، صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٠٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٢١٠ - ٢١١ .
Zakkar, op.cit. p 89.

(٣) انظر ماسبق ، الفصل الاول ص ٥١ - ٥٤ .

لم يسترد الفاطميون حلب بعد مقتل صالح بن مرداس اذ تمكن ابنا صالح ، ثمال ونصر ، من السيطرة على حلب بعد مقتل والدهما سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م بيد أنه نشب النزاع بين الاخوين بسبب منافسة نصر لاخيه ثمال على امارة حلب[١] . ومما لمؤكد ان ثمالا كان الوريث الشرعي لامارة حلب ، ويدل على ذلك دينارا ن معروفان من عصر صالح بن مرداس ، نقش عليهما اسم ثمال بن صالح بالاضافة الى اسم ابيه واسم الخليفة الظاهر الفاطمي[٢] على أن نصرا لم يرض بذلك واستولى على قلعة حلب ، الامر الذى دفع ثمالا الى محاصرة أخيه نصر بالقلعة فاستنجد نصر بالامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث[٣]. واخيرا عقد الصلح بين ثمال ونصر وتنازل ثمال عن حلب لاخيه نصر مقابل الرحبة وبالس . وتمكن نصر من انزال الهزيمة بالامبراطور رومانوس الثالث سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م . ولم يكن استنجاد نصر بالامبراطور البيزنطى امرا جديدا لانه منذ قيام الامارة المرداسية فى حلب حاول المرداسيون التحالف مع الدولة البيزنطية لمساعدتهم ضد محاولات الفاطميين للسيطرة على حلب.[٣]

وتعرضت حلب فى عهد ثمال بن صالح للتهديد من قبل الدروز[٤] .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٢) Zakkar op.cit. p.105.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ - انظر ماسبق من الفصل الاول ص ٧٥ .

(٤) ينتسب الدروز الى داع اعجمى يدعى محمد بن اسماعيل الدرزى ، قدم الى مصر سنة ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م واتصل بالحاكم بأمرالله الفاطمى فانعم عليه وقربه فدعا الدروز الى القول بالوهية الحاكم فانكر الناس ذلك واخيرا تمكن احد الاتراك من قتله وهو فى موكب الخليفة الحاكم ونهبت داره واستمرت الفتنة ثلاثة ايام قتل اثنائها جماعة من الدرزية وبعد مقتل الدرزى قام داعية اخر يدعى حمزه بن احمد الملقب بالهادى - واقام خارج القاهرة ودعا الى مذهب الدرزى وبث دعاته فى =

فقد اجتمع دعاة الدرزية بجبل السماق غرب حلب وجاهروا بمذهبهم ودعوا اليه وتبعهم عدد كبير من فلاحي حلب ، وهدد خطرهم كل شمال الشام. واخيرا تعاون نصر بن صالح وحاكم انطاكية البيزنطي وحاصرا الدروز في اعالي الجبال وتمكنوا من القبض على دعاتهم وقتلوهم سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م [١].

عمل نصر بن صالح بن مرداس على حماية امارته في حلب فقام بعد هزيمة الامبراطور رومانوس الثالث بالاتصال به وعقد صلحا مع الدولة البيزنطية [٢] وتقرب في الوقت نفسه الى الخلافة الفاطمية وارسل معظم الغنائم التي حصل عليها بعد هزيمة الامبراطور البيزنطي الى القاهرة . وقد كان لهذا التصرف من نصر احسن الاثر في نفس الوزير الفاطمي الجرجرائي فاكرم رسول نصر وارسل اليه الخلع واعترف به حاكما على حلب. [٣]

وتجدر الاشارة هنا الى أن نصرا اعتنق المذهب الاسماعيلي الذي تدين به الخلافة الفاطمية . ومما يبرهن على هذا دينار وحيد يرجع الى عصر نصر ضرب بحلب سنة ٤٢٧ هـ ، وفيه لقب الامير السيد شبل الدولة ـ نصر ابن صالح ونقش في الاطار الداخلي للدينار الشعار الشيعي الكامل ، وفي خلف الدينار لقب الخليفة الظاهر الفاطمي .[٤]

= مصر والشام . ومنذ ذلك الحين ظهر مذهب الدروز في بعض مناطق بلاد الشام . انظر = المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ١١٣.

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٢) انظر ماسبق ، الفصل الاول ص ٧٥ .

(٣) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان جـ ١٢ ورقة ٥٧ ب .

(٤) Zakkar , op.cit. p.126.

ومهما يكن من أمر ، فقد قتل نصر بن صالح سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٢٨ م على أيدى قوات انوشتكين الدزبرى ، وسقطت حلب بيد الفاطميين (١) . وظل حكم الفاطميين لحلب حوالى اربع سنوات حتى تمكن ثمال بن صالح بن مرداس سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م من استعادة حلب فى اعقاب وفاة انوشتكين الدزبرى وقد سبق الحديث عن علاقة ثمال بالخلافة الفاطمية والدولة البيزنطية (٢) .

أما عن علاقة الامارة المرداسية فى عصر ثمال بالامارة النميرية (٣) فى حران فيستدل من قصيدة للشاعر ابن ابى حصينة ، شاعر المرداسيين ، على أن العلاقات بين كلاب وبين قبيلة نمير (وكلاهما من قيس) لم تكن طيبة بشكل عام ، بسبب تجاور ديار القبيلتين فى غرب الجزيرة الفراتية وشمال الشام ،

---

(١) انظر ماسبق الفصل الاول ص ٥٨

(٢) عن علاقة ثمال بالفاطميين انظر ماسبق الفصل الاول ص ٦٠ - ٦٥ .
وعن علاقته بالبيزنطيين انظر ماسبق ص ٧٩ .

(٣) نمير قبيلة عدنانية من بنى عامر بن صعصعة هاجرت الى شمال الشام والجزيرة فى اوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، واقام بنو نمير بعد وتى الفرات ود خلوا الى منطقة الجزيرة وملكوا حران والرقة وسروج . ومن اشهر زعماء بنى نمير فى حران وثاب بن سابق النميرى وابنه شبيب . وفى اوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى سيطر فرع من بنى نمير بزعامة عطير النميرى على مدينة الرها ثم فقدها لحساب البيزنطيين سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م . اما حران وسروج فظلتا خاضعتين لبنى نمير حتى سنة ٤٧٤ هـ حين انتزعهما مسلم بن قريش العقيلى . انظر ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٣١٢ ، ٣٤٧ - ٣٤٨ ، ٤١٣ ، القلقشندى ، صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٤١ ، زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ص ٣٤١ ، وانظر مايلى الفصل الثالث ص ٢٢٤ .

Zakkar , op.cit. p.70.

حيث كانت مواطن نمير حول حران والرقة وسروج ، بينما كانت مواطن كلاب تمتد من الرحبة الى حلب وقد ادى ذلك التزاحم الى وقوع الحروب بينها فـي اوائل عهد ثمال بسبب طمع بني نمير ببعض مواطن الكلابيين الذيـن تمكنوا من صدهم عنها (١) .

وقد اشار المؤرخ ابن العديم الى أن عهد ثمال بن صالح المرداسـي (٤٣٣ - ٤٤٨ هـ / ١٠٤١ - ١٠٥٦ م) تميز بالرخاء " ودرت الارزاق فـي ايامه على الناس ، واحسن السيرة معهم وجاد بالعطاء "(٢) . وقد وصف الرحالة ناصر خسرو ، مدينة حلب عندما زارها سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٧ م وقال : " وهي مدينة عامرة . . . وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ، ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد "(٣) . أمـا الطبيب ابن بطلان ، فقد زار حلب سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٧ م واقام بهـا فترة وجيزة " وأحسن اليه معز الدولة ثمال بن صالح واكرمه اكراما كثيرا "(٤) .

---

(١) قال ابن ابي حصينة من قصيدة له مدح بها ثمالا اشار فيها الى الحرب مع نمير :

سل الجمعين جمع بني نمير	ومن سكن الطوى والفراعـا
غداة اتوا يهزون المواضـي	الينا والمطهمة السراعـا
ارى جموعهم الى ثمـال	وقد ملأت جموعهم الوساعـا
بضرب يصبغ الامواج حمـرا	ويحمي ... صدق المصاعـا
نهاهم عن ممالكة اقتسـارا	وقد ملكوا المعاقل والقلاعـا
وحطهم وقد كرهوا المنايا	وما كانوا الظماء ولا الجياعـا

انظر ديوان ابن ابي حصينة جـ١ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ١ ص ٢٦٢ .

(٣) ناصر خسرو ، سفرنامه ص ٤٤ - ٤٥ .

(٤) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الاطباء ص ٣٢٦ ، والطبيـب ابو الحسن المختار بن الحسن بن ... بطلان ، نصراني =

وقد أورد ياقوت الحموى نص رسالة بعث بها ابن بطلان من حلب الى المؤرخ هلال بن الصابى وصف فيها ابن بطلان مدينة حلب ، واشار الى بعض النشاط التجارى داخل حلب قائلا : " ومن عجائب حلب ان فى قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون الف دينار ، مستمر منذ عشرين سنة والى الان "(١) . ورغم ما ذكره ابن العديم وناصر خسرو ، وابن بطلان فانه يصعب الحديث عن الاحوال الاقتصادية لمدينة حلب خلال حكم الامارة المرداسية ، وذلك لقلة المعلومات عن هذا الموضوع اذ ركزت جميع المصادر التى تحدثت عن امارة حلب على الجانب السياسى للامارة وعلاقتها بغيرها من القوى ذات النفوذ فى بلاد الشام .

لعب ثمال بن صالح دورا هاما فى حركة البساسيرى الذى خرج الى الرحبة سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م بعد وصول السلاجقة بزعامة طغرلبك الى العراق .

= من اهل بغداد تعلم الطب على يد ابى الفرج عبد الله بن الطبيب وتتلمذ له واتقن عليه قراءة كثير من كتب الطب . ولازم الحسن بن ثابت بن ابراهيم الحرانى الطبيب وانتفع به فى صناعة الطب ومزاولته . وكان ابن بطلان معاصرا للطبيب المصرى على بن رضوان وكانت بينهما مراسلات ومناظرات انظر ابن ابى اصيبعة ، عيون الانباء ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(١) ياقوت الحموى ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ . (مادة حلب)
Zakkar , op.cit. , pp. 236 - 237. ،
قيسارية كلمة غير عربية ربما اشتقت من كلمة (Ceasaria)
وجمعها قياسر وهى الاسواق المقفلة ، فريد شافعى ، العمارة فى مصر الاسلامية ، المجلد الاول ص ٣٤٨ ، انظر ايضا جـ المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ٨٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ص ٣٨ ، حاشية رقم (٣) .

وقد استقبله ثمال في الرحبة واكرمه ، وقدم اليه مالا كثيرا ، ويذكر ابن العديم ان بني كلاب هموا بالقبض على البساسيري فمنعهم ثمال من ذلك ، ولم يوضح ابن العديم السبب الذي دفع كلابا لمحاولة القبض على البساسيري . ويبدو ان ثمالا راى ان نجاح البساسيري في حركته يعتبر ضمانا لعدم سقوط امارته امام الزحف السلجوقي على بلاد الشام . وقد واصل البساسيري زحفه حتى وصل بالس وشتى بشط العرب . واثناء اجتماعه بثمال سلم اليه الاخير الرحبة حيث جعل فيها امواله وذخائره (١) . غير ان امتداد نفوذ البساسيري الى شمال الشام كان من العوامل التي اجبرت ثمالا المرداسي على التنازل عن حلب وتسليمها للفاطميين سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م (٢)

لم تستمر السيادة الفاطمية على حلب طويلا ، اذ اجتمع بنو كلاب بالامير المرداسي محمود بن نصر بن صالح وولوه عليهم ، وهاجموا حلب سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م ورغم ان الوالي الفاطمي الحسن بن ملهم استطاع الصمود امام محمود المرداسي وقبيلته ، فان تمرد الاحداث داخل المدينة ادى الى سقوط حلب في السنة التالية بيد محمود بن نصر ، واخفقت جهود الخليفة الفاطمي المستنصر في استعادتها (٣) . فعزل المستنصر ثمالا بن صالح من ولايات عكا وبيروت وجبيل ، وارسله الى الشام لاسترداد حلب من ابن اخيه

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
Zakkar, op.cit. pp.148-149.

(٢) انظر ماسبق الفصل الاول ص ٦٤ .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٦٢ ب ، ١٦٣ أ ، ابن القلانسي ص ٩٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٩ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١ ص ١١ - ١٢ .
Zakkar,op.cit. pp.156-157.

محمود ، ولما وصل ثمال الى الشام استمال اليه عددا كبيرا من رجال قبيلة كلاب ، وشن عدة هجمات على حلب وتمكن اخيرا من الاستيلاء عليها سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م . وتوسط زعماء كلاب فى الصلح بين ثمال وابن اخيه محمود ، فغادر محمود حلب الى اخواله بنى نمير بحران ، وانفرد ثمال بحكم حلب ، وراسل المستنصر موطدا علاقته معه . حكم ثمال حلب حتى توفى فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٤٥٤ هـ / ١٨ نوفمبر ١٠٦٢ م وخلفه فى امارة حلب حسب وصيته ، اخوه عطية بن صالح بن مرداس(١) .

لم يكد عطيه يستقر فى امارة حلب حتى نازعه ابن اخيه محمود بن نصر على الامارة . واحتج محمود بأنه انتزع حلب من الفاطميين بالقوة ولم يتنازل عن حلب لعمه ثمال الا بعد ان تعهد الاخير بان تعود امرة حلب الى محمود بعد موت ثمال . يضاف الى ذلك ان محمودا اعتبر حلب ارثه عن ابيه نصر ابن صالح . وايد زعماء كلاب حجج محمود وانضموا اليه ضد عمه عطيه ، وهاجم محمود حلب غير ان عمه باغته على عين سيلم قرب حلب وهزمه سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . ولكن هزيمة محمود بن نصر لم تقلل من عزمه على استعادة حلب وبخاصة بعد تاييد بنى كلاب له . وفى الوقت نفسه انضم ثابت بن ثمال الى ابن عمه محمود وسلم اليه معرة النعمان وكفر طاب وحماة وكان يحكمها من قبل عمه عطيه . واحتشد بنو كلاب بمنطقة شيزر وهاجموا حلب وتقدم محمود بن نصر سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وحاصر حلب حصارا شديدا حتى انتشرت بها المجاعة بيد انها ظلت صامدة امام الحصار لوقوف احداث حلب الى جانب عطية بن صالح . (٢)

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٨١ - ٢٨٨ ،
Zakkar, op.cit. pp. 161-165

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ص ٢٩١ - ٢٩٤ ،
Zakkar, op.cit. p.166.

وعندما ادرك عطيه انه لم يعد بمقدوره الصمود طويلا امام ابن اخيه محمود بن نصر استنجد بالزعيم التركمانى ابن خان واتباعه . وترك محمود بن نصر حصار حلب . غير ان عطيه كاد يفقد سلطته لحساب التركمان داخل حلب فاغرى بهم احداث حلب فقتلوا منهم عددا كبيرا ونهبوا معسكرهم . واخيرا انضم التركمان الى محمود بن نصر وتمكن بمساعدتهم من انتزاع حلب من عمه عطية سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥م.(١)

وكان دخول التركمان الى شمال الشام ايذانا ببدء مرحلة جديدة فى تاريخ بلاد الشام . فقد بدأ يتضاءل الدور السياسى للعنصر العربى فى بلاد الشام واصبح التركمان يتحكمون فى تقرير مصير المنطقة . ومما يبرهن على هذا القول ان محمودا بن نصر لم يستطع استعادة حلب من عمه عطيه رغم مساعدة قبيلة كلاب له الا بعد انضمام التركمان اليه واصبح يعتمد على التركمان فى تحقيق مآربه دون ان يدرك انه بعمله هذا يضع بداية النهاية ليس لحكم المرداسيين فى شمال الشام فحسب ، بل ولدور العنصر العربى فى هذه المناطق . وذكر ابن العديم ، على سبيل المثال ان محمودا ابن نصر خرج ومعه ابن خان واتباعه التركمان سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م وقصد بهذه الجموع جنوب حلب حتى نزل قرب حماة " ثم اتى حماة ووطئ جميع العرب واذلها "(٢) . ومهدت اعمال التركمان فى شمال الشام الطريق امام خضوع هذه البلاد للحكم السلجوقى اذ دخل الامير محمود بن نصر فى طاعة السلاجقة سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م . وفى السنة التالية قام السلطان الب ارسلان بحملته الشهيرة على الجزيرة وشمال

---

(١) انظر ما سبق ، الفصل الاول ص ٨٦ - ٨٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠ .

الشام والتى نجم عنها معركة ملازكرد ضد الامبراطور رومانوس الرابع. (١)

وبعد رحيل السلطان الب ارسلان عن حلب سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م قاد محمود بن نصر جيشه ومعه حاجب السلطان ألب أرسلان واسمه ايتكين السليطانى ، وساروا جميعا قاصدين دمشق للاستيلاء عليها حسب اوامر السلطان . وعندما وصلوا الى بعلبك جاءهم من الانباء مايفيد بان عطيه بن صالح بن مرداسى استعان بالبيزنطيين وهاجموا معرة مصرين (٢) ، واحرقوا جزءا منها وقتلوا بعض سكانها فعاد محمود بن نصر مسرعا الى حلب ولحق الحاجب ايتكين بالسلطان ألب ارسلان . ولم يستطع محمود الوقوف فى وجه البيزنطيين بمفرده فاستنجد بالتركمان الذين اغاروا على فلسطين بقيادة قرلو التركى واتسز بن اوق الخوارزمى واخوته . وتمكن محمود بمساعدة هؤلاء التركمان من وقف تقدم البيزنطيين واجبرهم على الانسحاب من منطقة حلب . وعاد زعماء التركمان الى جنوب الشام بعد ان استبقى محمود الف فارس من اتباعهم لخدمته (٣) . واستطاع محمود بمساعدة هؤلاء التركمان من هزيمة البيزنطيين مرة اخرى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م عندما هاجموا عزاز ، وتتبع فلولهم حتى دخلوا انطاكية واحتموا بها . (٤) كما تمكن محمود بمساعدة التركمان ايضا من استعادة مدينة الرحبة على نهر الفرات سنة ٤٦٥ هـ /١٠٧٢م من مسلم بن قريش الذى انتزعها من بنى كلاب سنة ٤٥٠هـ/١٠٦٨م (٥) .

---

(١) انظر ماسبق ، الفصل الثانى ص ١١١ - ١٢٥ .

(٢) معرة مصرين قرية من اعمال حلب تبعد عنها خمسة فراسخ . انظر : ياقوت معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة أ - ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣٠ - ٣١ ،
Zakkar, op.cit. p.180.

(٤) ابن القلانسى ص ١٠١ - ١٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٢ "
Zakkar, op.cit. p.181.

(٥) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٢ ورقة ٢٣٤ ب ، ابن القلانسى ص ١٠٦ ، العظيمى حوادث سنة ٤٦٥ هـ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

ولاسترجاع الرحبة اهمية بالغة بالنسبة للامارة المرداسية لوقوع الرحبة على نهر الفرات واشرافها على ضفتي النهر ، فضلا على ان الرحبة من المواطن الاساسية لقبيلة كلاب فى شمال الشام والجزيرة ومنها نشات الامارة المرداسية وبسطت نفوذها على شمال الشام. ومد محمود بن نصر نفوذه الى منطقة الجزيرة ، ففى سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م فتح قلعة السن الخاضعة للبيزنطيين وبذلك وصل نفوذه الى اعالى الجزيرة (١).

غير انه منذ سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م حدث تغير كبير فى اخلاق وسياسة محمود بن نصر ، فبعد ان كان " حسن الاخلاق ، كريم النفس ، عفيفا عن الفرج والأموال .. تنكر وزاد عليه حب الدنيا وجمع المال ، فلحقه من البخل مالا يوصف " (٢) . وفسر ابن العديم ذلك بانه تنكر لاصحابه المخلصين وعلى رأسهم وزيره الكفء ابوبشر النصرانى ، الذى استمال اليه العرب وساعده بماله حتى استعاد حلب من عمه عطيه . فلم يراع محمود اخلاص وزيره فى الخدمة ، فصادر امواله واعتقل ولديه وقتلهما ، ثم أمر بقتله سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م (٣) . كما ادى التغير فى اخلاق محمود الى وحشة على بن منقذ ، وكان اخا لمحمود من الرضاعة ، فغادر على بن منقذ حلب سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م ، وسار الى طرابلس واقام فى كنف ابن عمار حتى وفاة محمود (٤) . كما دبر محمود بن نصر اغتيال ابن سنان الخفاجى وهو من كبار الشخصيات المشهورة داخل حلب الذين خدموا الامارة المرداسية (٥) .

---

(١) العظيمى ، حوادث سنة ٤٦٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٢ ، قلعة السن بالجزيرة قرب سميساط وتعرف بسن ابن عطير . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٤٢ ، انظر ايضا ابوالفدا المختصر ، جـ ٢ ص ١٩٣ .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٢ - ٣٣ .

(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٣٤ - ٣٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٧ - ٤١ .

وتجدر الاشارة هنا الى ان النقش الوحيد الموجود من العصر المرداسى ينتمى الى عهد محمود بن نصر ، وهذا النقش موجود على قطعة من الحجر مقاسها ٥١ × ٣١ سم ، وهى موجودة الان فى داخل الجامع الكبير بقلعة حلب وليس من المعروف اكان ذلك الحجر موجودا فى القلعة او انه احضر اليها . ويتكون النقش المحفور على الحجر من خمسة سطور مكتوبة بالخط الكوفى ، ويحتوى على أسماء والقاب محمود ويرجع الى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ونصه : (١)

بسم الله الرحمن الرحيم (أمر بعمله الامير)

الاجل تاج الملوك شمس الدين شر (ف)

الامة ذو الحسبين خالصة امير

المؤمنين ابوسلامه محمود بن

نصر بن صالح سنة خمس وستين واربعمائة .

واخيرا توفى محمود بن نصر فى جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ/ يناير ١٠٧٥ م (٢) ويصف ابن العديم مقدار ما احصى فى خزائنه من الاموال والمتاع والثياب والمراكب بما قيمته مليون ونصف مليون دينار (٣) . ورغم المبالغة فى هذا المبلغ فانه يدل على ان محمودا جمع اموالا كثيرة فيما بين سنتى ٤٥٩ - ٤٦٧ هـ ، بدليل انه اثناء النزاع بين محمود وعمه عطيه عانى محمود من قلة المال سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٧ م مما دفعه الى مهادنة البيزنطيين واقترض منهم اربعة عشر الف دينار ، وسلم ابنه نصرا رهينة عندهم ، وتعهد بهدم حصن اسفونا القريب

---

(١) Zakkar, op.cit. p. 183.

(٢) ابن العديم جـ ٢ ص ٤٢ .

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٥ ،
Zakkar, op.cit. pp. 181-182.

من معرة النعمان (١) . وهذا ان دل على شئ فانما يدل على ان السياسة المالية التى اتبعها محمود ارهقت الامارة المرداسية ،وانعكس ذلك على أحوال الناس الاقتصادية داخل حدود الامارة .

ومهما يكن من أمر ، فقبل وفاة محمود اوصى بالامارة من بعده لابنه شبيب بيد ان هذه الوصية لم تنفذ اذ بايع رجال الدولة وقادة العسكر الابن الاكبر نصر بن محمود . وكان على راس هؤلاء القادة احمد شاه التركى زعيم التركمان بمنطقة حلب ،والذى عرف باخلاصه فى خدمة الامير نصر بن محمود (٢) .

وأشار ابن العديم الى انتشار الامن بين الناس فى عهد الأمير نصر ابن محمود والى ان سيرته كانت اصلح من سيرة ابيه ،فاحسن الى أهل حلب واطلق سراح احداث حلب الذين اعتقلهم والده ونشر كرمه بين الناس (٣) .

ويبدو ان هذه السياسة الحكيمة كانت بتاثير الامير على بن المقلد بن منقذ ،عم نصر من الرضاعة والذى عاد من طرابلس بعد وفاة والد نصر ، وعهد اليه نصر بتدبير شئون امارته (٤) . غير ان فترة حكم نصر لم تدم طويلا ففى عيد الفطر سنة ٤٦٨ هـ / ٩ مايو ١٠٧٦ م قبض نصر بن محمود على احمد شاه مقدم التركمان واعتقله بالقلعة مما دعا الى مقتله على ايدى التركمان . وقد ادى مقتل نصر وزحف التركمان على حلب الى انتشار الفزع بين السكان الذين

---

(١) ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢ ص ١٥ ، ياقوت ،معجم البلدان .
(٢) مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٠ ب ، ابن الجوزى ،المنتظم جـ ٨ ص ٣٠٤-٣٠٥ ،ابن العديم ،زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠٠ - ١٠١ ، Zakkar, op.cit. pp. 185-186.
(٣) ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢ ص ٤٥ .
(٤) ابن العديم ،بغية الطلب ،جـ٧ ورقة ١٤٢ ب .

كانوا يحتفلون بعيدهم . وخشي رجال الامارة وقوع الفتنة بين التركمان وعامة اهل حلب فسارع سديد الملك علي بن منقذ ومن معه من الخواص بمبايعة سابق بن محمود ، وأشاروا عليه باطلاق احمد شاه فاطلقه وخلع عليه ، فنزل أحمد شاه الى اتباعه التركمان واخمد فتنتهم.[1]

كان سابق بن محمود يفتقر الى الحكمة وقوة الشخصية وحرية الارادة ، ولذلك وصفه ابن العديم بقوله : " وكان سابق من متخلفي بني مرداس " حيث أضحى خاضعا لسيطرة احمد شاه فعهد الى التركمان بوظائف الامارة واحسن اليهم واصبح يفضلهم على اهله وعشيرته بني كلاب[2]. وقد ادى خضوع سابق بن محمود للتركمان الى اجتماع بني كلاب الى اخيه وثاب واشاروا عليه بانتزاع حلب من اخيه سابق . وانضم اليه اخوه شبيب بن محمود ومبارك بن شبل ابن خالهما.[3] ولما سمع سابق بتحالف كلاب بزعامة اخيه وثاب ضده عرض الامر على أحمد شاه التركي الذي أخذ يعمل للقضاء على تحالف كلاب فاستدعى قائدا تركمانيا يدعى محمد بن دملاج كان يقيم باتباعه في اطراف الدولة البيزنطية لمساعدته وهاجم التركمان جموع كلاب بقنسرين ، وانزلوا بهم هزيمة ساحقة في اول شهر

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٢ ورقة ١٦٥ ب ، ١٦٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٤٨ - ٤٩ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٩٣ ، انظر ماسبق الفصل الثاني ص ١٤٤ .
Zakkar, op.cit. pp. 187 - 188.

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٣ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٥٤ ،
Zakkar, op.cit., p.189.

ذى القعدة سنة ٤٦٨ هـ/ ٧ يوليه ١٠٧٦م.[1]

ويستدل من قصيدة القاها ابن حيوس اثناء اجتماع كلاب بقنسرين الى ان ابن حيوس وبعض اصدقاء سابق ، نصحوه بعدم الاصطدام مع قبيلته كلاب لان هزيمة كلاب تعنى القضاء على نفوذ العرب وتعريض حكم بنى مرداس للخطر.[2]

وأضاع سابق بن محمود فرصة نادرة للخلاص من التركمان ، وتسوية النزاع بينه وبين قبيلة كلاب ، فبعد ثلاثة عشر يوما من انتصار التركمان على كلاب دعا محمد بن دملاج التركى احمد شاه ، فخرج اليه بشطال حلب ، وبعد ان خرج قبض محمد بن دملاج على حليف احمد شاه ، ولم ينتهز سابق الفرصة لاثارة اتباع احمد شاه ضد ابن دملاج واتباعه وبذلك يوقع الحرب بين طائفتى التركمان فيتخلص منهم ، بل سارع الى الاتصال بمحمد بن دملاج ، وافتدى منه احمد شاه بمبلغ عشرة الاف دينار ، وعشرين فرسا.[3]

بعد هزيمة كلاب سار وثاب بن محمود واخوه شبيب ومبارك بن شبل وغيرهم من زعماء كلاب الى السلطان ملكشاه بخراسان طالبين اليه نصرتهم

---

(١) عن هذه المعركة انظر ماسبق ، الفصل الثانى ص ١٤٥.

(٢) مما قال ابن حيوس مخاطبا سابق بن محمود :

ففى آل ذبيان وابناء وائل	مواعظ لا تخفى على من تأملا
فلا ترض ياعز الملوك بذلهم	وان يردوا من غير بحرك منهلا
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما	وكف غير مامور الى السلم اميلا

انظر ديوان ابن حيوس جـ ٢ ص ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٢ ورقة ١٦٦ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٥٥ ، Zakkar, op.cit. p.190.

على سابق . واستجاب السلطان ملكشاه لطلبهم واقطع اخاه تتش على بــلاد الشام . وسار تتش وحاصر حلب وانزل بالامارة المرداسية خسائر كبيرة وفشــل في الاستيلاء على حلب بسبب موقف مسلم بن قريش المعادى لتتش. (1)

وفي سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م استولى تتش على دمشق ، وقام القائــد التركماني افشين بنهب شمال الشام وتخريبه وهدد شبح المجاعة اقليم شمــال الشام . ونتيجة لذلك جلت جموع كثيرة من سكان شمال الشام الى بلاد مسلـم ابن قريش " فاحسن اليهم وتصدق عليهم وكان ذلك الاحسان منه اكبر الاسبـاب في امتلاكه حلب "(٢) . وفي الوقت نفسه سار تتش من دمشق وحاصر حلب مـن جديد . وادى الحصار الى حدوث مجاعة شديدة في المدينة فخرج الكثير من اهـل حلب الى الموصل وطالبوا مسلم بن قريش بالمسير الى حلب لانقاذها مـن الغز . وتلقى مسلم بن قريش دعوة من احداث حلب للقدوم اليها كما استقبـل وفدا ارسله بنو كلاب طالبا مساعدته ، بل ان سابقا بن محمود لما شعر بانـه لم يعد بمقدوره الصمود امام تتش ، بعث الى مسلم يطلب معونته ، ووعده أن يعطيه حماة والمعرة وكفر طالب ، وان يكتفي سابق بمدينة حلب . ومما جاء فـي رسالة سابق الى مسلم بن قريش قوله : " انت اولى من الغير ، والعربية تجمعنا ، فان كنت ماكولا فكن انت آكلي "(٣) .

وفي ظل هذه الظروف الصعبة والاوضاع الحرجة لم يعد لسابق بــن محمود من الطاقة والقدرة ما يمكنه من عمل شيء يحسن به الموقف ويخفف الالام

---

(١) انظر ماسبق ص ١٤٥ - ١٥٠ .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٦٧ ، انظر ايضا :
Zakkar, op.cit. p.200.
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ج ١٣ B ورقة ١٥ أ - ب .

التى حلت بسكان شمال الشام الذين تطلعوا الى شخص يخلصهم مما هم فيه . ولم يجدوا سوى مسلم بن قريش العقيلى ، فبعثوا اليه ليخلصهم مما هم فيه من شدة . وبعد ان تلقى مسلم بن قريش كل هذه النداءات قرر الاستيلاء على شمال الشام . ولما كان مسلم بن قريش يخشى ان يقوم السلطان السلجوقى ملكشاه او احد قادته بالاستيلاء على الموصل اثناء غيابه عنها ، احتاط للامر فارسل الى ملكشاه ابنه من زوجته صفية خاتون عمة ملكشاه وعرض على السلطان السماح له بالمسير الى حلب . وتعهد مسلم بن قريش بان يؤدى للسلطان عن حلب كل سنة مبلغ ثلاثمائة الف دينار فاجابه السلطان الى طلبه وسمح له بالمسير الى حلب . فسار مسلم بن قريش ومعه كلاب ونمير ، ومعظم قبائل الشام الذين انضموا اليه خوفا من الغز . ومر على قلعة جعبر فحاصرها وكان بها جعبر بن سابق القشيرى وعشيرته يقطعون الطريق فصالحوا مسلم بن قريش وتعهدوا بالكف عما درجوا عليه من قطع الطريق واخافة السبيل (١) . ثم سار مسلم بن قريش العقيلى الى حلب فوصلها فى الثانى عشر من ذى الحجة ٤٧٢هـ/ ٥ يونيه ١٠٨٠م . وعند وصوله اغلقت ابواب حلب فى وجهه ، اذ رفض شبيب ووثاب ابنى محمود السماح لشقيقهما سابق التسليم للامير العقيلى فى الوقت الذى كان يتوق فيه سكان حلب واحداثها لوصول مسلم بن قريش وكان نقيب الاحداث بحلب هو الشريف حسن بن هبة الله الهاشمى الحسينى وكان ابنه منصور اسيرا لدى بعض التركمان من اتباع احمد شاه المقيمين فى اعمال حلب . فلما وصل مسلم بن قريش حضر اليه هؤلاء التركمان وتقربوا اليه

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٥أ ،
Zakkar , op.cit., p.203.

بابن رئيس أحداث حلب . وأخذه مسلم بن قريش منهم وأطلقه ، فدخل منصور الى حلب وجند جماعة من الاحداث وفتح باب حلب ونادى بشعار شرف الدولة مسلم بن قريش فدخل مسلم الى حلب في العشرين من ذى الحجة ٤٧٢ هـ / ١٣ يونيه ١٠٨٠ م . واستبشر اهل حلب بدخول الامير مسلم الى حلب، فاحسن اليهم ووزع عليهم الاموال والغلال وخلع على أحداثهم . (١)

أما سابق بن محمود فقد اعتصم بقلعة حلب ،فراسله مسلم بن قريش ، واتفق معه على تسليم القلعة مقابل مبلغ من المال وأن يتزوج مسلم اخت سابق ، ولما رضى سابق بعرض مسلم بن قريش وثب عليه اخواه شبيب ووثاب واعتقلاه واستوليا على القلعة . وتسلم شبيب كل ما فى القلعة من أموال وسلاح ،فحاصر مسلم بن قريش القلعة حصارا دام أكثر من اربعة اشهر (٢) . ولما ضاق مسلم ذرعا بالحصار جمع زعماء كلاب وقال لهم : " قد علمتم انى انفقت الاموال وبعدت عن بلادى فى حراسة بلادكم وكف عادية الفزعنكم ،وهذه مقابلة ما اعرفها فان رجعتم ، فها انا راجع الى بلادى ومتبرىء منكم " فأنكر زعماء كلاب موقف ابناء محمود بن نصر ، وتعهدوا بالعمل على تسليم القلعة (٣) . وكان الامير سديد الملك على بن منقذ قد وفد على مسلم بن قريش عند وصوله الى حلب . وقام على بن منقذ بدور السفارة بين مسلم بن قريش وبين أولاد محمود

---

(١) مرآة الزمان ج١٣ B ورقة ١٥١ أ ، ابن العديم ،زبدة الحلب ج ٧ ورقة ١٤٦ أ ، ابن فضل الله العمرى ،مسالك الابصار ج ١٦ ،ورقة ١٠٦ أ العظيمى حوادث سنة ٤٧٢ هـ / ابن العديم ،زبدة الحلب ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩ ،ابن الاثير، الكامل ج١٠ ص ١١٤-١١٥ ،
Zakkar, op.cit., p.203.

(٢) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ج ١٣ B ورقة ١٥١ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج٢ ص٧٠ ، انظر ايضا : Zakkar,op.cit.,p.203.

(٣) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان ج١٣ B ورقة ١٥١ أ .

ابن نصر . وتمكن ابن منقذ اقناعهم بتسليم القلعة للامير العقيلي مقابل اقطاعه شبيب ووثاب قلعتي عزاز والاثارب وعدة قرى ، واقطاع سابق بن محمود مواضع اخرى فى منطقة الرحبة على نهر الفرات ، وأن يتزوج مسلم بن قريش أختهم منيعة بنت محمود . وهكذا نزل الامراء المرداسيين من قلعة حلب وتسلمها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي فى ربيع الثانى سنة ٤٧٣ هـ / سبتمبر ١٠٨٠م. وبذلك انقرضت امارة بنى مرداس ، بعد حكم دام اكثر من نصف قرن من الزمان ، واصبح مسلم بن قريش سيدا على حلب وشمال الشام . (١)

ولا يمكن الحديث عن الامارة المرداسية فى حلب دون الحديث عن جماعات الاحداث داخل حلب والتى شهدت ازهى عصورها فى حلب أثناء حكم الاسرة المرداسية . فقد كانت سيطرة الاحداث على شئون مدينة حلب واسعة خلال حكم المرداسيين . يقول المؤيد فى الدين داعى الدعاة الفاطمى ، الذى كان فى حلب سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م "وفى نفس المدينة قوم يسمون الاحداث هم لها أملك من مالكها ، وأكثر استيلاء عليها من واليها ، وبينهم وبين المغاربة (يقصد الفاطميين) من قديم الوقت احن وطوائل لا تنام عينها ولا ينقضى دينها ". (٢).

ومن المعروف ان صالح بن مرداس تمكن سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥م من الاستيلاء على حلب بمساعدة الاحداث حيث هرع زعيم الاحداث ويدعى سالم بن

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٥ أ - ب ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٤٦ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ورقة ١٠٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١١٥ ، انظر أيضا :
Zakkar, op.cit.pp.203-204 , Gibb, op.cit.pp.17-18.

(٢) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ١٧٢ ، Zakkar, op.cit., pp.258-259.
وانظر ايضا : العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٦٨٨ - ٦٩١ .

المستفاد وهو ابن احد غلمان سيف الدولة الحمدانى الى فتح بوابة قنسرين ورحب بصالح بن مرداس باسم سكان حلب . وقام سالم ومن معه من الاحداث بتقديم العون لقوات صالح بن مرداس اثناء قتال الحامية الفاطمية التى كانت تحتمى داخل قلعة حلب . وبعد سقوط القلعة بيد صالح بن مرداس،عين سالما زعيما على اهل حلب ومنحه لقب راعى المدينة ، وعهد اليه بقيادة الاحداث (١) . ويبدو انه كان من بين الاحداث العديد من الجند الذين تركوا الخدمة العسكرية وانخرطوا فى صفوف الاحداث واعطوا تلك الطائفة صفة حربية احيانا .

وبعد موت صالح وتولى ابنه نصر امارة حلب احتفظ زعيم الاحداث سالم بمناصبه حتى سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م ، عندما نشب النزاع بينه وبين نصر بن صالح . ولا يعرف شىء عن اسباب ذلك النزاع الذى اخذ يتزايد حتى تحول فى النهاية الى فتنة علنية سافرة . وقام سالم بتعبئة الاحداث فى المدينة وانضمت اليهم جماعات الغوغاء . وجهز سالم خطة لحصار القلعة حيث كان يقيم نصر ،وقام رجل مسيحى يدعى توما (توماس Thomas) بدور السفارة بين نصر وسالم ،الا ان توما لم يكن يتوخى الامانة والصدق فى نقل الرسائل التى كان يبعثه بها سالم الى نصر ، بل كان يبالغ ويغالى كثيرا فى مطالب سالم دون سبب معروف . وكان من نتيجة ذلك ان انقض نصر بن صالح على سالم وهزمه وقبض عليه وقتله . (٢)

---

(١) Zakkar, op.cit., p.259 ; The Encyclopaedia of Lslamic, Vol. I. p.250.

(٢) ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ ١ ص ٢٤٩-٢٥٠ ، Zakkar, op.cit. , p.259 - 260.

ويروى العظيمى أن نصرا قتل سالما بعد مشورة الحاكم البيزنطى لانطاكية ، ولكنه لا يذكر السبب . وعلى الرغم من عدم وجود سبب يبرر الصراع الذى نشب بين سالم ونصر فاننا نعرف ان نصرا طلب العفو والحماية من البيزنطيين فى اعقاب انتصاره على الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث. واعلن استعداده لدفع اتاوة سنوية . وربما يكون سالم قد استاء لهذا التصرف الذى أساء الى شعور سكان حلب ، وهكذا يكون سالم قد حاول اغتنام هذه الفرصة لتحقيق مآربه الشخصية. (١)

لم يكن لمقتل سالم أثر فى التقليل من شان الاحداث كما لم يؤثر ذلك على تفضيلهم امراء الاسرة المرداسية . فبعد سقوط حلب بيد الفاطميين سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ساعد الاحداث ثمال بن صالح على استعادة حلب سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م(٢) . وعندما اضطر ثمال الى التخلى عن حلب للخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م قاوم الاحداث ذلك وثاروا على الوالى الفاطمى الحسن بن ملهم وساعدوا محمودا ابن نصر على استعادة المدينة من الفاطميين سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠م(٣)

وقام الاحداث ايضا بدور بارز فى النزاع بين امراء الاسرة المرداسية حول الحكم فى حلب ،ومثال ذلك النزاع الذى نشأ بين ثمال بن صالح وابن اخيه محمود بن نصر ، والنزاع الذى وقع بين محمود وعمه عطيه ،كما لعبوا دورا هاما فى كبح تسلط التركمان على حلب(٤) . واحيانا تحولت جماعات

---

(١) انظر ماسبق الفصل الاول، Zakkar, op.cit., p.260. ص ٧٢ - ٧٥ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ١ ص ٢٦١ ، Zakkar, op.cit., p.260.

(٣) انظر ماسبق ص ٦٥ .

(٤) ابن العديم ،زبدة الحلب جـ١ ص ٢٩٥ ، Zakkar, op.cit., p.261.

الاحداث الى قوات عسكرية . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد أن عطية استخدم الاحداث فى الاغارة على الاراضى البيزنطية ، كما انتظم ستمائة من أفراد الاحداث فى جيش مسلم بن قريش عندما حارب سليمان بن قلطلمش (١) . واخيرا لعب الاحداث دورا حاسما عندما فتحوا أبواب حلب امام مسلم بن قريش ، الامر الذى نجم عنه سقوط الامارة المرداسية . (٢)

ومن هذه الامثلة يتضح ماكان لدور الاحداث من اهمية بالغة في حلب خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كما اتضحت مواقفهم من الفاطميين والتركمان والسلاجقة ، ودورهم فى كثير من الحوادث التى وقعت فى حلب .

- امارة مسلم بن قريش العقيلى فى الجزيرة وشمال الشام ٤٥٣ هـ - ٤٧٨ هـ :

واذا كانت الامارة المرداسية فى حلب وشمال الشام قد انهارت بسبب الغزو التركمانى لبلاد الشام ، فان امارة مسلم بن قريش لا تقل اثرا فى تاريخ بلاد الشام عن الامارة المرداسية فعلى الرغم من ان امارة مسلم بن قريش العقيلى نشأت اصلا فى الموصل فان قيام مسلم بن قريش العقيلى ببسط نفوذه على حلب وشمال الشام جعله مرتبطا بتاريخ هذه البلاد ، وذلك بسبب الدور الهام الذى لعبه اثناء الغزو السلجوقى وما بذله من جهود لوقف تدفق السلاجقة على بلاد الشام والجزيرة ومحاولته اقامة دولة عربية فى بلاد الشام والجزيرة .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ٩٠ - ٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ١٤٠ ، Zakkar , op.cit. , p.261.

(٢) انظر ماسبق ص ١٦٥ - ١٦٦ .

وسبقت الاشارة الى ان منطقة الجزيرة دخلتها خلال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، عدة قبائل عربية من بينها قبيلة عقيل العدنانية (١) . وكانت منطقة الجزيرة تابعة للدولة الحمدانية . وبدءا من سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ضعفت الدولة الحمدانية مما سهل القضاء عليها . وورثتها دولتان ، واحدة كردية فى ديار بكر عرفت باسم الامارة المروانية ، والثانية عربية فى الموصل هى الامارة العقيلية . (٢)

ويرجع تاريخ الامارة المروانية الى سنة ٣٧٤ هـ/ ٩٨٥ م عندما تمكن المغامر الكردى باذ بن دوستك من انشاء اول امارة كردية فى التاريخ وبسط نفوذه على ميافارقين وديار بكر (٣) . وفى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م هاجم باذ بن دوستك مدينة الموصل الخاضعة لابى طاهر واخيه الحسين بن حمدان فطلب الاخوان المعونة من محمد بن المسيب امير قبيلة عقيل ، فاشترط عليهما تسليمه نصيبين وبلد وجزيرة ابن عمر (٤) ، مقابل انضمامه اليهما ضد الاكراد ، فاجاباه الى طلبه ، فانضم اليهما الامر الذى ادى الى صد الاكراد ومقتل زعيمهم باذ بن دوستك (٥) . على ان ابنا حمدان طمعا فى الاستيلاء على امارة باذ الكردى فى ميافارقين وديار بكر ، والتى آلت الى ابن اخته الحسن بن مروان . وتمكن ابن مروان من انزال الهزيمة الساحقة بابنى حمدان .

---

(١) انظر ماسبق الفصل الاول ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) سهيل زكار ، تاريخ العرب والاسلام ص ٣٦٥ .

(٣) تاريخ الفارقى ص ٤٩ - ٥٢ .

(٤) بلد مدينة قديمة كانت تقع على نهر دجلة شمال الموصل وبينهما سبعة فراسخ وجزيرة ابن عمر بلدة شمال الموصل ايضا تشبه الهلال يحيط بها نهر دجلة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٥) أبوشجاع ، ذيل تجارب الامم ص ١٧٦ - ١٧٧ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٧١ - ٧٢ ، ٧٥ .

فاستغل محمد بن المسيب العقيلي هزيمتهما لصالحه فقبض على ابي طاهر بن حمدان وكثير من قادته ، وانقض على الموصل واستولى عليها واقرته الدولة البويهية على ذلك سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م (١).

عادت الدولة البويهية وانتزعت الموصل من محمد بن المسيب العقيلي سنة ٣٨٢ هـ / ٩٩٢ م (٢) . ولم يدم الامر طويلا اذ تمكن المقلد بن المسيب شقيق محمد من الاستيلاء على الموصل سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م ، واعاد الامارة العقيلية اليها وحصل من الخليفة العباسي القادر بالله على الاعتراف به اميرا على الموصل (٣) .

ظل المقلد بن المسيب يحكم الامارة العقيلية حتى سنة ٣٩١ هـ/ ١٠٠٠م حين اغتاله بعض ماليكه الاتراك فخلفه ابنه قرواش بن المقلد (٤) . وحكم قرواش الموصل فترة طويلة من الزمن امتدت الى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م حين قبض عليه أخوه بركة بن المقلد وسجنه وتولى زعامة الامارة العقيلية . ولم تطل مدة حكم بركة بن المقلد ، فتوفى سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ، وخلفه على الامارة ابن أخيه قريش بن بدران . وأخرج قريش عمه قرواش من سجنه وقتله ، وفرض سيطرته الكاملة على الامارة العقيلية (٥) .

---

(١) ابوشجاع ، ذيل تجارب الامم ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٧١ - ٧٢ ، ٧٥ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ٩٢ - ٩٣ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ١٢٥ - ١٢٦ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٦١ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل جـ ٩ ص ١٦٤ - ١٦٥ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٦٣ .
(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ٥٦٤ - ٥٧٩ ، ابن خلكان جـ ٥ ص ٢٦٧ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٧٠ - ١٧٢ .

ظل قريش بن بدران يحكم الامارة العقيلية فى الموصل وبعض مناطق الجزيرة حتى توفى سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م وخلفه ابنه مسلم بن قريش ،أعظم شخصيات هذه الاسرة ، الذى امتد نفوذه الى بلاد الشام ولعب دورا هاما فى حوادث بلاد الشام والجزيرة خلال الغزو السلجوقى . (١)

أخذ مسلم بن قريش ،بعد أن آلت أليه الامارة العقيلية يسعى جاهدا لتوطيد حكمه . وكان أول خطر واجهه من قبل عمه مقبل بن بدران الذى طلب الامارة لنفسه وساعده فى ذلك اعداد من الاكراد . والتقى مقبل بابن اخيه مسلم بن قريش على نهر الخابور (٢) سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م ،فحلت الهزيمة بمسلم واستولى عمه مقبل على الجزيرة . على ان مسلما عاد وانفق الاموال وجميع جيشا جديدا وانزل الهزيمة بعمه مقبل ،واخيرا تم الصلح بينهما على ان يكون لمقبل ثلث خراج الموصل (٣) .

وذكر ابن الاثير انه فى أعقاب موت السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣ م بعث ديوان الخلافة الى شرف الدولة مسلم بن قريش ودبيس بن مزيد زعيم بنى أسد وغيرهم من الامراء بالقدوم الى بغداد ،فسار ابراهيم بن مسلم بن قريش الى أوانا (٤) وتسلم اصحابه الانبار ،وانتشر اتباعه من الاعراب فى

---

(١) ابن الاثير ،الكامل جـ ١٠ ص ١٧ ،ابن خلكان جـ٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٢) نهر الخابور يقع بمنطقة الجزيرة ويصب فى نهر الفرات عند قرقيسياء ، انظر ياقوت . معجم البلدان .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان -٢ ١ ورقة ١٩٨ أ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٧٠ .

(٤) اوانا قرية قرب بغداد كانت تبعد عنها سبعة فراسخ . انظر: ياقوت ، معجم البلدان .

البلاد ، وقطعوا الطرقات . ثم غادر مسلم بن قريش بغداد بعد ذلك ، ونهب بعض المناطق ، مما اضطر دبيس بن مزيد والاكراد وبنى خفاجة الى المسير لقتاله . واخيرا جاءه من ديوان الخلافة مايفيد بالرضى عنه . وحمل اليه الرسول الخلع من الخليفة القائم ، ثم التقى بدبيس بن مزيد واصطلح معه . (١)
ويبدو ان مسلم بن قريش كان يهدف الى بسط نفوذه على بعض مناطق العراق اذ يذكر ابن خلكان ان مسلما بن قريش طمع فى الاستيلاء على بغداد بعيد موت السلطان طغرلبك سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م الا انه عاد وتخلى عن عزمه ذلك . (٢)

عمل مسلم بن قريش على توطيد علاقته بالسلطان السلجوقى ألب أرسلان ، فسار اليه سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م فاكرم السلطان وفادته واقطعه الانبار وهربى وهيت والسن والبوازيج اضافة الى الموصل (٣) ، وتوج مسلم بن قريش علاقته الودية مع البيت السلجوقى بالزواج من صفية بنت جغرى بك شقيقة السلطان ألب أرسلان والتى توفى عنها زوجها . (٤)

أخذ مسلم بن قريش يتطلع لبسط نفوذه على شمال الشام ، فسار فى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م الى الرحبة الواقعة على نهر الفرات ، وهزم قبيلة كلاب ، وانتزع منهم الرحبة ، وارسل اعلامهم وعليها سمات الخليفة المستنصر

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٢٧ .
(٢) ابن خلكان جـ ٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٨ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٥١ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٣ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٧١ ، والانبار مدينة على نهر الفرات غربى بغداد كان بينهما خمسة فراسخ ، وهيت بلدة على نهر الفرات من نواحى بغداد شمال الانبار ، وحربى بليدة تقع بين بغداد وتكريت ، والسن مدينة شمال تكريت عند مصب الزاب الاسفل فى نهر دجلة ، والبوازيج بلد قرب تكريت عند مصب الزاب الاسفل فى نهر دجلة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٤) مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٨ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٦١ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٣٨ .

الى بغداد " وكسرت وطيف بها في بغداد ، وبعث الخليفة الى مسلم بالخلع والتشريفات " (١) . وعندما قاد السلطان ألب ارسلان حملته الشهيرة الى الشام سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م كان مسلم بن قريش بين الامراء الذين وفدوا على السلطان وقدموا له فروض الطاعة والولاء . (٢)

جمع مسلم بن قريش كل شئون الامارة العقيلية في يده ، فقبض على أخيه ابراهيم واعتقله بقلعة سنجار (٣) ؛ وأبعد زعماء عشيرته وحاشيته عن التصرف في شئون الامارة . وفي سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م اكتشف مسلم بن قريش مؤامرة حاك خيوطها كاتبه ابوجابر بن صقلاب ، وحاجبه شرويه ؛ اذ كاتبا السلطان ملكشاه يحثانه على القبض على مسلم بن قريش وطرد العرب من العراق واقامة أحد اصحاب السلطان مقامه . فقبض مسلم على ابي جابر بن صقلاب وحاجبه وقتلهما . واستدعى مسلم بن قريش والى قلعة سنجار واخبره بعزمه على المسير الى بلاط السلطان بخراسان . وامره بالمحافظة على أخيه ابراهيم بن قريش حتى يعود وفيما لو حدث له مكروه لدى السلطان فيجب اطلاق سراح ابراهيم ومبايعته اميرا مكان أخيه مسلم . (٤) ويبدو انه نجح في توطيد علاقته مع السلطان ملكشاه ، وخاصة بعد ان ساعد ملكشاه سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤م في اخماد فتنة عمه قاروت بك . ولعب مسلم بن قريش ومعه جموع العرب دورا حاسما في انزال الهزيمة بجيش قاروت بك مما كان له احسن الاثر في نفس السلطان ملكشاه (٥).

(١) مرآة الزمان ، جـ ٢ ورقة ٢٣٨ ب ، العيني عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٦٥ أ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٧١ .
(٢) انظر ماسبق الفصل الثاني ص ١١١ .
(٣) سنجار : مدينة مشهورة من مدن الجزيرة كان بينها وبين الموصل مسيرة ثلاثة ايام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٦ ب - ٧أ .
(٥) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٧٨ - ٧٩ ، الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ص ٥٦ - ٥٧ .

وفى سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م سار تاج الدولة تتش الى بلاد الشام ، واسهم مسلم بن قريش فى احباط حملة تتش على حلب (١) . فقد ادرك مسلم أن نجاح تتش فى الاستيلاء على حلب سيجعله مطوقا بقوى الغز من الشرق والغرب . وهذا مايعرضه للخطر ، لذلك قدم المساعدة الى سابق المرداسى ، وأمده بالغلات والمؤن كيما يمكنه من الصمود امام هجمات الغز بقيادة تتش بن ألب ارسلان ، وتبع ذلك استيلاء مسلم بن قريش على حلب (٢) . وتوسم سكان شمال الشام فى مسلم بن قريش القائد الذى سيخلصهم من الترك الغز ، والدليل على ذلك قصيدة ألقاها الشاعر ابن حيوس امام مسلم بن قريش بعد دخوله حلب حيث تميزت هذه القصيدة بصدق مشاعرها وجزالة ألفاظها ، واشار ابن حيوس فى قصيدته الى مايأمله سكان بلاد الشام فى ان يتمكن مسلم بن قريش من طرد الترك من هذه المناطق واعادة مجد العرب اليها (٣) . بيد أن

---

(١) انظر ماسبق الفصل الثانى ، ص

(٢) انظر ماسبق الفصل الثالث ، ص

(٣) قال ابن حيوس مخاطبا مسلم بن قريش بعد فتحه حلب :

يارحمة بعثت فاحيت أمة ... قد طالما منيت بمن لم يرحم

ان الرعايا فى جنابك آمنت ... كيد الغشوم وفتكة المتغشرم

فى يوم قارئاية لك فهمت ... من قادة الاتراك من لم يفهم

وغدا استخلى الشام منهم مثلما ... اخلت خزاعة مكة من جرهم

أصفيت للعرب المشارب بعد ان ... كانت كرمح لا يعاين بلهذم

انت الذى نفق الثناء بسوقه ... وجرى الندى بعروقه قبل الدم

انظر ديوان ابن حيوس جـ٢ ص ٥٦٩ - ٥٧٥ ، وانظر ايضا القصيدة فى العماد الاصفهانى ، خريدة القصر جـ ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٩ .

هذا الامل لم يتحقق رغمابذله مسلم بن قريش من جهود ،اذ لم يكن قادرا بمفرده من وقف تدفق الغز على بلاد الشام .

بعد ان بسط مسلم بن قريش نفوذه على حلب سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م قام بتحسين أحوالها الاقتصادية بعد ما سببته غارات التركمان من دمار ،فنقل الى شمال الشام كمية كبيرة من الحبوب "ومن البقر والغنم والمعز والدجاج شئ كثير وعاش الناس فى ايامه ورخصت الاسعار بحسن تدبيره" كما يذكر ابن العديم .(١). وفى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م عهد مسلم بن قريش بولاية حلب الى أخيه على بن قريش وترك معه فرقة من جيشه ،وراسل السلطان ملكشاه يعلمه بما جرى ويسأله فى تقرير مبلغ من المال يحمله الى السلطان عما بيده من بلاد الشام ،فاجابه السلطان الى طلبه . ولكن كان لهذا المال المقرر للسلطان آثار سيئة على حلب اذ قام ابوالعز بن صدقه البغدادى ،وزير مسلم بن قريش بمصادرة جماعة من الناس وضاعف الخراج لجمع المال المقرر للسلطان السلجوقى (٢).

وبعد ان فرض مسلم بن قريش نفوذه على حلب استقر رايه على بسط نفوذه على بلاد الشام ،وجعلها جزء من دولته . ومن أجل ذلك شرع فى اخضاع الحصون والقلاع التى لا تزال خارجة عن طاعته فى شمال الشام كيما يفرغ بعد ذلك لمقارعة النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام . وكان اول عمل قام به بعد سيطرته على حلب هو فتح الحصون والقلاع التابعة لها مثل حصن عزاز ،وقلعة

---

(١) ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ ٢ ص ٧٥ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

الاثارب ، وجميع القرى والحصون القريبة من حلب ، التى انتزعها تتش من حلب اثناء حصاره لها (١).

وفى أوائل سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م سار مسلم بن قريش الى حران باقليم الجزيرة ، واستولى عليها وقضى على الامارة النميرية بها . وحران ذات موقع هام لوقوعها على مفترق الطرق التى تربط بين الموصل وبلاد الشام واراضى الدولة البيزنطية ، كما فتح بلدة سروج الخاضعة لحسن بن وثاب النميرى وأقطعه عوضا عنها نصيبين . وقرر مسلم العمل على عزل تتش فى دمشق وجنوب الشام ، فمنع تدفق التركمان اليه عبر اراضى الجزيرة . ومن امثلة ذلك انه أثناء وجوده بالجزيرة سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م منع نجدة تركمانية بقيادة أرتق بن اكسب من الوصول الى تتش ، ولم يسمح الا بمرور أم تتش وخدمها . وبعد أن فرض مسلم طاعته على معظم اقليم الجزيرة وشمال الشام هدد مدينتى الرها وانطاكية حتى اعلن حاكمها فيلاريتوس Philaretus فى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨٠ م دخوله فى طاعة مسلم بن قريش ، وتعهد بتقديم الجزية لمسلم ونقش اسمه على السكة . وارسل مسلم بن قريش الى ديوان الخلافة مبشرا بدخول الرها وانطاكية فى طاعته (٢) .

تعرض مسلم بن قريش فى جمادى الاولى سنة ٤٧٤ هـ / ديسمبر ١٠٨١ م لمؤامرة اغتيال قام بها مملوكان له ، ونجا مسلم وعرف ان وراء المؤامرة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٧٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٥ ب - ٥٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٢ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٥٧٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ١٣٥ ، ابن كثير ، جـ ١٢ ص ١٢٢ ، الذهبى دول الاسلام جـ ٢ ص ٦ .

جماعة من عشيرته . وكان لهذا الحادث أسوأ الاثر فى نفس مسلم بن قريش، فاحتجب عن معظم خواصه ، وقبض على جماعة من زعماء قبيلته واعتقلهم ، وجمع كل سلطات الامارة فى يده ، مما جعل مصير الامارة متعلقا بمصيره . (١)

وفى أواخر سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨٢ م طالب مسلم بن قريش فيلاريتوس الارمنى حاكم انطاكية والرها بمال الهدنة المقرر بينهما فرفض فيلاريتوس تسليم المال المقرر . وكان لسياسة فيلاريتوس السيئة فى انطاكية أسوأ الاثر فى نفوس أهلها ، فكاتبوا مسلم بن قريش طالبين اليه القدوم ، ووعدوه بالمساعدة فى تسليم انطاكية اليه . على ان هذه المكاتبات سرعان ماعلم بها فيلاريتوس ، عن طريق كاتب مسلم بن قريش النصرانى ، الذى ما ان تحقق من عزم مسلم على فتح انطاكية حتى فر اليها وسلم الكتب الى فيلاريتوس الارمنى . وقتل فيلاريتوس ثلاثمائة رجل من اهل انطاكية . وكتب فيلاريتوس الى ملكشاه يتهم مسلم بن قريش بمراسلة الخليفة الفاطمى ، وانه يتلقى من الفاطميين الخلع والاموال . وتعهد فيلاريتوس بتقديم مال الهدنة للسلطان نفسه . وبعث الوزير السلجوقى نظام الملك الى مسلم بن قريش عاتبا عليه اتصاله بالخلافة الفاطمية . فرد مسلم على نظام الملك قائلا : " ان كانت الكتب منى الى صاحب مصر ، توجه العتب على وان كانت منه فاحفظوا صاحبا لكم يرغب فيه صاحب مصر ، لا تخرجوه عن ايديكم وارغبوا فيه كما رغب غيركم " (٢) . ويبدو ان مسلما بن قريش لم يكن مخلصا فى ولائه للسلاجقة ، فقد كان متشيعا على مذهب الامامية الاثنى عشرية . ورغم انه لم يدن بالولاء للخلافة الفاطمية ، فانه اراد الحصول على مساعدة الفاطميين

---

(١) مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٥٦ أ - ب ، ابن الجوزى ، المنتظم جـ ٨ ص ٣٣١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٦ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٠ ب ، ٦١ أ .

لتحقيق مطامحه في بلاد الشام.

وبعد أن سيطر مسلم بن قريش على معظم اقليم الجزيرة اخذ يتطلع لبسط نفوذه على كل بلاد الشام . وكان على بن المقلد بن منقذ قد لعب دورا هاما في اقناع سابق واخوته بتسليم قلعة حلب الى مسلم بن قريش، وذكر ابن العديم انه لما سقطت حلب وقلعتها سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م بيد مسلم بن قريش أكرم ابن منقذ ووعده وعودا جميلة (١) بيد أن مسلما لم يكن يتوقع أن عليا بن منقذ سينجح في سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م من انتزاع شيزر من أسقفها البيزنطي ، ويصبح بذلك عقبة جديدة امام خطط مسلم بن قريش في بسط نفوذه على اواسط الشام وسواحله . (٢) وما ان علم مسلم بن قريش بسقوط شيزر بيد على بن منقذ حتى أمر أخاه عليا بن قريش بالمسير اليها . فسار على قاصدا شيزر واستولى في طريقه على حصن لابن منقذ يقال له اسفونا ،(٣) غربي كفرطاب . ووصل على بن قريش الى شيزر في ذى الحجة سنة ٤٧٤ هـ / مايو ١٠٨٢ م وضرب الحصار حول شيزر . على ان ابن منقذ كان قد احتاط للحصار منذ استيلائه على شيزر فجلب اليها كميات كبيرة من الغلال والمؤن وسائر الاقوات بما يكفيه لتحمل الحصار مدة طويلة . وحاصر على بن قريش شيزر دون جدوى حتى قدم مسلم بن قريش بنفسه الى الشام في السنة التالية . وفي آخر المحرم ٤٧٥ هـ / ٣٠ يونيه ١٠٨٢ م وصل مسلم بن قريش الى شيزر ، ثم رحل عنها بعد اربعة ايام الى حمص وامر اخاه عليا بمواصلة حصار شيزر .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٥ .

(٢) انظر مايلي ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) اسفونا : اسم حصن كان قريبا من معرة النعمان ، ياقوت ، معجم البلدان .

وأخيرا ارسل علي بن منقذ ابنه ابا العساكر سلطان فى صحبة امرأته منصورة بنت المطوع واخته رفيعة بنت المقلد الى مسلم بن قريش فدخلوا عليه ورجوه تـــرك شيزر وقدموا له مبلغ عشرة آلاف دينار مقابل رفع الحصار عن شيزر. وقبل مسلم ابن قريش الصلح واصدر امره الى أخيه علي برفع الحصار عن شيزر. (١)

ولما انسحبت قوات مسلم بن قريش عن شيزر انتزع مسلم مدينة حمص مـن صاحبها خلف بن ملاعب الذى تحصن بالقلعة وارسل الى تتش طالبا مساعدته ضد مسلم بن قريش فارسل تتش الى مسلم يخبره بتبعية ابن ملاعب له. فرد مسلـم على تتش مبررا هجومه على حمص بسبب سلوك ابن ملاعب وقطعه طرق القوافـل. فخرج تتش من دمشق لقتال شرف الدولة مسلم بن قريش، فخشى الاخيـــر أن يتهمه السلطان ملكشاه بقتال اخيه ، كما أن مسلما لم يكن قد استعـــد لمنازلة تتش. فسار ابن قريش الى ساحل الشام متظاهرا بحصار مدينة صـــور، ثم عاد تتش الى دمشق ولما علم مسلم بذلك رجع مرة اخرى الى حمص وحاصرهـــا " فخرج نساء ابن ملاعب وحريمه فتعلقن بذيل مسلم فاستحى منهن ، وأبقـــاه على حاله ولم يطالبه بما تقرر عليه ، واستحلفه ، وحلف له وعاد الى حلب "(٢).

ولا شك ان مسلما بن قريش كان يهدف من حصار شيزر وحمص الى مــد نفوذه على المدن والقلاع الواقعة شمال دمشق حتى يتسنى له بعد ذلك انتزاع دمشق من تتش والاستيلاء على بقية بلاد الشام. وذكر ابن شداد انه عندما تظاهر مسلم بالمسير لحصار صور ، استولى على بعلبك ، وولى عليها عود بـــن الصقيل واقطعه البقاع (٣). ويفهم من هذا ان مسلما بن قريش حاول تطويـــق

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦١ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٧٦ - ٧٧ ، العظمى حوادث سنة ٤٧٥ هـ ،
Zakkar, op.cit.pp. 204-205.

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦١أ.

(٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ٤٤ .

تتش من جهتى الغرب والشمال ، وربما كان لديه الامل فى الاستعانة بالخلافة الفاطمية ، لتساعده بجيوشها من جهة الجنوب ، كيما يسهل القضاء على تتش ، وبالتالى يستولى مسلم بن قريش على جميع بلاد الشام . يضاف الى ذلك انه عند ما غادر مسلم بن قريش حمص عائدا الى حلب قام بالقضاء على بقايا التركمان الذين كانوا يخدمون أمراء بنى مرداس فى شمال الشام ، فأخذ منهم الحصون الباقية فى ايديهم ، وقبض عليهم جميعا وعددهم ثلاثمائة فارس واعتقلهم ووزعهم على الكثير من القلاع وظلوا فى سجونهم حتى مقتل مسلم بن قريش . وقام مسلم ايضا بتقليم اظافر زعماء العرب فى شمال الشام ، حتى لا يبقى لهم من القوة ما يستطيعون به الوقوف فى وجهه . فقبض على وثاب وشبيب ابنى محمود بن نصر المرداسى واخذ منهما قلعتى عزاز والاثارب من أعمال حلب ، ثم اطلق سراحهما وعوضهما مناطق بعيدة عن انصارهما مثل الخانوقة وقرقيسياء ، وبعض الضياع فى منطقة الجزيرة ، وقبض مسلم ايضا على حسن بن وثاب النميرى امير قبيلة نمير ، واعتقله بحلب فترة قصيرة ثم قتله . (١)

أما بالنسبة لموقف مسلم بن قريش من قبيلة كلاب فى هذه الفترة التاريخية فيذكر ابن العديم انه استولى على اكثر اقطاعات بنى كلاب حتى اجحف بهم . (٢) ولقد كان هذا الاجراء خطأ سياسيا ارتكبه مسلم بن قريش اذ كان يجب عليه التقرب الى قبيلة كلاب ، حتى تقف باخلاص الى جانبه فى صراعه التالى مع السلاجقة . ويجدر الاشارة الى انه رغم الضربات الموجعة التى حلت بكلاب

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٦١ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٨ ، والخانوقة مدينة على نهر الفرات قرب الرقة ، وقرقيسياء بلد عند مصب الخابور على نهر الفرات . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٧٨ - ٧٩ .

على أيدى التركمان فانها كانت اكبر قبائل الشام ، وكان فى امكان مسلم بن قريش الاستعانة بها لاسيما وقد نظرت اليه فى البداية كمنقذ لها امام زحف الغز على بلاد الشام.

وكيفما كان الامر فان مسلما بن قريش عاد الى الجزيرة ، ليعد قواته لمنازلة تتش . وفى الوقت نفسه اتفق زعماء الشام الذين قاتلهم مسلم بن قريش على الاستعانة بتاج الدولة تتش. فاستقر راى وثاب وشبيب ابنى محمود المرداسى وخلف بن ملاعب حاكم حمص وامير شيزر على بن منقذ ، ومنصور بن الدوح حاكم حماة ، على مراسلة تاج الدولة تتش بدمشق ، وشكوا اليه حالهم وعرضوا عليه الدخول فى طاعته ووعدوه بالمساعدة على استخلاص بلاد الشام من مسلم بن قريش ووضع تتش مع حلفائه خطة تتلخص فى مسير تتش الى انطاكية للاستيلاء على المناطق الواقعة شمال وغرب حلب فى الوقت الذى يزحف فيه حلفاؤه من الجنوب لحصار حلب والاستيلاء عليها . اما مسلم بن قريش فقد راى الاستعانة بالخلافة الفاطمية فى مصر لترسل له جيشا ياتى من جهة الجنوب الى دمشق بينما يحاصرها مسلم بن قريش من جهة الشمال . وسار تتش الى انطاكية ، وباغت وثاب بن محمود المرداسى فرقة من الجند تابعة لمسلم بن قريش عند حماة وهزمها وعادت فلولها الى حلب . وقام وثاب ومنصور بن كامل بن الدوح وابن ملاعب وابن منقذ بمهاجمة معرة النعمان ، وقطعوا الكثير من اشجارها ورعوا مزارعها بمواشيهم وحاصروها عدة ايام ولم يستطيعوا فتحها . ولما سمع شرف الدولة مسلم بن قريش بتحرك اعدائه ، عبر الفرات على راس قواته المكونة من قبائل عقيل ونمير والاكراد وبنى شيبان وكلاب ومر على حلب قاصدا دمشق . واخيرا انضمت اليه قبائل وسط وجنوب الشام وهم طى وكلب وعليم وغيرهم . ولقد اجبر تحرك مسلم السريع اعداءه الى الانسحاب الى مدنهم للدفاع عنها امامه . فعاد تتش الى

دمشق ووصلها فى اول محرم سنة ٤٧٦ هـ / مايو ١٠٨٣ م . ووصل مسلم بن قريش الى ضواحى دمشق فى اخر المحرم سنة ٤٧٦ هـ / يونيه ١٠٨٣ م ، وعقد العزم على الاستيلاء على دمشق ليحقق بذلك هدفه ، وهو تاسيس دولة عربية تضم كل بلاد الشام. (١)

حاصر شرف الدولة مسلم بن قريش مدينة دمشق مدة شهر ، واخفق فى الاستيلاء عليها لعدة اسباب ، اهمها التركيب القبلى لقواته ، كما ان معظم القبائل التى انضوت تحت لوائه كان دافعها الرغبة فى الحصول على الغنائم عند سقوط دمشق او الخوف من بطشه . يضاف الى ذلك أن سياسته السابقة ازاء قبيلتى كلاب ونمير كان لها اثر عكسى ، فقد انسحبت عنه كلاب ونمير وكلب وطىء اثناء حصار دمشق ولم يبق معه سوى قبيلته عقيل . هذا فضلا عن الهجمات الخاطفة التى شنها تتش من داخل دمشق على معسكر مسلم بن قريش والتى نجم عنها تضعضع عسكره . وكاد مسلم ان يقع بنفسه فى الاسر . كما ان الوزير الفاطمى بدر الجمالى لم يف بوعده له بارسال نجدة فاطمية لمساعدته يضاف الى هذه الاسباب ان مسلما بن قريش تلقى خبرا يفيد قيام فتنة ضده فى حران التى كان لها اهمية كبيرة لدولة مسلم بن قريش لموقعها بين الموصل وبلاد الشام واراضى الدولة البيزنطية . كل هذه العوامل مجتمعة اجبرت مسلم ابن قريش على التخلى عن حصار دمشق . وخوفا من قيام تتش بمطاردته اثناء انسحابه عمد مسلم بن قريش الى القيام بمناورة عسكرية خدع بها تتش اذ انسحب

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٤ ب ، ابن القلانسى ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٩ - ٨٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٦ - ١٢٧ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٠ ،
Zakkar, op.cit. pp. 206 - 207.

الى جنوب دمشق فى صفر سنة ٤٧٦ هـ / يونيه ١٠٨٣ م موهما تاج الدولة تتش واتباعه انه قاصد فلسطين ، مما اوقع القلق والاضطراب فى نفس تتش، خوفا من ان يعيد مسلم الكرة بمهاجمة دمشق من الجنوب . ثم قاد مسلم بن قريش جيشه مسرعا نحو الشرق . وفقد مسلم بن قريش أثناء مسيره الكثير من الخيول والجمال وأعدادا كبيرة من افراد جيشه فى الصحراء ، ثم اتجه مسلم شمالا مارا بشرق حماة ، وراسل خلف بن ملاعب صاحب حمص وطيب نفسه الى أن خرج اليه فخلع عليه وعاهده وسلمه بلدتى رفنية وسلمية واتفق مسلم بن قريش مع خلف بن ملاعب على ان تكون حمص حاجزا بين تتش وبين املاك مسلم بن قريش الواقعة شمال حمص ليحول دون قيام تتش بمهاجمة حلب اثناء انشغال مسلم بفتنة حران . كما اقطع شبيب بن محمود المرداسى حماه وجعله واليا عليهما من قبله . (١)

وفى سنة ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣ م استطاع مسلم بن قريش اعادة تثبيت سيادته على حران . وكان مسلم بن قريش قد بسط نفوذه على حران سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨٠ م بعد موت وثاب النميرى زعيم بنى نمير الذى كانت سياسته فى حران قبل موته تتسم بالعدل والرفق بالسكان . وعهد مسلم بن قريش بولاية حران الى رجل يدعى جعفر العقيلى انتهج فيها سياسة مخالفة لما عرفه اهل حران من العدل زمن وثاب النميرى . واظهر جعفر العقيلى مذهب التشيع فى حران فى الوقت الذى كان فيه سكان حران يدينون بالمذهب السنى . واتفق قاضى حران واسمه ابن جلبه مع اهل حران على العصيان على مسلم بن قريش، واتصل ابن جلبة بيحيى بن الشاطر مملوك وثاب النميرى الذى سلم حران الى مسلم بن

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٤ ب ، ٦٥ أ ، الذهبى تاريخ الاسلام جـ ١٢ ورقة ١١ ب ، ابن القلانسى ص ١١٤ - ١١٥ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨١ - ٨٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٧ ، ١٢٩ - ١٣٠ ، Gibb, op.cit.p.20 ; Zakkar, op.cit., pp, 207 - 208.

قريش بعد موت سيده ، فقدم ابن الشاطر مع جماعة من بنى نمير ومعهم ولد صغير لمنيع بن وثاب النميرى . وهاجموا جميعا أصحاب مسلم بن قريش وألجأوهم الى حصن المدينة . فأرسل أمير الحصن الى شرف الدولة مسلم بن قريش طالبا النجدة . ووصل مسلم بن قريش الى حران فى ربيع الاول سنة ٤٧٦ هـ / اغسطس ١٠٨٣ م وضرب الحصار حول حران وتظاهر القاضى ابن جلبة بانه سيسلم المدينة لشرف الدولة فى الوقت الذى بعث فيه باحد زعماء بنى نمير الى القائد التركمانى جبق المقيم بأتباعه باقليم الجزيرة طالبا مساعدته ضد مسلم بن قريش ، ووعده بتسليم حران اليه . ولما علم مسلم بن قريش بتدبير ابن جلبة شدد الحصار على حران . ووصل جبق بمن معه من التركمان فعهد مسلم بن قريش الى بعض اصحابه بمواصلة حصار حران ، وقاد فرسانه للقاء التركمان . ووقعت المعركة بين الجانبين فامر مسلم اصحابه بجعل النهر المعروف بالجلاب (١) وراءهم حتى يمنعوا التركمان من الوصول اليه . وجرت معركة بجوار ضفاف هذا النهر ، انهزم فيها التركمان وقتل معظمهم وغنم العرب الكثير من اسلابهم . وعاد شرف الدولة لمحاصرة حران وكلما رمى قطعة من السور نصب ابن جلبة ازاء الثلمة مجانيق وعرادات (٢) تمنع كل من يحاول الاقتراب منها . واخيرا امر مسلم بن قريش العرب بالتاهب لمهاجمة المدينة وارسل فى احدى الليالى فرقة قامت بتطهير الحجارة من طريق الخيل . وارسل الى ابن جلبة طالبا منه تسليم المدينة ، ووعده بالامان . فرد ابن جلبة بالرفض

---

(١) جلاب : اسم نهر بمدينة حران . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) العرادة : آلة اصغر من المنجنيق تلقى بها الاحجار على ابعاد طويلة ، انظر : عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الاسلام ص ٤٠ .

قائلا " السيف أصدق انباء من الكتب " . وتقدم العرب واحرقوا المجانيق والعرادات واقتحموا المدينة فى جمادى الاولى سنة ٤٧٦ هـ / اكتوبر ١٠٨٣ م بعد حصار دام قرابة الشهرين . وقتل عدد كبير من سكان حران . وقبض مسلم بن قريش على قاضى حران ابن جلبة وولديه وثلاثة وتسعين رجلا من زعماء حران وامر بقتلهم جميعا وصلبهم على اسوار حران . ثم قام شرف الدولة بتنظيم شئون مدينة حران ثم غادرها عائدا الى الموصل .(١)

وفى السنة التالية سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م واجه مسلم بن قريش هزيمة مريرة على ايدى جماعات التركمان وذلك اثناء الحملة التى ارسلها السلاجقة للقضاء على الامارة المروانية الكردية فى منطقة الجزيرة . ففى سنة ٤٧٦ هـ اقتنع السلطان ملكشاه براى وزيره نظام الملك فارسل جيشا اسند قيادته الى فخر الدولة بن جهير(٢) للقضاء على الامارة المروانية . وسمح السلطان

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٥ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ ٢١ ورقة ١١ ب - ١٢ أ ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٨١ - ٨٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ - ١٣٠ ، العظيمى حوادث سنة ٤٧٦ هـ ، ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب جـ ٣ ، ص ٣٤٩ .

(٢) تعتبر اسرة آل جهير من الاسر الشهيرة التى عملت بشئون الحكم والادارة فترة طويلة من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وكان زعيم هذه الاسرة هو فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير الموصلى ، الذى اصبح وزيرا للامارة العقيلية فى الموصل ثم غادرها الى حلب وعينه ثمال المرداسى ناظرا للديوان . وبعد ذلك رحل ابن جهير الى ميافارقين سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وعمل وزيرا للامارة المروانية حتى استدعاه الخليفة القائم الى بغداد سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م واسند اليه شئون وزارته . وفى بغداد وطد ابن جهير علاقته مع الوزير السلجوقى نظام الملك وزوج ابنه عميد الدولة من ابنة نظام الملك . ولما عزل الخليفة المقتدى ابن جهير من الوزارة عاد الخليفة واسند الوزارة الى ابنه =

لفخر الدولة بان يذكر اسمه فى الخطبة وينقش اسمه على السكة الى جانب السلطان . وقاد ابن جهير الجيش السلجوقى الى الجزيرة وديار بكر. (١)

ولما علم منصور بن احمد بن مروان الكردى امير ميافارقين وديار بكر، بمسير حملة ابن جهير للاستيلاء على بلاده ، لجأ الى شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى وطلب مساعدته على صد ابن جهير عن بلاده . وتعهد ابن مروان بان يسلم لمسلم بن قريش مدينة آمد مقابل التحالف معه " وحلف كل واحد لصاحبه وكل منهما يرى ان صاحبه كاذب لما كان بينهما من العداوة المستحكمة "(٢) .

ولا شك ان الدافع لهذا التحالف بين قوتى الجزيرة المتخاصمتين هو المصير المشترك الذى يهددهما من قبل السلاجقة . فمسلم بن قريش كان يعلم أن سقوط الامارة المروانية المجاورة لامارته فى منطقة الجزيرة سيهدد امارته بالمصير نفسه حيث لن يكون بمقدوره بعد ذلك الوقوف امام الخطر السلجوقى المباشر.

= عميد الدولة بتاثير نظام الملك . وفى سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م غادرت اسرة آل جهير بغداد الى اصفهان واستقبلت بحفاوة بالغة من قبل السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك . انظر مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٩١ ب ، ٩٢ أ ،ابن العديم ،زبدة الحلب جـ٢ ص ٦٩ ، ابن خلكان ، جـ ٥ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، تاريخ الفارقى ص ١٨١ ، ابن طباطبا ، الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٢٩٣ - ٢٩٧ ، الاربلى ، خلاصة الذهب المسبوك ص ٢٦٨ - ٢٩٦ .

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٦ أ ، ابن فضل الله العمرى مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٦ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ ، تاريخ الفارقى ص ٢٠٨ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة ال سلجوق ص ٧٥ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ ، وآمد ، مدينة حصينة ، كانت مبنية من الحجارة على هضبة مرتفعة وتقع فى ديار بكر بالجزيرة ، ويحيط بها نهر دجلة من ثلاث جهات . انظر ياقوت ، معجم البلدان جـ ١ ص ٥٦ ، القزوينى ، اثار البلاد واخبار العباد ص ٤٩١ .

دخل ابن جهير بقوات السلاجقة منطقة الجزيرة ، وعلم بخبر التحالف بين مسلم بن قريش وابن مروان ، فارسل الى السلطان ملكشاه يشرح له موقف الامير العقيلى ويطلب ارسال النجدة لمواجهة الموقف الجديد . فأمر السلطان القائد التركمانى ارتق بن اكسب بجمع التركمان والمسير لنجدة ابن جهير فسار ارتق باعداد كبيرة من التركمان قاصدا ديار بكر. (١) ولما التحق ارتق بمن معه من التركمان بفخر الدولة بن جهير انضم اليهم بعض التركمان فى منطقة الجزيرة بقيادة جبق التركمانى الذى سبق وقاتل مسلم بن قريش عند حران . ودارت المراسلة بين ابن جهير ومسلم بن قريش العقيلى . وابدى ابن جهير رغبة فى الصلح حتى لا يكون سببا فى كارثة تحل بالعرب . واقترح ابن جهير على مسلم بن قريش الانسحاب الى بلاده ، وترك الامارة المروانية تواجه مصيرها . كما اشار بعض اصحاب مسلم على اميرهم بقبول الصلح . بيد ان مسلما بن قريش - بما عرف عنه من اعتداد بنفسه - طلب من ابن جهير سحب الجيش السلجوقى مقدار مرحلة الى الوراء حتى لا يشاع ان مسلما بن قريش عاد مهزوما . فرفض ارتق بن اكسب العودة الى الخلف قائلا : " انا لا أرد رايات السلطان على عقبها " وبينما كانت المفاوضات جارية بين قادة السلاجقة وبين مسلم بن قريش علم التركمان الذين يتكون منهم معظم الجيش السلجوقى بأمر المفاوضات فقالوا : " نحن جينا من البلاد البعيدة لطلب النهب ، وهؤلاء يسارعون فى الصلح " .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٩ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ ، الاصفهانى ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٥ .

وسار التركمان ليلا بزعامة القائد التركماني جبق ، دون علم ابن جهير، وفاجأوا قبيلة عقيل فجر يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الاول سنة ٤٧٧ هـ / ٢٥ يوليه ١٠٨٤ م . ورغم ان العرب كانوا اكثر عددا من التركمان فانهم فوجئوا بالهجوم التركماني ، وحلت بهم الهزيمة ووقع معظمهم في الاسر . وذكر سبط ابن الجوزي انه لما علم ابن جهير وارتق سارا الى مكان المعركة وما ان وصلا الا " وقد استولى التركمان على الحلل والمواشي وكان ما لا يعد ولا يحصر وأخذوا النساء وفضحوهن ، وربطوا امراء بني عقيل بالحبال وباعوهم بالقراريط . وأشمل التركمان عشرة الاف رمح تحت القدور وجرى على العرب مالم يجر عليهم قبله مثله ، وسبوا نساءهم ، وبلغ الفرس الجيد دينارا وكذا الجمل ، والرأس الغنم نصف قيراط والعبيد والاماء من دينار الى دينارين ، وماسوى ذلك فما اشترى ولا بيع " . وتمكن مسلم بن قريش من النجاة ولجأ الى مدينة آمد وتحصن بها . (١)

تعتبر هذه المعركة ضربة قاصمة حلت بالقوة البدوية العربية في بلاد الشام والجزيرة فقدت فيها قبيلة عقيل - ثاني كبرى قبائل الجزيرة بعد كلاب - الكثير من رجالها وماشيتها . وهذه المعركة هي ثاني كارثة تحل بالقوى العربية بعد الهزيمة الساحقة التي حاقت بقبيلة كلاب امام التركمان سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م (٢) . وكان من الصعب على مسلم بن قريش استرداد قواه بعد هذه المعركة بحيث بات عاجزا عن الصمود امام سليمان بن قطلمش بعد عشرة اشهر من هزيمته . ودفع حياته اخيرا ثمنا لمحاولاته الوقوف امام الزحف السلجوقي على بلاد الشام .

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٦٩ ب ، ٧٠ أ ب ، انظر ايضا ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار جـ ١٦ ، ورقة ١٠٦ ب ، ١٠٧ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٣٤ ، الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٦ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ص ١١ - ١٢ ، ابن ايبك ، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ .

(٢) انظر ماسبق " الفصل الثاني " ص ١٤٥ .

ومهما يكن من أمر ، فان فخر الدولة بن جهير حاول استغلال هذا العنصر لمصلحة السلطان فأشار على ارتق بن اكسب بارسال اسرى بني عقيل الى السلطان ملكشاه ، ومنع مسلم بن قريش من الخروج من آمد . غير أن ارتق رفض اوامر ابن جهير ، واستجاب لنداء مسلم بن قريش الذى ارسل الى ارتق يرجوه السماح له بالخروج من آمد مقابل مبلغ من المال وعده به . وخرج مسلم ابن قريش من آمد في ٢١ ربيع الاول ٤٧٧ هـ / ٢٧ يوليه ١٠٨٤ م وتوجه الى الرقة وارسل الى ارتق بن اكسب الاموال التى وعده بها (١).

أرسل ابن جهير الى السلطان ملكشاه يشرح له موقف ارتق بن اكسب الذى ما ان علم بشكوى ابن جهير ضده حتى قاد معظم التركمان وسار بهم الى سنجار (٢) خوفا من السلطان ملكشاه . ولما سمع السلطان بنبأ هزيمة قبيلة عقيل ، وحصر مسلم بن قريش في آمد جهز حملة اخرى بقيادة عميد الدولة بن فخر الدولة من جهير للاستيلاء على الموصل عاصمة مسلم بن قريش وعين السلطان آقسنقر الحاجب قائدا للحملة . وعندما وصلت الى الموصل رفض أهلها التسليم الا للسلطان ملكشاه . فسار السلطان الى الموصل وتسلمها سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م . وبعد تسلم السلطان ملكشاه الموصل ، وصلته اخبار قيام أخيه تكش بن الب ارسلان بفتنة ضده في خراسان واستيلائه على

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٠ أ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ١٣٥ ، الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ص ٧٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٢ - ١٣ ، ابن ايبك ، الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٠٩ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ١٣ - ١٤ .

(٢) سنجار : مدينة مشهورة في نواحي الجزيرة . كان بينها وبين الموصل مسيرة ثلاثة ايام . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

بعض مدن خراسان ، بغية اعلان نفسه سلطانا مكان أخيه منتهزا فرصة غياب ملكشاه عن عاصمته . واضطر السلطان ملكشاه لقبول مشورة الوزير نظام الملك بالصفح عن مسلم بن قريش والاحسان اليه . فسارع ملكشاه بعقد صلح مع مسلم بن قريش ، وارسل ابابكر بن نظام الملك الى الامير العقيلى ، وأمنه وعاد به الى السلطان . وقدم مسلم بن قريش الى السلطان اموالا اقترضها كما قدم اليه فرسه الخاص، فخلع ملكشاه على مسلم بن قريش واعاده الى امارته بعد ان جدد له التوقيع بالبلاد الشامية والجزرية ، وكل ما كان فى يده . وعاد ملكشاه الى خراسان لمواجهة تمرد اخيه . وهكذا انقذت فتنة تكش امارة مسلم بن قريش من السقوط بيد السلطان ملكشاه سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ (١).

أرسل السلطان ملكشاه الى فخر الدولة بن جهير الكثير من الجند بقصد القضاء على الامارة المروانية التى تدهورت احوالها . فقد عهد اميرها منصور بن مروان بشئون البلاد الى وزير نصرانى يدعى ابا سالم الطبيب ، فاسند الوزير

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٥ أ ب ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٧ أ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ الورقة ٨٩ أ ، النويرى ، نهاية الارب جـ ٢١ ورقة ١٢٤ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨٥ - ٨٦ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ٥ ، الاصفهانى تاريخ الدولة ال سلجوق ص ٧٦ - ٧٧ ، لاغرابة فى مشورة نظام الملك للسلطان ملكشاه بالصفح عن مسلم بن قريش . فقد كان ذلك من قواعد السياسة التى وضعها الوزير السلجوقى فى كتابه (سياسة نامة) فقد جاء عن واجبات السلطان قوله : " انه اذا قاتل اعداءه وخصومه قاتلهم قتالا يبقى فيه على الصلح والسلام . ويعقد لنفسه بين الصديق والعدو أواصر يمكنها ان تنقطع ، واذا انقطعت امكنها ان تتصل " انظر سياسة نامة ص ٣٠٤ .

الى النصارى العديد من المناصب ومنحهم الكثير من الامتيازات ، مما أدى الى انتشار السخط والتذمر بين صفوف المسلمين فى ميافارقين وآمد (١) ، وأسرع ابن جهير بحصار مدينة آمد ، ودام حصارها فترة طويلة حتى عدمت فيها الاقوات . واخيرا فتح المسلمون ابواب المدينة ونادوا بشعار السلطان ملكشاه ، فدخل ابو القاسم بن جهير بقواته مدينة آمد وتسلمها فى شهر صفر ٤٧٨ هـ / يونيه ١٠٨٥ م (٢) .

واصل فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حصار ميافارقين عاصمة الدولة المروانية . ونتج عن هجمات الجيش السلجوقى على اسوار المدينة سقوط احد الابراج ، فنادى السكان داخل ميافارقين بشعار السلطان ملكشاه . وتسلم ابن جهير ميافارقين ، واستولى على اموال وذخائر بنى مروان وارسلها مع ابنه ابى القاسم الى السلطان السلجوقى بأصفهان ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٧٨ هـ / اكتوبر ١٠٨٥ م (٣) . وسير ابن جهير فرقة من الجند استولت على جزيرة ابن عمر ، آخر معاقل الامارة المروانية فى اقليم الجزيرة . وبذلك انقرضت دولة بنى مروان ودخلت الجزيرة وديار بكر تحت الحكم السلجوقى المباشر . (٣) ولم يحقق السلطان ملكشاه حلم فخر الدولة بن جهير فى تاسيس

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٥ ب ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٨٩ ب ، تاريخ الفارقى ص ٢١١ - ٢١٢ ، ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٣ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٩٨٤-٩٨٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٦ أ ، العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٨٩ ب ، ٩٠ أ ، تاريخ الفارقى ص ٢١٢ ، ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٤ .

(٣) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ٩٠ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٤٤ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ ١٢ وص ١٢٧ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر جـ ١ ص ٥٧٦ .

حكم خاص باسرته فى ديار بكر على انقاض الامارة المروانية اذ عزله بعد سنتين من فتحها . (١)

وكيفما كان الامر ، فبعد نجاة مسلم بن قريش من امد وصلحه مع السلطان تأكد مسلم من تدهور العلاقة بين السلطان ملكشاه وبين القائد التركمانى ارتق ابن اكسب وسبب هذا التدهور هو سعاية بن جهير لدى السلطان ضد أرتق واتهامه باخراجه مسلم بن قريش من آمد سالما ونهبه بعض قرى فى خراسان تابعة للسلطاه ملكشاه . وانتهز مسلم بن قريش الفرصة واتفق مع ارتق بن اكسب على المضى الى حلب ومكاتبة الخلافة الفاطمية والتحالف معها ضد السلاجقة وقرر العمل لادخال تاج الدولة تتش معهما فى الحلف . وانفرد مسلم بن قريش بارسال عمه مقبل بن بدران الى مصر ، وقابل مقبل بدر الجمالى ، واخبره بانتماء ابن اخيه الى دولتهم ، واكد له ان مسلما بن قريش سوف ياخذ لهم العراق والجزيرة وبلاد الشام ، وطلب من بدر الجمالى ارسال جيشه الى الشام حتى يقابل جيش مسلم بن قريش ليبدأ الجميع العمل ضد السلاجقة . ويبدو أن بدرا الجمالى آثر عدم التسرع فى ارسال جيشه الى الشام قبل دراسة الموقف من جميع جوانبه . لذلك أرسل بدر الجمالى ابنه والوزير ابن المغربى وجماعة من اصحابه مع مقبل بن بدران الى الشام لمقابلة مسلم بن قريش والتشاور معه فى خطة العمل . ووصلوا الى دمشق فى اوائل سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ومن دمشق سار مقبل ليخبر ابن اخيه مسلم بن قريش بوصولهم . بيد انه ما ان وصل الى حلب حتى بلغه نبأ مقتل ابن اخيه مسلم بن قريش اما سليمان بن قطلمش (٢) .

---

(١) تاريخ الفارقى ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٥ ب ، ٧٦ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨٤ - ٨٥ .

أما بدر الجمالى فسار على راس جيشه فى ربيع الاول ٤٧٨ هـ/ يوليه ١٠٨٥ م ، وحاصر دمشق دون جدوى . ويبدو أن مقتل مسلم بن قريش فت فى عضده مما جعله يقرر العودة الى القاهرة. (١)

ففى سنة ٤٧٧ هـ/ يناير ١٠٨٥ م استولى سليمان بن قطلمش على انطاكية مما اثار حفيظة مسلم بن قريش لان بعض ضياع انطاكية كانت تابعة لحلب منذ زمن محمود بن نصر المرداسى والت بعد ذلك مع حلب الى مسلم بن قريش . فلما استولى سليمان على انطاكية ضم تلك الضياع الى دولته كما أن حاكم انطاكية فيلاريتوس الارمنى كان يؤدى الجزية لشرف الدولة مسلم بن قريش. ورغم ان سليمان بن قطلمش ابدى حسن نيته ازاء مسلم بن قريش وبعث اليه بهدية قيمة من غنائم انطاكية فان ذلك لم يقنع مسلم بن قريش فسارع بمطالبة سليمان بن قطلمش بالمال المقرر على انطاكية . ورفض سليمان محتجا بان ماكان يؤديه اهل انطاكية على سبيل الجزية المقررة على الكفار . واشتط مسلم فى مطالبة سليمان بالمال وتوترت العلاقات بينهما . (٢)

وفى الحقيقة لقد ارتكب مسلم خطأ جسيما باعلانه النزاع مع سليمان بن قطلمش فى وقت كان يمكنه فيه مصالحته واعطاء فسحة من الوقت لافراد قبيلته لاستعادة قواهم وبناء جيشه وانتظار نتيجة الصراع القادم بين ابن قطلمش وتتش . ولم يستجب ابن قريش لمشورة الناصحين بعدم قتال سليمان بن قطلمش

---

(١) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٥٨ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٨٨ - ٨٩ ، وانظر ماسبق ص ١٦٥ .

فجمع جيشا بلغ ستة الاف مقاتل من كلاب واحداث حلب وعقيل والتركمان بقيادة جبق . وهكذا كانت عناصر جيشه غير متجانسة وتفتقد الى الاخلاص فكلاب سبق ان انتزع منهم مسلم اقطاعاتهم واجحف بهم فتخلوا عنه عند ما حاصر دمشق . كما ان التركمان بقيادة جبق سبق ان قاتلوه اثناء تمرد حران وهزموا قواته قرب امد قبل اشهر قليلة . بيد ان مسلما قدم الاموال لجبق واتباعه ظانا انه بذلك يدفعهم الى الاخلاص فى خدمته فى الوقت الذى انقص فيه رواتب جنوده المخلصين الى النصف . وقاد مسلم بن قريش هذه العناصر المختلفة لقتال سليمان بن قطلمش الذى كان يقود جيشا بلغت عدته أربعة الاف مقاتل . والتقى الفريقان فى ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ/ ٢١ يونيه على نهر عفرين بمكان يقال له قرزاحل . وكانت الشمس فى وجوه عساكر شرف الدولة . ولم تستمر المعركة الا فترة قصيرة حتى انهزمت كلاب وانضم التركمان بقيادة جبق الى جيش سليمان بن قطلمش . ولم يصمد مع مسلم غير احداث حلب واربعمائة رجل من عقيل ، وانتهت المعركة بمقتل مسلم بن قريش(١) . وبمقتله ضاعت كل جهوده فى سبيل اقامة دولة عربية فى بلاد الشام والجزيرة ، كما انتهى النزاع بين العرب والغز للسيادة على بلاد الشام والجزيرة بانتصار الغز وانحسار الدور السياسى للعنصر العربى فى بلاد الشام والجزيرة ليصبح النزاع بعد ذلك بين قادة الاتراك انفسهم .

اما عن احوال العقيليين بعد مقتل مسلم بن قريش فقد سارت من سوء الى أسوأ . فبعد امقتله سار بنو عقيل الى الجزيرة واخرجوا اخاه ابراهيم من سجنه بقلعة سنجار وبايعوه بالامارة عليهم فاقطعهم الاقطاعات واحسن اليهم(٢) ولم يبق بيد ابراهيم سوى الموصل وما يتصل بها من ارض

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٣ ورقة ٧١ أ - ب ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ١٦ ورقة ١٠٧ أ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ٨٨ - ٩٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٣٩ - ١٤٠ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ١ ص ١٥ ، ابوشامة ، الروضتين جـ١ قسم ١ ص ٦٠ ، Zakkar, op.cit. pp. 213-214. عفرين اسم نهر فى نواحى المصيصة يخرج الى اعمال حلب وقرزاحل من نواحى حلب : انظر ياقوت معجم البلدان

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٧٥ أ .

الجزيرة . اما املاك مسلم بن قريش فى بلاد الشام ومناطق الجزيرة الاخرى فقد سقطت جميعها بيد السلطان ملكشاه . وتزوج ابراهيم أرملة أخيه صفية خاتون عمة السلطان ملكشاه . ومع ذلك فقد اعتقل ملكشاه ابراهيم فى سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م وولى على الموصل محمد بن مسلم بن قريش. وظل ابراهيم سجينا فى اصفهان حتى وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ثم سارت صفية خاتون مع ولدها على بن مسلم وانتزع الموصل من محمد بن مسلم بن قريش(١) . واخيرا اطلقت تركان خاتون ارملة ملكشاه سراح ابراهيم بن قريش ، فسار الى الموصل وتسلمها من زوجته صفية(٢) . وقد لقى ابراهيم هزيمة مروعة فى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م امام تاج الدولة تتش نجم عنها مقتل ابراهيم وسحق البقية الباقية من قوة عقيل العربية . واستولى تتش على الموصل واقطعها لعلى بن مسلم بن قريش الذى ظل يحكمها لمدة ثلاث سنوات حتى فقدها سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م لحساب القائد التركى كربوقا . (٣)

وهكذا انتهى دور قبيلة عقيل العربية ولم يعد لها من القوة مايجعلها تسهم بدور فعال فى احداث بلاد الشام والجزيرة وفقد العرب نفوذهم السياسى لحساب العنصر التركى ولعل هذا يفسر الموقف السلبى الذى وقفه العرب من الغزو الصليبى ثم من حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين .

---

(١) محمد بن مسلم من زوجة اخرى غير صفية شقيقة الب ارسلان .

(٢) ابن القلانسى ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) انظر ماسبق صفحات ١٨٧ وانظر مايلى ص ٢٨٦ - ٢٨٧

* امارة بنى منقذ فى شيزر : (١)

واذا كانت امارة مسلم بن قريش فى بلاد الشام قد سقطت امام زحف السلاجقة مثلها فى ذلك مثل الامارة المرداسية فى حلب فان امارة بنى منقذ فى شيزر نجت من السقوط امام السلاجقة بسبب اعتصامها بقلعة شيزر وعدم دخولها فى نزاع مع السلاجقة .

ويرجع بنو منقذ الى قبيلة كنانة العربية القحطانية ، ولكن هذه القبيلة كانت قليلة العدد فى بلاد الشام بحيث لا يمكن مقارنتها قط بالقبائل العربية الكبيرة فى بلاد الشام والجزيرة مثل كلاب وعقيل وطى وكلب . والشهرة التى نعم بها آل منقذ لا تعود الى قوة عصبيتهم بل الى ما تمتع به افراد هذه الاسرة من صفات الشجاعة والشهامة والى اهتمامهم بالعلم والادب ، واشتهارهم بقرض الشعر حتى غدوا من الشخصيات البارزة (٢) . واول ذكر

---

(١) تقع شيزر الى الشمال من حماة على هضبة صخرية منتصبة على ضفة نهر العاصى الغربية يكللها حصن لم يزل قائما الى اليوم معروفا باسم (سيجر) تحريف (شيزر) الهضبة مرتفعة ويحيط بها النهر من جهاتها الثلاث بحيث اصبحت شبه جزيرة وقد اكمل الانسان حصانتها بحفر خندق يمر فى الصخر الواصل بين شبه الجزيرة والبر . وبنى على الخندق جسر من الخشب للوصول الى القلعة مما زاد فى مناعتها وفى تعذر الوصول اليها وقت الحرب . وشيزر قسمان : قسم واقع ضمن القلعة وهو البلد وقسم قرب الجسر على العاصى وهو المدينة وللقلعة ثلاثة ابواب اهمها يفتح نحو حصن اطلق عليه اسم (حصن الجسر) انظر ياقوت ، معجم البلدان ، ابوالفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ابن منقذ الاعتبار ، مقدمة المحقق ص ت ج .

(٢) مراة الزمان ج ١٣ B ورقة ٨٤ ، ٨٥ أ ، الداوادارى ، درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ورقة ١٦٥ ب - ١٦٦ أ ، الذهبى تاريخ الاسلام ج ١٢ ورقة ١٠٠ أ ، العماد الاصفهانى ، خريدة القصر ج ١ ص ٤٩٧ ، ٥٥٢ - ٥٥٣ ، ياقوت معجم الادباء ج ٢ ص ١٨٧ - ١٩٦ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج ٥ ص ٢٧٠ .

لبنى منقذ يرجع الى سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م عندما ثار جنود الخلافة الفاطمية على انوشتكين ... وخرج هاربا من دمشق وازمعت قبيلة كلاب على مهاجمته ونهب امواله وذخائره ، فاستنجد انوشتكين بالمقلد بن نصر بن منقذ ، فقدم اليه في الفي رجل من عشيرته وغلمانه ودافع عنه حتى ادخله الى حلب (١) .

وكان المقلد بن نصر يقيم وقتئذ مع عشيرته بالقرب من قلعة شيزر ، عند جسر بني منقذ المنسوب اليهم ، ويتردد مع اقاربه من حين لآخر الى حلب وحماة لتوطيد علاقته مع زعماء بلاد الشام (٢) . ويبدو ان صالحا بن مرداس منح بني منقذ اقطاعا حول بلدة كفرطاب ، وتمكن المقلد بعد ذلك من بسط نفوذه على اجزاء من وادي العاصي (٣) . وبعد وفاة المقلد سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م خلفه ابنه سديد الملك علي بن المقلد واخذ سديد الملك يوطد نفوذه عن طريق اقامة علاقات الود والصداقة مع بعض حكام بلاد الشام . فقد كانت علاقة بني منقذ مع امراء بني مرداس جيدة ، اذ كان علي بن منقذ اخا لمحمود ابن نصر المرداسي من الرضاعة (٤) . وظل علي بن منقذ بحلب الى سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م عندما استوحش من اخيه محمود المرداسي ، فسار الى طرابلس حيث عاش في كنف ابن عمار (٥) . وفي طرابلس استقبل علي بن منقذ سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م الشاعر المشهور ابن حيوس الذي خرج من دمشق

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٥٠١ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ج ٩ ص ٤٢٦ .
(٢) ابن خلكان ج ٥ ص ٢٧٠ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٥٠١ ، الاعتبار مقدمة المحقق ص ح ، خ .
(٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٤ .
(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤ - ٣٦ .

بسبب هجمات اتسز عليها وسوء سيرة واليها الفاطمى ابن منزو . وقدم ابن منقذ الشاعر ابن حيوس الى صديقه جلال الملك بن عمار . على ان ابن عمار لم يأنس لابن حيوس بسبب ولاء الشاعر للخلافة الفاطمية ، الامر الذى جعل ابن منقذ يشير على ابن حيوس بالرحيل الى حلب . وارسل فى صحبته ابنه نصر بن على حتى اوصله الى محمود المرداسى الذى سمع قصائده وخلع عليه (١) . وبعد وفاة محمود المرداسى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥م عاد ابن منقذ الى حلب . وقد سبق الحديث عن الدور الذى لعبه ابن منقذ فى حوادث حلب اواخر زمن المرداسيين . (٢)

وفى سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م غادر على بن المقلد بن منقذ حلب وقام ببناء حصن على تل الجسر غربى شيزر قاصدا بذلك التربص بشيزر لانتزاعها من ايدى البيزنطيين . وبعد ان اكتمل بناء حصن الجسر قام على بن المقلد بنقل اهله وعشيرته اليه وبدأ التخطيط للاستيلاء على شيزر . (٣) .

وعندما استقر على بن منقذ فى حصن الجسر ادرك انه من المستحيل الاستيلاء على قلعة شيزر من اسقفها البيزنطى دمترى الا بالحيلة والسياسة وذلك لشدة حصانتها وطبيعتها الجغرافية . فقام ابن منقذ بالاستيلاء على حصن يعرف بالخراص يقع بين شيزر وحصن الجسر . وبعد الاستيلاء على حصن الخراص قام سديد الملك بالاحسان الى اهله من البيزنطيين ، ولم يكلفهم مالا يطيقون واخذ يتقرب اليهم ليحقق بذلك اهدافه لدى اهل شيزر . ونقل

---

(١) ديوان ابن حيوس جـ١ ص ١٤ - ١٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) انظر ما سبق ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ٣ (B) ورقة ٥٦ ب ، ابوالفداء ، المختصر فى اخبار البشر جـ٣ ص ٣١ .

سبط ابن الجوزى عن المؤرخ المعاصر غرس النعمة محمد بن هلال الصابى نص رسالة قرأها غرس النعمة بخط على بن منقذ عن طريقة استيلائه على شيزر، جاء فيها عن معاملته لاهل حصن الخراص من البيزنطيين قوله : " وخلطت خنازيرهم بغنمى ، ونواقيسهم باصوات المؤذنين عندى وصرنا مثل الاهل مختلطين ". (١)

ولما رأى اهل شيزر من البيزنطيين احسان على بن منقذ الى أهل الخراص اطمأنوا لجواره ووفدوا عليه فاجرى لهم الرواتب والعطايا واختلطوا بأهله وعشيرته . وساعدهم ضد كل من اراد حصنهم بسوء . وهاجمهم مسلم ابن قريش بعد استيلائه على حلب وقتل منهم عشرين رجلا ، فقام على بن منقذ باعطاء اهل شيزر عشرين رجلا عوضهم . ثم جرى بين اهل شيزر وبين حاكمهم دمترى خلاف ادى الى نفورهم منه . وتقدم اهل شيزر الى سديد الملك على بن منقذ بتسليم شيزر اليه دون علم أسقفهم . فتظاهر ابن منقذ بالرفض فى بادئ الامر . واخيرا استرضى الاسقف دمترى واتفق معه على تسليم شيزر ، مقابل مال يدفعه ابن منقذ للاسقف وعدم المساس باملاكه داخل شيزر ودفع راتب ستة اشهر للحامية البيزنطية داخل القلعة . وتم الصلح وتسلم على ابن منقذ شيزر فى شهر رجب سنة ٤٧٤ هـ / ديسمبر ١٠٨١ م ونقل اليها سبعمائة رجل من عشيرته . وقد اثمرت سياسة التسامح التى اتبعها على بن منقذ مع اهل شيزر فى قيام اهل عين تاب وبرزية وبقية الحصون الخاضعة للبيزنطيين على نهر وادى العاصى بتسليمها الى ابن منقذ والدخول فى طاعته ، وبعد ان بسط ابن منقذ نفوذه على شيزر وما يحيط بها سمح لحاميتها البيزنطية

---

(١) سبط ابن الجوزى مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٧ أ ، انظر ايضا ابن الوردى تتمة المختصر جـ ٢ ص ٨٩ - ٩٠ .

بالرحيل عنها . وقام بترميم قلعة شزير ونقل اليها كثير من المؤن والغـــلال بما يكفيه ومن معه مدة طويلة . (١)

ولوقوع شيزر على نهر العاصى كانت تشرف على الوادى مما جعل لموقعها اهمية عسكرية بالغة حيث يمكن لاى جيش كبير ان ينطلق منها للسيطرة علـــى الساحل الشامى وعلى الاجزاء الداخلية من بلاد الشام . لذلك أصبحـــت شيزر محط انظار كل من اراد بسط نفوذه على بلاد الشام . وعلى سبيل المثال ماكاد على بن منقذ يستولى على شيزر حتى حاصره مسلم بن قريش الذى كـان يعمل جاهدا للاستيلاء على بلاد الشام ، ويبدو ان حصانة شيزر فضلا عـــن صمود ابن منقذ امام الحصار وتعهد يده بتسليم شوزر مرة اخرى للبيزنطيين ، هــو الذى جعل مسلما يقبل الصلح ويسحب قواته من امام شيزر(٢) .

أدرك سديد الملك على بن منقذ أنه ليس بمقدوره ان يلعب دورا هامـــا فى تاريخ بلاد الشام التى كانت تشهد فى هذا الوقت الزحف السلجوقى ، ومحاولة مسلم بن قريش توحيد القبائل العربية لوقف هذا الزحف . ويرجع ذلك الـــى الموارد المحدودة لامارة شيزر اضافة الى انه لم يكن لدى ابن منقذ من العصبية القبلية مايستطيع بها فرض زعامته على القبائل الاخرى ، وبالتالى الاسهام فـــى حوادث بلاد الشام ، فقبيلته كانت عبارة عن عشيرة قليلة العدد لن تقبـــل

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٥٦ ب ، ٥٧ أ ب ، ابن ايبك الداوادارى درر التيجان وغور تواريخ الزمان ١٦٥ ب ، ١٦٦ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٧٧ ، ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٣١ - ٣٢ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر جـ ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ،
Gibb, op.cit., pp.19 - 20.
، عين تاب قلعة حصينة بين حلب ورنطاكية ياقوت ، معجم البلدان

(٢) مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٧ أ ، وانظر ماسبق ص ٢٢٦-٢٢٧ .

القبائل الشامية الكبرى مثل كلاب وعقيل وكلب وطي زعامتها . ولذلك فان علي ابن منقذ آثر عدم التدخل في شئون بلاد الشام الا بالقدر الذى يحافظ على امارته من السقوط امام تنازع القوى المختلفة . وخوفا من عودة مسلم بن قريش لمهاجمة شيزر ، فان علي بن منقذ انضم سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م مع زعماء الشام الاخرين فى تحالفهم مع تاج الدولة تتش لوقف اطماع مسلم بن قريش فى بلاد الشام . (١)

ويبدو ان تتش شعر بان امارة شيزر تمثل عقبة امام جهوده فى سبيل ضم شمال الشام الى املاكه ، فلما اغار تتش على حلب سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ارسل علي بن منقذ ابنه نصر الى تاج الدولة تتش لتقديم فروض الطاعة والولاء (٢) . ولما وصل نصر الى تتش ، قبض عليه واعتقله دون سبب معروف ، ومن المرجح ان تتش كان يهدف من ذلك الى مساومة والده على تسليم شيزر او بعض الحصون الاخرى مقابل اطلاق سراح ابنه . ولكن نصرا تمكن من الخروج من سجنه ، وهرب عن طريق غلام له . (٣) وتحسنت العلاقات بين بني منقذ وبين تتش وخاصة بعد ان تزوج سلطان بن علي بن منقذ من خانوت ابنة تتش ، وبالتالى سادت علاقات الود والصداقة بين الجانبين . (٤)

وقد تعرضت امارة شيزر للتهديد سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م من قبل سليمان بن قطلمش ، الذى قتل مسلم بن قريش قرب حلب ، واخذ يسعى جاهدا

---

(١) انظر ماسبق ، الفصل الثالث ص ٢٢٩ .
(٢) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٥٦ .
(٣) ابن منقذ ، الاعتبار ص ٥٣ - ٥٥ .
(٤) المصدر السابق ص ١٤٨ .

لتوسيع املاكه فى بلاد الشام .فاستولى ابن قطلمش على معرة النعمان . وكفر طاب التابعة لابن منقذ فسارع سديد الملك على بن منقذ بايفاد ابنه مرشد ،والد اسامة صاحب كتاب الاعتبار ، وغيره ،الى بلاط السلطان ملكشاه مستنجدا به ضد سليمان بن قطلمش . وبادر ابن قطلمش بالهجوم على شيزر فاضطر على بن منقذ لدفع مبلغ من المال له مقابل وقف هجومه على شيزر. (١)

ولم يلبث على بن المقلد بن نصر بن منقذ ان توفى فى السادس من شهر محرم سنة ٤٧٩ هـ / ٢٣ ابريل ١٠٨٦ م وخلفه فى حكم امارة شيزر ابنه أبو المرهف نصر بن على (٢) . واستغل نصر بن على بن منقذ النزاع الذى نشب بين سليمان بن قطلمش وبين تاج الدولة تتش والذى انتهى بمقتل سليمان ، واستعاد نصر مافقده ابوه من الحصون والقرى مثل كفر طاب وافامية . وعندما قدم السلطان ملكشاه الى حلب سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م راسله الامير نصر بن على بن منقذ واعلن دخوله فى طاعته وسلمه اللاذقية وكفر طاب وافامية ، فرضى عنه السلطان واقره على امارة شيزر. (٣)

---

(١) ابن العديم ،زبدة الحلب ،جـ ٢ ص ٩٥ ،ابن منقذ ،الاعتبار ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨٤ ب ، ٨٥ أ ،ابوالفدا ، المختصر جـ ٣ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) سبط ابن الجوزى ،مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٨١ ب ، ٨٢ أ ، ابن العديم بغية الطلب جـ ٧ ورقة ١٩٨ أ - ب ،العينى ،عقد الجمان ورقة ٩٣ ، ابن الاثير ،الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ - ١٥٠ ،الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ ٩ ورقة ٩ ب - ١٠ أ .

وبعد رحيل السلطان ملكشاه من بلاد الشام سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٧ م لم يشأ نصر بن على الاشتراك فى منازعات نواب السلطان ملكشاه ببلاد الشام متبعا فى ذلك سياسة والده ولا سيما انه لا يملك من الموارد البشرية والمادية ما يجعله قادرا على التاثير فى سير الحوادث . على ان موقفه الحيادى هذا لم يمنع عنه الخطر ففى سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وقع خلاف بين نصر بن منقذ وبين اهل قرية لطمين ، فانتهز قسيم الدولة آقسنقر هذه الفرصة وحاصر شيزر ونهب ربضها وقتل من اصحاب نصر بن منقذ مائة وثلاثين رجلا . ويبدو أن آقسنقر ادرك ان تاج الدولة تتش لن يسمح له بالاستيلاء على شيزر ، فدفعه ذلك الى قبول عرض ابن منقذ بمصالحته وتوقيع الهدنة مقابل انسحابه عن شيزر . (١) واخذ نصر بن على بن منقذ يوطد علاقته مع قسيم الدولة آقسنقر فقام الاخير باظهار حسن نيته ازاء امارة شيزر فتنازل فى سنة ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م عن افامية وسلمها للامير نصر بن على بن منقذ (٢) واستطاع نصر بن على بن منقذ خلال حكمه ان يضم الى امارته بعض القرى والحصون والقلاع مثل لطمين قرب حمص وحصن اسفونا القريب من معرة النعمان ، وحصن ابى قبيس فى قبالة شيزر ، وحصن مصياف قرب ساحل الشام . (٣)

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١٠٩ أ ، العينى ، عقد لجمان جـ ١١ ص ٩٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٥ ، ابن القلانسى ص ١١٩ - ١٢٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ١٦٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١٩ ، ابو الفدا ، المختصر جـ ٢ ص ١٩٩ ، الداوادارى ، الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٣١ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٠٦ ، احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٤ - ٤٥ .

(٣) احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ص ٤٦ ، ابو قبيس ، حصن مقابل شيزر ومصياف او مصياب كان حصنا حصينا مشهورا للاسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وفى أعقاب موت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م واندلاع النزاع على نطاق واسع بين القادة السلاجقة فى بلاد الشام ، آثر امراء بنى منقذ عدم الزج بانفسهم فى ذلك النزاع . ومما يدل على ذلك ان المصادر المعاصرة لم تذكر شيئا عن دور بنى منقذ فى هذا النزاع . ولعل هذا الموقف الذى اتخذه امراء شيزر هو الذى حمى الامارة من السقوط اثناء تنازع القادة السلاجقة وحكم نصر بن على بن منقذ شيزر حتى وفاته سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م فآلت الامارة الى أخيه مجد الدين ابى سلامة مرشد بن على والد أسامة . على ان شغف مجد الدين مرشد بنسخ القرآن الكريم جعله يتنازل عن الامارة لاخيه الاصغر عزالدين ابى العساكر سلطان ، الذى نعمت الامارة فى عهده برخاء اقتصادى كبير . (١)

أخذت امارة بنى منقذ فى شيزر بالكثير من اسباب التمدن ، على ان امراء بنى منقذ لم يتخلوا مطلقا عن مظاهر حياتهم القديمة ، اذ مارسوا حياة جمعت بين القديم والجديد فاتصف امراؤهم وفرسانهم بالشجاعة والشهامة ، وظهر بين صفوفهم فحول الشعراء والنحويين واللغويين ، وانتشر بعضهم حول شيزر يتصيدون ويزرعون ويرعون . وهكذا جاء تاريخ بنى منقذ فى شيزر مزيجا من الحروب والفروسية من ناحية وحياة الزراعة والرعى والصيد من ناحية اخرى ، وسكن امراؤهم القصور وعقدوا مجالس العلم والادب وعنوا بقرض الشعر ونسخ القران الكريم وجمع الكتب . (٢) وعندما وصل الصليبيون الى انطاكية لم تسهم

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ١٢٥ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام جـ ٢١ ورقة ١٠٠ أ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١١ ص ٢١٩ ، احمد رمضان المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٦ .

(٢) سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٤٤ - ٤٥ .

امارة شيزر باى جهد لمساعدة انطاكية او الدفاع عن بلاد الشام أمـــام الصليبيين .

- امارة بنى عمار فى طرابلس من سنة ٤٦٢ هـ حتى سنة ٤٩١ هـ :

ومن الامارات العربية فى بلاد الشام قبل الغزو الصليبى امارة بنى عمـــار فى طرابلس وهى الامارة الثانية التى ظلت قائمة فى بلاد الشام حتى الغـــزو الصليبى لتواجه بمفردها جحافل الصليبيين وهجماتهم العنيفة على طرابلس الى ان سقطت بايديهم سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م .

أسس هذه الامارة القاضى امين الدولة ابوطالب عبد الله بن محمد بن عمار الطائى الذى كان فيما يبدو يتولى قضاء طرابلس فى منتصف القرن الخامـــس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . (١) وفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م تغلب على طرابلس احد اشهابزعامة ابناء احدى الاسر فى طرابلس ، ويدعون بنى ابـــى الفتح ، الامر الذى دفع والى دمشق الفاطمى معلى بن حيدرة بن منزو ، فـــى السنة التالية (٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م) الى المسير مع قائد حامية الرملة لاخضـاع

---

(١) لا توجد صلة بين بنى عمار حكام طرابلس وبين بنى عمار المغاربة الذين قدموا مع المعز الفاطمى من المغرب وتولى احدهم وزارة الحاكم الفاطمى ، واورد المقريزى فى الخطط ج٢ ص ٣٦ نسب وزير الحاكم وهو الحسن بن عمار بن على بن ابى الحسن الكلبى زعيم قبيلة كتامة . اما نسب ابن عمار قاضـــى طرابلس فهو ابوطالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن ادريـــس ابن ابى يوسف الطائى . انظر ديوان ابن حيوس ج ١ ص ١٣٢ - ١٣٣ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣٠٧ ، وقد اختلط الامر على محقـــق الجزء الثالث من كتاب اتعاظ الحنفا عندما ارجع اصل بنى عمار اصحـــاب طرابلس الى الحسن بن عمار وزير الحاكم الذى قتل سنة ٣٩٠ . انظـــر اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٧٨ حاشية رقم (٣٠) .

طرابلس واعادتها للحكم الفاطمى . وقبل وصول ابن منزو الى طرابلس ،انضم اليه أبو طالب بن عمار قاضى طرابلس الذى قام بدور هام لاعادة المدينة للحكم الفاطمى . واستطاع ابن عمار اقناع احد اخوة بنى ابى الفتح بترك اخوته والخروج الى ابن منزو . كما استمال ابن عمار" جماعة من احداث البلد . فاستأمن منهم ثمانية وعشرون نقيبا ،فضعف امر بنى ابى الفتح واختلف اهل البلد ففتحوا الابواب ونادوا بشعار المستنصر " . وعندما دخل ابن منزو وابن عمار الى طرابلس قبضا على بنى ابى الفتح وجميع انصارهم ،وقتلوا بعضهم ،وطردوا الاخرين واعادوا الحكم للخليفة الفاطمى . (١)

انتهز ابو طالب بن عمار اضطراب احوال بلاد الشام خلال الشدة المستنصرية وانحسار النفوذ الفاطمى عن بلاد الشام وانهيار نفوذ الاحداث داخل طرابلس بعد القضاء على زعمائهم من اسرة بنى ابى الفتح فتغلب على طرابلس سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م (٢) . غير انه لم يرفض السيادة الروحية للخلافة الفاطمية . اذ كان ابن عمار نفسه يدين بالمذهب الشيعى اضافة الى الغالبية الشيعية من سكان طرابلس . ولذلك ظلت الخطبة الفاطمية قائمة (٣) . كما ان السكة فى طرابلس ظلت فى عهد ابى طالب باسم الخليفة الفاطمى المستنصر ويدل على ذلك الدينار

---

(١) سبط ابن الجوزى ،مراة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٢٣ أ ـ ب.

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٦ أ ،عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٦٤ ، Gibb, op.cit. p.19.

(٣) مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ٣٠ أ ـ ب ،ناصر خسرو ،سفرنامة ص ٤٨ ، ابن شداد ،الاعلاق الخطيرة جـ٣ ص ١٠٧ ،فيليب حتى ،لبنان فى التاريخ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، Gibb, op.cit. ,p.19.

الذى ضرب فى طرابلس سنة ٤٦٣ هـ . (١)

عمل القاضى ابوطالب ابن عمار على توطيد نفوذه داخل طرابلس ، وبعد أن تم له ذلك استولى على مدينة جبيل الواقعة جنوب طرابلس وشمال شرق بيروت وبسط نفوذه على الشريط الساحلى الممتد فيما بين طرابلس وبيروت. (٢)

اشتهرت طرابلس بالازدهار الاقتصادى فقد زارها ناصر خسرو سنة ٤٣٨ هـ ذكر بانها مدينة غنية بمزروعاتها وفاكهتها وبها مصانع الورق الجيد الجميل ، وتحصل بها المكوس على السفن القادمة من اراضى الدولة البيزنطية واوربا والاندلس والمغرب. (٣) وقد استغل ابن عمار ماتمتعت به طرابلس من ازدهار اقتصادى فاهتم بالناحية العلمية وقرب العلماء وأنشأ مدرسة سماها دار العلم والحق بها مكتبة قيل انها ضمت مائة الف مجلد ، بحيث غدت دار العلم مركزا هاما لنشر العلم والثقافة. (٤)

توفى ابوطالب بن عمار سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م وخلفه فى امارة طرابلس ابن أخيه جلال الملك على بن عمار بن محمد بن عمار ، غير ان اخوة أبى طالب نازعوا جلال الملك عرش الامارة فقام سديد الملك على بن منقذ الذى كان مقيما بطرابلس بمساعدة جلال الملك وعضده بمماليكه وعشيرته حتى انفرد بالامارة . وتمكن جلال الملك من ضبط الامور بطرابلس وكافأ صديقه ابن منقذ بان منحه الكثير من النفوذ والمكانة داخل طرابلس. (٥) وكان جلال الملك

---

(١) Lavoix, Catalgue des Mannaies, Musulmanes, Vol. III. p.130.

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ٩٦ - ٩٧ .

(٣) ناصر خسرو ، سفر نامه ص ٤٧ - ٤٨ ، انظر ايضا ، سعيد عاشور ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية فى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٣٠ .

(٤) الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٠٧ ، محمد كرد على ، خطط الشام جـ ٦ ص ١٨٥ - ١٨٦ ، فيليب حتى ، لبنان فى التاريخ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، سيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٦٤ - ٦٦ ، احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ص ٤٠ - ٤١ .

(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ٣٤ - ٣٦ ، ابن شداد ، الاعلاق =

أكثر افراد اسرته دهاء ، وتميزت فترة حكمه التى دامت قرابة الثلاثين عاما بالحنكة والاقتدار ، وخاصة فى سياسة المهادنة التى اتبعها حيال القوى المختلفة فى بلاد الشام. (١)

عمل جلال الملك على بن عمار على درء الاخطار التى تعرضت لها امارته فى عهده . فعندما بسط اتسز نفوذه على جنوب الشام ضايق طرابلس سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، الامر الذى جعل ابن عمار يفضل مهادنة التركمان وعدم الدخول معهم فى نزاع قد يهدد امارته بالخطر . فقد عقد هدنة مع اتسز وقدم له بعض المال وسمح لاتباعه التركمان بالمتاجرة مع طرابلس(٢). ويبدو أن مهادنة جلال الملك ابن عمار للتركمان اثارت حفيظة الوزير الفاطمى بدر الجمالى ، فدبر فى سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م مؤامرة مع بعض أعيان طرابلس للاطاحة بجلال الملك والقبض عليه ، واعادة المدينة للحكم الفاطمى المباشر . واكتشف جلال الملك المؤامرة فقبض على المتآمرين وصادر اموالهم وقتل بعضهم ، ونفى الاخرين (٣) . وعلى الرغم من سوء العلاقات بين جلال الملك بن عمار وبين الخلافة الفاطمية فان جلال الملك ظل معترفا بالسيادة الروحية للفاطميين ويدل على ذلك الدنانير التى ضربت فى طرابلس فى سنوات ٤٦٥ هـ ، ٤٧١ هـ ، ٤٧٥ هـ ، وعليها اسم الخليفة المستنصر وشعار الدولة الفاطمية. (٤)

= الخطيرة جـ ٣ ص ١٠٨ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٧١ .

(١) احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٣٢ أ.

(٣) نفس المصدر والجزء والورقة .

(٤) Lavoix , op.cit. Vol.III. p.132-133.

عمل جلال الملك على بن عمار جاهدا لتوسيع دائرة نفوذه وخاصة على المناطق الواقعة شمال طرابلس ولا سيما قلعة جبلة . وكانت قلعة جبلة خاضعة للبيزنطيين منذ سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م ، وفى سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م كان يلى قضاء جبلة القاضى منصور بن الحسين التنوخى ، المعروف بابن صليحة ، فاتصل بجلال الملك على ابن عمار طالبا مساعدته على تحرير جبلة من ايدى البيزنطيين . فجهز على بن عمار فرقة من التركمان عددها ثلاثمائة رجل فى صحبة بعض البحارة . ودبر امر دخول جبلة مع ابن صليحة حتى تم ذلك واصبح ابن صليحة واليا على جبلة من قبل ابن عمار . وامتد بذلك نفوذ ابن عمار من جنوب اللاذقية شمالا الى مشارف بيروت جنوبا . ولم تستمر جبلة طويلا خاضعة لجلال الملك بن عمار اذ توفى منصور بن صليحة وخلفه ابنه ابومحمد عبيد الله بن منصور الذى احب الجندية وكون جيشا خاصا به . وحاول ابن عمار القبض على عبيد الله بن صليحة فاستعصى عليه واستقل بجبلة واقام الخطبة للخليفة العباسى المقتدى وللسلطان ملكشاه . ولم تنجح محاولات ابن عمار فى سبيل استعادة جبلة ، رغم استعانته بدقاق بن تتش الذى حاصر جبلة دون جدوى . وظل ابن صليحة يحكم جبلة الى ان تنازل عنها سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ لصالح طغتكين اتابك دقاق ، بعد ان تكررت محاولات الصليبيين للاستيلاء عليها . وبعد أن آلت جبلة الى طغتكين تمكن فخر الملك بن عمار من استعادتها سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م[(١)] . وظلت جبلة تابعة لبنى عمار حتى سقوطها بيد الصليبيين سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٧م[(٢)] .

---

(١) سبط ابن الجوزى مراة الزمان جـ ١٣ B ورقة ٥٤ أ ـ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، تاريخ ابى الفدا جـ ٢ ص ٢١٣-٢١٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١١١ ، جبلة قلعة مشهورة بساحل الشام ، كانت من اعمال حلب جنوب اللاذقية ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٤١١ ، تاريخ ابى الفدا ، جـ ٢ ص ٢٢٠ .

وكان لسقوط جبلة خطورة بالغة على طرابلس ، نظرا لانها كانت بمثابة القاعدة الامامية للدفاع عن طرابلس امام الصليبيين . ولما سقطت ركز الصليبيون هجماتهم على طرابلس حتى استولوا عليها .

وكيفما كان الامر ، فقد عمل جلال الملك على تحسين علاقته مع تاج الدولة تتش خشية أن يحاول تتش الاستيلاء على طرابلس . وقد اثمرت تلك العلاقة الطيبة عن تنازل تتش لجلال الملك بن عمار من طرطوس سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م مقابل مبلغ من المال (١) . وفي السنة نفسها (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) قرر تتش مصاهرة الوزير الفاطمي بدر الجمالي على ابنته . فتدخل ابن عمار لدى تتش واقنعه بخطورة هذا الاجراء على علاقاته مع أخيه السلطان ملكشاه " فثني عزمه عن ذلك "(٢) . ويدل هذا على ماتمتع به ابن عمار من دهاء وحنكة ، اذ لو قدر لهذا الزواج النجاح لنجم عنه تحالف تتش مع بدر الجمالي مع مايحمله ذلك من خطر محقق على امارة طرابلس .

وفي سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م واجه جلال الملك خطر الزحف السلجوقي على طرابلس بقيادة تتش . واستغل ابن عمار مابين تتش واقسنقر من تنافس ، فاستطال اقسنقر بالاموال فتخلى عن تتش مما جعل الاخير يقرر العودة الى دمشق تاركا طرابلس على حالها . (٣) ولم يحاول تتش بعد ذلك مهاجمة طرابلس حيث توفي ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ودخل تتش في منازعات الوراثة في البيت السلجوقي التي راح ضحيتها . وترتب على موت تتش

---

(١) انظر ماسبق الفصل الثاني ص ١٥٧

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٦٥ ب ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة جـ٥ ص ١١٦ .

(٣) انظر ماسبق ، الفصل الثاني ص ١٨٢ - ١٨٣ .

انقسام بلاد الشام بين ولديه رضوان ودقاق وغيرهما من قادة السلاجقة . ولم يعد في بلاد الشام قوة لها القدرة على تهديد امارة بني عمار في طرابلس . وما لبث ان توفي جلال الملك بن عمار سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م وخلفه أخوه فخر الملك الذي وقع على عاتقه مهمة الدفاع عن طرابلس أمام الصليبيين(١).

وتجدر الاشارة هنا ، الى أن تدهور علاقة امارة طرابلس بالفاطميين وانهيار قوة السلاجقة في بلاد الشام جعل طرابلس تقف بمفردها أمام الصليبيين بحيث لم تستطع المقاومة طويلا حتى سقطت سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م.

- امارة ابن ابي عقيل في صور ٤٥٥ - ٤٨٢ هـ/ ١٠٦٣ - ١٠٨٩ م :

ومن الامارات العربية في بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي ، امارة ابن ابي عقيل في صور ، وامارة خلف بن ملاعب في حمص وافامية . أما امارة ابن ابي عقيل في صور فكانت اقصر عمرا واقل اثرا في تاريخ بلاد الشام. أسسها القاضي عين الدولة على بن عبد الله بن على بن عياض بن احمد بن ابي عقيل . وينتمي ابن ابي عقيل الى اسرة يبدو انها توارثت قضاء صور زمنا طويلا . وكان على بن عياض جد مؤسسي الامارة يلي قضاء صور. فقد ذكره الرحالة الفارسي الشهير ناصر خسرو ، اثناء زياراته لصور وهو في طريقه الى مصر سنة ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٧ م . فبعد ان ذكر ناصر خسرو موقع صور وحصانتها ونافوراتها ، واسواقها وثراءها ، اضاف بان معظم سكانها شيعة وان القاضي هناك رجل

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة جـ ٣ ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن الفوطي ، مجمع الاداب في معجم الالقاب جـ ٤ القسم الثالث ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، سيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام ص ٧٤ - ٧٦ .

اسمه ابن ابى عقيل ، وهو رجل طيب ثرى "(١) .

وسبق الحديث عن النزاع بين ثمال بن صالح المرداسى وبين الخلافة الفاطمية (٢) . وقد قام القاضى على بن عياض فى تسوية النزاع بين الجانبين . ونجم عن جهود على بن عياض اطلاق ثمال سراح الاسرى الفاطميين ، ودخوله فى طاعتهم من جديد . وكان لدور على بن عياض بن ابى عقيل اثره الطيب لدى الخلافة الفاطمية فاضفت عليه لقب " عين الدولة " . (٣)

وفى سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م زار المؤيد فى الدين داعى الدعاة الفاطمى ميناء صور واستشار ابن ابى عقيل فى اصطحاب افراد من قبيلة كلب الى شمال الشام لحراسة الاموال المرسلة معه لدعم حركة البساسيرى ضد السلاجقة . فاشار القاضى ابن ابى عقيل على المؤيد بخطورة اصطحاب كلب خوفا من اثارة روح العصبية القبلية بين قبيلتى كلب وكلاب ، واندلاع الحرب بينهما ، وبالتالى انشغال المؤيد عن مهمته التى ذهب لتحقيقها . وقد اقتنع المؤيد بمشورة ابن ابى عقيل فلم يصطحب أحدا من قبيلة كلب (٤) . كما ساهم القاضى على بن عياض بن ابى عقيل فى اقناع ثمال بالتنازل عن حلب للفاطميين . وكان ابن ابى عقيل على راس الوفد الذى تسلم حلب من ثمال ابن صالح المرداسى سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م (٥) .

---

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٥٠ .
(٢) انظر ماسبق ص ٦٠ - ٦٥ .
(٣) المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص ٢١٣ .

(٤) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ١٠٠ - ١٠١ .
(٥) المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

أخذ النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام يتدهور منذ النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، وانتهز القاضى عين الدولة على بن عبد الله بن على بن عياض الفرصة وتغلب على صور " وعصى فيها واستبد بها وخلع طاعة المستنصر وذلك فى سنة خمس وخمسين واربعمائة "(١) . وفى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م حاول بدر الجمالى استعادة صور من ابن ابى عقيل فحاصر صور بضعة ايام ثم تركها خوفا من القائد الفاطمى حيدرة بن منزو ، الذى خرج عن طاعة الفاطميين وقاد عسكره مع بعض الدمشقيين وقرر مهاجمة بدر الجمالى اثناء حصاره لميناء صور ، فانسحب بدر عائدا الى عكا (٢) .

شعر ابن ابى عقيل انه سيتعرض للخطر من قبل الاسطول الفاطمى ولما كان لا يملك جيشا قويا يستطيع به الدفاع عن صور لجأ الى استخدام التركمان الذين وفدوا على بلاد الشام (٣) . واستقبل الزعيم التركمانى ابن خان الذى سبق وخدم لدى الامارة المرداسية ، واقام ابن خان فى كنف ابن ابى عقيل ، فوصله واكرمه ومنح اتباعه الاعطيات . وعاد بدر الجمالى فى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وحاصر صور ونجح فى استمالة ابن خان ، الذى خرج من صور وانضم الى بدر الجمالى . عندئذ اتصل ابن ابى عقيل ببعض أتباع ابن خان ، وحرضهم على قتله ، واغراهم بالمال " فوثب عليه منهم اثنان وقتلاه ، وحملا راسه الى ابن ابى عقيل ، فطيف به فى صور " . وترتب على مقتل ابن خان فرار اتباعه من صور ، وانضمامهم الى بدر الجمالى " فقوى بهم "(٤) .

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٣ ص ٢٦٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٢ ورقة ٢٤٤ أ - ب .
(٣) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٤٢ ب .
(٤) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٢ ورقة ٢٤٨ ب ، ٢٤٩ أ . ، انظر ايضا : شاكر مصطفى ، دخول الترك الغز الى الشام ص ٣٤٦ .

ولما اشتد حصار بدر لصور استنجد ابن ابى عقيل بالامير قرلو زعيم التركمان الناوكية فى جنوب الشام ، فسار الامير التركمانى على رأس قواته لفك حصار صور . ولما كان بدر الجمالى يحتفظ بأهله وأمواله وذخائره فى صيدا ، فان قرلو ضرب الحصار عليها ، مما أجبر بدرا على التخلى عن حصار صور ، بعد أن استمال اليه الكثير من سكانها وعساكرها . وحينما انسحب بدر عن صور عاد قرلو باتباعه الى فلسطين للعمل لحسابهم الخاص ، الامر الذى أتاح الفرصة من جديد لبدر الجمالى لمعاودة حصار صور . وحاصرها بدر الجمالى برا وبحرا لمدة سنة ، حتى ارتفعت بها الاسعار ، وبلغ ثمن رطل الخبز نصف دينار ، ومع ذلك ظلت صور صامدة واخيرا قرر بدر انهاء حصار صور سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م بسبب ازدياد خطر التركمان فى جنوب الشام ، ووقوع الفتنة فى مصر ، التى اثارها القائد الفاطمى ناصر الدولة بن حمدان ضد الخليفة المستنصر . وهكذا حالت هذه الظروف دون سقوط امارة ابن أبى عقيل . (١)

وتجدر الاشارة هنا الى أن استقلال ابن ابى عقيل بصور لم يؤد الى قطع الخطبة الفاطمية ، فقد ظلت الدعوة للمستنصر قائمة فى صور شأنها فى ذلك شأن طرابلس(٢) . كما أن السكة فى صور ظلت تضرب باسم الخليفة المستنصر والشعار الشيعى للدولة الفاطمية . ويدل على ذلك ديناران ضربا

---

(١) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٤٢ ب ، ابن القلانسى ص ٩٨ ، ابن ميسر اخبار مصر ، جـ٢ ص ٢٠ ، ابن الاثير الكامل ، جـ١٠ ص ٦٠ ، ابن شداد الاعلاق الخطيرة ، جـ٣ ص ١٦٥ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٦٢ ، الذهبى ، دول الاسلام جـ١ ص ٢٧٠ ، عبد العزيز سالم ، دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الاسلامى ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٢٣٢ أ ،

Gibb, op.cit. p.19.

صور سنة ٤٥٥ هـ ، ودينار آخر ضرب فى سنة ٤٦٨ هـ . (١)

ظل عين الدولة على بن عبد الله بن أبى عقيل يحكم صور حتى توفى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م ، فخلفه فى الامارة ابنه نفيس ومعه أخواه (٢) . وظل أبناء عين الدولة مستقلين بصور عن القوى المتنازعة فى بلاد الشام . ولم يرد فى المصادر أى ذكر لدور امارة ابن ابى عقيل بعد سنة ٤٦٥ هـ فى حوادث بلاد الشام ولا عن علاقتهم بغيرهم من القوى المختلفة بها ، سوى ما ذكره سبط ابن الجوزى من ان اتسز حاصر طرابلس وصور سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م " واخذ هما خفارة " . واضطر ابناء ابى عقيل الى عقد هدنة مع اتسز سمح للغز بموجبها بالدخول الى صور " يبيعون ويشترون ولا يقيمون بها " (٣) . وذكر سبط ابن الجوزى أيضا ان حيدرة بن منزو ، الذى تغلب على دمشق ثم هرب منها سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م واستقر فى بانياس ، وانتقل فى سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ - ١٠٨١ م مع امواله وذخائره الى ميناء صور فاعتقله ابن أبى عقيل وصادر جميع أمواله . (٤)

ويفهم مما أورده ابن القلانسى أنه على الرغم من ثراء صور وطرابلس فان ضعف مواردهما البشرية جعلهما غير قادرتين على الاسهام بدور فعال

---

(١) Lavoix, Catalogue des Monnaies Musulmanes , Vol. III, p. 128.

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ١٣٢ أ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ورقة ٥٣ أ - ب .

فى حوادث بلاد الشام ، فى الوقت الذى أخذت فيه طوائف التركمان تصل تباعا الى بلاد الشام . وحفاظا على المدينتين من خطر التركمان لجأ قضاتهما الى مصانعة الاتراك "بالهدايا والملاطفات" على حد قول ابن القلانسى(1).

ولم تفد سياسة العزلة التى اتبعها ابناء القاضى عين الدولة بن أبى عقيل فى حماية امارتهم فى صور من السقوط سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩م بيد تاج الدولة تتش ، الذى سرعان ما فقدها فى السنة نفسها لحساب حملة فاطمية أرسلها بدر الجمالى لاستعادة سواحل الشام(2).

ولقد أدى تنازع السلاجقة والفاطميين على صور الى تدهور احوالها وخاصة بعد ان عادت الى الحكم الفاطمى المباشر، الامر الذى زاد فى ضعفها وجعلها تسير من سىء الى أسوأ ، مما سهل فى نهاية الامر سقوطها بأيدى الصليبيين .

- امارة خلف بن ملاعب فى حمص وافامية ٤٦٦ - ٤٩١هـ/١٠٧٤-١٠٩٨م :

أما امارة خلف بن ملاعب ، فقد أسسها سيف الدولة خلف بن ملاعب الاشهبى ، وهو من الشخصيات المشهورة بمغامراتها . وذكر ابن ابى الدم الحموى أنه استولى على مدينة حمص سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤م(3). ويبدو أن

---

(١) ابن القلانسى ص ١١٢.

(٢) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٨١.

(٣) ابن ابى الدم الحموى ، التاريخ المظفرى ، ورقة ١٥٣ أ ، انظر ايضا ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠ - ٢١ ، وذكر ابن ابى الدم ، تاريخ تاسيس ابن ملاعب لامارته فى حمص سنة ٤٦٦ هـ ، ويزكى راى ابن ابى الدم ماذكره ابن واصل من ان ابن ملاعب حكم حمص سبعة عشر سنة حتى سقوطها بيد السلاجقة ٤٨٣ هـ ، كما اشار سبط ابن الجوزى الى انه كان موجودا

ابن ملاعب انتهز فرصة ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، واستيلاء التركمان بزعامة اتسز بن اوق على جنوب الشام ، وتمزق القبائل العربية في بلاد الشام فتغلب على حمص التي كانت من املاك قبيلة كلب اليمنية . (١)

استطاع خلف بن ملاعب المحافظة على امارته في حمص ، عن طريق مداهنة حكام بلاد الشام الاقوياء . ومثال ذلك عندما حاصر تتش حلب سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٩ م واستولى على الاقاليم الواقعة جنوب حلب كالمعرة وحماة واعمالها ، أعلن خلف بن ملاعب دخوله في طاعة تاج الدولة تتش الذي أقره على حكم حمص(٢) . واستفاد خلف بن ملاعب من تبعيته لتاج الدولة تتش في نجاته من السقوط امام مسلم بن قريش سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م . وعاد مسلم ابن قريش في السنة التالية وصالح ابن ملاعب وزاد في املاكه رفنية وسلمية ليجعله بذلك حاجزا بين املاكه في حلب وبين تتش في دمشق وجنوب الشام(٣).

= في حمص سنة ٤٧١ هـ (انظر مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ) .
وقد ظن المستشرق جب Gibb أن خلف بن ملاعب اسس امارته في حمص سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م بمساعدة مسلم بن قريش . واعتمد جب على نص اورده ابن القلانسي ص ١١٥ ، والنص لا يوحي بهذا الرأي . (انظر ماسبق "امارة مسلم بن قريش (ص ٢٢٧ ، ٢٣١ " .
انظر : Gibb, op.cit. ,p. 20.

(١) انظر ماسبق ، الفصل الاول الصفحات ٤٦ ، ٦٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٥١ أ .

(٣) انظر ماسبق ، امارة مسلم بن قريش الصفحات ٢٢٧ ، ٢٣١ .

وفى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م قدم السلطان ملكشاه الى الشام وكان خلف ابن ملاعب فى جملة زعماء الشام الذين وفدوا على السلطان السلجوقى ، وقدموا له فروض الطاعة والولاء . (١)

لم يحافظ خلف بن ملاعب على علاقته الودية مع السلاجقة ، ففى سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م دخل فى طاعة الفاطميين نظرا لانه كان شيعيا (٢) . كما درج على قطع الطريق ، واخافة السبيل ، اضافة الى سوء سيرته مع رعاياه . ففى سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م قبض على أحد أعيان سلمية ، ويدعى الشريف بن ابراهيم الهاشمى ، وقذفه بالمنجنيق الى برج سلمية ، واعتقل عددا من أبناء عمه فهرب الباقون الى السلطان ملكشاه ، وشكوا له سلوك اميرهم خلف بن ملاعب . فأصدر السلطان ملكشاه أوامره الى أخيه تتش ، وآقسنقر ، وبوزان ، وياغى سيان بالمسير الى حمص وفتحها ، والقبض على ابن ملاعب وارساله اسيرا الى السلطان بخراسان . وقام قادة السلاجقة بتنفيذ اوامر السلطان . وتم القبض على خلف بن ملاعب سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وأرسل فى قفص حديد الى بلاط السلطان بأصفهان . (٢) .

ظل خلف بن ملاعب سجينا فى اصفهان حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م فقامت تركان خاتون ، ارملة السلطان ملكشاه باطلاق سراحه فسار الى مصر واقام بها حتى سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م . وفى تلك السنة قدم

---

(١) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٧٣ .
(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٥ ورقة ٢٢١ ب ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠ - ٢١ ، وانظر ماسبق ص ١٨١ - ١٨٢ .

الى مصر وفد من أهل أفامية . وكانوا يعتنقون المذهب الشيعى ، ويرفضون خضوع مدينتهم للحكم السلجوقى السنى ، فطلبوا من الوزير الفاطمى الافضل ابن بدر الجمالى تعيين خلف بن ملاعب حاكما عليهم ، فاجابهم الى طلبهم بعد أن أخذ ابن خلف رهينة لديه لضمان ولاء أبيه .(١)

استقر خلف بن ملاعب فى أفامية ومالبث أن خلع طاعة الفاطميين ، فأرسلوا اليه يهددونه بولده الذى مازال رهينة لديهم ، فأجابهم : " اننى لا أنزل من مكانى وابعثوا الى ببعض أعضاء ولدى حتى آكله " . ثم أعاد سيرته الاولى فى قطع الطريق واخافة السبيل ، واجتمع حوله الكثير من اللصوص وقطاع الطرق حتى كثرت أمواله (٢) . وبدأ خلف بن ملاعب فى شن الغارات على أراضى امارة بنى منقذ فى شيزر مما جعل نصر بن على بن منقذ يخرج لقتاله غير ان ابن منقذ انهزم أمامه ، واخيرا تم الصلح بين امارة شيزر وامارة خلف بن ملاعب (٣) . وظل ابن ملاعب يحكم أفامية الى أن اغتيل سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥-١١٠٦م (٤) .

---

(١) ابن أبى الدم ، التاريخ المظفرى ورقة ١٥٧ أ ، ابن العديم ، بغية الطلب جـ٥ ورقة ٢٢١ أ ، الاصفهانى ، البستان الجامع ورقة ٢٩٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ١٠ ، ص ٤٠٨ ، ابن ميسر ، اخبار مصر جـ٢ ص ٣٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٢١ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٨ ، العرينى ، الشرق الاوسط ص ١٦-١٧ ، Gibb, op.cit. p. 20.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، جـ١٠ ص ٤٠٨ ، ابوالفدا ، المختصر جـ٢ ص ٢٢٠ .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٥ ورقة ٢٢١ أ .

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ٥ ورقة ٢٢١ أ - ب ، ابن القلانسى ص ١٤٩ - ١٥٠ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

وهكذا أدى قيام الامارات العربية المستقلة فى بلاد الشام الى زيادة التمزق فى بلاد الشام ، وأصبح هم كل امارة المحافظة على كيانها غير عابئة بما تتعرض له بقية اجزاء بلاد الشام الاخرى من أخطار . وقد ساعد هذا التمزق الصليبيين فى المضى قدما فى حملتهم على بلاد الشام دون صعوبة كبيرة حيث لم يواجهوا قوة متحدة تستطيع صدهم عن بلاد الشام .

• • •

(الفصل الرابـــع)

تنازع القوى في بلاد الشـــام

حتى وصول الصليبيين الى انطاكية ٤٨٨ - ٤٩١ هـ / ١٠٩٥ - ١٠٩٨ م .

- أثر سياسة الاخوين رضوان ودقاق ابني تتش في انهيار النفوذ السلجوقي .
- تنازع القادة العسكريين السلاجقة في بلاد الشام ونتائجه .
- انهيار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .
- دور الاقليات الدينية والعرقية في انقسام وتمزق بلاد الشام .
- وصول الصليبيين الى أسوار انطاكية ٤٩٠ - ٤٩١ هـ / ١٠٩٦ - ١٠٩٨ م

- أثر سياسة الاخوين رضوان ودقاق ابني تتش في انهيار النفوذ السلجوقي :

كان لمقتل تاج الدولة تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م اثار بالغة الخطورة على بلاد الشام . فقد استطاع تتش بعد موت اخيه ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م توحيد معظم بلاد الشام والجزيرة تحت لوائه . غير ان اطماعه في السلطنة السلجوقية أودت بحياته ، الامر الذى انعكست نتائجه على بلاد الشام والجزيرة . فتمزقت بلاد الشام بين ولديه رضوان ودقاق وغيرهما من القادة السلاجقة ، كما ظهرت النزعات الانفصالية في كثير من بلدان الشام والجزيرة فضلا عن ازدياد خطر الاقليات العرقية والدينية في بلاد الشام . ونتج عن ذلك كله اندلاع النزاع على نطاق واسع بين جميع القوى في بلاد الشام والجزيرة الامر الذى يفسر نجاح الصليبيين في الاستيلاء على انطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨ والمضى في حملتهم على بقية بلاد الشام دون صعوبة كبيرة .

وكان تتش عندما وصل الى خراسان سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م لقتال ابن أخيه بركياروق ، أرسل الى ابنه رضوان المقيم بدمشق طالبا منه القدوم الى خراسان للاقامة بحاضرة السلطنة التى ازمع الانفراد بها . كما امر ابنه رضوان باحضار بقية عساكره المقيمين بالشام . وخرج رضوان بعساكره من دمشق سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٩٥ م وفى صحبته العديد من الامراء الترك والعرب ، مثل ايلغازى بن ارتق والامير وثاب بن محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وغيرهما . وحينما وصل رضوان الى هيت بشمال العراق بلغه نبأ مقتل أبيه وهزيمة جيشه . وعاد رضوان مسرعا في بعض خاصته الى حلب تاركا باقى عسكره من ورائه . وكان تتش بعد استيلائه على حلب قد ولى على حلب وقلعتها وزيره ابا القاسم الحسن بن على الخوارزمى . ولما كان رضوان صبيا في الثالثة عشرة من

عمره ،فانه لم يكن قادرا على انتزاع حلب من وزير والده ،وأصبح هو وأخـواه الصغيران ،ابوطالب وبهرام كالاضياف لدى الحسن بن على الخوارزمى . وكان اتابك رضوان[1] ، واسمه جناح الدولة حسين بن ايتكين فى صحبة تاج الدولة تتش بن الب ارسلان فلما قتل تتش فى معركة الرى سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، هرب جناح الدولة حسين وعاد الى الشام . وعند ما وصل جناح الدولة الى حلب قام بتدبير امور رضوان واستمال اليه حامية القلعة . وفى احدى ليالى ربيع الثانى سنة ٤٨٨ هـ / ابريل ١٠٩٥ م باغت انصار رضوان القلعة واستولوا عليهـا وقبض على الحسن بن على الخوارزمى ونودى بشعار رضوان ،واقيمت له الخطبة على سائر حلب واعمالها ، بعد ان ظلت الخطبة تقام لتاج الدولة تتش مدة شهرين بعد مقتله . وقام جناح الدولة حسين بادارة مملكة رضوان فـى حلب. (٢)

أما شمس الملوك دقاق الابن الثانى لتاج الدولة تتش فكان ابوه قـد خطب له ابنة السلطان ملكشاه وبعثه الى بغداد قبل وفاة ملكشاه . ولما توفـى ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م غادر دقاق بغداد مع ارملة عمه تركان خاتون وابنها محمود ،واقام معهما فى اصبهان . وبعد ذلك لحق دقاق بأبيه تتـش

---

(١) عن اتابك واتابكة انظر مايلى ص ٢٨٩ - ٢٩١ .

(٢) ابن العديم ،بغية الطلب جـ٦ ورقة ٨٩ أ ،ابن ابى الدم ،التاريخ المظفرى ورقة ١٥٧ أ ،الاصفهانى البستانى الجامع ورقة ٩٣ أ ،ابن فضل اللـه العمرى ،مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١٤ أ ، ابن شاكر الكتبى ،عيون التاريخ ، جـ ١٣ ورقة ١ أ ، العينى ،عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ، ١١٥ أ ،ابن الاثير ،الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٦ ، الصفدى ،امراء دمشق فى الاسلام ص ٣٣ ،ابن الفوطى ،مجمع الاداب فى مجمع الالقاب جـ ٤ قسم ٣ ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ Gibb, op.cit. p.30 ; The Cambridge History of Islam Vol.I. p.195.

عند الرى ، وشهد معه المعركة التى لقى فيها تتش مصرعه . وبعد معركة الرى عاد دقاق الى حلب فى صحبة أحد غلمان أبيه ، ويدعى ايتكين الحلبى . وأقام دقاق فى كنف أخيه رضوان فترة قصيرة ، ثم راسله نائب والده بدمشق ، ويدعى ساوتكين الخادم ، وعرض عليه القدوم الى دمشق ، وتعهد بتسليم دمشق اليه . ويبدو ان ساوتكين الخادم لم يكن زاهدا فى حكم دمشق وانما كان يرمى الى اضفاء طابع الشرعية على حكمه ، بوجود احد امراء البيت السلجوقى فى دمشق ، لذلك تظاهر بالاخلاص لدقاق الصغير بينما اراد الاستبداد بحكم دمشق . وهرب دقاق من حلب نحو دمشق فى سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م . ولما علم رضوان بهرب اخيه ارسل فرقة من الخيالة لمطاردته فلم تدركه . ووصل دقاق الى دمشق فاستقبله الامير ساوتكين واظهر السرور لمقدمه ، واخذ له البيعة من عسكر دمشق واهلها . وكان اتابك دقاق ومربيه طغتكين (١) قد أسر فى معركة الرى ، واحتفظ به السلطان بركياروق رهينة لمبادلته بقائده كربوقا الذى كان معتقلا بقلعة حمص . واطلق رضوان سراح كربوقا مقابل طغتكين واصحابه . وحالما وصل طغتكين الى دمشق استقبله شحنة دمشق حصن الدولة بختيار ودقاق بن تتش ، واعاد اليه دقاق منصب الاسفهسلارية . (٢) واطمأن دقاق بوصول اتابكه وعهد اليه بتدبير شئون مملكته . ودبر طغتكين مؤامرة راح ضحيتها ساوتكين

---

(١) انظر مايلى ص ٢٩١ .

(٢) اسفهسلار كلمة مكونة من لفظين احدهما فارسى وهو (اسفه) ومعناه المقدم ، والثانى تركى وهو (سلار) ومعناه العسكر ، وبالتالى الاسفهسلار هو مقدم العسكر) انظر: القلقشندى ، صبح الاعشى ، جـ٣ ص ٤٨٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ١ ص ٢ حاشية رقم (١) ، حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ص ١٥٦ - ١٥٧ .

الخادم ، الذى أعاد دقاق الى دمشق وتزوج طغتكين من صفوة الملك والدة دقاق ليصبح بذلك اتابكا له . (١)

وعمل دقاق على توطيد نفوذه داخل دمشق ، فأمر بترميم قلعة دمشق التي أنشأها والده ، وزاد فيها وحصنها (٢) . واحتفظ دقاق ببعض المدن التي كانت فى حوزة والده ، مثل بعلبك التى كان قد اقطعها تتش لغلامه كمشتكين الخادم ، فأقره دقاق عليها (٣) ، وبسط دقاق نفوذه على بلدة عرقة الواقعة شرقى طرابلس(٤) . كما اقر دقاق أخويه تكين وفلوس على اقطاعهما من قبل والدهما تتش فى بصرى وصرخد (٥) . واحتفظ دقاق باقطاعه من قبل والده فى ميافارقين وديار بكر وعهد بولايتها الى احد القادة التركمان ويدعى التاش. (٦)

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٧٣ ب ، ١٧٤ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ج ١٦ ورقة ١١٥ أ ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ج ١٣ ورقة ١ أ - ب ، العينى عقد الجمان ج ١١ ورقة ١١٥ أ ، الصفدى تحفة ذوى الالباب ورقة ١٣٧ أ - ب ، الذهبى تاريخ الاسلام ج ٩ ورقة ٤٨ أ - ب ، ابن القلانسى ص ١٣٠ - ١٣١ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق المجلد ٥ ص ٢٤٧ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج٢ ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) ابن طولون ، الشمعة المضية فى اخبار القلعة الدمشقية ورقة ١ أ .

(٣) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ج٣ ص ٤٤ - ٤٥ .

(٤) المصدر السابق ج٣ ص ٩٤ .

(٥) المصدر السابق ج٣ ص ٥٦ : وبصرى من اعمال دمشق وهى قصبة حوران ، وصرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من اعمال دمشق ، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٦) تاريخ الفارقى ص ٢٤٤ - ٢٤٧ . Gibb, op.cit. p. 31.

وترتب على استقلال رضوان بحلب ودقاق بدمشق عودة التفكك والانقسام من جديد الى بلاد الشام واضحت مرتعا خصبا للفتن والمنازعات والمنافسات بعد ما بذله تاج الدولة تتش من جهود فى سبيل توحيد شمال الشام مع جنوبه . وتمخض عن استقلال دقاق بحكم دمشق ، ان خشى رضوان من هروب اخويه الصغيرين ابى طالب وبهرام من حلب والانفراد ببعض بلدان الشام الاخرى كما فعل دقاق . فبادر بقتلهما سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م[١] .

وترتب على انقسام دولة تتش بعد موته تأرجح القادة الاتراك فى ولائهم ازاء رضوان ودقاق حسب ماتطلبه مصالحهم ، فعلى سبيل المثال فان القائد عضب الدولة ابق بن عبد الرزاق ، راسل رضوان وطلب الاذن له بالعودة الى حلب ، والانضمام اليه . غير ان ابق مر اثناء عودته بمدينة دمشق فطاب له المقام بها ، وانضم الى دقاق ، وارسل الى اتباعه بعزاز يأمرهم بتسليمها الى رضوان ، فأجابوه الى طلبه . ويبدو أن ابق بن عبد الرزاق لم يحقق ماكان يسعى اليه من التسلط على دقاق لاسيما بعد ان عاد الاتابك طغتكين الى دمشق وانفراده بتدبير شئون دقاق ، الامر الذى حمل ابق بن عبد الرزاق على الرحيل الى حلب والانضمام مرة اخرى الى رضوان . [٢]

أما صاحب انطاكية ياغى سيان بن محمد بن البالترکمانی الذى ساعد تتش اثناء مطالبته بعرش السلطنة السلجوقية فقد خالف رضوان فى البداية ، ثم مالبث ان راى ان مصلحته تقتضى الانضمام اليه حتى يتمكن عن طريقه من بسط

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٦ ورقة ٩١ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ ص ١٢١ .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

نفوذه على بعض مناطق الجزيرة . فبعث ياغى سيان الى رضوان واصحابه وصالحهم وقدم الى حلب . واشار ياغى سيان على رضوان بالمسير الى أقليم الجزيرة وديار بكر للاستيلاء عليها . ووجد اقتراح ياغى سيان هوى فى نفس رضوان فسار بعسكره ومعه اتابكه جناح الدولة حسين ، وياغى سيان ، ويوسف ابن ابق التركمانى . وعندما وصلوا الى اقليم الجزيرة وفد على رضوان وقادته العديد من الولاة الذين عينهم تتش فى بعض مدن الجزيرة واعلنوا طاعتهم للملك الجديد رضوان . واستقر راى رضوان واصحابه على الاستيلاء على سروج . فلما سمع بذلك القائد سكمان بن ارتق سبقهم واستولى عليها وحصنها ، وأمر بعض أعيان بلدة سروج بالخروج لمقابلة رضوان وابداء تظلمهم من عساكره ، واقناعه بالانسحاب وترك بلدتهم وشانها . فاقتنع رضوان بحجج اهل سروج ، وتركها على حالها . (١) وسار مع اصحابه نحو مدينة الرها ليتسلمها من نواب والده تتش الذى كان قد اخذ من سكان الرها عددا من الرهائن لضمان ولائهم . ودخل رضوان وقادته مدينة الرها واعتصم بقلعتها أحد القادة الارمن ويدعى ثوروس Thoros (الفارقليط) وكان مواليا لبوزان قائد ملكشاه الذى قتله تتش واستولى على الرها سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م واظهر ثوروس بسالة فائقة فى الدفاع عن القلعة غير انه لم يستطع الصمود بمفرده امام قادة السلاجقة فآثر مصالحتهم وتسلم رضوان قلعة الرها سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م . وبدلا من أن يعمد رضوان الى توطيد نفوذه بالرها لما تمثله من موقع هام يمكنه من الانطلاق لبسط نفوذه على اقليم الجزيرة استجاب لطلب ياغى سيان باقطاعه قلعة الرها . وعمد ياغى سيان الى تحصينها وشحنها بالرجال والمؤن . على ان استجابة رضوان

---

(١) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٤٦ .

لاطماع ياغى سيان فى قلعة الرها ادى الى انهيار النفوذ السلجوقى فى الرها بعد خروجهم منها ، الامر الذى سهل فيما بعد على الصليبيين الاستيلاء عليها . وأثناء وجود رضوان مع غيره من قادة السلاجقة بالرها تلقوا دعوة من أهل حران يحثونهم على القدوم الى مدينتهم ، وعندما سمع أمير حران قراجه التركمانى بمراسلة اهل مدينته لرضوان اتهم احد اعيان حران ويدعى ابن المفتى وقبض عليه وعلى بنى اخيه وصلبهم . وسار رضوان واصحابه الى مدينة حران للاستيلاء عليها ، وقبل وصول رضوان الى حران تحقق مدى مابين ياغى سيان وجناح الدولة حسين من الحسد والتنافر ، فقد سعى ياغى سيان مع الزعيم التركمانى يوسف بن ابق الى الاستئثار بتدبير شئون مملكة رضوان على حساب اتابكه حسين ، وانسحب الاتابك جناح الدولة حسين الى حلب ، واعقب ذلك فرار رهائن الرها من المعسكر ، مما جعل رضوان يعدل عن قصد حران ويعود الى حلب ، ولما علم ياغى سيان بدخول جناح الدولة الى حلب ، قرر مفارقة رضوان والعودة الى انطاكية فى صحبة القائد يوسف بن ابق التركمانى وابى القاسم الحسن بن على الخوارزمى الذى كان يحكم حلب قبيل استيلاء رضوان عليها (1) .

وتدهورت العلاقات بين رضوان وياغى سيان . وخشى رضوان مغبة تحالف ياغى سيان مع قائد والده يوسف بن ابق فقام بعيد وصوله الى حلب بارسال فرقة عسكرية بقيادة عضب الدولة ابق بن عبد الرزاق والامير وثاب بن محمود المرداسى زعيم قبيلة كلاب ، لانتزاع معرة النعمان من ياغى سيان . وتمكن عسكر رضوان من طرد ابن ياغى سيان واتباعه من المعرة والحقوها بمملكة حلب . وبعث رضوان الى سكمان بن ارتق حاكم سروج طالبا مساعدته ضد ياغى سيان . فسار

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٦ ورقة ٨٩ أ ، ب ، العينى عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ، ١٥٠ أ ، ابن العديم زبدة الحلب جـ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٤٧ ، تاريخ ابى الفدا ، جـ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

سكمان بن ارتق وقطع الفرات سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م فاعترض طريقه يوسف بن آبق التركمانى حليف ياغى سيان فخشى سكمان عاقبة الاصطدام به فتظاهر بمصالحته وصار فى صحبته وحينما علم جناح الدولة حسين بامر الصلح بين سكمان ويوسف بن ابق خاف ان يؤدى ذلك الى تحالف سكمان مع ياغى سيان ضد رضوان واتابكه . فخرج جناح الدولة من حلب على عجل ومعه ابق بن عبد الرزاق والامير وثاب بن محمود المرداسى وقابلوا يوسف بن ابق وسكمان عند مرج دابق ، فانضم سكمان الى جناح الدولة حسين واشتبكوا جميعا مع يوسف بن ابق حليف ياغى سيان وانزلوا به الهزيمة ونهبوا عسكره فلاذ بالفرار الى انطاكية . ورجع جناح الدولة حسين وسكمان بن ارتق ووثاب بن محمود وابق بن عبد الرزاق الى حلب فكافأ رضوان سكمان بن ارتق واقطعه معرة النعمان وأعمالها (١) .

أثارت هذه الاعمال العدائية الفزع والاضطراب فى نفس ياغى سيان . فذهب الى دمشق واخذ معه ابا القاسم الخوارزمى نائب تتش السابق بحلب وطلب ياغى سيان من دقاق تعيين ابى القاسم وزيرا له فى دمشق فاجابه دقاق الى طلبه . واستنجد ياغى سيان بدقاق وحليفه ايلغازى بن ارتق لمساعدته على صد هجمات رضوان وحلفائه . (٢)

وكان رضوان يتوق الى الاستيلاء على دمشق واعادة الوحدة بين دمشق وحلب فضلا عن ميله الى دمشق لانه ولد ونشأ فيها . وعندما علم رضوان بخروج نجم الدين ايلغازى لتقديم المساعدة لياغى سيان استغل فترة غيابهم عن دمشق وسادر

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ ،
Gibb, op.cit. p. 31.

(٢) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٤ ب ، ١١٥ أ ، ابن القلانسى ص ١٣٢ ،
Gibb, op.cit. pp. 31 - 32.

بالمسير مع سكمان وضربا الحصار حول دمشق سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م . وشن رضوان وحلفاؤه هجوما قويا على دمشق حتى وصلوا الى سوق الغنم بجوار الاسوار بيد أن دمشق صمدت امام الهجوم رغم غياب عسكرها مع دقاق اذ قاد حركة الدفاع عن دمشق محمد بن الوزير ابى القاسم وشحنة البلد السلار بختيسار . كما انضم الى المدافعين عن دمشق طائفة الاحداث بزعامة رئيسهم وقتذاك امين الدولة ابو محمد بن الصوفى . وقام المدافعون عن دمشق برشق معسكر رضوان بالسهام واحجار المنجنيق . وفى الوقت الذى امر فيه رضوان بوقف الهجوم على دمشق حدث نزاع بين دقاق وحليفه نجم الدين ايلغازي بن ارتق . واعتقل دقاق ايلغازى فخشى سكمان انهيار نفوذ اسرته فى بيت المقدس بعد اعتقال اخيه فسار سكمان الى بيت المقدس وتسلمها من نواب اخيه واقام بها . ورجع ياغى سيان الى انطاكية كما قرر دقاق العودة الى دمشق للدفاع عنها امام اخيه رضوان ، الذى اضحى وحيدا بعد ذهاب سكمان الى بيت المقدس . وتخلى رضوان عن حصار دمشق وانسحب الى منطقة حوران جنوب دمشق ونهبها ثم عاد الى حلب (١) .

وزادت شقة الخلاف والنزاع بين الاخوين رضوان ودقاق للسيادة على بلاد الشام . ففى سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م خرج رضوان من حلب ومعه اتابكه جناح الدولة حسين وفتحا تل باشر وشيخ الدير (٢) ، وهما من املاك ياغى سيان حليف دقاق . كما اغارا على اعمال انطاكية ثم رجعا الى حلب ، وتاهبا من جديد لمنازلة دمشق . وخرج رضوان واتابكه حسين فى اول رمضان سنة

---

(١) الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ورقة ١٣٧ أ - ب ، العينى عقد الجمان ، ج ١١ ورقة ١١٩ أ ، الذهبى ، تاريخ الاسلام ج ٩ ورقة ٤٨ أ - ب ، ابن القلانسى ص ١٣١ - ١٣٢ ، ابن عساكر تاريخ دمشق المجلد ٥ ص ٢٤٧ ابن العديم زبدة الحلب ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) تل باشر قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمالى حلب وشيخ الدير من اعمال حلب انظر ياقوت ، معجم البلدان .

٤٨٩ هـ / اواخر اغسطس ١٠٩٦ م قاصدين دمشق فى محاولة اخرى للاستيلاء عليها . وحينما علم ياغى سيان بخطة رضوان واتابكه بادر على الفور لنجدة دقاق . وقطع ياغى سيان على رضوان طريق العودة الى حلب . واضطر رضوان الى المسير الى بيت المقدس حيث كان يقيم حليفه سكمان ابن ارتق . وقام دقاق وطغتكين وياغى سيان بالتضييق على رضوان وحالوا بينه وبين العودة شمالا الى حلب حتى اشرف جيش رضوان على الهلاك . واخيرا انسحب جناح الدولة حسين من معسكر رضوان وسلك طريقه شرقا ثم قطع الصحراء شمالا وعاد سالما الى حلب . وسار رضوان بجيشه على الطريق نفسه ليتحاشى مواجهة دقاق وحلفائه على طريق حلب . واخيرا توجه دقاق وطغتكين الى حلب ورجع ياغى سيان الى انطاكية (١) .

وعندما عاد رضوان الى حلب لحق به سكمان بن ارتق . واجتمع سكمان بجناح الدولة واتفق معه على مهاجمة املاك ياغى سيان . وارسل رضوان الى سليمان بن ايلغازى حاكم سميساط (٢) طالبا مساعدته فلبى سليمان النداء وقدم الى حلب فى اعداد كبيرة من التركمان . واقنع ياغى سيان دقاق واتابكه طغتكين باتخاذ موقف المبادرة للحيلولة دون قيام رضوان وحلفائه بمهاجمة دمشق مرة اخرى . وخرج دقاق وطغتكين وياغى سيان من دمشق فى اوائل سنة

---

(١) ابن العديم ، بغية الطلب ج٦ ورقة ٨٩ ب ، ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٧٤ أ ، العينى عقد الجمان ج١١ ورقة ١١٩ أ ، ابن العديم زبدة الحلب ج٢ ص١٢٥ ، ابن الاثير الكامل جـ١٠ ص ٢٦٩ ، تاريخ ابى الفدا ج٢ ص ٢٠٩ ، القرمانى ، اخبار الدول واثار الاول ص ٢٧٧ .

(٢) سميساط مدينة على شاطئ الفرات الغربى عند اطراف بلاد الروم . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وهاجموا حماة وعاثوا فى اعمالها ثم ساروا الى كفر طاب وقاتلوها ونهبوها وفرضوا الاتاوة على اهلها ثم استولوا على معرة النعمان التى هرب منها اتباع سكمان وضمها ياغى سيان الى املاكه وفرض عليها فدية كبيرة جزاء طاعتهم سكمان بن ارتق (١) . وحينما علم رضوان بانباء هذا الزحف حشد أعدادا أخرى من الترك والعرب واحداث حلب فضلا عن سكمان بن ارتق وابن اخيه سليمان بن أيلغازى . وخرج بجموعه الى منطقة قنسرين حيث يقيم دقاق مع حلفائه . وتبودلت الرسائل بين الفريقين المتنازعين وتم الاتفاق بينهما على الاجتماع على ضفتى نهر قويق (٢) . ودارت المفاوضات ، والنهر يفصل بينهما ، وفشلت المفاوضات بين الجانبين . واخيرا قام سكمان بتنظيم جيش رضوان وتولى قيادته . ووقعت المعركة يوم الاثنين الخامس من شهر ربيع الاول سنة ٤٩٠ هـ / ٢٥ مارس ١٠٩٧ م وحلت الهزيمة بدقاق واصحابه وغنم رضوان معسكرهم وعاد ياغى سيان الى انطاكية بينما رجع دقاق وطغتكين الى دمشق . وأرسل دقاق الى اخيه رضوان معلنا قبوله باقامة الخطبة له بدمشق . ويبدو أن دقاق لجأ الى هذا الاجراء ليمنع رضوان من مواصلة زحفه على دمشق . ورضى رضوان باقامة الخطبة له بدمشق وعاد الى حلب . (٣)

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ٢ ص ١٢٥ .

(٢) قويق : نهر مدينة حلب ، يخرج من قرية على ستة اميال من دابق ، ثم يمر بمدينة حلب ثم يمتد الى قنسرين ثم يفيض فى اجمة هناك . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) ابن العديم ، بغية الطلب ، جـ ٦ ورقة ٨٩ ب ، العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١١٩ أ ، ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١٧ ب ، ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ جـ ١٣ ورقة ٣٠ أ - ب ، الاصفهانى ، البستان الجامع ورقة ٩٣ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٥ - ١٢٧ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٩ ، الذهبى دول الاسلام جـ٢ ص ١٩ ، الذهبى ، العبر ، جـ٣ ص ٣٢٧ ، ابن الفوطى ، مجمع الاداب فى معجم الالقاب جـ٤ قسم ٣ ص ١٧١ ،
Gibb, op.cit. p. 32.

ولم يستطع رضوان استرداد دمشق وفشل في توطيد نفوذه في شمال الشام كما ان سياسته داخل مدينة حلب اصابها الاضطراب . ويرجع سبب فشل سياسته في حلب الى اسباب كثيرة منها ذلك الدور الذى لعبه بركات بن فارس الفوعى الملقب بالمجن ، رئيس احداث حلب . وظل بركات متوليا رئاسة الاحداث بحلب منذ عهد قسيم الدولة اقسنقر وحتى عهد الملك رضوان . وسعى جاهدا لتجريد رضوان من انصاره المخلصين ، وكان هدفه فرض سيطرته على حلب ؛ ففى سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م -على سبيل المثال - راسل القائد يوسف بن آبق رضوان واعتذر له عما بدر منه وطلب منه السماح له بالدخول الى حلب لتقديم فروض الطاعة والولاء ، فاجابه رضوان الى طلبه . وما ان استقر يوسف بن ابق في حلب حتى نفر منه المجن الفوعى رئيس الاحداث وقام بتدبير مكيدة ضده فاتهمه لدى رضوان وجناح الدولة حسين بانه يراسل ياغى سيان ، مما أثار الشك والريبة فى نفس رضوان واتابكه حسين فاوعزا الى المجن الفوعى بالتخلص منه . وقتل المجن الفوعى يوسف بن آبق ، وتسلم رضوان اقطاع ابن ابق في بحزاعا ومنبج ، كما استرد رضوان اقطاع شقيق يوسف ابن ابق واتباعهما فهربوا من حلب .(١)

وبعد أن تخلص المجن الفوعى من يوسف بن آبق تمكن من اثارة الريبة والنفور بين رضوان واتابكه حسين . واجتمع المجن بجناح الدولة حسين ، واوهمه ان رضوان امره بقتله وزعم لجناح الدولة ان صداقته منعته من تنفيذ امر رضوان واعطاه مهلة للهرب وخرج جناح الدولة من حلب سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م قاصدا حمص ، وكانت اقطاعه من قبل تتش والد رضوان ، واصبح

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٤ .

المجن الفوعي هو المسيطر على امور حلب. وعندما شعر رضوان بحرج موقفه طلب من المجن مغادرة حلب فاعلن المجن العصيان على رضوان وحاصره في القلعة فامر رضوان بالمناداة بعزل المجن الفوعي من رئاسة الاحداث ، وتولية صاعد بن بديع مكانه ، وكان ابن بديع محبوبا لدى طائفة الاحداث ، فتفرقوا عن المجن الفوعي . وقبض عليه رضوان وصادر امواله وقتله سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧م.(١)

أخذت العلاقات تتحسن بين رضوان وياغي سيان لا سيما وان ياغي سيان كان يتوق لمساندة رضوان منذ بدأ الاخير حكم حلب . على ان الكراهية الشخصية المتبادلة بين ياغي سيان وجناح الدولة حسين حالت دون تحقيق ياغي سيان لهدفه . ولما وقعت الوحشة بين رضوان واتابكه جناح الدولة والتى افضت الى هرب جناح الدولة واستقلاله بحمص اهتبل ياغي سيان هذه الفرصة وقدم الى حلب سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م واعتذر لرضوان وانحى باللائمة في مواقفه السابقة على جناح الدولة . وخدم ياغي سيان رضوان وزوجه ابنته خاتون جنجك ، وجعل نفسه اتابكا لرضوان بدلا من جناح الدولة حسين(٢) .

وعندما خرج جناح الدولة الى حمص ، شرع رضوان في اعداد نفسه من جديد لقتاله ، وكذلك لقتال دقاق في دمشق . وفي الوقت نفسه وصله رسول الوزير الافضل بن بدر الجمالي من مصر يدعوه الى طاعة الخليفة المستعلي

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٣٨ - ١٤١ ، ابن القلانسي ص ١٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، تاريخ العظيمي حوادث سنة ٤٩٠ هـ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣١٤.

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ ٦ ورقة ٩٠ أ ، العيني ، عقد الجمان ، جـ ١١ ص ١٢٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٧ ، ابن القلانسي ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٠ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣١٥ - ٣١٦.

الفاطمي ، واقامة الدعوة له . ووعد الوزير الافضل رضوان بان يمده بالعساكر والاموال لمعاونته على استعادة دمشق . واغتنم رضوان الفرصة واقترح أن يجري القيام بهجوم مشترك على دمشق وحمص مقابل الاعتراف بالسيادة الروحية للخليفة الفاطمي . غير ان هذا المشروع لم ينفذ اذ قدم الى حلب ياغي سيان وسكمان بن ارتق وانكرا على رضوان الانتماء الى الخلافة الفاطمية بسبب العداء المذهبي بين السلاجقة والفاطميين . فاعاد رضوان الخطبة العباسية بعد ان استمرت الدعوة للخليفة الفاطمي على منابر حلب واعمالها نحو شهر . (١)

جرت هذه الحوادث في الوقت الذي احرز فيه الصليبيون انتصارات متتالية في آسيا الصغرى على السلاجقة . ولم يعبأ رضوان بذلك بل ظل أمل الاستيلاء على دمشق هو المسيطر على تفكيره . ففي سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧ م تقدم رضوان وياغي سيان وسكمان بن ارتق نحو شيزر لاتخاذها مركزا لمهاجمة حمص ودمشق واقاموا بشيزر مدة شهر . فتواصلت الاخبار بوصول الصليبيين الى الحدود الشمالية لبلاد الشام ، فأثار ذلك الفزع والاضطراب بين رضوان وحلفائه . وعدلوا عن المضي الى حمص ودمشق . غير انهم بدلا من الابقاء على وحدة جيوشهم وتماسكها وتناسي الخلافات الشخصية أمام العدو

---

(١) ابن شاكر الكتبي ، عيون التواريخ ج ٣ ورقة ١٣٠ أ - ب ، العيني ، عقد الجمان ج ١١ ورقة ١١٩ أ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٢٧٠ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، ج ٢ ص ٣٨ ، اليافعي ، مرآة الجنان ج ٣ ص ١٥٢ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٨ ، العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٤٢ - ٤٣ .

الصليبي المشترك تفرقوا ، فسار رضوان عائدا الى حلب بينما توجه ياغي سيان الى انطاكية للدفاع عنها ، اما سكمان بن ارتق فقد وجه كل طاقاته للاستيلاء على ديار بكر التى استقل بها حكامها . وترك الجميع ياغي سيان بمفرده امام الصليبيين . بل واكثر من ذلك حاول سكمان اقناع رضوان وياغي سيان ان يصحباه الى الجزيرة و ألا يحفلا بأمر الصليبيين ، وصار لزاما على ياغي سيان ان يواجه اولى ضربات الجيوش الصليبية بمن بقى معه من الجند ، وان يتحمل بمفرده حصار الصليبيين لانطاكية ، وانتظار معونة دقاق وطغتكين وجناح الدولة حسين وكربوقا وزعماء التركمان وغيرهم من امراء الشرق وملوكه .(١)

وهكذا ادى التنافس والنزاع بين الاخوين رضوان ودقاق الى انهيار النفوذ السلجوقي في بلاد الشام .

- تنازع القادة العسكريين السلاجقة فى بلاد الشام ونتائجه (٤٨٨-٤٩١ هـ)

واذا كانت سياسة رضوان ودقاق قد ساهمت فى انهيار النفوذ السلجوقي فى بلاد الشام ، فقد أدى تنازع القادة العسكريين السلاجقة الى القضاء على هذا النفوذ .

ومنذ وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢م بدأ ضعف الشيخوخة يدب فى اوصال السلطنة السلجوقية ، بسبب أطماع القادة وتنافسهم فى جهات عديدة من الدولة السلجوقية . وساد الاضطراب ارجاء السلطنة

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ ، ابن القلانسي ص ١٣٣ - ١٣٤ ، الباز العريني ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٤٣ ، Gibb, op.cit. pp. 23 - 24 .

ونشبت الحروب الداخلية وكانت بلاد الشام اكثر الجهات قلقا واضطرابا . وخير دليل على ذلك ما واجهه تتش من تمرد الولاة بشمال الشام ، عقب وفاة ملكشاه وعلى الرغم من ان تتش نجح فى اخماد الفتنة فان روح التمرد لم تلبث ان أطلت برأسها من جديد فى بلاد الشام عقب وفاته مباشرة (١) . ولم يحظ أبنا تتش رضوان ودقاق بالقدر اللازم من الكفاءة السياسية وقوة الشخصية ، الامر الذى جعلهما عاجزين عن فرض سيادتهما على بلاد الشام وكبح جماح أمراء السلاجقة .

وكان اقوى الامراء السلاجقة فى بلاد الشام عقب مصرع تاج الدولة تتش هو ياغى سيان الذى اقطعه السلطان ملكشاه انطاكية منذ سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م. وامتدت املاك ياغى سيان بعد موت تتش الى منبج وتل باشر والمعرة فى شمال الشام (٢) . وقد عمل ياغى سيان شانه فى ذلك شأن قادة تتش ببلاد الشام على اذكاء نار النزاع والفرقة بين الاخوين رضوان ودقاق ، لتصبح بلاد الشام نهبا للفوضى والانقسام . فقد خشى القادة السلاجقة استمرار المملكة السلجوقية الموحدة التى اقامها تتش فى بلاد الشام والجزيرة لان فى تداعى هذه المملكة وانهيارها الضمان الوحيد لبقاء اماراتهم وتحقيق اطماعهم . ومن امثلة ذلك مافعله ياغى سيان عندما بلغه وصول دقاق الى دمشق سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م فارسل اليه مشيرا بالانفراد بدمشق والاستقلال بحكمها عن اخيه رضوان ، وما فعله ياغى سيان ايضا وغيره من الزعماء بالانضمام تارة الى رضوان واخرى الى دقاق حسب ما تمليه مصالحهم الشخصية (٣) .

---

(١) Gibb, op.cit. pp.23 - 24.

(٢) Ibid., p. 24.

(٣) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٤٨ ، انظر ماسبق الفصل الرابع ص ٢٧٤- ٢٨٢ .

وظهر فى بلاد الشام والجزيرة جماعة من القادة الترك لم يكن لهم امارات خاصة بهم قبيل وفاة السلطان ملكشاه الا انهم تمكنوا بعد موته سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م من استغلال الاضطراب الذى ساد بلاد الشام والجزيرة فاسسوا لهم امارات مستقلة . ومن أشهر هؤلاء القادة قوام الدولة أبوسعيد كربوقا بن عبد الله الجلالى . وفى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م قام تتش بأسر كربوقا اثناء المعركة التى قتل فيها اقسنقر ، واعتقله فى قلعة حمص. ولما قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وملك ابنه رضوان حلب ارسل السلطان بركياروق الى رضوان سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م يامره باطلاق سراح كربوقا وسراح أخيه التونتاش . وما ان اطلق رضوان سراح كربوقا حتى سعى هذا القائد فى تاسيس امارة خاصة به . فسار سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م بصحبة أخيه التونتاش بعد ان تمكنا من حشد جيش كبير ، وقصدا حران وتسلماها ، وراسلهما محمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش طالبا مساعدتهما ضد أخيه على بن مسلم ، الذى استخلفه تتش على الموصل بعد معركة المضيع[1] . وسار كربوقا وانضم اليه محمد بن مسلم العقيلى عند نصيبين . بيد ان كربوقا اعتقله وحاصر نصيبين اربعين يوما وتسلمها ثم توجه نحو الموصل وحاصرها دون جدوى . وسار بعد ذلك الى مدينة بلد فى شمال الموصل واستولى عليها وقتل كربوقا محمد بن مسلم بن قريش . وعاد كربوقا مرة اخرى لحصار الموصل فاستنجد على بن مسلم بالامير جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر ، فهب جكرمش لنجدة الامير العقيلى . غير ان التونتاش اعترض طريق جكرمش وسحق قواته ، فاضطر الاخير الى الدخول فى طاعة كربوقا ، وساعدته على حصار الموصل . واستمر حصارها تسعة اشهر حتى ندرت بها المؤن والاقوات فهرب على بن مسلم

---

(١) عن معركة المضيع انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٨٧ .

الى الامير العربى صدقة بن مزيد امير بنى أسد ، وتبع ذلك سقوط الموصل بيد كربوقا فى ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ / نوفمبر ١٠٩٦م [١].

وكمادة العلاقات بين القادة السلاجقة دب الخلاف بين كربوقا وبين اخيه التونتاش بسبب سياسة الاخير القاسية ازاء سكان الموصل وتطاوله على أخيه . فأمر كربوقا بقتله واحسن الى أهل الموصل . ثم سار كربوقا الى الرحبة على نهر الفرات وضمها الى مملكته الجديدة واخذ يتطلع لبسط سلطانه على بقية انحاء الجزيرة ومن اجل ذلك دخل فى نزاع خطير مع سكمان بن أرتق . [٢]

وساعد تدفق التركمان على بلاد الشام والجزيرة على ازدياد تنازع القادة العسكريين . والمعروف ان هؤلاء التركمان اشتهروا بتربية الخيل والسلب وحب المغامرة فكانوا بذلك مصدرا دائما للازعاج والقلق . وزاد من خطورتهم ما اشتهر به زعماؤهم من الطيش والتهور وشدة القلق والمطامع السياسية . ومن اشهر زعماء التركمان ارتق بن اكسب الذى ظهرت مطامحه ابان عهد السلطان ملكشاه لدرجة انه تامر ضد السلطان ملكشاه وحالف مسلم بن قريش ، وحاول تحويل ولاء جماعات التركمان الى الخلافة الفاطمية [٣] . غير ان قوة ونفوذ ملكشاه وتتش ساهمت الى حد كبير فى الحد من مطامع زعماء التركمان فترة من الزمن ،

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ١٦ ورقة ١١٦ ب ، العينى عقد الجمان ، جـ١١ ورقة ١١٧ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٥٨ ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ص١١٠ ، ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربى العدد الخامس ص ٩٨ .

(٢) ابن فضل الله العمرى مسالك الابصار جـ١٦ ورقة ١١٦ ب ، العينى ، عقد الجمان ورقة جـ١١ ورقة ١١٧ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٥٨ ، ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ - ١٦ ، تاريخ أبى الفدا ، جـ٢ ص ٢٠٨ ، تاريخ ابن خلدون جـ٥ ص ٣٤ - ٣٥ ، الذهبى ، العبر جـ٣ ص ٣٢٤ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ٧٦ أ .

ودخل كثير منهم فى خدمة الجيوش السلجوقية .

على أن ما اصاب الدولة السلجوقية من ضعف وتمزق بعد وفاة ملكشاه ، هيأ القادة التركمان الفرصة لتحقيق أطماعهم . فلم يمض ثلاث سنوات من وفاة ملكشاه حتى نجح كثير منهم فى اقامة امارات مستقلة . ومن أشهر هؤلاء الزعماء التركمان ايلغازى وسكمان ابنى القائد التركمانى ارتق بن اكسب . وكان ارتق قد انضوى تحت لواء تتش وكافأه على خدماته واقطعه بيت المقدس(١) . وعندما توفى ارتق سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م خلفه على اقطاعه ابنه ايلغازى ، بينما تفرق اخوته فى سائر الجهات يلتمسون ارزاقهم وحظوظهم ، فاستولى سكمان على سروج ثم انحاز الى رضوان فاقطعه معرة النعمان . اما سليمان ابن ايلغاز فقد تمكن هو الاخر من اقامة امارة مستقلة فى سميساط . ولما انتزع الفاطميون بيت المقدس من بنى ارتق سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م اتجه بنو ارتق جميعا الى الجزيرة فحاول سكمان الاستيلاء على الرها ، ولما اخفق أنشأ امارة فى حصن كيفا . واستقرت اسرة ارتقية اخرى فى ماردين بزعامة ايلغازى بن ارتق واقام افراد اخرون من بيت ارتق امارات بمنطقة الجزيرة لم تستمر زمنا طويلا (٢) .

واستقر فى ميافارقين امير تركمانى اسمه التاش كان نائبا لدقاق بها . واتبع التاش فى ميافارقين سياسة بالغة القسوة ، الامر الذى دفع كثيرا من السكان الى الهرب منها ، لما عانوه من شدته واستبداده (٣) . كما خرج على

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ١ ص ١٩١ ،

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ابن خلكان جـ١ ص ١٩١ ، ابو الفدا ، المختصر ، جـ٢ ص ٢٠٦ ، ابن ايبك الداوادارى الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية ص ٤٢٨ ، حصن كيفا بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين امد وجزيرة ابن عمر وديار بكر . وماردين : قلعة على قنة جبل الجزيرة كان لها ربض عظيم به اسواق وخانات . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) تاريخ الفارقى ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

طاعة دقاق سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م زعيم تركمانى آخر اسمه اينال ، فاستولى على آمد واقام بها اسرة حاكمة لم تلبث ان ارتبطت بصلة المصاهرة مع الارتقة فى ماردين (١) . كما استقل فى سنجار أحد الزعماء الركمان ويدعى أرسلان تاش . (٢)

وبالاضافة الى اولئك الامراء الترك الذين انشأوا لهم امارات خاصة ، فقد وجد الكثير من القادة السلاجقة والتركمان فى بلاد الشام والجزيرة ، امثال يوسف بن آبق وسا وتكين ، الخادم ، وآبق بن عبد الرزاق ، وابو القاسم الخوارزمى ، وقسراجه وغيرهم . (٣) وعلى الرغم من انهم اخفقوا فى تاسيس امارات خاصة بهم فانه كان لاطماعهم وتقلباتهم السياسية اثر بالغ فى زيادة الفوضى السياسية الضاربة اطنابها فى بلاد الشام عشية الحملة الصليبية الاولى .

ومما أدى الى ظاهرة تنازع القادة العسكريين السلاجقة ظهور نظام الاتابكيات . واتابك لقب يتكون من لفظين ، اتا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير . ولما كانت نظرية السلاجقة فى الحكم ترتكز على ان يتولى افراد من الاسرة السلجوقية حكم الاقاليم ، فقد ارتبط بكل فرد من هؤلاء الامراء السلاجقة قائد تركى يحمل لقب اتابك ، أى الامير الوالد ، الذى يعتبر مسئولا عن تربية ابن الامير وتلقينه اصول الادارة والحكم . ودرج امراء السلاجقة على تزويج الاتابك من احدى مطلقاتهم ، أو قيام الاتابك نفسه بالزواج من والدة الامير

---

(١) تاريخ الفارقى ص ٢٣٩ ، Gibb, op.cit. p.27.

(٢) العينى ، عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١٢١ أ - ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) انظر ما سبق ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ .

الصغير عقب وفاة والده ، ويتزوج الامير بدوره من ابنة الاتابك ،وبالتالى أصبحت العلاقة بينهما شبه أبوية . واضحى للاتابك من السلطان والنفوذ ماجعله اكثر من قائد عسكرى . واول من تلقب بهذا اللقب هوالوزير السلجوقى نظام الملك حين فوض اليه السلطان ملكشاه تدبير شئون دولته . (١)

ووفقا لما جرى من تطبيق النظم السلجوقية ، فقد جعل تتش قائده جناح الدولة حسين بن ايتكين اتابكا لابنه رضوان وأقطعه حمص ووكل اليه تدبير شئون رضوان . فلما قتل تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م لعب جناح الدولة دورا هاما فى وصول رضوان الى سدة الحكم بحلب ، وقام بادارة مملكة الامير السلجوقى ابن تتش . على انه سرعان ماوقعت الوحشة بين رضوان واتابكه حسين بسعاية رئيس احداث حلب المجن الفوعى ،كما سبقت الاشارة اليه .

وانفصل جناح الدولة عن رضوان بمن معه من الجند ، وغادر حلب بصحبة زوجته ام رضوان . ودخل جناح الدولة الى حمص سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م وتسلمها من نائبه بها وشرع فى تحصينها استعدادا لمواجهة رضوان . وحاول رضوان استعادة حمص فخرج اليها فى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م غير ان جناح الدولة باغته عند بلدة سرمين من اعمال حلب ، وهزمه واسر معظم أتباعه . وبالتالى قامت امارة جديدة فى حمص لتضيف المزيد من اسباب التداعى والانهيار الذى اصاب بلاد الشام قبيل وصول الفرنج . (٢)

---

(١) ابن خلكان جـ١ ص ٣٦٥ ،القلقشندى صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٨ ، حسن الباشا ،الالقاب الاسلامية ص ١٢٢ - ١٢٣ ، الباز العرينى ،الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢٠ - ٢١ ،كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص ٢٤٢ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ ، Dozy, Supplement aux Dictionnaires Arabes, Vol. I p.8.; Gibb, op.cit. pp.24-25.

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب جـ٤ ورقة ١٩٧ ب - ١٩٨ أ - ب ، ابن القلانسى ص ١٣٣ ، ابن العديم ،زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٢٧ .

أما دقاق الابن الثانى لتاج الدولة تتش ،فكان أتابكه ظهيرالدين طغتكين . وكان طغتكين فى بداية أمره غلاما لتاج الدولة تتش ، فأعتقه وأضحى من كبار قادة العسكريين . وحظى طغتكين بقسط وافر من التقدير لدى تتش ،حتى أسند اليه منصب الاسفهسلارية على عسكره ، ثم أسند اليه ولاية دمشق خلال حروبه فى بلاد الشام وغيرها ، وسلمه ابنه دقاق ، وعهد اليه بتربيته وكفالته . وقام طغتكين أثناء ذلك بادارة شئون دمشق بكفاية عالية . وأخيرا عينه تتش واليا على ميا فارقين وديار بكر. فقام طغتكين بواجباته خير قيام ، وعمل على توطيد الامن والنظام فى ميافارقين وديا ربكر . وعندما سار تتش الى الرى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م لمنازعة بركياروق عرش السلطنة السلجوقية ،صحبه طغتكين ووقع اسيرا فى يد السلطان بركياروق ، ثم أطلق سراحه سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م . وعاد طغتكين الى دمشق ،وتقلد منصب الاسفهسلارية على جيش دقاق . وتزوج صفوة الملك والدة دقاق ، ليصبح أتابكا له طبقا للتقليد السلجوقى ،وقام بادارة مملكة دقاق . وعندما توفى دقاق سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤م تخلص طغتكين من بقايا اسرة تتش ، واقام أسرة حاكمة جديدة على انقاض ممتلكات السلاجقة . (١)

ومن العوامل التى اسهمت فى تمزق بلاد الشام قبيل وصول الصليبيين انتشار البطالة العسكرية فى بلاد الشام والجزيرة . اذ يشير عدد من المؤرخين الى وجود طائفة كبيرة من الجند المحترفين عرفت باسم" العساكر البطالين " استخدموا من قبل القادة السلاجقة فى بلاد الشام والجزيرة

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٧٣ ب ،١٧٤ أ ، الصفدى ، تحفة ذوى الالباب ورقة ١٣٨ أ ، ابن القلانسى ص ١٣٠ - ١٣١ ، ١٤٤ - ١٤٥ ،ابن خلكان ،وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ؛ القرمانى ، اخبار الدول ص ٢٨١ .

لتحقيق اطماعهم فى انشاء امارات خاصة بهم . ومن امثلة ذلك مافعله كربوقا عندما اطلق سراحه من قلعة حمص واستطاع ان يحشد جيشا كبيرا من العساكر البطالين تمكن به من الاستيلاء على الموصل ، وبسط نفوذه على بعض مناطق الجزيرة واجزاء من شمال الشام. (١) ولم يرد فى المصادر والمراجع مايشير الى نشأة جماعات البطالين ، على أنه يمكن استنتاج ذلك من الحوادث التى شهدتها بلاد الشام والجزيرة ، وعلى راس تلك الحوادث تدفق طوائف التركمان على الشام والجزيرة . وقد سبق الحديث عن بعض تلك الجماعات وزعمائها (٢) . وقد اختفى الكثير من زعماء تلك الطوائف عن الحياة السياسية فى بلاد الشام لاسباب مختلفة ، مما ادى الى تفرق اتباعهم فى بلاد الشام والجزيرة . ويضاف الى ذلك ما نجم عن سقوط الامارات العربية وغيرها فى بلاد الشام والجزيرة امام الزحف السلجوقى، مثل الامارة المرداسية والنميرية والعقيلية والمروانية وامارة بنى قشير فى قلعة جعبر . وبالتالى فان الكثير من جنود هذه الامارات الذين احترفوا الجندية باتوا بغير عمل ، واخذوا يعملون كجنود مرتزقة للحصول على الرزق لدى القادة والزعماء ذوى الطموح السياسى . ويمكن ان نضيف الى هؤلاء ايضا بعض الافراد من جماعات الاحداث داخل مدن الشام الذين ارتكبوا بعض الجرائم داخل مدنهم ، او شاركوا فى حركات العصيان والتمرد على الحكام واصبحوا مطاردين من قبل السلطات الحاكمة لذلك انخرطوا ضمن جماعات البطالين والمرتزقة . ونظرا

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، جـ ١٦ ورقة ١١٦ ب ، العينى عقد الجمان جـ ١١ ورقة ١١٧ ب ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٥ - ١٦ ، ابوالفدا ، المختصر، جـ ٢ ص ٢٠٨ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٥ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) انظر ماسبق - الفصل الاول ص ٨٤ - ٩٣ والفصل الثانى ص ١٢٧ - ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ - ١٤٦ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ .

لان بلاد الشام لم تحظ خلال الفترة السابقة لوصول الفرنج بزعيم كفء يأخذ على عاتقه حشد تلك الطاقات البشرية وتوحيد القوى الاسلامية ، وبث روح الجهاد فيها فى سبيل توحيد بلاد الشام وتماسكها للوقوف امام الغزاة الصليبيين ، فان العساكر البطالين اصبحوا مدعاة للقلق والاضطراب السياسى وقد مرا خدماتهم العسكرية لمن يدفع لهم الثمن من القادة والزعماء العسكريين ، الذين اصبح لا هم لهم سوى انشاء امارات خاصة بهم والدخول فى منازعات لا تنتهى .

وتجدر الاشارة هنا الى ان الانقسام والتفكك والانهيار الذى اصاب دولة السلاجقة فى الشام كان مظهرا من مظاهر ما اصاب بلاد الدولة السلجوقية فى الشرق . فقد واجه السلطان بركياروق الكثير من حركات التمرد والعصيان ، وانتشرت موجات عارمة من الفتن فى معظم ارجاء دولته . (١) ولعل ما واجهه بركياروق من مشكلات سياسية وغيرها داخل بقايا مملكته يفسر لنا الموقف السلبى الذى وقفه ازاء غزو الصليبيين لبلاد الشام .

وخلاصة القول انه اذا كان السلاجقة قد اثبتوا فى وقت من الاوقات انهم سيوف الاسلام والذائدون عنه ، فان هذه القوة لم تلبث ان انفلت وتفتتت عند فجر الحروب الصليبية مما كان له اكبر الاثر فى نجاح الحملة الصليبية الاولى .(٢)

---

(١) لتفصيل ذلك انظر ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١ الصفحات ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ - ٢٦٨ ، ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٨٧ - ٢٩٠ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١١١ .

ـ انهيار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام :

وواكب تنازع القوى السلجوقية فى بلاد الشام انهيار النفوذ الفاطمى بالشام . فقد تعرضت الخلافة الفاطمية للضعف والتدهور مما جعلها عاجزة عن الاحتفاظ بنفوذها فى بلاد الشام . والمتأمل فى تاريخ الدولة الفاطمية يستطيع أن يلمس ما اصابها من ضعف خلال عهد الخليفة المستنصر ، نتيجة الازمات الاقتصادية وخاصة الشدة المستنصرية واضطراب جهاز الحكم وتمرد الجند (١) .

وأدرك الوزير الفاطمى بدر الجمالى بعد فشل محاولاته فى استرداد دمشق انه من الافضل ان يتجنب الدخول فى منازعات مع السلاجقة على المناطق الداخلية من بلاد الشام . (٢) وانصرف الى اعادة تنظيم الدولة الفاطمية فى مصر من الناحيتين الادارية والحربية . وحاول بدر الجمالى المحافظة على القواعد الفاطمية فى عكا وصور وغيرها ، وعلى سبيل المثال فانه ارسل سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م القائد منير الدولة الجيوشى على راس حملة بحرية تمكنت من استعادة صور وبعض مدن الساحل الشامى حتى جبيل (٣) . على ان هذه المحاولة حملت فى طياتها كل دلائل الضعف اذ قام الوالى الفاطمى الذى اعاد تلك المدن الساحلية الى حظيرة الدولة الفاطمية وهو منير الدولة الجيوشى باعلان التمرد على بدر الجمالى فى صور سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م . ويبدو ان منير الدولة اراد الافادة من انحسار النفوذ الفاطمى عن بلاد الشام ،

---

(١) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية فى بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ١٦٥ - ١٦٧ : انظر ايضا ، نظير سعداوى ، الحرب والسلام ص ٧ - ٩ .

(٢) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٥١ ، ١٥٨ .

(٣) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٨٠ - ١٨١ .

والاستقلال بصور وتكوين اسرة حاكمة على غرار تلك التى اقامها القاضى ابن ابوعقيل فى صور (٤٥٥ - ٤٨٢هـ) . وعند ما سمع بدر الجمالى بنبأ عصيان منير الدولة ، جهز حملة بحرية سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م بقيادة ابنه الافضل ، استرد بها صور وقبض على منير الدولة وجميع انصاره ، وارسلهم الى مصر حيث تم قتلهم . وقام الافضل بنهب مدينة صور وفرض على سكانها مبلغا كبيرا من المال مما كان له أسوأ الأثر فى نفوس أهل صور . واثناء عودة الافضل بجيشه الى مصر ، تمكن من استرداد مدينة يافا من اتباع تاج الدولة تتش[1] .

على أن الفتنة فى صور سرعان ما اطلت برأسها من جديد سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م حينما عصى والى صور الفاطمى ، ويدعى الكتيلة ، فارسل الافضل بن بدر الجمالى حملة بحرية حاصرت صور حتى اقتحمتها ونهبت اموالها وقتلت اعدادا كبيرة من سكانها . وتم القبض على الوالى الكتيلة ، وارسل الى مصر حيث جرى قتله[2] . ومن الملاحظ ان صور خلال العصر الفاطمى نزعت

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ١٣ B ورقة ١٠٥ أ ، الدواداري ، درر التيجان ، ورقة ١٦٦ أ ، ابن القلانسى ص ١٢٤ - ١٢٥ ، العظيمى حوادث سنة ٤٨٦ هـ ، ابن الاثير الكامل جـ١٠ ص ٢٢٣ ، ابن ميسر ، اخبار مصر جـ٢ ص ٢٩ ، ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، جـ ٣ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ١٦٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٢٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية جـ١٢ ص ١٤٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٣ B ورقة ١١٨ أ ، ابن القلانسى ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل جـ١٠ ص ٢٦٤ ، اخبار مصر جـ ٢ ص ٣٨ ، ابن شداد الاعلاق الخطيرة جـ ١٦٦ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا جـ٥ ص ١٥٩ ، ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٩ .

دائما الى الخروج عن سلطان الدولة الفاطمية ؛ وليس ادل على ذلك من قيام امارة ابن ابى عقيل فى صور فيما بين سنتى ٤٥٥ - ٤٨٢ ، ولعل ما شهده اهل صور من الثراء اثناء حكم ابن ابى عقيل جعلهم يميلون الى الخروج عن طاعة الدولة الفاطمية بغية الاحتفاظ بموارد مدينتهم التجارية .

وتجدر الاشارة الى ان الخلافة الفاطمية لم تتحرك فى بداية الامر لمجابهة الحملة الصليبية عند وصول الصليبيين الى شمال الشام سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م . ويبدو ان عدم ادراك الوزير الفاطمى الافضل لهدف الصليبيين هو الذى دفعه الى التفكير فى اقامة تحالف بينه وبين زعماء الحملة الصليبية ضد السلاجقة فى بلاد الشام ، بحيث تكون انطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين . وربما استند الوزير فى رايه هذا الى بعض السوابق التاريخية لان الدولة البيزنطية ايام صحوتها فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، لم تتعد املاكها فى بلاد الشام مدينة انطاكية فظن الافضل ان اولئك الصليبيين انما جاءوا ليفعلوا فى بلاد الشام مثلما فعل الامبراطور نقفور فوقاس والامبراطور حنا الشمشقيق فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . فيقال ان الافضل ارسل سفارته الى الصليبيين وصلتهم وهم امام انطاكية حاملة عرضا خلاصته ان يتعاون الطرفان فى القضاء على السلاجقة فى بلاد الشام على ان تقسم الغنيمة بينهما بحيث يكون القسم الشمالى من الشام للصليبيين فى حين يحتفظ الفاطميون بفلسطين .(١)

واشار المؤرخ الصليبى المعاصر للحملة الصليبية ، مؤلف كتاب اعمال الفرنجة الى تلك السفارة التى بعث بها الفاطميون الى زعماء الحملة الصليبية

---

(١) سعيد عاشور ، شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ١٧٠ - ١٧١ ، انظر ايضا : احمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ص ٩٣ .

بيد انه لم يشرح طبيعة تلك السفارة ، وما هو الغرض الذى حملته الى زعماء الصليبيين ، الامر الذى يجعلنا نشك فى ان الافضل اراد التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين السلاجقة ولا سيما أن السلاجقة بعد تفككهم لم يعودوا يشكلون اى خطر على الدولة الفاطمية . وربما كانت تلك السفارة التى بعث بها الافضل يهدف من ورائها الى معرفة نوايا الصليبيين فقط (١) .

وعندما انهار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام راى الوزير الافضل الافادة من الحرب الناشبة فى شمال الشام بين الصليبيين والسلاجقة لتحقيق هدفه فى استرداد بيت المقدس من الاراتقة . فسار فى سنة (٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م) على راس جيش كبير لحصار بيت المقدس . وكان فى مدينة القدس انذاك سكمان ابن ارتق وايلغازى بن ارتق وكثير من اتباعهما . وعندما تقدم الافضل بجيشه الى فلسطين حاصر بيت المقدس ، ونصب عليها اكثر من اربعين منجنيقا ، حتى تهدمت مواضع من الاسوار ، ووقع القتال بين الجانبين . ولما كان الاراتقة لا يأملون فى اية معونة من قبل قوى السلاجقة الممزقة فى بلاد الشام ، فقد اذعنوا للصلح وسلموا المدينة للافضل فى شعبان سنة (٤٩١ هـ / اغسطس ١٠٩٨) . واحسن الافضل الى بنى ارتق واتباعهم وسمح لهم بمغادرة بيت المقدس فى امان . وقام الافضل بتنظيم امور بيت المقدس واعاد عمارة ما تهدم من اسواره واستحكاماته . وعهد بولاية بيت المقدس الى رجل يدعى افتخار الدولة ، وعاد الافضل الى مصر . ولم يبق بيت المقدس بيد الفاطميين سوى عام واحد ،

---

(١) انظر كتاب ، اعمال الفرنجة لمؤلف مجهول . ترجمة حسن حبشى ، ص ٥٩ ، ٦٣ .

حيث سقط أمام جيوش الصليبيين .(١)

وهكذا مهد الخلاف المذهبى والعداء السياسى بين الفاطميين والسلاجقة الطريق أمام الصليبيين للمضى قدما فى حملتهم على بلاد الشام دون ان يواجهوا مقاومة فعالة .

- دور الاقليات الدينية والعرقية فى انقسام وتمزق بلاد الشام :

وبالاضافة الى التمزق السياسى الذى خيم على بلاد الشام قبيل وصول الفرنج ، فقد شهدت مدن الشام وقراه كثيرا من الانقسامات اللغوية والمذهبية والعرقية . فمن الناحية اللغوية كانت اللغة العربية هى السائدة بين المسلمين من غير الاتراك والمسيحيين اليعقوبيين واليونانيين . وظلت اللغة العربية مستعملة فى انطاكية واللاذقية على الرغم من الصفة اليونانية التى تغلب عليهما . اما اللغة الارمنية فقد كانت منتشرة بين الأرمن دون غيرهم . بينما سادت اللغة التركية بين التركمان الذين استقروا فى آسيا الصغرى والجزيرة وشمال الشام .(٢)

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار جـ ١٦ ورقة ١١٧ أ ، ابن القلانسى ص ١٣٥ ، الازدى ، اخبار الدول المنقطعة ، قسم الفاطميين ص ٨٢ - ٨٣ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٨٢ - ٢٨٤ ، ابن ميسر ، اخبار مصر ، جـ٢ ص ٣٨ ، ابن الصيرفى ، الاشارة الى من نال الوزارة ، ص ٦٠ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ص ٩٧ ، المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ ٣ ص ٢٢ .

(٢) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، ص ٢٩ ، Cahen, La Syrie du Nord al'Epoque des Croisades, p.189.

أما الاقليات المذهبية التي لعبت دورا هاما في تفكك بلاد الشام قبيل الحملة الصليبية فانها تظهر في الجهات الجبلية من بلاد الشام. ذلك ان سلسلة جبال لبنان والمعروفة عند العرب بجبل السماق، كانت موطن المارونيين المسيحيين ومأوى المتمردين والمنشقين، حيث قاموا بها من النظم التي بلغت من القوة ما جعلها تتحدى كل ماعند الامراء المسلمين من جيوش وقوات. فخلال القرن السابق للحملة الصليبية الاولى تمكنت نحلتان متطرفتان من اتخاذ تلك المعاقل موطنا ومستقرا لها. والنحلة الاولى تتمثل في الدروز وهم فئة نشأت في اعقاب اختفاء الخليفة الفاطمي الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م وتدين بالوهيته. وتنتمي هذه النحلة الى مؤسسها محمد بن اسماعيل الدرزي. واستقر اصحاب هذا المذهب بين السكان النازيين بالمرتفعات جنوب لبنان، وانتشروا في الجهات الواقعة على الهضبة بين نهر العاصي وحلب والمعروفة بجبل السماق. (١)

أما النحلة الثانية فهي المعروفة بالنصيرية التي وطدت نفوذها بين العشائر اليمنية في المناطق الجبلية الواقعة جنوب أنطاكية. والنصيرية طائفة من غلاة الشيعة يبدو انها تنتسب الى محمد بن نصير الكوفي الذي عاش في اواخر القرن الثالث الهجري. ومذهب هذه الطائفة لا يعرف عنه الا القليل، نظرا لان اصحابه لا يظهرونه للناس وتعاليمه مقصورة على افراد الطائفة نفسها. وماعرف عن مذهب النصيرية يتلخص في انهم يؤلهون علي ابن ابي طالب رضي الله عنه، ويعتبرونه اخر مراحل التجسد الالهي، واضفوا

---

(١) العريني، الشرق الاوسط ص ٢٦، Gibb, op.cit. pp.28-29.
انظر ماسبق، ص ١٩٦ حاشية رقم (٤).

عليه الكثير من الصفات الالهية . كما يرون فى عبد الرحمن بن ملجم ، قاتل على ، افضل الخلق لانه - حسب زعمهم - خلص روح اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره . ويظهر ان مذهب النصيرية يمثل خليطا من اراء شيعية متطرفة ، نبتت فى أصل وثنى ثم تبنوا بعض الظواهر المسيحية السطحية ، فمثلا يحتفلون جماعيا لأداء بعض شعائرهم بما يشبه القداس عند النصارى ، كما يستخدمون بعض الاسماء الشائعة عند المسيحيين . (١)

وفيما بين مواطن النصيرية فى الشمال والدروز فى الجنوب انتشرت طائفة المارونيين المسيحيين وينتسب المارونيون الى القديس مارون الذى لا يعرف عنه الا القليل وتوفى سنة ٤١٠ م . وقد بقيت الطائفة المارونية شوكة فى جانب المسلمين منذ الفتح الاسلامى وازداد خطرها زمن الحروب الصليبية بحيث بلغ عدد رجالهم الصالحين للقتال اربعين الف مقاتل . (٢)

وما حدث من التنافس بين هذه الفرق المختلفة واتخاذ مواضعها فى أعالى الجبال التى تشكل عائقا طبيعيا امام الاتصال بين الساحل وداخل بلاد الشام ، ادى ذلك الى ظهور مانع طبيعى وبشرى حال دون قيام اتحاد بين المناطق الداخلية والساحل فى بلاد الشام . كما ان اصحاب هذه الفرق اصبحوا يترددون بين سياسات مختلفة فلم يعرف عن النصيرية شىء سوى أن عددا كبيرا منهم لقى مصرعه على ايدى الفرنج . اما الدروز فانهم انحازوا

---

(١) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، جـ٤ ص ١٨٣ - ١٨٨ ، الشهرستانى الملل والنحل ص ١٩٥ - ١٩٧ ، فيليب حتى ، تاريخ سورية جـ ٢ ص ٢١٩ - ٢٢١ ، Gibb, op.cit. p. 29.

(٢) احمد رمضان ، المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ص ٦٢ - ٦٣ .

الى سائر المسلمين بينما انضم المارونيون الى صفوف الصليبيين وقاتلوا الى جانبهم . (١)

وبالاضافة الى النصريين والدروز ، ظهرت عند فجر الحركة الصليبية حركة شيعية كانت ابعد اثرا واكثر خطورة فى تاريخ بلاد الشام . واخذت تتشكل وتنتظم فى شمال الشام . وهذه الحركة هى المعروفة بالباطنية (٢) ، او الحشيشية او الفداوية . وهى نحلة انفصلت عن المذهب الفاطمى . وعلى الرغم من ان نشاطهم لم يبدأ الا بعد وصول الصليبيين ، فانه تجدر الاشارة لذكرهم وذلك لاستخدامهم الاغتيال طريقا للتخلص من خصومهم ، ولما كان

---

(١) العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) الباطنية فرقة من الاسماعيلية الذين يثبتون الامامة فى اسماعيل بن جعفر الصادق . والباطنية لقبهم القابلهم لقولهم "ان لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تاويلا" وقد اسس حركة الباطنية الحشيشية الحسن بن محمد الصباح الذى سافر من ايران وقابل المستنصر وتلقى منه اصول الدعوة وعاد الى فارس واستولى سنة ٤٧٣ هـ على قلعة الموت التى عرفت باسم عش العقاب لمناعتها وحصانتها . ووضع الحسن الصباح لاتباعه تنظيما دقيقا وقسمهم الى خمس مراتب . والف كتابا من اربعة فصول ضمنه اهم مبادئ دعوته . ووجد فئة من اتباعه عرفت باسم الفدائيين او الحشيشية لتعاطيهم الحشيش اثناء تنفيذ عملياتهم . وتميزت طائفة الحشيشية بقوة ابدانها وطاعتها العمياء لزعمائها فهم لا يتحرجون عن اغتيال خصومهم بالخناجر مهما كانت النتائج حتى اتخذوا من الاغتيال فنا . انظر الشهرستانى - الملل والنحل ص ١٩٨ - ٢٠٧ ، محمد ابوزهرة ، تاريخ المذاهب الاسلامية جـ١ ص ٦١ - ٦٢ ، فيليب حتى ، تاريخ سورية جـ٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

لهم من أثر كبير فى توليد روح الكراهية بين السكان تجاه الحكام الترك والامراء المحليين الاخرين فضلا عما نشره الباطنية من رعب وفزع فى بلاد الشام اسهم الى حد كبير فى وضع العراقيل امام توحيد الجبهة الاسلامية . (١)

أما الاقليات العرقية التى لعبت دورا هاما فى انقسام وتمزق بلاد الشام قبل الغزو الصليبى فهم الاتراك والارمن وبصورة اقل الاكراد . وقد سبق الحديث عن العنصر التركى وغزوهم لبلاد الشام . وعلى الرغم من ان تدفق التركمان على بلاد الشام كان مصدرا دائما للقلق والاضطراب فان مايجدر الاشارة اليه هو ان قدوم هؤلاء التركمان الذين عاشوا على الرعى والسلب ، لم يؤد الى تغييرات جوهرية فى التركيب السكانى لبلاد الشام . فالذى حدث هو ان معظم الامراء العرب حل مكانهم امراء من الترك وظلت غالبية السكان من العرب . وتفصيل ذلك ان الاستيطان والاستقرار يتطلب قدوم جماعات كثيرة من التركمان وهذا ما حدث فى ارمينيا وقباروقيا على اطراف اسيا الصغرى . غير ان ذلك الاستيطان لم يكن تاما . ولم يجر استقرار التركمان فى اسيا الصغرى الا بعد فرار اعداد كبيرة من التركمان من وسط اسيا امام التتار فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى . وقد راينا فيما سبق ان التركمان قدموا الى بلاد الشام خلال النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ومع ذلك فانهم لم يشكلوا الا اقلية فى المناطق التى نزلوا بها . (٢)

---

(١) الباز ، العرينى ، الشرق الاوسط ص ٢٧ ،
Cahen. La Syrie du Nord , p. 191.; Gibb, op.cit.pp.29-30.
(٢) انظر ، العرينى ، الشرق الاوسط ص ٣٠ ،
Cahen, La Syrie du Nord, p.190.

أما الارمن فقد اقاموا لهم امارات فى شمال الشام والجزيرة والجزء الجنوبى من اسيا الصغرى . فقد نجم عن توسيع السلاجقة فى هضبة ارمينية هجرة اعداد كبيرة من الارمن عن مواطنهم الاصلية الى الاقاليم الواقعة غربى الفرات وشماليه . وقد اشتدت هجرة الارمن عقب انتصار السلاجقة فى معركة ملازكرد (سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م) فلجأ كثير منهم الى جبال طوروس المعروفة عند المؤرخين العرب بجبال اللكام ، والى اقليم قيليقية وشمال بلاد الشام والجزيرة مثل انطاكية والرها واللاذقية وأرتاج وافامية وتل باشر . وقد اختار الارمن هذه المناطق لبعدها عن الطرق الرئيسية التى سلكها السلاجقة فى غزواتهم واصبحت هذه المناطق التى نزح اليها الارمن تعرف باسم ارمينية الصغرى . (١) ولم تقتصر هجرة الارمن على المناطق الشمالية من بلاد الشام بل هاجرت اعداد اخرى الى جنوب الشام . بيد انهم لم يلبثوا فى جنوب الشام الا فترة قصيرة . فعندما استنجد الخليفة الفاطمى المستنصر بوالى عكا بدر الجمالى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م سار بدر من عكا بمائة مركب مشحونة بالارمن وبفضلهم تغلب بدر الجمالى على العناصر الثائرة ضد الخليفة المستنصر من الاتراك والسودان . (٢)

استغل زعماء الارمن ضعف الدولة البيزنطية وعدم قدرتها على الوقوف امام غزو السلاجقة ، وشرعوا فى انشاء امارات خاصة بهم . وكان فيلاريتوس

---

(١) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، رونسيمان ، الحروب الصليبية ج١ ص ١١٢ - ١١٣ ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٠٢ ، عليه الجنزورى ، امارة الرها الصليبية ص ١٢٢ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة ارمينية) ، Cahen, La Syrie du Nord, p.190.; The Cambridge Medieval History, Vol.IV, pp. 628 - 629.

(٢) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٤٢ ب .

براخاميوس Philaretos Brakhamios على رأس زعماء الارمن الجسورين الذين افادوا من عجز الدولة البيزنطية عن حماية اراضيها فى جنوب شرق آسيا الصغرى واقاموا امارة مستقلة حول مرعش ورفض الاعتراف بالتبعية للامبراطور البيزنطى ميخائيل السابع. ثم استولى فيلاريتوس على ملطية وبسط نفوذه على طرسوس والمصيصة وعين زربة . وفى سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٧ م استولى فيلاريتوس على الرها من الدولة البيزنطية . وفى السنة التالية قام سكان انطاكية بتسليمها الى فيلاريتوس خوفا من وقوعها بايدى السلاجقة. (١) ولما عزل الامبراطور ميخائيل السابع عن العرش سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٨ م أعلن فيلاريتوس ولاءه للامبراطور الجديد نقفور (Nicephorus) الذى أقره على مابيده من البلاد . (٢)

وقد اتبع فيلاريتوس سياسة الحيطة والحذر ازاء جيرانه الاقوياء كى يحافظ على امارته من الخطر . ولهذا قام باعلان تبعيته للامير مسلم بن قريش العقيلى وقدم له الجزية بعد ان بسط مسلم نفوذه على حلب وحران واصبحت مملكته الجديدة مجاورة لامارة فيلاريتوس فى الرها وانطاكية (٣) . كما عمل فيلاريتوس على التقرب الى السلطان السلجوقى ملكشاه وارسل اليه يعلن

---

(١) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك ومملكة ارمينية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص ٢٣٠ - ٢٣١ ،
The Cambridge Medieval History, Vol.IV.p.628.
مرعش : مدينة فى الثغور بين بلاد الشام وبلاد الارمن ، اما ملطيه فكانت من بلاد الروم المشهورة تتاخم بلاد الشام . انظر ياقوت : معجم البلدان .

(٢) رونسيمان ، الحروب الصليبية ج ١ ص ١٠٤ ،
The Cambridge Medieval History, Vol.IV.p.128.

(٣) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان ج ١٣ B ورقة ٥٥ ب - ٥٦ أ ، رونسيمان ، الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٤ .

استعداده للدخول فى طاعته ودفع الجزية له. (١) ويبدو ان سياسة فيلاريتوس ازاء السلطان ملكشاه جعلت بعض الباحثين (٢) يرجحون اعتناق فيلاريتوس للاسلام على انه لا يوجد فى المصادر المتداولة مايؤيد هذا الرأى.

ولم تلبث امارة فيلاريتوس ان انهارت، فسقطت انطاكية بيد سلطان سلاجقة الروم سليمان بن قطلمش سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م كما قام سكان الرها بتسليم مدينتهم سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ الى السلطان ملكشاه الذى اقطعها لقائده بوزان. (٣) وهنا نلاحظ ان قصر الفترة التاريخية بين فتح سليمان بن قطلمش انطاكية سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م واستيلاء الصليبيين عليها سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م امر له دلالته بالنسبة لتاريخ الحركة الصليبية؛ لان تلك المدة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى وازالة الادارة البيزنطية من انطاكية، مما جعل الدولة البيزنطية تصر على التمسك بحقها الشرعى فى انطاكية منذ اليوم الاول الذى قامت فيه امارة انطاكية الصليبية. (٤)

ولم يعن سقوط امارة فيلاريتوس سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م نهاية العنصر الارمنى فى هذه المناطق حيث ظل الارمن ينتشرون حول ملطية والرها وانطاكية وتل باشر وغيرها. وقد قبل الارمن الخضوع للسلطان ملكشاه فى سبيل الافادة من السلام الذى خيم على المناطق الشمالية من بلاد الشام أثناء حكم

---

(١) سبط ابن الجوزى، مراة الزمان جـ ١٣ ورقة ٦٠ب - ٦١أ.
(٢) انظر، عليه الجنزورى، امارة الرها الصليبية، ص ٤١.
(٣) انظر ماسبق الفصل الثانى ص ١٦٢ - ١٦٤، ١٧٠، ١٧٥.
(٤) سعيد عاشور، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٩٨.

السلطان ملكشاه ، غير انه عندما حدث التداعي والانقسام بعد موته سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م سرعان ماعمد الارمن بدافع من مسيحيتهم ونعرتهم الى الاستقلال بهذه المناطق عن القوى الاسلامية الاخرى (١). ومن امثلة ذلك قيام احد أتباع فيلاريتوس واسمه جبريل Gabriel بالاستقلال بملطية وقيام احد القادة الارمن ويدعى ثوروس Thoros بالاستيلاء على الرها سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وذلك اثناء انشغال تتش بنزاع الوراثة السلجوقية مع ابن اخيه بركياروق . ورغم ان ثوروس عاد في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وخضع للسلاجقة كما سبق ذكره فانه استغل ماساد بين سلاجقة الشام من نزاع ، فطرد الحامية السلجوقية من الرها واستقل بها ، وظل يحكمها حتى وصول الصليبيين اليها . والى الغرب من الرها ورث كوخ فاسيل واخوه املاك فيلاريتوس فيما بين مرعش وقلعة الروم ، وفي المنطقة الواقعة غرب جبل اللكام (طوروس) قامت اسر ارمنية اشهرها أسرة قسطنطين الروبيني (٢).

ولم يقتصر النفوذ السياسي للارمن في شمال الشام على انشاء امارات خاصة بهم فقط ، بل شاركوا فيما وقع من النزاع بين قادة السلاجقة في بلاد الشام ، اذ استخدم بعض القادة السلاجقة الارمن في جيوشهم ، فقد ذكر ابن العديم اثناء حديثه عن معركة قنسرين بين دقاق ورضوان سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م انه عندما هزم ياغي سيان ، قام المزارعون بقتل اعداد كبيرة من

(١) Cahen, La Syrie du Nord, p. 190.

(٢) The Cambridge Medieval History Vol. IV, p. 628.

وقلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفرات ، مقابل البيرة ، كانت تقع بينها وبين سميساط . انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

الارمن الذين جندهم ياغى سيان فى جيشه . (١)

وانتهز الارمن فرصة وصول الصليبيين الى شمال الشام فقاموا بشن الغارات على بعض القرى التى فى حوزة المسلمين ، ومن امثلة ذلك الاغارة التى قام بها الارمن ضد اعمال حلب اوائل سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حيث وصلوا الى تل قباسين وقتلوا سكانها من المسلمين ، فخرج سكان القرى المجاورة من المسلمين فى صحبة فرقة من الاتراك ، وطاردوا الارمن وقتلوا منهم جماعة وارغموا الفارين على الالتجاء الى بعض الحصون فلحق بهم عسكر حلب ، وقتل بعضهم وساق منهم الفا وخمسمائة رجل اسرى الى حلب ، كما يقول (٢) ابن العديم .

وخلاصة القول ان وجود الارمن فى شمال الشام والجزيرة وجنوب اسيا الصغرى زاد من الاضطراب قبيل الحملة الصليبية كما مهد الارمن السبيل امام جحافل الصليبيين للمضى قدما فى حملتهم الى بلاد الشام ، لما قدموه من مساعدات ومؤن للصليبيين حيث وجد الارمن فى الصليبيين خير حليف ضد السلاجقة والبيزنطيين على السواء . وساعد الحكم الارمنى فى هذه المناطق على تاسيس امارة الرها الصليبية كاول امارة صليبية فى الشرق . (٣)

ومن الاقليات العرقية فى بلاد الشام قبيل قدوم الصليبيين الاكراد . ويبدو ان قرب موطن الاكراد ومناطق تجمعهم فى كردستان وشمال الجزيرة وشرق اسيا الصغرى وغرب ايران جعل من السهل على الاكراد ان ينفذوا

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣٢ ، وتل قباسين : قرية من قرى العواصم من اعمال حلب . انظر ياقوت ، معجم البلدان .
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٩٩ .

على بلاد الشام . ومن المرجح ان الضغط السلجوقى على مواطن الاكـــراد الاصلية دفعت اعدادا منهم الى الجلاء الى بلاد الشام . واصبح من المألــوف فى ذلك العصر دخول شخصيات كردية فى خدمة امارة بنى مرداس فى حلـــب . بل عاش فى مدينة حلب طائفة كبيرة من الاكراد وعلى سبيل المثال كانت أسـرة آل الخشاب الكردية من ابرز واعرق الاسر فى حلب خلال القرن الخامـــس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (١) . ومما يدل على تواجد الاكراد فــى بلاد الشام ان بعض المناطق اصبحت تنسب الى الاكراد مثل حصن الاكـــراد الذى كان يسمى حصن السفح ، فمنحه الامير شبل الدولة نصر بن صالح بـــن مرداس لجماعة من الاكراد سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م فقاموا بتحصينه حتـــى نسب اليهم . وظل الحصن بيد الاكراد حتى سقط بيد الامير الصليبـــى تنكريد صاحب انطاكية سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م (٢) .

وهكذا لم يكن سكان بلاد الشام متناسقين فى التركيب العرقى رغـــم الغالبية العظمى التى تكونت من العرب والمستعربين الذين يتكلمون اللغـــة العربية . ويضاف الى ذلك أن اعدادا كبيرة من السكان فى شمال الشام انتموا الى كنائس البيزنطيين والنسطوريين واليعقوبيين . وظهر تاثير اليعاقبة فـــى شمال الشام خلال الحكم السلجوقى حتى انهم تمكنوا اثناء حكم ياغى سيان مـــن بناء كنيستين فى انطاكية وهو مايشير الى التسامح الذى تمتع به المسيحيون فـــى ظل الحكم السلجوقى (٣) . كما ان المسلمين فى بلاد الشام انقسموا بيـــن

---

(١) Zakkar , op.cit. p.238.

(٢) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ج٣ ص ١١٥ ، سعيد عاشور ، المجتمـع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية فى كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ٤٦ - ٤٧ ، حصن الاكراد : حصن منيع علــى الجبل الذى قابل حمص من جهة الغرب وهو بين حمص وبعلبك . انظـر ياقوت ، معجم البلدان .

(٣) Cahen , La Syrie du Nord, p.191 ; Gibb, op.cit., p.30.

المذهب السني والمذهب الشيعي اذ انتشر مذهب السنة بين المسلمين في منطقة دمشق وفلسطين بحيث اصبحت اكثرية السكان في هذه المناطق من السنة ، بينما ساد المذهب الشيعي في شمال بلاد الشام. (١) وبالاضافة الى ذلك فقد وجدت اقلية يهودية لا تذكر في شمال الشام مثل مدينة حلب . واشتغل اليهود بالصناعات المختلفة في حلب وانطاكية . وكان لهم في حلب حي خاص بهم عرف باسم الحي اليهودي وكان اليهود يتكلمون العربية بلهجة خاصة. (٢)

وهكذا لعبت الاقليات الدينية والعرقية في بلاد الشام دورا كبيرا في تمزق بلاد الشام عشية وصول الصليبيين الى انطاكية .

- وصول الصليبيين الى أسوار انطاكية ٤٩٠ - ٤٩١ هـ :

وادى تنازع القوى والاوضاع السياسية المتدهورة في بلاد الشام والجزيرة وغيرها من بلدان الشرق الاسلامي الى عدم وجود قوة اسلامية قادرة على صد الحملة الصليبية الاولى . ولم يكن نجاح هذه الحملة الصليبية ناتجا عن التمزق الذى شهدته بلاد الشام فحسب بل ايضا الى ماحدث من التفكك والانقسام في آسيا الصغرى تحت زعامة السلاجقة الذين عرفوا باسم سلاجقة الروم .

---

(١) Cahen , La Syrie du Nord, pp. 190 - 191.

(٢) Zakkar, op.cit. p.238. ; Cahen, La Syrie du Nord, p. 191.

فلقد ترتب على مقتل سليمان بن قطلمش سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م[١] بقاء آسيا الصغرى دون حاكم قوى يأخذ على عاتقه مهمة توطيد النفوذ السلجوقى فى آسيا الصغرى . ولم يكن الامر قاصر على النهاية المؤلمة لسليمان بن قطلمش بل ان السلطان ملكشاه عندما تسلم انطاكية سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م أخذ معه اثناء عودته الى خراسان قلج ارسلان بن سليمان خوفا من قيامه بتوطيد نفوذه فى آسيا الصغرى وبالتالى منافسته على زعامة السلاجقة . وظل قلج ارسلان فى خراسان حتى وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م عندما اطلق سراحه السلطان بركياروق ، وعاد قلج ارسلان الى آسيا الصغرى[٢] .

وقد اتاحت السنوات التى قضاها قلج أرسلان فى خراسان (٤٧٩ -٤٨٥هـ / ١٠٨٦ - ١٠٩٢ م) الفرصة لظهور العديد من زعماء التركمان فى اقاليم آسيا الصغرى ، عملوا على انشاء امارات خاصة بهم ، الامر الذى أدى الى تفكك سلاجقة آسيا الصغرى . ومن الزعماء الذين عملوا على الخروج عن طاعة سلاجقة الروم ، ابوالقاسم امير نيقية ، وزاخاس امير ازمير ، والقائد التركمانى غازى بن دانشمند امير كبادوكيا . ولما كانت نيقية عاصمة لدولة سليمان بن قطلمش قبيل مصرعه ، فقد اخذ اميرها ابوالقاسم يعمل على توسيع رقعة نفوذه ، آملا فى أن يحل محل بيت آل قطلمش فى آسيا الصغرى .[٣]

---

(١) انظر ماسبق ، الفصل الثانى ، ص ١٦٨ .

(٢) Cahen, La Syrie du Nord, pp. 181 - 182 ; The Cambridge Medieval History Vol.IV , p.740.

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١١٥ ؛ The Cambridge Medieval History, Vol.IV, pp.740-741.

وبعد مقتل ابى القاسم سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ظهر منافس آخر للسلطان قلج أرسلان فى آسيا الصغرى هو زاخاس (جكا) امير ازمير ، الذى شيد اسطولا هدد به الدولة البيزنطية . وحاول قلج ارسلان الاتفاق مع زاخاس فتزوج ابنته غير ان الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (١٠٨١ — ١٠٨١ م) استطاع بسياسته الماكرة ان يفرق بين قلج ارسلان وحميه زاخاس . وانتهى الامر بقيام قلج ارسلان بقتل زاخاس والوصول الى تسوية بين قلج ارسلان والامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين (١) .

ولكن السلطان السلجوقى قلج ارسلان وجد انه من الصعب توطيد نفوذه ازاء امراء التركمان وبخاصة ملك الدانشمند الذى نزع الى توطيد نفوذه فى أعالى الاناضول . (٢) وظل التنافس وسوء العلاقات مستحكما بين قلج ارسلان وامارة الدانشمند التركمانية بحيث لم تتحد القوتان الا عندما ادركتا ان الجيوش الصليبية توشك أن تعصف بهما جميعا (٣) .

وهكذا فى الوقت الذى عانت فيه آسيا الصغرى من التفكك والانقسام شأنها فى ذلك شأن بلاد الشام وغيرها من بلدان الشرق الاسلامى ، تبلورت فى غرب اوربا الروح الصليبية المعادية للاسلام والمسلمين .

والحقيقة ان الحروب الصليبية ليست حركة عابرة فى تاريخ الاسلام والمسيحية فى العصور الوسطى بل هى حركة كبرى ظهرت فى الغرب الاوربى

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ص ١١٥ - ١١٦ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) The Cambridge Medival History, Vol.IV. p.740.

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١١٦ .

واتخذت شكل هجوم حاقد على بلاد المسلمين وخاصة فى الشرق الادنى بقصد امتلاكها . وقد انبعثت هذه الحركة التى حركها الكره والحقد تجاه الاسلام والمسلمين عن الاوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التى سادت غرب اوربا فى القرن الحادى عشر الميلادى . واتخذت من استغاثة المسيحيين فى الشرق ستارا دينيا زائفا للتعبير عن نفسها تعبيرا عمليا واسع النطاق .
والحروب الصليبية لها جذور قريبة وبعيدة ، فمن الجذور البعيدة ذلك الصراع الطويل الذى كان قائما ضد المسلمين ولاسيما فى الاندلس . أما الجذور القريبة فتتلخص فى الدور الذى أرادت البابوية فى غرب اوربا القيام به لتحقيق سيادة البابوية فى الشرق ، هذا بالاضافة الى الاحوال النفسية والعقلية فى اوربا التى كانت تحمل الحقد الاعمى للاسلام والمسلمين . (١)

ولذا نتعرض هنا باسهاب الى شرح اسباب ودوافع الحركة الصليبية وانما تجدر الاشارة الى ان اهم اسباب الحروب الصليبية هو عداء المسيحيين الاوربيين للمسلمين وبالتالى يمكن اعتبار الحملات الصليبية امتدادا على نطاق اوسع لتلك الحروب التى شنها المسيحيون على بلاد المسلمين فى الاندلس وحوض البحر المتوسط . فقد نجم عن هجمات المسيحيين فى الاندلس سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م سقوط طليطلة وغيرها من بلاد الاندلس ، وفى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م استولوا على صقلية واغاروا على شمال افريقية (٢) . أضف

---

(١) انظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٦ ، صلاح الدين البحيرى ، الاعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ٢١ ص ١٧ - ٢٣ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٢ ، انظر : العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٢١ أ .

الى ذلك ، مابلغته البابوية فى غرب اوربا فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى من نفوذ وقوة وسيطرتها على قلوب الناس ، بحيث بات البابا يتطلع فى شغف الى جعل سلطة كنيسة روما عالمية الطابع لينضوى تحت لوائها جميع المسيحيين فى الشرق والغرب على السواء وبالتالى اصبحت الكنيسة الغربية تسعى الى السيطرة على الاماكن المقدسة فى فلسطين لتحقيق ذلك الهدف (١) . وهكذا استجابت البابوية لنداء الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين الذى اخذ يرسل النداءات الى البابا اوربان الثانى Urban II. طالبا منه ارسال نجدة تقف الى جانبه لمقاومة تقدم السلاجقة المسلمين فى آسيا الصغرى . ولم يكن الكسيوس يطلب فى تلك النداءات اكثر من كتيبة من الفرسان لمساعدته فى استرداد اسيا الصغرى . (٢) أما مازعمه المسيحيون الاوربيون من اضطهاد المسيحيين فى الشرق على ايدى المسلمين فهو زعم باطل ، فقد عاش المسيحيون فى امان وسلام طيلة تاريخ الدولة الاسلامية . وكان المسيحيون الذين خضعوا للحكم السلجوقى اسعد حالا من اخوانهم الذين عاشوا فى داخل الدولة البيزنطية . ولم تذكر المصادر التاريخية المتداولة خبر اى حادث اضطهاد للمسيحيين فى بلاد الشام قبل الغزو الصليبى . (٣)

ويضاف الى ذلك ان سوء الاحوال الاقتصادية فى غرب اوربا وبخاصة فى فرنسا زادت من حقد المسيحيين الاوربيين لبلاد المسلمين فى الشرق . ففى اواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، كثرت الحروب بين

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ٣٣ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ص ١٦ .

(٢) باركر ، الحروب الصليبية ص ١٦ ، Painter, A History of the Middle Ages, p.200.

(٣) انظر : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ٣٠ - ٣١ .

الامراء الاقطاعيين فى غرب اوربا ، وتعرضت القرى الزراعية للنهب والسلب والتخريب على ايدى قطاع الطرق الاوربيين ، مما ادى الى تدهور الزراعة بشكل كبير ، ومعاناة جموع الفلاحين وعبيد الارض من احوال معيشية سيئة وانتشار الاوبئة . اما المدن التجارية فى ايطاليا وغيرها فقد اسرعت بالمساهمة فى الحملة الصليبية بغية تحقيق مصالحها الاقتصادية عن طريق السيطرة على موانئ الشرق الغنية وطرق التجارة العالمية (١) . كما ان طبقة المزارعين فى غرب اوربا ، عانت الكثير من ضروب الذل والهوان والفاقة فى ظل النظام الاقطاعى واضحت حياتهم فى اوربا لا تطاق ، وبالتالى وجدوا فى الحروب الصليبية فرصة هيأت لهم الخلاص من القيود التى يعيشون فيها . كما وجد الفرسان والامراء فى الحروب الصليبية فرصة لاشباع روح المغامرة التى صبغت حياتهم الخاصة والعامة . (٢)

كما تجدر الاشارة الى ان ازدياد خطر النورمان على صقلية وجنوب ايطاليا جعل البابوية تسعى جاهدة لتحويل طاقات النورمان الحربية الى ميدان آخر بعيد ، وأفضل ميدان لدى البابا هو دفع النورمان للمشاركة فى الحروب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين (٣) . كما وجد الكثير من الامراء والفرسان فى الحروب الصليبية فرصة لتحقيق مطامعهم فى انشاء امارات لهم فى بلاد

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ٣٤ - ٣٧ ، رونسيمان ، الحروب الصليبية جـ١ ص ١٧٠ - ١٧١ ، باركر ، الحروب الصليبية ص ٢١ - ٢٢ ، البحيرى ، الاعداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) سعيد عاشور ، اوربا العصور الوسطى جـ١ ص ٤٢٩ .

(٣) المرجع السابق جـ١ ص ٤٢٩ .

الشرق الادنى على حساب المسلمين .(١)

وفى مارس ١٠٩٥ م عقد البابا اوربان الثانى مجمعا دينيا فى بياكنـــزا ، وفى ٢٦ نوفمبر من العام نفسه عقد مجمعا اخر فى كلير مونت الواقعة جنـــوب شرق فرنسا حيث القى البابا خطابه الشهير الذى دعا فيه الى القيام بحملـــة صليبية . وفى خطابه حث جميع المسيحيين على مساعدة البيزنطيين ، وتجريد الجيوش لمحاربة المسلمين ، وانتزاع الاماكن المقدسة منهم . ومن الفقـــرات التى اوردها بعض الحاضرين لخطاب البابا يمكن استشفاف الحقد الاعمى ضـــد الاسلام والمسلمين . وعين البابا احد رجال الدين واسمه ادهيمر Adhemar نائبا عنه فى قيادة الحملة الصليبية . وانتشر خبر خطاب البابا فى فرنســـا وعمل رجال الكنيسة على استغلال الحماس الدينى لحث جموع المسيحيين علـــى الانضمام الى الحملة الصليبية لشن حرب ضد المسلمين .(٢) وحدد البابا يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ م موعدا لرحيل الصليبيين الى الشرق . على انه سبـــق ذلك تحرك جموع كثيرة من العامة بقيادة بطرس الناسك وغيره ، سارت شرقـــا الى القسطنطينية . وارتكبت تلك الجموع اعمالا شائنة من النهب والسلـــب واضرام النيران فى المنازل والكنائس . وعندما وصلت حملة العامة هذه الـــى مدينة القسطنطينية عبرت البسفور وشرعت فى الاغارة على بلاد السلاجقة . واوقع السلاجقة بالصليبيين . ولم ينج منهم الا اعداد قليلة .(٣)

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٤١ ، البحيرى ، الاعـــداد المعنوى للحرب الصليبية المضادة ص ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٧ - ١٨ ، باركر ، الحروب الصليبية ص ٢٣ ، صلاح البحيرى ، الاعداد المعنـــوى للحرب الصليبية ص ١٢٧ - ١٣٠ ، Painter, op.cit.p.201.

(٣) اعمال الفرنجة ص ١٨ - ٢١ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ١٧٦ - ١٧٨ .

وفى تلك الاثناء تألفت الحملة الصليبية من الفرسان (حملة الامـــراء) الذين اتخذوا الصليب شعارا لهم . وانضم الى الحملة امراء عديدون علـــى رأسهم ثلاثة امراء مشهورون هم جودفرى دى بويون Goodfrey de Bouillon الذى قاد مع اخيه بلدوين الصليبيين القادمين من اللورين ، بينما قـــام زيموند Raymond امير تولوز مع الاسقف أدهمير المندوب البابـــوى بقيادة البروفنساليين فى حين قاد بوهيمند Bohemond مع أخيـــه تانكرد جيشا من النورمان . ووصلت الحملة الصليبية الاولى الى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٠٩٧ م فى حشد كبير قدره البعض بنحو ١٥٠ الفا من الرجال الاشداء . (١)

وعندما وصل أمراء الصليبيين بمجموعهم اسوار القسطنطينية استغـــل الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين الروح الصليبية لدى أمراء هذه الحملـة الصليبية فطلب منهم ان يقسموا له يمين الولاء باعادة جميع الاقاليم التى فقدها البيزنطيون للمسلمين منذ زمن قريب (٢) . وفى مقابل ذلك تعهد الامبراطـــور الكسيوس بامداد الصليبيين بالمؤن والعتاد والادلاء برا وبحرا ومساعدتهـــم بفرق من الجيش البيزنطى فى حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا (٣) .

وفى شهر جمادى الاولى سنة ٤٩٠ هـ / مايو ١٠٩٧ م عبر الصليبيـــون البسفور الى آسيا الصغرى واستقر رايهم على الهجوم على مدينة نيقية عاصمـــة

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) The Cambridge Medieval History, Vol.IV.p.741

(٣) اعمال الفرنجة ص ٣١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ص ١٥٥ ، Ostrogonsky: History of the Bayzontine State . p.363.

السلاجقة . وكان السلطان قلج ارسلان آنذاك غائبا عن عاصمته ، بسبب نزاعه مع امارة الدانشمند التركمانية . ولم يكن قلج ارسلان مهتما بانباء وصول الصليبيين الى آسيا الصغرى ، معتقدا ان الامر لا يعدو ان يكون جموعا أخرى من العامة غير المدربين (أمثال اتباع بطرس الناسك ، وحاصر الصليبيون نيقية ؛ وقدم الامبراطور البيزنطى الى الصليبيين المساعدة بفرق من الجيش البيزنطى ، وكمية وافرة من المؤن والطعام والات الحصار . ولم يكن بمقدور قلج ارسلان نجدة عاصمته المحاصرة ، وكل مافعله أن ارسل الى حاميتة المدينة يحثها على الصمود أمام الصليبيين . وبعد حصار دام شهرا سقطت نيقية فى جمادى الثانية سنة ٤٩٠ هـ/ يونيه ١٠٩٧ م . ووضع الامبراطور الكسيوس كومنين -عن طريق مندوبيه- يده على المدينة ، وسمح لحاميتها التركية بالمغادرة فى أمان . (١)

وشرع الصليبيون بعد الاستيلاء على نيقية فى اختراق آسيا الصغرى وانقسموا شعبتين ، لتسهيل عملية التموين ، وللقضاء على نفوذ السلاجقة فى آسيا الصغرى . فسارت احداهما الى ناحية الشمال الشرقى والاخرى صوب الجنوب الشرقى على ان تلتقيا بعد ذلك عند ضوريليوم فى شمال غرب آسيا الصغرى . وكان الجيش الاول من النورمان بقيادة بوهيمند وتنكرد ونورمان فرنسا بزعامة روبرت . اما الجيش الاخر فكان بقيادة المندوب البابوى ادهيمر ، وجود فرى بويون ، وريموند .

---

(١) أعمال الفرنجة ، ص ٣٨ - ٤١ ، William of Tyre:History of Deads done Beynd the Sea, Vol.I. pp.152-159.

، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١٥٥ - ١٥٩ ، باركر ، الحروب الصليبية ص ٣٣ .

واخيرا ادرك قلج ارسلان ، بعد سقوط نيقية خطورة الصليبيين ، فسارع بمهادنة امير الدانشمند ، وصحبه الى الغرب لوقف تقدم الصليبيين عند ضوريليوم . وما ان وصل بوهيمند الى ضوريليوم حتى هاجمهم الترك فى جرأة وبسالة أثارت اعجاب الصليبيين فارسل بوهيمند على عجل الى بقية الجيوش الصليبية طالبا الاسراع فى المسير الى ميدان المعركة . وفى الوقت نفسه قام بوهيمند بتفقد قواته وحثها على الصمود رغم هجمات الترك الشديدة . واخيرا وصل الجيش الصليبى الثانى بقيادة جودفرى بوايون ، وادهيمر وغيرهما . وقام الصليبيون بهجوم شامل فى ٢٠ رجب ٤٩٠ هـ / اول يوليه ١٠٩٧ م ، ونجم عنه هزيمة السلاجقة وانتصار الصليبيين واستيلائهم على كميات كبيرة من الدواب والمؤن . (١)

واقتنع قلج ارسلان بعد هزيمته عند ضوريليوم انه لم يعد بمقدوره صد الصليبيين ولذلك لجأ الى محاولة عرقلة تقدمهم فى اسيا الصغرى ، فقام باخلاء المدن الواقعة على طريق الصليبيين من المؤن والطعام وتدمير كل ما يمكن أن يفيد منه الصليبيون اثناء زحفهم على آسيا الصغرى . (٢)

أما الصليبيون فقد ساروا حتى وصلوا الى سهول قونية الخصبة ، ثم دخلوا قونية وواصلوا زحفهم الى هرقلة ، وانزلوا بالسلاجقة هزيمة اخرى عند هرقلة

---

(١) اعمال الفرنجة ص ٣٨ - ٤١ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٥٩ - ١٦٠ ، العرينى ، الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢١٠ - ٢١٣ . Ostrogorsky, op.cit. p.364.

(٢) اعمال الفرنجة ص ٤٢ - ٤٤ ، تاريخ العظيمى حوادث سنة ٤٩٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ص ١٦٠ - ١٦١ .

فى شعبان سنة ٤٩٠ هـ / اغسطس ١٠٩٧ م ، ود خلها الصليبيون ، ولبثوا بها بضعة ايام . ومن هرقلة انفصل تانكرد وبلدوين وسارا الى اقليم قيليقية ، وشرعا فى الاستيلاء على مدنه . أما الجيش الرئيسى فسار جهة الشمال الشرقى نحو قيصرية ، حيث اتصلوا بالارمن الذين قدموا لهم كل عون ومساعدة ، ثم سار الصليبيون جنوبا مرة اخرى ، وفى منتصف الطريق بين انطاكية وقيصرية ، انضم الى الجيش الصليبى الاساسى بلدوين بعد أن طرد تانكرد من طرسوس بيد ان بلدوين لم يلبث ان انسحب من جديد بفرقة صغيرة من الفرسان ، واتخذ طريقه شرقا الى الرها ، حيث أنشأ بمساعدة الارمن امارة الرها الصليبية ، (١)

عبر الصليبيون جبال اللكام (طوروس) ووصلوا الى مرعش فاستقبلهم سكانها من الارمن وقدموا لهم كميات وفيرة من المؤن والطعام . (٢) كما استولى الصليبيون على بغراس وشرعوا فى الزحف على انطاكية ، مما شجع المسيحيين الارمن من سكان القرى والحصون المجاورة لانطاكية على العصيان ومراسلة الصليبيين وذلك " لقبح سيرة يغى سيان وظلمه فى بلاده " (٣) . وقد اثار وصول الصليبيين الى شمال الشام موجة عارمة من القلق والذعر فى نفوس المسلمين بعد ان ترامى الى اسماعهم اخبار الجموع الكثيفة التى يتكون منها جيش الصليبيين . (٤)

---

(١) اعمال الفرنجة ص ٤٤ - ٤٦ ، William of Tyre:op.cit.pp.189-194.
بارکر ، الحروب الصليبية ص ٣٤ ، علية الجنزورى ص ٤٦ - ٥٦ ،
Ostrogorsky, op.cit. p.364

(٢) اعمال الفرنجة ص ٤٨ ، Willam of Type,op.cit.Vol.I, p.187.

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣١ ، انظر ايضا ابن القلانسى ص ١٣٤ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٩٠ ، وبغراس مدينة فى لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ . انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٤) ابن القلانسى ص ١٣٤ .

بلغ الصليبيون نهر وادى العاصى الذى تقع به مدينة انطاكية . ويشير مؤلف (أعمال الفرنجة) الى وقوع معركة بين طلائع الصليبيين من الكشافة وبين فرقة من الاتراك يبدو انها كانت تحمل المؤن والطعام الى أنطاكية، وقد هزم الصليبيون تلك الفرقة وغنموا كمية كبيرة من الدواب المحملة بالطعام والذخائر واخيرا وصل بوهيمند على رأس مقدمة الجيش الصليبى وعددها اربعة آلاف فارس أمام اسوار انطاكية ، وجاء فى أثره سائر القوات الصليبية ، وبدأ حصار المدينة فى ٢٠ ذى القعدة / ٢١ اكتوبر ١٠٩٧ م[1] .

ويجدر الاشارة هنا الى ان صاحب انطاكية ياغى سيان كان قد انغمس منذ أقطعه السلطان ملكشاه انطاكية سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م فى منازعات البيت السلجوقى ، اذ ساهم ياغى سيان فى بعض حملات تتش على بلاد الشام كما سانده فى مطالبته بعرش السلطنة السلجوقية . وبعد ان لقى تتش مصرعه سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م تدخل ياغى سيان فى النزاع بين ابنى تتش رضوان ودقاق تارة ينضم الى رضوان واخرى الى دقاق[2] . ولا شك ان ياغى سيان خسر باشتراكه فى هذه الحوادث الكثير من الرجال والاموال التى كان يمكن ادخارها لمواجهة الصليبيين وانشغل بذلك عن توطيد حكمه فى انطاكية وتنظيم شئونها وتحصينها ، مما كان له بالغ الاثر فى عجزه عن الصمود طويلا أمام حصار الصليبيين .

---

(١) اعمال الفرنجة ص ٤٩ – ٥٠ ، رونسيمان ، الحروب الصليبية ج ١ ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ ، العرينى الشرق الاوسط والحروب الصليبية ص ٢٣٣ .

(٢) انظر ماسبق ص ٢٧٤ – ٢٨٣ .

واخيرا عند ما وصل الصليبيون على مقربة من انطاكية عمد ياغى سيان الى بعض الاجراءات السريعة لتحصين انطاكية فامر بحفر خندق خارج اسوارهـا . ويشير بعض المؤرخين الى ان ياغى سيان اخرج النصارى للعمل فى حفر الخندق وعند ما حان وقت العودة الى المدينة رفض السماح لهم بدخولها ، حتى لا يقدموا المساعدة للصليبيين (١). على أن مؤلف (اعمال الفرنجة) يذكر ان الارمن ظلوا داخل انطاكية ، ودأبوا على الخروج الى معسكر الصليبيين ونقل الاخبار والعودة الى مدينة انطاكية (٢) . وحاول ياغى سيان الحصول على مساعدة الحكام المسلمين فى بلاد الشام والعراق . فذكر ابن القلانسى انه ارسل ابنه الى دقاق حاكم دمشق ، والى جناح الدولة حسين حاكم حمص ، وكربوقا أمير الموصل بالاضافة الى السلطان بركياروق والخليفة العباسى " والى سائر البلاد والاطراف بالاستصراخ والاستنجاد والبعث على الخفوف الى الجهاد " (٣).

وظل الصليبيون يحاصرون انطاكية حتى فصل الشتاء ، واخذت المؤن والاقوات التى بحوزتهم فى النفاذ . فعقد الامراء الصليبيون اجتماعا تقرر على أثره قيام بعض قواتهم بالاغارة على المناطق المشرفة على نهر العاصى بغية الحصول على المؤن والطعام . وقاد بوهيمند وروبرت فلاندر قسما من الجيش بلغ عدده عشرين الف مقاتل ، وتوجها لمهاجمة القرى المحيطة بحلب وحماة .

---

(١) العينى ، عقد الجمان ج ١١ ورقة ٢١ أ ، ابن القلانسى ص ١٣٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٢) أعمال الفرنجة ، ص ٥٥ ، انظر ايضا : حسن حبشى ، الحرب الصليبية الاولى ص ١١٢ - ١١٥ .

(٣) ابن القلانسى ص ١٣٤ .

وفى تلك الاثناء كان دقاق واتابكه طغتكين وجناح الدولة حسين يتقدمون بعساكرهم لنجدة ياغى سيان فى انطاكية . والتقى الفريقان فى ارض البارة (١) ، وحدثت معركة بين الطرفين فى محرم سنة ٤٩١ هـ / ديسمبر ١٠٩٧ م لم ينعقد النصر فيها لاحد من الجانبين ، وقرر دقاق العودة بعسكره . كما قام الصليبيون بقيادة بوهيمند اثناء انسحابهم بمهاجمة معرة مصرين فقتلوا بعض سكانها وكسروا منبرها . ولم تؤد حملة بوهيمند الى توفير الاقوات ، فقرر العودة الى انطاكية واثناء غياب بوهيمند شن ياغى سيان هجمات شديدة على معسكر الصليبيين والحق بهم الكثير من الخسائر. (٢)

وكان ابن ياغى سيان قد سار الى حلب ، بعد انسحاب دقاق طالبا المساعدة من رضوان فسار رضوان وسكمان بن ارتق على راس قواتهما وعسكرا فى حارم شرق انطاكية . غير ان بوهيمند قاد فرقة من الفرسان ودحر رضوان وسكمان فى آخر صفر سنة ٤٩١ هـ / ٩ فبراير ١٠٩٨ م واستولى الصليبيون بمساعدة الارمن على حارم . وكان الاستيلاء على حارم نصرا كبيرا للصليبيين لاهميتها فى حماية انطاكية من جهة حلب. (٣)

وفى الشهر التالى اى فى ربيع الاول ٤٩١ هـ / مارس ١٠٩٨ م استطاع بوهيمند حل مشكلة المؤن عن طريق الاتصال بالسفن الجنوية الراسية فى ميناء السويدية ، ميناء انطاكية ، وحصل من تلك السفن على ما يلزم من المواد لبناء القلاع.

---

(١) البارة : بليدة وكورة من نواحى حلب ، وبها حصن ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) اعمال الفرنجة ص ٥١ - ٥٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣١ ، ابن القلانسى ص ١٣٤ .

(٣) اعمال الفرنجة ص ٥٨ - ٥٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣١ ، سعيد عاشور الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ ، وحارم ، حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية ، انظر ياقوت : معجم البلدان .

وشيد بوهيمند النورمانى قلاعا استخدمها فى اثارة الفزع فى نفوس اهل المدينة المحاصرة ، وهى طريقة يعرفها النرمنديون (١) . ولم تتوقف الاشتباكات بين الصليبيين وحامية انطاكية وشدد الصليبيون الحصار على انطاكية من جميع الجهات . وبذل ياغى سيان جهوداً مضنية فى سبيل الصمود اطول فترة ممكنة ريثما تصل النجدات التى نهضت بقيادة كربوقا امير الموصل . غير ان الخيانة سرعان ما لعبت دورها فى سقوط انطاكية اذ كان على حراسة أحد ابراج انطاكية رجل ارمنى اسمه فيروز وكان ياغى سيان قد صادر امواله . فراسل فيروز بوهيمند واتفق معه على تسليم البرج واحتفظ بوهيمند بسر المؤامرة عن باقى الامراء الصليبيين مستغلا خطورة موقفهم لكى يحصل منهم على الموافقة على تحقيق حلمه ، وهو تنازلهم عن انطاكية ، والسماح له بانشاء امارة فيها ثمنا لجهوده فى انقاذهم . وفى نهاية الامر سقطت انطاكية بيد الصليبيين فى آخر جمادى الاولى / ٣ يونيه ١٠٩٨ م ، وفر منها الاتراك ، وسقط ياغى سيان عن ظهر فرسه من التعب فقتله الارمن وحملوه الى الفرنج . (٢)

أما كربوقا الذى قاد جيشه لنجدة انطاكية فقد اضاع فرصة ذهبية ، وهى مهاجمة الصليبيين قبل سقوط انطاكية ، وجعلهم بين شقى الرحى بين حامية انطاكية وقواته ، ذلك ان كربوقا ، مر اثناء عبور اقليم الجزيرة بمدينة الرها ،

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ص ٣٤ .

(٢) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٢١ أ ، ابن القلانسى ص ١٣٥ ، ابن العديم جـ ٢ ص ١٣٣ - ١٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، العظيمى ، حوادث سنة ٤٩١ ، اعمال الفرنجة ص ٦٤ - ٧٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ١٩٦ - ١٩٩ ، ابراهيم خليل ، كربوقا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الخامس ص ١٠١ - ١٠٢ .

وعمد الى محاولة الاستيلاء عليها ، ولبث يحاصرها بضعة اسابيع دون جدوى .
واخيراً سار الى الشام وانضمت اليه اعداد هائلة من عساكر الشام من الترك والعرب ومن الامراء دقاق بن تتش وأتابكه طغتكين ، وجناح الدولة حسين صاحب حمص ، وأرسلان تاش حاكم سنجار ، وسكمان بن ارتق والاميروثاب بن محمود المرداسى ، وساروا جميعاً الى انطاكية ، وفرضوا عليها الحصار الشديد لاسيما ان قلعتها لم تسقط بيد الصليبيين (١) ، وأستمر حصار قوات المسلمين للصليبيين داخل أنطاكية ، خمسة وعشرين يوماً ، تعتبر من أسوأ فترات الشدة والضغط التى تعرض لها الصليبيون خلال رحلتهم الطويلة الى بلاد الشام حتى عدمت الاقوات داخل انطاكية واضطر الصليبيون الى اكل الميتات واوراق الشجر ، مما جعل الكثير من الصليبيين يتسللون الى خارج انطاكية . (٢)

على أن روح الفرقة والانقسام لم تلبث ان طغت على واجب الجهاد لدى الامراء المسلمين . ويوضح ابن العديم ذلك بقوله : " وترادفت رسل الملك رضوان ... الى كربوقا فتوهم دقاق من ذلك " . اما جناح الدولة حسين فقد استبد به الفزع من اصحاب يوسف بن آبق واخيه اذ كان سبباً فى المؤامرة التى راح ضحيتها يوسف بن آبق سنة ٤٨٩ هـ . كما حدثت منافرة بين الاتراك والعرب الذين مع وثاب بن محمود . ويبدو ان رضوان خشى سقوط

---

(١) العينى ، عقد الجمان ، جـ ١١ ورقة ١٢١ أ - ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٦ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، ابن القلانسى ص ١٣٦ ، ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره فى مقاومة الصليبيين ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٦ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، باركر ، الحروب الصليبية ص ٣٥ ، ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره فى مقاومة الصليبيين ص ١٠٦ .

أنطاكية بيد كربوقا ، مما يهدد امارته فى حلب ، لذلك راسل التركمان وحثهم على الانسحاب من امام انطاكية فاستجاب له الكثير منهم " وتحيل بعض الامراء من بعض " كما يقول ابن العديم (١) . يضاف الى ذلك أن كربوقا اساء السيرة " فيمن معه من المسلمين واغضب الامراء وتكبر عليهم " مما جعلهم يضمرون له الغدر (٢) . واخفق امراء المسلمين فى الاتفاق على خطة مشتركة لقتال الصليبيين لما بينهم من الاحقاد والنزاع والفتن (٣) .

واخيرا خرج الصليبيون والتقوا بجموع كربوقا فى معركة حاسمة خارج أسوار انطاكية فى ٢٥ رجب ٤٩١ هـ / ٢٨ يونيه ١٠٩٨ م . ولم يصمد من معسكر المسلمين سوى اعداد قليلة من المطوعين الذين خرجوا طلبا للشهادة ، وانهزم سائر الامراء المسلمين . (٤)

وهكذا كان الانقسام والتفكك فى صفوف المسلمين هو العامل الحاسم فى استيلاء الصليبيين على أنطاكية ، مما جعلهم يسيرون فى طريقهم فى بلاد الشام دون مشقة ، حيث البلاد ممزقة والصفوف مبعثرة ، وفى كل مدينة او منطقة من بلاد الشام أمير حاكم بأمره ، لا هم له الا المحافظة على مابيده دون الاهتمام بالخطر الذى داهم بلاد المسلمين فى المشرق بكاملها .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب جـ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٦ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ص ١٣٧ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ابراهيم خليل كربوقا ودوره فى مقاومة الصليبيين ص ١٠٩ .
(٤) اعمال الفرنجة ص ٨٩ - ٩٦ ، ابن الاثير ، الكامل جـ ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ابراهيم خليل ، كربوقا ودوره فى مقاومة الصليبيين ص ١٠٧ .

واستفاد الصليبيون من تنازع القوى في بلاد الشام واسسوا امارات صليبية لهم في الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة صليبية في بيت المقدس . وكان على المسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله لمدة قرنين من الزمان حتى نجحوا في طرد الصليبيين طردا تاما من بلاد الشام ، وعادت البلاد الى ايدى اصحابها المسلمين . (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين)(1) .

...

---

(١) سورة الزمر ، آية ٧٤ .

((خاتمـــة))

بحمد الله وتوفيقه أنتهى موضوع البحث الذى قام بدراسة شاملة لاوضاع بلاد الشام قبل الغزو الصليبى ، وقد اوضحت الدراسة الكثير من الحقائق أهمها ان النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام حمل فى طياته كل دلائل الضعف ، فقد واجه الفاطميون منافسة القرامطة لتوطيد نفوذهم فى بلاد الشام ، ثم دخول أفتكين التركى الى الشام وتحالفه مع القرامطة ، وما ترتب على ذلك من حروب بين الفاطميين وبين القرامطة وافتكين التركى حتى انتهى الامر بنجاح الفاطميين وسيطرتهم على بلاد الشام . ومعظم هذه الحروب دارت رحاها فى بلاد الشام التى دفعت ثمن هذا النزاع.

كما ان سكان جنوب الشام كانوا فى غالبيتهم يعتنقون المذهب السنى وكان هذا سببا هاما للنفور والفرقة بين اهل الشام والفاطميين الشيعة ، يضاف الى ذلك استخدام الفاطميين لعناصر بربرية من شمال افريقية كانت تنزع الى خرق النظام ، وتعامل السكان بقسوة بالغة ، مما ترتب عليه ثورات اهل الشام وبخاصة فى دمشق ، ضد جنود الخلافة الفاطمية من المغاربة .

وقد كان للسياسة المالية التى اتبعها الفاطميون فى بلاد الشام نتائج وخيمة على النفوذ الفاطمى وعلى احوال بلاد الشام الاقتصادية . وتمثلت تلك السياسة فى الزام الوالى الفاطمى بجمع ضريبة سنوية معينة من دائرة ولايته بالاضافة الى سياسة عزل الولاة التى كانت تتم بشكل سريع مما جعل الوالى الفاطمى يسعى لجمع اكبر كمية من الاموال الخاصة به لمواجهة فترة عزله ، مما دفع الولاة الى فرض ضرائب ثقيلة على كاهل السكان الامر الذى كان له آثاره السيئة على تدهور النشاط الاقتصادى فى بلاد الشام ، وكثرة حركات العصيان ضد الفاطميين .

ومن النتائج التى توصل اليها البحث ان ولاء قبائل الشام للخلافة الفاطمية ارتبط بمقدار ماتقدمه الخلافة من هبات واموال لشيوخ القبائل . وما ان تنقطع تلك الهبات لسبب أو لاخر ، حتى تشق القبائل عصا الطاعة وتشن الغارات المدمرة على مختلف بلدان الشام مما كان له بالغ الاثر على تدهور أحوال بلاد الشام قبل الغزو الصليبى . فقد أدت غارات طى بزعامة آل جراح على جنوب الشام وفلسطين وغارات كلب على اواسط الشام وكلاب على شمال الشام الى الخراب الاقتصادى الذى أصاب المدن والمناطق الحضرية ، فقامت تلك القبائل بنهب المدن وحمل كل مايمكن حمله من اموال وامتعة وما ان تضمد المدن جراحها وتعاود نشاطها الاقتصادى حتى تعود القبائل وتكرر أعمال النهب والسلب وفرض الاتاوات على السكان . ولم يكن هناك مناص من أن تؤدى غارات القبائل البدوية الى آثار سيئة على الانتاج الزراعى فى بلاد الشام بسبب انكماش الاراضى الزراعية نتيجة لغارات القبائل التى كانت تهاجم القرى وتصادر الغلال وترعى بماشيتها الثمار والاشجار . يضاف الى ذلك أن بعض القبائل العربية اقامت فى بعض الحصون على مقربة من الطرق التجارية وتخصصت فى اعمال السلب وقطع الطريق واعمال الخفارة ، مثلما فعله بنو قشير فى قلعة جعبر ، وخلف ملاعب فى حمص ، من قطع الطريق واخافة السبيل ، وما ترتب على هذا من آثار سيئة على النشاط التجارى فى بلاد الشام .

كما كان لقيام الامارات العربية المستقلة كامارة بنى مرداس فى حلب نتائج سيئة على الاحوال الاقتصادية فى بلاد الشام . فعلى سبيل المثال كان الامير المرداسى يلتزم بدفع خراج سنوى للخلافة الفاطمية ، واتاوة سنوية للامبراطورية البيزنطية ، فضلا عما كان يقدمه من الهبات والعطايا والدراهم .

لزعماء قبيلته ليضمن ولاءهم او للتركمان لاستخدامهم . وجمع الامير المرداسى هذه الاموال الكثيرة من المزارعين والتجار وصغار الكسبة ، الامر الذى أدى الى آثار مدمرة على الاحوال الاقتصادية فى حلب وغيرها من بلاد الشام .

ومما زاد أوضاع بلاد الشام سوءا الغزو البيزنطى لبلاد الشام ، والذى نجم عنه سقوط اغنى مناطق الشام الشمالية بيد البيزنطيين مثل الرها وشيزر واللاذقية وافامية فضلا عما دفعته بلاد الشام من اموال كثيرة للبيزنطيين على شكل اتاوة حربية سنوية بالاضافة الى سياسة الحرق والنهب والتخريب التى انتهجها البيزنطيون ضد كل المناطق الشامية التى مرت بها جيوشهم .

ومن الحقائق التى أثبتتها الدراسة انه بعد كل هذا الانهاك الاقتصادى والتمزق السياسى الذى اصاب بلاد الشام ، جاء التركمان بغاراتهم المدمرة ، واضافوا المزيد من اسباب الضعف والانهيار . فغزو التركمان كان غزوا بربريا نهابا لكل المناطق التى اغاروا عليها ، فكانوا يرون ان لهم الحق فى نهب كل مكان تصل اليه ايديهم ، وهذا ما عانته بلاد الشام على ايدى الموجات التركمانية المتلاحقة .

ومن أهم النتائج التى ترتبت على الغزو السلجوقى لبلاد الشام القضاء على العنصر العربى كقوة سياسية فى بلاد الشام . ولم يعد للعرب دور فى حكم بلاد الشام - باستثناء امارة بنى منقذ فى شيزر - ولم يكن فقدان العرب لنفوذهم السياسى فى بلاد الشام مؤقتا ، بل استمر قرونا طويلة ، وكان من آثاره موقفهم السلبى من وصول الحملة الصليبية الاولى الى بلاد الشام والى حد ما من جهاد الصليبيين اثناء حركة الجهاد لاسترداد ما فقده المسلمون من بلاد الشام .

ونجم عن دخول السلاجقة الى بلاد الشام انحسار النفوذ الفاطمى عن معظم هذه البلاد ، مما جعل الفاطميين ينظرون بعين الشك والريبة الى وجود السلاجقة عند اطراف الديار المصرية . ولعل هذا يفسر الموقف السلبى الذى اتخذته الخلافة الفاطمية عندما بدأ الصليبيون زحفهم على بلاد الشام. كما أضاف دخول السلاجقة الى بلاد الشام المزيد من اسباب الفرقة والانقسام المستحكم بين السنة والشيعة لما عرف عن السلاجقة من تعصب للمذهب السنى .

ومن النتائج الايجابية للغزو السلجوقى لبلاد الشام استرداد انطاكية والرها واللاذقية وغيرها من مناطق الثغور التى فقدها المسلمون لحساب البيزنطيين منذ زمن طويل .غير انه تمخض عن الغزو السلجوقى لبلاد الشام آثار سيئة على الحياة الاقتصادية لبلاد الشام ، اذ ان جيوش السلاجقة كانت تتكون فى معظمها من التركمان بطوائفهم المختلفة ، رغم ان التركمان سبقوا الحملات السلجوقية الرسمية الى بلاد الشام ، ومهدوا السبيل بغاراتهم لخضوع بلاد الشام للحكم السلجوقى . ومن المعروف ان التركمان تعودوا على النهب والسلب والتخريب. ولم تسلم بلاد الشام من طبيعة التركمان التى درجوا عليها ، ولذلك كان الغزو السلجوقى فى غالبيته غزوا مدمرا . فمثلا نتج عن اغارة اتسز على جنوب الشام ودمشق انهيار اقتصادى شامل فدمرت قرى ومدن بكاملها ، وجلت اعداد كبيرة من السكان عن ديارهم . ولم تنج المنطقة الشمالية من بلاد الشام من الخراب والنهب ،ومن امثلة ذلك اغارة الافشين على اقليم شمال الشام . ولم يوجد من الحكام السلاجقة من اهتم بالنشاط الاقتصادى سوى آقسنقر فى حلب ، بيد أن ذلك انتهى بمقتله وعاد الانهيار الاقتصادى ليشمل معظم بلاد الشام . يضاف الى ذلك ان تنافس السلاجقة

والفاطميين على بسط النفوذ على موانئ بلاد الشام كان من اثره الحاق الاضرار الاقتصادية بتلك الموانئ ، مما سهل على الصليبيين الاستيلاء على كثير من بلدان الشام وموانئه دون صعوبة كبيرة .

وتجدر الاشارة الى ان الحروب التى نشبت بين السلاجقة والامارات العربية وبين السلاجقة والفاطميين ، وبين قادة السلاجقة انفسهم ، كل تلك الحروب اهدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية التى كان يمكن ادخارها لمواجهة الحملة الصليبية الاولى .

ومن النتائج التى توصل اليها البحث انه على الرغم من القوة التى ظهرت بها الدولة السلجوقية فى عهد ملكشاه فان رحلته الى بلاد الشام سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م لم تؤد الى توحيدها تحت زعامة واحدة . ويعود سبب ذلك الى نظام الاقطاع الحربى الذى استحدثته الدولة السلجوقية اذ اقطع السلطان ملكشاه قادة جيشه وامراءه معظم بلدان الشام والجزيرة ، ووضع بذلك - دون ان يدرى - بذور الانهيار والتفكك للنفوذ السلجوقى فى بلاد الشام والجزيرة . فظهرت بعد موت ملكشاه المنافسات والمنازعات بين قادة السلاجقة فى بلاد الشام . وتمكن تتش اخيرا من السيطرة على معظم بلاد الشام والجزيرة . ولو ركز تتش جهوده على توطيد نفوذه فى بلاد الشام لواجهت الحملة الصليبية دولة متحدة ولتغير مصيرها . غير ان شيئا من ذلك لم يحدث ، اذ امتدت اطماع تتش الى السلطنة السلجوقية فى خراسان ، ودخل فى نزاع مرير مع ابن اخيه بركياروق ، وانتهى الامر بمقتل تتش ليعود الانهيار والتفكك على نطاق اوسع الى بلاد الشام .

وكان من نتائج دخول السلاجقة الى بلاد الشام والجزيرة قيام طبقة عسكرية جديدة مكونة من عناصر الترك والديلم والاكراد وغيرهم وكان الترك هم الاكثرية بين هذه الفئات واستقر معظمهم بمنطقة الجزيرة . وشكلت هذه الطبقة النواة لحركة الجهاد الاسلامى التى انبعثت بعد ذلك من اقليم الجزيرة وذلك لان التركمان الذين دخلوا حديثا فى الاسلام امتازوا بالحماس الدينى ، فضلا عن الموارد الاقتصادية الكبيرة التى كانت تنعم بها منطقة الجزيرة . ومن نتائج الغزو السلجوقى لبلاد الشام ان اصبح الترك من العناصر الرئيسية التى كونت المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام ، وادى ذلك الى امتزاج الكثير من العادات والتقاليد وطرق المعيشة بين العرب والترك وغيرهم من العناصر فى بلاد الشام .

وقبل وصول الصليبيين الى بلاد الشام ضعف النفوذ السلجوقى فى بلاد الشام بسبب تنافس الاخوين رضوان ودقاق ابنى تتش ودخولهما فى منافسات ومنازعات للسيطرة على بلاد الشام . كما لعب القادة السلاجقة والتركمان دورا هاما فى زيادة حدة النزاع بين الاخوين خدمة لمطامعهم فى انشاء امارات خاصة بهم . وانتهى الامر بقيام الكثير من الامارات التركية المتنافسة فى بلاد الشام والجزيرة ، واصبح فى كل مدينة او منطقة امير مستقل بما تحت يده . وبذلك وصلت بلاد الشام الى اقصى درجات التفكك والانقسام قبل الغزو الصليبى .

واثبتت الدراسة ان وجود الاقليات المذهبية والعرقية فى بلاد الشام حال دون الوقوف فى وجه الحملة الصليبية الاولى فالمارونيون مثلا القوا بكل ثقلهم الى جانب الصليبيين بينما صرف الباطنية كل جهودهم فى سبيل مقاومة

الحكام الترك واغتيال خصومهم السياسيين . كما تمخض عن الضغط السلجوقي على هضبة ارمينية نزوح اعداد كبيرة من الارمن عن مواطنهم الاصلية واستقرارهم فى شمال الشام والجزيرة وجنوب آسيا الصغرى ، حول الرها وانطاكية وارتاح وقيليقية وغيرها ، مما سهل مهمة الصليبيين فى الاستيلاء على هذه المناطق والمضى منها الى بقية بلدان الشام بسبب المساعدات التى قدمها الارمن للصليبيين .

وبرهنت الدراسة على ان العداء بين سلاجقة الروم وسلاجقة الشام انتهى بالقطعية بين فرعى البيت السلجوقى مما خدم فى نهاية المطاف الصليبيين . فعندما وصل الصليبيون الى آسيا الصغرى لم يتلق سلاجقة الروم آية مساعدة من سلاجقة الشام وفارس ، مما ساعد الصليبيين على انزال الهزيمة بسلاجقة الروم ، وشقوا طريقهم بسهولة الى الشام ، يضاف الى هذا ان سياسة ملكشاه ازاء سلاجقة الروم أدت الى اضعاف دولتهم ، فظهرت بعض الامارات التركمانية فى آسيا الصغرى ولعبت هذه الامارات دورا هاما فى عدم توطيد نفوذ سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، بحيث لم يواجه الصليبيون فى آسيا الصغرى دولة موحدة تقف أمامهم .

واثبتت الدراسة ان الصليبيين عانوا الكثير من المتاعب وهم امام انطاكية وكان من الممكن القضاء عليهم ، غير ان امراء المسلمين فى بلاد الشام والجزيرة لم يستطيعوا التغلب على الخلافات والمنازعات والاحقاد فيما بينهم ، مما أدى الى فشل النجدة الضخمة التى خرجت بقيادة كربوقا لمساعدة انطاكية فحلت بها الهزيمة ، واضحت بلاد الشام خالية من قوة تجرؤ على اعتراض طريق الصليبيين .

وهكذا اتضح من الدراسة ان نجاح الحملة الصليبية الاولى لا يعود الى مابذلته اوربا والبابوية من جهد فى سبيل حشد تلك الحملة ، ولا الى المساعدة التى قدمها البيزنطيون للصليبيين ، بل يعود نجاحها اساسا الى تفرق المسلمين ومنازعاتهم وفشلهم فى اقامة جبهة اسلامية متحدة تقف فى وجه الصليبيين . قال تعالى : "لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية"(1) .

...

---

(١) سورة الحاقة ، آية ١٢ .

الملاحق

- الملحق الأول : ترجمة أنوشتكين الدزبري (٤١٤-٤٣٣هـ)
- الملحق الثاني : الحروب بين قبائل كلاب وكلب وطي على لسان ثمال المرداسي.
- الملحق الثالث : حوادث بلاد الشام سنة ٤٥١ هـ.
- الملحق الرابع : دوافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام.
- الملحق الخامس : مسير تتش إلى الشام سنة ٤٧١ هـ
- الملحق السادس : حملة ملكشاه إلى ديار بكر سنة ٤٧٧ هـ
- الملحق السابع : ترجمة تتش بن ألب أرسلان.
- الملحق الثامن : وصول الصليبيين إلى أنطاكية ٤٩١ هـ

((ملاحق الرسالـــة))

الملحق الاول : ترجمة أنوشتكين الدزبرى (٤١٤ - ٤٣٣ هـ).
الملحق الثانى : الحروب بين قبائل كلاب وكلب وطى على لسان شمال المرداسى .
الملحق الثالث : حوادث بلاد الشام سنة ٤٥١ هـ.
الملحق الرابع : دوافع الغزو السلجوقى لبلاد الشام .
الملحق الخامس : سيــر تتش الى الشام سنة ٤٧١ هـ .
الملحق السادس: حملة ملكشاه الى ديار بكر سنة ٤٧٧ هـ .
الملحق السابع : ترجمة تتش بن ألب أرســلان .
الملحق الثامن : وصول الصليبيين الى أنطاكية ٤٩١ هـ .

—•—

"الملحق الاول"

ترجمة انوشتكين الدزبـــــرى (١)

(٤١٤ - ٤٣٣ هـ)

أنوشتكين ابومنصور الدزبرى التركى الختلى ، كان يلقب بالامير المظفـــر امير الجيوش وحمل الى بغداد وبيع بها ، وجلب الى الشام فاشتراه بدمشـــق القائد دزبر بن اونيم الديلمى فى سنة اربع ماية ، ورباه فعرف بالشهامـــــة والشجاعة واصابة الراى فاشتهر ذكره حتى اتصل خبره بالخليفة الحاكم بأمـــر الله . فاستدعا به من القائد دزبر فحمل اليه ومعه هدية سنية .. فدخـــل القاهرة فى سنة ثلاث واربعماية ، ومثل بحضرة الحاكم فجعله من جملـــــة الغلمان الحجرية ، وظهر منه عقل وادب وشجاعة وفطنة وذكاء ، فأمـــن بلزوم الخدمة فى سنة خمس واربع ماية ، فواظب على خدمة الحاكم ، فأعجب بــه ، واحبه الاجناد ، فطوقه الحاكم وسوره ، وجعله قايدا وبعثه الى الشام مـــع سديد الدولة ذو الكفايتين ابن الحسن على بن احمد ، المعروف بالضيف فـــى سنة ست واربعماية .

فلما قدم دمشق تلقاه القائد دزبر الذى كان استاذه وترجل له عـــن فرسه الى الارض وقبل يده ، واهدى اليه عدة هدايا. فلما عاد الى القاهرة هـذه السنة لزم الحضرة ، ثم ولى بعلبك فظهر منه عدل فى احكامه وانصاف للرعيـــة ، وكثر الثناء عليه ،فاستدعى الى القاهرة ،وسار حتى بلغ العريش فتلقاه كتـــاب

---

(١) المقريزى ، المقفى ، ورقة ٢٢٤ ب - ٢٢٥ أ - ب .

ولاية قيسارية (١) ، فتأفف من ذلك وسار اليها من العريش ، ثم انه استدعى من قيسارية الى الحضرة فلما وافى الرملة خرج اليه سجل بولاية فلسطين ... فقدمها سنة أربع عشرة واربعمائة فخافه حسان بن مفرج ، وكانت له معه حروب كثيرة ، كان له فى جميعها الظفر ، فنم عليه حسان ، واغرى به الوزير الروذبارى فتوغر صدره عليه ، وسعى به الى ان قبض عليه بعسقلان فى سنة سبع عشرة ، واربع ماية فقام فى امره الاستاذ سعيد السعد صاحب القلم عند الظاهر الى ان اعاده الى الخدمة ، ورد عليه اقطاعه وامواله ولم يزل بالقاهرة الى ان فسد امر بلاد الشام بتغلب العربان عليها واقتضى الحال اخراج عسكر من القاهرة فعينه الوزير على بن احمد الجرجرائى واقامه على العسكر وكتب له امير الجيوش واطلق له خمسة الاف دينار واصحبه صدقة بن يوسف الفلاحى ناظرا فى الاموال وذلك فى ذى القعدة سنة تسع عشرة واربع مايه ، فخرج فى سبعة الاف فارس سوى العرب الرجالة وركب الظاهر الى وداعه وسار الى الرملة ثم الى القدس وجمع العساكر وحارب حسان بن مفرج ، واوقع بصالح بن مرداس ، فانهزم حسان ، وقتل صالح ، واستباح عسكريهما ، وبعث بذلك الى المستنصر فاجيب بالثناء والشكر وزيد فى القابه .

وسار بعد هذه الوقعة الى حلب فحاربه صاحبها شبل الدولة نصر بن مرداس على حماه ، فقتل فى سنة تسع وعشرين وحمل راسه الى القاهرة . وعاد الدزبرى الى دمشق ، ثم سار عنها الى حلب وملكها ، وقد كتب له المستنصر بمملكة حلب ملكا فأحسن الى أهلها ، واستولى على بالس ومنبج ثم عاد الى

---

(١) قيسارية . بلد على ساحل بحر الشام ، كانت تعد فى اعمال فلسطين وكانت تبعد عن طبرية مسافة ثلاثة ايام سيرا على الاقدام وكانت قديما من أمهات المدن ، واسعة الرقعة طيبة البقعة ، انظر : ياقوت ، معجم البلدان .

دمشق . وكانت بينه وبين الروم فى سنة ثلثين واربعماية حروب ظفره الله فيها ونصره وبعث الى الخليفة المستنصر بالله يخبره ذلك . فاجيب بالثناء عليه والشكر منه ، وزيد فى القابه عدة الامام ولما عظم شانه اطرح الوزير الجرجرائى وقصر به فغضب من ذلك وعاد الى حلب ثم عاد منها الى دمشق فى سنة ثلث وثلاثين ، واقام بها وشرع فى بناء دار الامارة بها ، فاتصلت به امور من جهة مصر وان الجرجرائى فى التدبير عليه ،فاقتضى ذلك نفوره ، واعمل الحيلة فى المسير الى حلب واحس به العسكر فثاروا عليه وقاتلوه ونهبوا دار الامارة بدمشق ، فانهزم ليلا ،وخرج الى حلب ،فوافاه بها كتاب المستنصر يتضمن مخاطبته بغير ألقاب ،ويقبح عليه فعله ويزرى به ،ويعد مساويه ، ويهدد فيه تهديدا كثيرا . فأجاب وهو يطلب العفو ، واعتذر عن مسيره الى حلب . فلم يقم غير ليالى قليلة ومات يوم الاحد رابع عشرين جمادى الاولى سنة ثلثين واربعماية .

وكان حسن السيرة ،محمود الطريقة ،مظهرا للعدل متين الدين ،وفى آخر عمره انحرف عن مذهب الاسماعيلية ،وكان هذا اعظم اسباب الوحشة بينه وبين اهل الدولة بمصر . وخلف بعد موته ستمائة الف دينار ، ووجد له بديار مصر وبلاد فلسطين مبلغ مايتى الف دينار ، ووجد له عند التجار مبلغ خمسين الف دينار ، وكانت له مايدة من الفضة تنقسم على اربع قطع وتجتمع بزرافتين حسنة الصنعة وزنها بالرطل الشامى ماية وثلثون رطلا . وكان اذا دخل الى مدينة يكون معه الف بوق وستماية قصبة فضة وثلثماية بوق فضة صفار ،

وثلثماية جنيب منها ثلثون عليها سروج الذهب والزمرد والعنبر ....
ويقال ان الدزبرى مات مسموما لكثرة معاداة الجرجرائى له ، وانه هو
الذى بعث الى اهل دمشق حتى قاتلوه ونهبوا ماله . والله أعلم .
ولانوشتكين هذا صنف ابوالعلاء أحمد بن سليمان المعرى كتاب شرف
السيف ....، وصنف له ابوالهيجاء فارس بن الحسن بن منصور البلخى كتابا
فى سيرته ، وتزوج انوشتكين شواقه ابنه صمصام الدولة ،

...

" الملحق الثانـي "

الحروب بين قبائل كلاب وكلب وطي على لسان ثمال المرداسـي (١)

بغى علينا رجال عاد بغيهـم — عليهم واعان الواحد الصمـد
يا ايها الراكب العادي يخب به — عبل الشوى مجفر أوعبلة أحـد
بلغ تحيتنا طيا وقل لهـم — ماضرنا ذلك الحشد الذى حشدوا
عققتمونا وقد قمنا ببركـم — كما يقوم ببر الوالد الولـد
فما رعت حقنا كلب ولا حفظـت — لنا الصنيعة قحطان ولا أرد
قصدتم الشام اذ غابت فوارسـه — والذئب يرقص حتى يحضر الاسد
واطمعتكم حماة فى ممالكنـا — والمطمع السوء مقرون به الحسد
وما حماة وان بانت بضائـرة — والظفر ان قص لم يالم له الجسـد
ستستقلها ببيض الهند ثانيـة — اذا نزلنا ومن قبيلنا صـدد
لولا الامام ولولا فرط خشيتـه — لم يقطع الجسر من فرسانكم أحـد
وانما نهنهتنا طاعة تركـت — سيوفكم عن اذانا ليس تنغمـد
فحين احوجتمونا لم نلقكـم — غير السيوف المواضي والقنا القصد
ومن كلاب رجال غاب اكثرهـم — عنكم ووأسفا لو انهم شهـدوا
وقد عرفتم وجربتم فوارسنـا — بالمشهدين ونار الحرب تتقـد
ذادوكم بالعوالي عن خيامهـم — فما استبيح لها طنب ولا وتـد
كنتم ثلاثة الاف فردكـم — ثلاثة وابى ان ينفع العـدد

---

(١) ديوان ابن ابى حصينة ، ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٤ .

لا واخذ الله قوما من عشيرتنا ... تألبوا فى زوال العز واجتهدوا

باعوا العشيرة ببيع البخس وانقلبوا ... بالذل ما اخلفوا العز الذى فقدوا

ودر رجال منهم منعوا ... اعداءهم جانب الورد الذى وردوا

ومانعوا دون شام لونبابهم ... وحاولوا عوضا منه لما وجدوا

. . . .

فالد زبرى حطنا من عصى معسه ... على الامام وفى انامهم عبدوا

خانوا الامام وما خنا وافسدهم ... ضعف اليقين ولم نفسد كما فسدوا

. . . . .

" الملحق الثالث "

حوادث بلاد الشام سنة ٤٥١ هـ (١)

وفى رجب سنة ٤٥١ هـ ملك محمود بن شبل الدولة بن الروقلية (٢) ومنيع ابن عمه حلب والقلعة ، واخرجا منها ابا على بن ملهم النايب من قبل مصر بعد ان اذ ماله ، وسببه لما حصل عطيه بن الروقليه بالرحبة ورأى اهلها قد انفذوا الى بغداد بالطاعة واقامة الخطبة للسلطان خاف من بين يديه من العساكر السلطانية فاخذ صاحبا له الى بغداد فى الطاعة والخلافة فطلب من الخليفة خلعا ولقبا ليخطب له ، وعرف ابوعلى بن ملهم بذلك فكتب الى مصر فانزعجوا وعملوا على من يقصد الرحبة ويخرج منها عطية وكاتبوا الى الرحبة وانفذوا جلال الدولة مقدم كتابه ، والقاضى العلوى الزيدى قاضى دمشق الى حلب شدا من ابن ملهم . وعرفت بنو كلاب بمسير بنى كلب الى ارضهم فخافوا وقصدوا ابن ملهم وجلال الدولة والقاضى وقالوا : " قد بلغنا مجىء بنى كلب الى ها هنا لاجل عطية والرحبة ، ونحن نعطيكم رهاين ونكفيكم امر عطية والرحبة من غير ان تطأ بنى كلب ديارنا ومتى فعلتم ذلك اخرجتمونا الى العصيان " . فقالوا : " هذا امر جاء من مصر ليس لنا فيه رأى " . فأيسوا منهم وكتبوا الى عطية بما جرى واستدعوه ليؤمروه ويدفعوا بنى كلب . فاصعد من الرحبة اليهم واستخلفهم وتوثق منهم . واتفق

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان جـ١٢ ورقة ١٨٤ ب - ١٨٥ أ .
(٢) ابن الروقلية نسبة الى والدة صالح بن مرداس التى عرفت بهذا اللقب .

أن قطعة من بني عقيل وسنان وعشائره كانوا نازلين على بني كلاب ، فساروا
بأجمعهم مع عطية الى حمص وحماة فأخذوهما وهما من أعمال بني كلاب واخربوا
سور حمص ، ونهبوا الغلات وجاء ابو تغلب بن حمدان في جماعة من اصحابه
وبني كلاب الى فامية ، ووصلت الكتب الى عطية من مصر باستعطافه ، فرجع عن ذلك
وانصلحت نيته ، وقد كانت عطية بعث وكانت ام محمود بن شبل عنده هذا
الاختلاط قد افسدت جماعة من احداث حلب واستمالتهم ، وكتبت الى محمود
ولدها ومنيع ابن عمه وكانا بالقرب من البلد تقريبا ، وفتح الاحداث الابواب
لهما ، ونادوا بشعارهما ، فدخلا في جماعة من بني كلاب ، وطلبوا جلال
الدولة الكتامي والعلوي القاضي قبل ان يصعدوا الى القلعة ، وقتلوا جماعة
من المغاربة والمصريين ، وصعد قوم من الغلمان البغدادية الى القلعة وحصلوا
مع المغاربة ومع ابن علي بن ملهم ، وصارت الحرب بينهم ، ووثق محمود
ومنيع بمن معهما من الاحداث واطرحا بني كلاب ولم يصلا اليهم ما كان وعداهم
به فانحرفوا وقصدوا ابا تغلب بن حمدان وحصلوا معه ، وثقل على عطية
تملكهما البلد لانتمائه لصاحب مصر وحلف له فسار ابو تغلب بن حمدان حينئذ
الى حلب وعرف محمود ووالدته ذلك فلم يقدروا على ذلك فخرجوا ومعهم الكتامي
والقاضي مقيد [illegible] وخرج ابن ملهم من القلعة ودفع الباب لابن تغلب فدخل
فقتل الاحداث ونهبهم [illegible] واحرق اكثر البلد وجاء عطية الى ابن تغلب فقيده
بقيد من ذهب كان حمله معه من مصر ، ثم [illegible] عنه وافيضت عليه الخلع واعطي
مالا كان ضمن له ، وعزم ابو تغلب على الخروج [illegible] بني كلاب الذين نزل عليهم
محمود ومنيع فاشير عليه ان لا يفعل فلم يقبل واستعول عطية عليهم باهله ومعه
قطعة من الغلمان البغدادية ... وكان قد سلم من الحرب التي قتل ابوه
فيها ، ولما اصعد الى حلب ولما اكثر بن حمدان القتل والنهب وقرب عليهم

مائتي الف دينار التي انفقها على العساكر المجردة فرضوا بذلك ، ثم سار في عشرة الاف من المغاربة والكلبيين وخفاجة وبني عقيل وبني شيبان الى بني كلاب ليبيتهم فثبتوا له وقاتلوه يومهم . فلما كان من الغد نصروا عليه فهزموه وأسروه واخاه . ووقع القتل في اصحابه بقية يومه وليلتهم . وكان القتلى من المغاربة وغيرهم سبعة آلاف رجل وخمسمائة ، وقتل نبهان القرمطي امير بني كلب وافلت ابن البساسيري ... ورجع محمود ومنيع وعلوية الى حلب ، وامنوا ابن ملهم وحلفوا له فنزل وسلم القلعة وعاد عطيه وابن البساسيري الى الرحبة . وبلغ صاحب مصر فاعاد ابا علوان وثمال بن صالح بن الزوقلية الى امارة حلب وانفذه اليها بعد ما عزله عنها . فدخلها وفك ابن حمدان واخاه من الاسر وأفرج عن جلال الدولة والقاضي وأطاعته العشيرة .

...

"الملحق الرابع"

د وافع الغزو السلجوقي لبلاد الشام (١)

ولما قوى أمر التركمانية - خذلهم الله - وحصلت بالرى وصار القريب والبعيد من اهل البلدان يتقبلون من الخوف مثل حسك السعدان (٢) ، وكانت الدولة العلوية - حرسها الله تعالى - فى السابق من نغماتها التى بهـا تتنغم ، وتأخذ فيها مأخذ من أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ، وورد من حيز الروم نسخة كتابها اليها يحملها على التجرد معها لاخذ المملكة العلوية لاولئك الانجاس والاقذار فيجعلون الشام من جملتها نصيب اخوانهم من شياطين الروم الكفار . ففتحت باب المشاورة على هذا القول المهول من الامر ، الذى هو على بعد المشقة يرمى بشرر كالقصر . وقلت ان ابن المسلمة اللعين مغناطيس هذا الشر فانه استطعم طعم الرياسة بملابسة امثاله واستولى منها على غارب اماله ، وان تدبيره اليوم امثل من تدبيره غدا (والتنبه له) ولما طفى الماء اقرب الامور رشدا . وقلت ان الوجه ان اكاتب الكندرى (٣) الذى هو وزير الطاغية بكتاب بالعجمية ، او اكاتب نفرا من المعارفين فطنت حصولهم فى جملة القوم واجتهد فى ان اميل الى الدولة العلوية ادامها الله رؤسهم ، واسقى ماء محبتها بالحكمة والموعظة الحسنة نفوسهم ، فان ذلك لا يخلو من

---

(١) سيرة المؤيد بن الدين داعى الدعاة الفاطمى ، ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) حسك السعدان نبات له ثمرة خشنة تعلق باصواف الغنم والسعدان وما اشبهه حسك ، مفرده حسكة : انظر ، لسان العرب ، مادة حسك .

(٣) الكندرى هو وزير السلطان السلجوقى طغرلبك .

أحد قسمين : اما ان يصيب السهم الغرض وهو الغرض ، واما ان يتسامع العباسى بذكر المكاتبة بيننا وبينهم فلابد رى على اى صفة هى فيتجسس من جهته وينقبض ، فأذن فيه وكتب الكتب على احسن صيغة فيما يكتب فى مثله ، فكسر الموسل بها لتخلفه لحاجة فى الصدور وانتظم فى سلك من قال الله تعالى : " اينما يوجهه لا يأت بخير "(١) فدنا القوم زيادة دنوا ، وزاد الامر فيما يحدث عنهم من فساد فى الارض ، وعتو بسطا للايدى فى الاموال والحريم واستنانا بسنة من لا يؤمن بالله العظيم ، وحصلت العراق بمجاورتهم مرتجفة ، وصدور اهلها بالروع منهم متخشفة .

ووقع التشاور على مكاتبة ابى الحارث (٢) والعسكر البغدادى ، واشعارهم بكوننا لهم سنادا ، ولهم فى الارفاد والانجاد عمادا . وكتبت الكتب ونفذ بها من تحيف ريشه ريب المنون من قبل وصوله بها وايصاله لها ، وضاعت الكتب وتوجهت بتوجهه الى الحجاز حاجا ، ولما ابت استأنفت المكاتبة بما انفذت به أحمد بن الحسن فسابق حصوله بنواحى العراق دخول التركمانية بغداد وتملكهم لها وحصول ابى الحارث والعسكر على نشز من ارضها بحيلة عملها ابن المسلمة (٣) فيما يفرق شملهم ويقطع حبلهم ، فما كان كتابى عندهم الا صحيفة نزلت من السماء ، واهتزوا له اهتزاز الارض الهامدة لنزول الماء . واجابوا يدعون ويشكرون ، ويقولون ما أوتينا عن ذلة ولا عن قلة ، ولكنا عن قوس المكر رمينا ، وبماء السحر سقينا ، فان اخذتم بايدينا اخذنا لكم البلاد ، وان

---

(١) القرآن الكريم سورة النحل آية ٧٦ .
(٢) ابو الحارث البساسيرى .
(٣) ابن المسلمة وزير الخليفة العباسى القائم .

قلدتمونا نجاد نصركم وانجادكم ، فتحنا من جهتكم الاغوار والانجاد ، والتمسوا من المال والخيل والسلاح ما يريش السهم ويمضي في النهضة الوعد وهم العزم ، ذاكرين ان الدرهم اذا تكلف لهم فيما يمضي من سيف عزمهم غرارا عرضوا عنه دينارا وانه لا يرد ثانيا كتابهم جوابا لهذا الكتاب الا من الرهبة وقد تدبروها ينزعون من حرور خوف البطشة التركمانية الى ظل امن الدولة العلوية ويتسمون نسيم نعيمها الفائح الريا ، ويلمحون وجه قبولها واقبال الكريم المحيا فوقع الاهتمام باعداد المال والخيل والسلاح لتحمل اليهم .

• • •

" الملحق الخامس "

مسير تتش الى الشام سنة (٤٧١ هـ)(١)

فى هذا الشهر (جمادى الاولى سنة (٤ هـ) عاد تتش اخو ملك شاه من حصار حلب، وعبر الفرات ونزل بالبارعية ، وكان من العقلاء الساسة وكان مقيما ببلاد جنزه وبرذعة(٢) ، فلما جرى على اتسز بن اوق الخوارزمى فى مصر ما جرى كتب ملك شاه الى تتش بالمسير الى الشام فسار على تؤده حتى انتهى الى ديار بكر فبلغه ان اتسز لم يهلك وانه قد اخرب الشام ، وقتل اهله بعصيانهم عليه . فكتب الى السلطان يخبره وطلب منه عسكرا فانه كان فى قلة من العساكر وعرف اتسز فبعث الى السلطان هدايا ومالا وقال : " مافعلت فعلا يقتضى انفاذ الامير تتش نحوى فاننى العبد الطائع وأنا نايب فى هذه البلاد عن السلطان ، ما اخذ منها غير ما اصرفه فى مؤنتى والجند الذين معى وانا احمل فى كل سنة الى الخزانة ثلاثون الف دينار " . فكتب السلطان الى تتش ان لا يتعرض الى الشام الاعلا ويقصد ناحية حلب، وبعث اليه الامير الافشين وصندق الحاجب بمن معهما من التركمان . وكان الحاجب ايتكين قد انضم الى تتش من ديار بكر ثم عبروا الفرات وبدوا بمنبج فحاصروها ثم قصدوا حلبا وحصروها ، واقاموا عليها شهورا . وكان صاحبها سابق بن محمود وجاءهم مسلم بن قريش نجدة ، واستدعى السلطان الحاجب ايتكين بسؤال مسلم لانه كان عدوه وتحالفت بنو كلاب على قتال الغز ودفعهم عن البلاد

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ١٣ B ورقة ٤٧ ب - ٤٨ أ ، ٥٠ أ - ب .

(٢) جنزه : اسم اعظم مدينة بأران وهى بين شروان واذربيجان بينها وبين برذعة ستة عشر فرسخا ، وبرذعة بلد فى اقصى اذربيجان وهى قصبتها ، انظر ياقوت ، معجم البلدان .

وكان مع مسلم غلال كثيرة له ولاصحابه وكان بحلب غلاء شديد ، فباعهم منها ، فعاتبه تتش وقال : " انت اتيت فى مساعدتى عليهم او تقويتهم ، ارجع الى اعادى ، مالى اليك حاجة " ، فعاد الى سنجار ، ولقى عليها بهاء الدولة من امراء التركمان نجدة للتتش فخوفه المسير من بنى كلاب فلم يلتفت ، وقطع الفرات ونزل وادى بزاعة ، فقصدته كلاب بجماعة من بنى عقيل ، فاوقعوا به ونهبوه وقتلوا معظم اصحابه . وبلغ تتش فخرج من حلب يريد بنى كلاب وترك اثقاله على حلب فخرج اهلها فنهبوها وقتلوا من اصحابه وانصرف التركمان عنه وعبر الفرات وجاء الى بزاعة فعبر يريد اعمال مسلم لانه اتهمه فوجده قد جمع واستعد فسار الى ديار بكر فاجتاح اعمال نصر بن مروان واقام بها يخربها وينهب ويقتل ومسلم يدافعه وينفق الاموال فلى العساكر ، وكتب تتش الى ملك شاه يعرفه الاحوال ويطلب نجدته .

قال محمد بن الصابى فى ربيع الاخر سنة ٤٧٢ هـ وصل الامير تاج الدولة تتش الى دمشق وملكها ، وذكر القصة ، كان بدر الجمالى قد سير من مصر الى دمشق الجيوش من العرب والغز الاكراد وصنهاجة والبربر والسودان وبنى خفاجة والامير عليهم غلام له متقدم عنده والامر مردود الى ابى الفرج المغربى ، فساروا الى دمشق وحصروا اتسز فارسل الى تتش وهو يحاصر حلب يستنجده ، فرحل الافشين وبلغ العسكر المصرى فتاخر الى الرحلة ووصل تتش الى دمشق وخرج اليه اتسز فقبض عليه وقتله واستولى على البلد فاستوحش الافشين منه فعاد هاربا فنهب المعرة وكفر طاب ، وذهب الى انطاكية ، فأخرب وقتل ونهب وصانعه اهلها على ثلثين الف دينار وجرت فيها قصص ولم يعطوه شيئا .

"الملحق السادس"

حملة ملكشاه الى ديار بكر (١)
سنة ٤٧٧ هـ

وفي يوم الاثنين منتصف ربيع الاول (سنة ٤٧٧ هـ) كانت وقعة عظيمة على باب امد بين فخر الدولة بن جهير ومسلم بن قريش. ذكر السبب ، كان ابن جهير قد سار الى ديار بكر لفتحها فبلغه ان مسلم على قصده ومنعه ، فكتب الى السلطان يلتمس منه عسكرا لدفعه فتقدم الى ارتق بك بجمع التركمان والعرب لفخر الدولة ففعل . وسار مسلم الى ابن جهير فارسل الى ارتق بك فجاءه بجمع كثير من التركمان ، ووقعت المراسلة وكل اشار على مسلم بالرجوع الى عماله فقال : " ترجعون مرحلة الى وراءكم وارجع ليلا لئلا يقال انني عدت منهزما ، فامتنع ارتق بك وقال : " انا لا ارد رايات السلطان على عقبها " . وعرف التركمان مايجري فقالوا : " نحن جينا من البلاد البعيدة لطلب النهب وهؤلاء يسارعون في الصلح " وركبوا نصف الليل من غير اعلام الارتق ، واشرفوا يوم الجمعة على العرب وكانوا ضعافا فاوخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب واحتاطوا بهم . ولم يكن لمسلم سبيل الى الهرب ، فطلبوا صوب آمد وتبعه ابن مروان وجماعة من اصحابهما فدخلوا امد وبقوا يومهم وليلتهم . واشرف ابن جهير وارتق بك على القوم ضاحي النهار وقد استولى التركمان على الحلل والاموال والمواشي وكان مما لا يحد ولا يحصر واخذوا النساء وفضحوهن وربطوا امراء بني عقيل بالحبال وباعوهم بالقراريط . واشتمل التركمان عشرة آلاف رمح تحت القدور ، وجرى على العرب مالم يجرى عليهم قبله مثله ، وسبوا

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، جـ١٣ B ورقة ٦٩ ب - ٧٠ ب .

نساءهم وبلغ الفرس الجيد دينارا ، وكذا الجمل والرأس الغنم نصف قيراط والعبيد والاماء من دينار الى دينارين وما سوى ذلك فما اشترى ولا بيع .

وراسل مسلم ارتق بك وقال : " لمثل هذا اليوم خبأتك ولمثله تستجب الصنيعة واريد ان تمن على بنفسى " ، وبذل له مالا ارغبه فيه باجابه وبعث ابن جهير الى ارتق بك يقول : " قد حصلت بنو عقيل فى ايدى التركمان ويجب ان تجمعهم وتنفذ بهم الى السلطان وتقيم على هذا الانسان (يعنى مسلم بن قريش) ، وتستنزله وقد ملكت الارض الى مصر " . فقال ارتق بك : " هذا امر ما اليك منه قليل ولا كثير وانا صاحب الحرب وليس من عادتنا من ناسره ان نحبسه بل نبيعه ونطلقه " وكانت نية ارتق بك مع السلطان غير مستقيمة فانفذ ابن جهير اليه يقول : " ان السلطان انفذ لى ومعى جندا بين يدى يفعلون ما أراه " . وكانوا على امد فغضب ارتق بك ورحل من وقته وذلك فى اليوم الاول من الوقعة ، وتبعه اكثر التركمان وقصد سنجار . وسار ابن جهير ومن معه الى ميافارقين ولم يقدروا على المقام بعد ارتق بك ، فخرج مسلم من امد يوم الاحد لتسع بقين من ربيع الاول ، ووصل الرقة ، وبعث الى أرتق بك بما كان بذله له وزاده . واقام ابن جهير على ميافارقين فاشتد الغلا ، وراسل اهلها واهل امد ، فهموا بفتح الابواب . وعلم ابن مروان فقبض عليهم وبطل ذلك التدبير . ومضى ابن جهير الى اخلاط وعاد من معه الى العراق وكتب الى السلطان يشكو ارتق بك ، وكان اتصل بالسلطان ما جرى وان مسلم فى امد محصورا ولم يشك فى اخذه فندب عميد الدولة لحرب الجزيرة واخذ مسلم ورد اليه امر حلب والرحبة وبعث معه قمارتكين صراب الحاجب وجماعة من الاتراك . وكوتب ارتق بك بموافقته فصار من اصفهان

وبلغه فى الطريق خلاص مسلم فكتب الى السلطان يخبره فسار السلطان يريد الموصل . وسار ارتق بك من سنجار الى الموصل فالتقى عميد الدولة وكان قد مرض بدقوقا ونزلا بازاء الموصل ، وراسل عميد الدولة اهلها ان يفتحوا للسلطان الباب ويطيعوه فقالوا : " اذا حضر السلطان سلمنا اليه " . وجاء السلطان فخرج اليه نواب مسلم واجابوه واطاعوه وقالوا : "امرنا صاحبنا الا نغلق فى وجهك بابا " . فاعجبه ذلك وامنهم ودخل اليها واقام اياما ..

.... وجاء السلطان خبرمن ناحية اخيه تكش ، فراى اعادة مسلم الى بلاده فارسل اليه ابا بكر بن نظام الملك وكان نازلا بمقابل الرحبة فتوثق به وعاد به الى السلطان فخلع عليه واعاده الى اعماله ورجع الى اعماله .

...

"الملحق السابع"

ترجمة تتش بن ألب أرسلان (١)

فيها (سنة ٤٨٨ هـ) توفى تتش ابوسعيد بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقى ، كان صاحب البلاد الشرقية ، فلما حاصر امير الجيوش بدر الجمالى دمشق من جهة صاحب مصر وكان صاحب دمشق يومئذ اتسز بن اوق الخوارزمى ا سير أتسز الى تتش يستنجد به فسار اليه بنفسه وخرج اتسز الى تلقيه فقبض عليه تتش وقتله واستولى على مملكته وذلك فى سنة احدى وسبعين واربعمائة لاحدى ليلة خلت من شهر ربيع الاخر . ثم تملك حلب بعد ذلك سنة ثمان وسبعين واربعمائة . ثم جرى بينه وبين ابن اخيه بركياروق منافرات ومشاجرات ادت الى المحاربة ، فتوجه اليه ، وتصافا بالقرب من مدينة الرى ، فانكسر تتش ، وقتل فى المعركة . وخلف ولدين احدهما فخر الملوك رضوان والاخر شمس الملوك دقاق ، فاستقر رضوان بمملكة حلب ودقاق بمملكة دمشق . ولما قتل تتش حمل راسه الى بغداد وطيف به ثم وضع فى خزانة الرؤوس . وكان تتش شهما مقداما فاتكا سامحه الله تعالى .

---

(١) ابن شاكر الكتبى ،عيون التواريخ جـ ٣ ورقة ١ - ٢ .

" الملحق الثامن "

وصول الصليبيين الى أنطاكية (١)

سنة ٤٩١ هـ

ذكر ابتداء ظهور الفرنج الى بلاد الاسلام . الكلام منه على انواع، الاولى فى ابتداء خروجهم ،كان خروجهم : اولا : بالمغرب فخرجوا الى بلاد الاندلس ، واستولوا عليها وفتحوا من المدن طليطلة وغيرها سنة ثمان وسبعين واربعمائة . وملكوا جزيرة صقلية فى سنة اربع وثمانين واربع ماية ، وتطرقوا الى اطراف افريقية فملكوها . الثانى : فى سيرهم الى بلاد الشام ، لما كان هذه السنة اعنى سنة تسعين واربع ماية خرجوا الى بلاد الشام وكان سبب خروجهم ان ملكهم برد ويل (٢) جموع جمعا كثيرا من الافرنج لقصد الشام ، وساروا الى القسطنطينية ليعبروا البر فيكون اسهل عليهم من البحر فلم يمكنهم صاحبها من العبور ثم شرط عليهم ان ملكوا انطاكية يعيدونها عليهم . وظن صاحب القسطنطينية ان الاتراك يستظهرون عليهم لشدة باسهم لانهم ملكوا البلاد ، فاجابوه الى طلبه فمكنهم من العبور ،فوصلوا الى بلاد قلج ارسلان ابن قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق وهى قونية وغيرها فقاتلوهم وهزموهم . وعبروا الى بلاد ابن ليقون الارمنى فسلكوها ،وخرجوا الى انطاكية . فلما سمع صاحبها باغى سيان التركمانى حصن البلد واخرج النصارى منها ، فجاء الفرنج بالعدة والعدد حتى نزلوا عليها وحصروها اشد الحصار وقاتلوها تسعة شهور ، وقتل من الفريقين جمع كثير. فلما طال مقام الفرنج عليها

---

(١) العينى ، عقد الجمان ، جـ١١ ورقة ١٢١ أ ـ ب .
(٢) المقصود بلدوين .

وبها شخص مستحفظ بعض الابراج يعرف بروزبه (كذا) فبذلوا له مالا واقطاعا وكان البرج على الوادى وهومبنى على شباك حديد يخرج منه فى الشتاء ماء المطر وانه مكنهم من طلع ذلك الشباك ودخولهم ، فصعد جماعة كثيرة فى الليل .فلما اصبحوا اشهروا السلاح وهجموا على المسلمين فقتلوا وفتكوا . وأما ياغى سيان فانه قاتل ثم فتح الباب وهرب ومعه جماعة وتركها لهم وسار منها كالولهان فنزل على اربعة فراسخ منها . وندم حيث لم يقتل عند اهله وعياله فوقع مغشيا عليه فمات فى تلك الساعة وتركه اصحابه . .

ثم ان الفرنج كاتبوا صاحب حلب ودمشق يقولون اننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم مكرا منهم وخديعة ، فلما بلغ ذلك كربوغا جمع العساكر وسار الى مرج دابق وهو مرج واسع بالقرب من حلب من ناحية الشمال . واجتمعت اليه عساكر الشام وهم دقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتكين اتابك وجناح الدولة صاحب حمص ،وهو زوج ام الملك رضوان ، وكان قد فارق رضوان من حلب وسار الى حمص فملكها وأرسلان صاحب سنجار وسليمان ابن ارتق صاحب سروج وغيرهم من الامراء . . . وساروا الى انطاكية فحاصروها بالجموع حتى انحصر الفرنج بها وعظم خوفهم وقلت الاقوات عندهم حتى طلبوا من كربوغا ان يطلقهم فامتنع . ثم ان كربوغا أساء السيرة مع الامراء وتكبر عليهم ، فخبثت نياتهم عليه ،وكان فى انطاكية بردويل وصنجيل وكندهرى (١) والقمص صاحب الرها وبيمند (٢) صاحب انطاكية . ولما ضاق عليهم الامر اجتمعوا

---

(١) اى جود فرى .
(٢) اى بوهيمند .

وخرجوا من انطاكية واقتتلوا مع المسلمين . وكان الامراء الذين مع كربوغا قالوا له : " الصواب ان نحمل عليهم ونقاتلهم اولا باول " فقال لهم : " بل نتركهم الى ان يخرجوا جميعا ونحمل عليهم . فلما تكامل خروج الفرنج ضربوا مصافا فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا اولا من الاهانة والاعراض عنهم ، وثانيا بانه لم يسمع رايهم . وتمت الهزيمة عليهم لا ضربا بالسيف ولا طعنا بالرمح . وقتل الفرنج من المسلمين الوفا ، وغنموا ما في المعسكر من الاموال والاقوات والدواب والاسلحة فصلحت بها حالهم وعادت اليهم قوتهم . وفي تاريخ المؤيد فقتلوا من المسلمين مايزيد على مائة ألف انسان وسبوا السبي الكثير .

• • •

المصادر والمراجع

((المصـــادر والمراجــع))

أولا : المصادر العربيـــة

- ابن أبى أصيبعه (موفق الدين ابى العباس احمد بن القاسم ، ٦٠٠ - ٦٦٨هـ/ ١٢٠٣ - ١٢٦٩م)
عيون الانباء فى طبقات الاطباء ،
تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥م .

- ابن أبى حصينة (الامير ابى الفتح الحسن بن عبد الله السلمى المعرى ، ت ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م)
ديوان ابن أبى حصينة ،
تحقيق محمد أسعد طلس ، دمشق ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦م .

- ابن أبى الدم الحموى (أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله ، ت ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤م)
التاريخ المظفرى ،
مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهـــرة ،
رقم ٩٦٦ تاريخ .

- ابن الاثير الجزرى (ابو الحسن على بن ابى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الملقب بعز الدين ، ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م)
١ - الكامل فى التاريخ ، ط . ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦م .
٢ - التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر احمـــد طليمات ، القاهرة ١٩٦٣م .

- ابن أيبك الداوادارى (ابوبكر عبد الله بن ايبك ، ت ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢م)

١ - درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ،

مخطوط بالمكتبة السليمانية باستامبول رقم ٩١٣ .

٢ - كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس وعنوانه : الدرة المضية فى اخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١م .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين ابوالمحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى ٨١٣ - ٨٧٤ هـ / ١٤١٠ - ١٤٦٩م)

١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، جـ٨ مخطوط مصور على ميكروفيلم بمركز البحث العلمى بكلية الشريعة بمكة المكرمة .

٢ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الاجزاء ٤ ، ٥ ، ٧ ، ط. القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢م .

- ابن الجوزى (ابوالفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ، ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠١م)

المنتظم فى تاريخ الملوك والامم جـ ٨ - ٩ ، ط. حيدر اباد ١٣٥٩هـ .

- ابن حزم (ابومحمد على بن احمد بن سعيد بن حزم الظاهرى ، ٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٤م)

الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، ٥ اجزاء .

بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م .

- ابن حوقل (ابوالقاسم محمد بن على ، ت ق ٤ هـ / ١٠م)

صورة الارض ، ليدن ١٩٣٩م .

- ابن حيوس (ابوالفتيان محمد بن سلطان بن محمد ، ت ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠م)

ديوان ابن حيوس ، جزءان .

تحقيق ونشر خليل مردم بك ، دمشق ١٣٧١ هـ / ١٩٥١م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون)
بيروت ١٩٥٧ - ١٩٥٨م .

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، ٦٠٨ - ٦٨١ هـ / ١٢١١ - ١٢٨٢ م)
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - ٨ أجزاء .
تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٧ م / ١٣٩٧ هـ .

- ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن احمد بن عبد الرحمن ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م)
عيون التواريخ ، جـ ١٣ ، مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ١٨٤٠ تاريخ .

- ابن الشحنة (ابو الوليد محب الدين محمد بن محمد ، ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م)
روض المناظر فى علم الاوائل والاواخر .
مخطوط السليمانية باستامبول رقم ٨٧٠ .

- ابن شداد (عز الدين ابى عبد الله محمد بن على بن ابراهيم الحلبى ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)
الاعلاق الخطيرة فى ذكر امراء الشام والجزيرة
الجزء الثالث الخاص بتاريخ لبنان والاردن وفلسطين تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .
والجزء الاول الخاص بحلب مخطوط احمد الثالث باستامبول رقم ١٥٦٤ وتحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ١٩٥٣م .

- ابن الصيرفى (أبو القاسم على بن منجب بن سليمان ، ت ٥٥٠ هـ / ١١٦٠ م)
الاشارة الى من نال الوزارة
تحقيق عبد الله مخلص ، القاهرة ١٩٢٤ م .

- ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقا) الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦م .

- ابن طولون (محمد بن على بن طولون الحنفى الصالحى)
الشمعة المضية فى اخبار القلعة الدمشقية ، مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٢٩٥ .

- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)
مسالك الابصار فى الممالك والامصار .
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستانبول رقم ٢٧٩٧ .

- ابن الفوطى (كمال الدين ابو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين احمد ، ٦٤٢ - ٧٢٣ هـ / ١٢٤٤ - ١٣٢٣م)
تلخيص مجمع الاداب فى معجم الالقاب ، الجزء الرابع / القسم الثالث ،
تحقيق مصطفى جواد ، دمشق ١٩٦٥م .

- ابن القلانسى (ابويعلى حمزة بن القلانسى ، ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م .

- ابن كثير ، (عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى ، ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية جـ ١٢ ، بيروت ١٩٧٧م .

- ابن العبرى " غريغوريوس ابو الفرج بن اهرون المعروف بابن العبرى ، ت ٦٦٠ هـ / ١٢٨٦م)
تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠م .

- ابن العديم (كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله ، ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م)
١ - بغية الطلب فى تاريخ حلب ، ٨ أجزاء ، مخطوط احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٢٥ .
٢ - زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جزءان تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١م .
- ابن عساكر (ابو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى ، ت ٥٧١ هـ)
تاريخ مدينة دمشق او التاريخ الكبير .
المجلدة العاشرة ، تحقيق محمد دهمان بدون تاريخ
المجلدات ٢ ، ٣ ، ٥ تصحيح وترتيب عبد القادر بدران ، ط . دمشق ١٣٣٠ - ١٣٣٢ هـ .
- ابن العماد الحنبلى (ابو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد ، ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨م)
شذرات الذهب فى اخبار من ذهب ، الجزء الثالث ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ابن العمران (محمد بن على بن محمد ، ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م)
الانباء فى تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائى ، ليدن ١٩٧٣م .
- ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن جلب ، ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨م)
اخبار مصر ، جـ ٢ تصحيح هنرى ماسيه ، القاهرة ١٩١٩م .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨م)
١ - التاريخ الصالحى ، مخطوط بمكتبة فاتح برقم ٤٢٢٤ والمكتبة السليمانية باستامبول .
٢ - مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب جـ ١ تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣م .

- ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر بن ابى الفوارس ت ٧٤٩ هـ)
تتمة المختصر فى اخبار البشر (تاريخ ابن الوردى) ،تحقيق احمد رفعت البدراوى ، بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠م.

- ابوشامه (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى ،ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م)
الروضتين فى اخبار الدولتين ،تحقيق محمد حلمى احمد ج ١ ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٥٦م.

- ابوالفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماة ، ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م)
١ - المختصر فى اخبار البشر ،ج٢ ، ٣ ، بيروت ،بدون تاريخ .
٢ - تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م.

- اسامة بن منقذ (اسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ ،ت ٥٨٤هـ/ ١١٩٢م)
الاعتبار ،تحقيق فيليب حتي ، ط. برنستون ١٩٣٠م.

- الاربلى (عبد الرحمن سنبط قنيتو الاربلى ،ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧م)
خلاصة الذهب المسبوك ،مختصر من سير الملوك
تصحيح مكى السيد جاسم ، بغداد ١٩٦٤م.

- الازدى (جمال الدين على بن ظافر ،ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦م)
اخبار الدول المنقطعة ،القسم الخاص بالفاطميين
تحقيق اندريه فريه ، القاهرة ١٩٧٢م .

- الاصفهانى (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد المشهور بالعماد الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م)
١ - تاريخ دولة آل سلجوق ،اختصار الفتح بن على بن محمد البندارى ، بيروت ١٩٧٨م .
٢ - خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ،تحقيق شكرى فيصل ج ١ ط. دمشق ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥م ،ج٢ ط.دمشق ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩م.

- الاصفهانى (عماد الدين القاضى محمد بن محمد ، المتوفى بعد سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٧م)
البستان الجامع لجميع تواريخ اهل الزمان ،
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٥٩ .
- الجنابى (الشريف ابومحمد مصطفى بن السيد حسن الحسينى الهاشمى ، ت ٩٩٩ هـ / ١٥٩٠م)
البحر الزاخر فى احوال الاوائل والاواخر ،
مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢ .
- الحسينى (ابوالحسن على بن ابى الفوارس ناصر بن على)
اخبار الدولة السلجوقية
نشر محمد اقبال ، لاهور ، ١٩٣٣م .
- الحسينى (الوزير محمد بن محمد بن عبد الله بن النظام الحسينى ، ت ٧٤٣ هـ/ ١٤٣٩م)
العراضة فى الحكاية السلجوقية
ترجمة وتحقيق عبد النعيم حسنين ، وحسين امين ، بغداد ١٩٧٩م .
- الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م)
١ - معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، ط . بيروت ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م .
٢ - معجم الادباء ، تصحيح د . س . مرجليوت ، القاهرة ١٩٢٤م .
- الحميرى (محمد عبد المنعم الصنهاجى ، ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧م)
الروض المعطار فى خبر الاقطار ،
تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥م .
- الحنبلى (مجيرالدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمى ، ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢م)
الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، بيروت ١٩٧٣م .

- الذهبى (شمس الدين محمد بن احمد بن قايماز ، ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م)
١ - تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩١٧ .
٢ - دول الاسلام ، تحقيق فهيم شلتوت ومصطفى ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
٣ - العبر فى خبر من غبر ، تحقيق فؤاد السيد ، الكويت ١٩٦١م .

- الراوندى (محمد بن على بن سليمان ، كان حيا بين عامى ٥٧٠ - ٦٠٣ هـ / ١١٧٤ - ١٢٠٦م)
راحة الصدور واية السرور ،
ترجمة عبد النعيم حسنين واخرون ، القاهرة ١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠م .

- الروذراورى (ابو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله الوزير ، ٤٣٧-٤٨٨ هـ/ ١٠٤٥ - ١٠٩٥م)
ذيل كتاب تجارب الامم ، ج ٣ ، القاهرة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦م)

- سبط ابن الجوزى (ابو المظفر يوسف بن قزاوغلى ، ٥٨٢ - ٦٥٤ هـ /١١٨٦- ١٢٥٦م)
مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، جـ١٢ ، ١٣ B
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول رقم ٢٩٠٧ .

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م)
الضوء اللامع لاهل القرن التاسع
الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦م .

- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر بن محمد ، ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)
تاريخ الخلفاء ،
تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥م .

- الشهرستانى (ابوالفتح محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م)
الملل والنحل ،
تقديم واعداد عبد اللطيف محمد العبد ، القاهرة ١٩٧٧م.
- صالح بن يحيى (صالح بن يحيى بن الحسين ، ت ٨٤٠ هـ/١٤٣٩م)
تاريخ بيروت
تحقيق فرنسيس هورس واخرون ، بيروت ١٩٦٧م.
- الصفدى (صلاح الدين خليل بن ايبك ، ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣م)
١ - تحفة ذوى الالباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ،
مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة
رقم ١٥٢ تاريخ .
٢ - الوافى بالوفيات جـ ٦ ، ٨ ، ٩ ، باعتناء ديدرينغ واخرون ،
بيروت ١٩٧١ - ١٩٧٣م.
٣ - أمراء دمشق فى الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق
١٩٥٥م.
- الطرسوسى (مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى ، ت ٥٨٩ هـ / ١٠٩٣م)
تبصرة ارباب الالباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء ، ونشر
اعلام العلم فى العدد والالات المعينة على لقاء الاعداء .
حققه ونشره كلود كاهن ، مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق ،
جـ ١٢ (١٩٤٧ - ١٩٤٨م.)
- الفارقى (احمد بن يوسف بن على بن الازرق ، ت ٥٩٠ هـ/١٠٩٤م)
تاريخ الفارقى ، او الدولة المروانية
تحقيق بدوى عبد اللطيف ، ط. بيروت ١٩٧٤م.

- القرمانى (ابوالعباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقى ،ت ١٠١٩ هـ/ ١٦١٠م)
اخبار الدول واثار الاول فى التاريخ ، بغداد ١٢٨٢ هـ.

- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠م.

- القلقشندى (ابوالعباس احمد بن على ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)
١ - صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزء ، القاهرة، ١٩١٩ - ١٩٢٢م.
٢ - مآثر الانافة فى معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، الكويت ١٩٦٤م.
٣ - نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٩م.

- العظيمى (محمد بن على بن محمد ،ت بعد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣م)
تاريخ العظيمى نشره كلود كاهن C. Cahen فى :
Journal Asiatique , (1938) pp. 353 - 448.

- العينى (بدر الدين ابومحمد بن احمد بن موسى الشهير بالعينى ،ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١ م)
١ - السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد ،تحقيق فهيم شلتوت ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧م.
٢ - عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان ،جـ١١ (حوادث ٤٣١ - ٥٢٠هـ) مخطوط على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، رقم ٣٣٤ / ٢.

- مسكويه (ابوعلى الخازن احمد بن محمد بن يعقوب ،ت ٤٢١ هـ/١٠٣٩م)
تجارب الامم ،جـ٢ ، القاهرة ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٥م.

- المقريزى (تقى الدين احمد بن على بن عبد القادر ،ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م)
١ - اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ،جـ ٢-٣ تحقيق محمد حلمى احمد ، القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١م.
٢ - اغاثة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٥٦م.
٣ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (ط. القاهرة ، ١٢٧٠ هـ .
٤ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ،جـ ١ القسم الاول ، القاهرة ١٩٥٦م.
٥ - المقفى او - التاريخ الكبير المقفى فى تراجم اهل مصر والوارديـن اليها ، مخطوط بالمكتبة السليمانية باستامبول رقم ٤٩٦.

- المؤيد فى الدين ، هبة الله بن موسى بن داود الشيزازى ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨م)
سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، تحقيق محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩م.

- ناصر خسرو (ت ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٨م)
سفرنامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، بيروت ١٩٧٠م.

- نظام الملك (الوزير الحسن بن على بن اسحاق بن العباس الطوســـى ، ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م)
سياسة نامة ، ترجمة السيد محمد العزاوى ، القاهرة ١٩٧٥م .

- النويرى (شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ،ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢م)
نهاية الارب فى فنون الادب
مخطوط بمكتبة احمد الثالث باستامبول ،جـ٢١ رقم ١٣٦٩ E.H.

- اليافعي (الامام ابومحمد عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان ، ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م)
  مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، جـ٣ ط. بيروت ١٩٧٠م.
- اليعقوبي (احمد بن ابي يعقوب بن واضح ، ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧م)
  كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١م.

ـــ•ـــ

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة

- ابراهيم خليل ،كربوقا صاحب الموصل ودوره فى مقاومة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الخامس (١٩٧٤م)
- احمد احمد بدوى
الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. القاهرة ١٩٧٢م.
- احمد رمضان احمد
١ - شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م.
٢ - المجتمع الاسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م.
- احمد كمال الدين حلمى
السلاجقة فى التاريخ والحضارة ، الكويت ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م.
- آرمينيوس فامبرى
تاريخ البخارى ،ترجمة احمد محمود السادانى ، ومراجعة يحى الخشاب القاهرة ١٩٦٥م.
- امينة محمد على بيطار ،
موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس الهجرى ،
رسالة ماجستير لم تطبع ، جامعة القاهرة باشراف الدكتور احمد دراج القاهرة ١٩٧١م.
- بارتولد
تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ،ترجمة احمد السعيد سليمان ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨م.

- باركر (ارنست) ، الحروب
الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧م.
- تامارا تالبوت رايس ،
السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفى الخولى وابراهيم الداقوقى
بغداد ١٩٦٨م.
- خاشع المعاضيدى ،
الحياة السياسية فى بلاد الشام خلال العصر الفاطمى ٣٥٩ - ٥٦٧ هـ/
٩٦٩ - ١١٧١م ، بغداد ١٩٧٥م.
- حسن الباشا ،
الالقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والاثار ، القاهرة ١٩٧٨م.
- حسن حبشى ،
الحرب الصليبية الاولى ، القاهرة ١٩٥٨م.
- حسنين محمد ربيع ،
النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ، القاهرة ١٩٦٤م.
- رشيد الجميلى ،
امارة الموصل فى العصر السلجوقى ٤٨٩ هـ - ٥٢١ هـ ، بغداد ١٩٨٠م.
- زامباور ،
معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، القاهرة ،
١٩٥١م.
- ستيفن رونسيمان ،
تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت
١٩٦٧م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور ،
١ - الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٨م.
٢ - مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، القاهرة ١٩٧٠م.
٣ - اوربا العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٢م ، ١٩٧٥م
٤ - بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٧م.

- سهيل زكار ،
١ - مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢م.
٢ - تاريخ العرب والاسلام ، بيروت ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م.
٣ - مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، بيروت ، بدون تاريخ .

- السيد الباز العرينى ،
١ - الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥م.
٢ - الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣م.
٣ - مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢م.

- السيد عبد العزيز سالم ،
١ - دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الاسلامى ، بيروت ١٩٧٠م.
٢ - طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٧م .

- شاكر مصطفى ،
١ - دخول الترك الغز الى الشام ، بحث مقدم الى المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام (ثبت كامل لاعمال المؤتمر المنعقد فى الجامعة الاردنية من ٢٨ ربيع اول - ٣ ربيع الثانى ١٣٩٤هـ) ط. بيروت ١٩٧٤م.
٢ - التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، جزءان ، بيروت ١٩٧٩ - ١٩٨٠م.

- صابر محمد دياب حسين ،
سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، من اوائل القـــرن الثانى الهجرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٣م.
- صلاح الدين البحيرى ، الاعداد المعنوى للحروب الصليبية المضادة " المجلة التاريخية المصرية العدد ٢١ (١٩٧٤م) ص ١١٧ - ١٣٤ .
- صلاح الدين خودا بخش
حضارة الاسلام ، ترجمة على الخربوطلى ، بيروت ١٩٧١م .
- عبدالنعيم حسنين ، سلاجقة ايران والعراق ، القاهرة ١٩٧٠م .
- عبدالرحمن زكى ،
السلاح فى الاسلام ، القاهرة ١٩٥١م.
- عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكى ، بيروت ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١م .
- الغزى ، كامل حسين محمد مصطفى الحلبى ،
نهر الذهب فى تاريخ حلب ، جـ٣ حلب ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٦م.
- فتحى عثمان ،
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٦م .
- فريد شافعى ،
العمارة فى مصر الاسلامية ، عصر الولاة ، المجلد الاول ، القاهـــرة ١٩٧٠م .
- فشر ،
تاريخ اوربا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيـــد الباز العرينى ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٦٩م.
- فيليب حتى ،
١ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ٢ ترجمة كمال اليازجى ، بيروت ١٩٥٩م.
٢ - لبنان فى التاريخ ، ترجمة انيس فريحة ، بيروت ١٩٥٩م.

- كارل بروكلمان ،

تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين ، بيروت ١٩٧٧م.

- محمد اديب الحصيني ،

كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ، بيروت ١٣٩٩ هـ /١٩٧٩م .

- محمد جمال الدين سرور ،

١ - النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة ، القاهرة ١٩٦٤م.

٢ - سياسة الفاطميين الخارجية ، ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م.

- محمد حمدى المناوى ،

الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، القاهرة ١٩٧٠م.

- محمد كرد على ،

خطط الشام ، بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م.

- محمد ماهر حمادة ،

الوثائق السياسية الادارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة ٢٤٧ - ٦٥٦ هـ/ ٨٦١ - ١٢٥٨ م ، بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م.

- مصطفى الحيارى ، الامارة الطائية في بلاد الشام ، عمان ١٩٧٧م .

- مؤلف مجهول ، اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨م.

- نظير حسان سعداوى ،

الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، القاهرة ١٩٦١م.

- يوسف الياس الدبس ،

تاريخ سورية ، جـ٣ المجلد الخامس ، بيروت ١٩٠٠ م.

ثالثا : المراجع الاوربية

- Cahen, Claude, (1) La Syrie Du Nord al, Epoque des Croisades , Paris 1940 .

  (2) La Campagne de Mantzikert d'apris Les Sources Musulmanes, in Byzantion, IX (1934), pp. 613 - 642 .

- The Cambridge History of Islam, Vol. IA London , 1970.

- The Cambridge Medieval History , Vol. IV (The Byzantine Empire, Part I, Byzantium and its Neighbours). London, 1964.

- Dozy. (R.) Supplement Aux Dictionnaires Arabes Toms 2 Paris 1967 .

- The Encyclopaedia of Islam, (New Edition) , London 1960.

- Gibb , H. A. R. , The Damascus Chronicle of the Crusades, London 1967.

- Lane-Pool, (Stanley) Catalogue of the Collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library at Cairo, London 1897.

- Lavoix , (Henri) Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationale, Vol. III, (Egypte Et Syrie), Paris 1896.

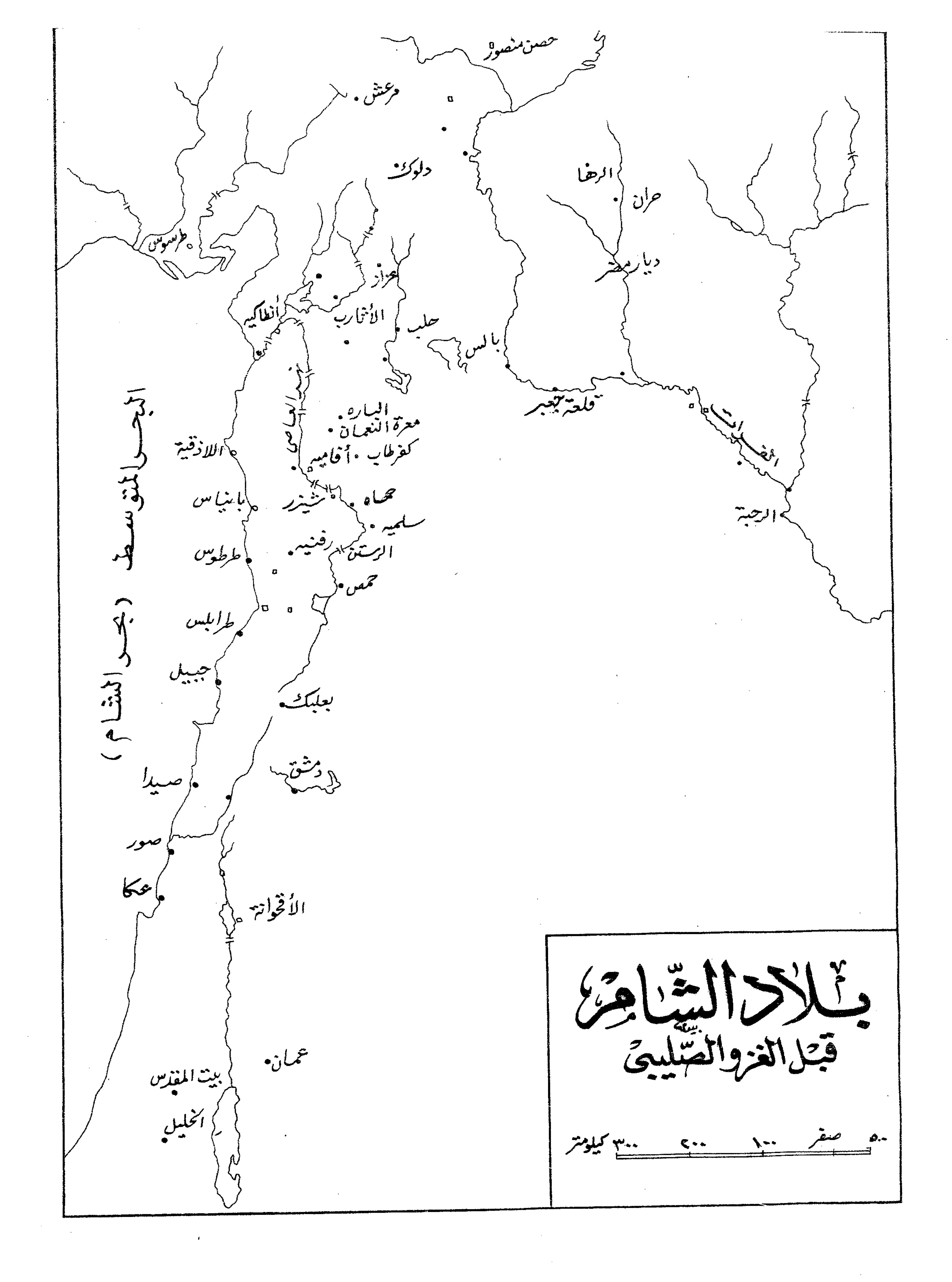
- Ostrogorsky (G.)
  History of the Byzantine State, Oxford 1960.

- Painter (Sidney)
  A History of the Middle Ages, London, 1975-1976.

- Salibi (Kamal)
  Syria under Islam , Empire on Trial 634-1097,
  Beirut 1977.

- William of Tyre
  A History of deeds done Beyond The Sea,2 Vols
  Translated and annotated by Emily Babcock and
  A.C Krey, New York 1943.

- Zakkar, (Suhayl), The Emirate of Aleppo (1004-1094),
  Beirut 1971 .


بلاد الشام
قبل الغزو الصليبي
٥٠ صفر ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ كيلومتر
حصن منصور
مرعش
دلوك
طرسوس
انطاكية
عزاز
الأثارب
حلب
بالس
قلعة جعبر
الرها
حران
ديار مضر
الفرات
الرحبة
البارة
معرة النعمان
كفرطاب
أفامية
نهر العاصي
شيزر
حماه
سلمية
رفنية
الرستن
حمص
اللاذقية
بانياس
طرطوس
طرابلس
جبيل
بعلبك
دمشق
صيدا
صور
عكا
الأقحوانة
عمان
بيت المقدس
الخليل
البحر المتوسط (بحر الشام)